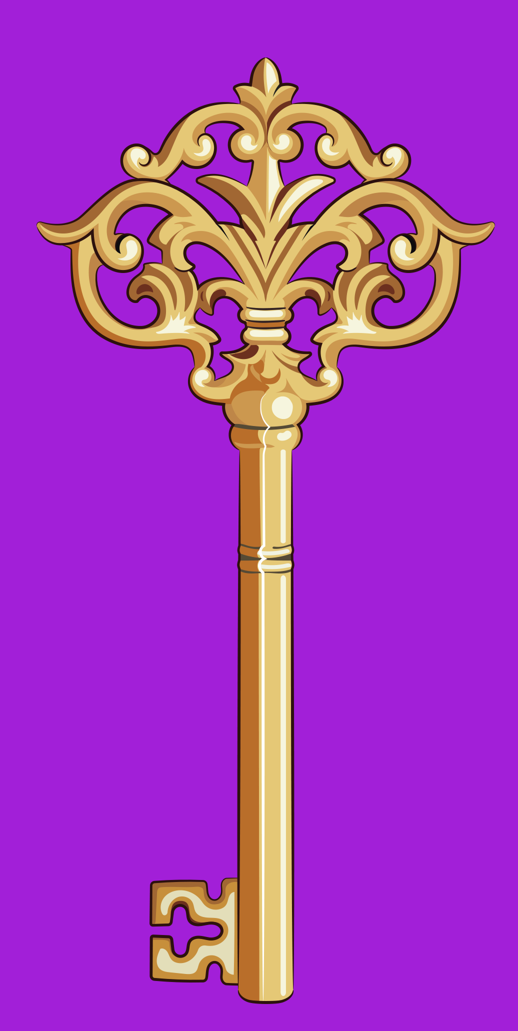
قضية ليفنوورث

آنا كاثرين جرين



ترجمة أمنية طلعت

قضية ليفنوورث

تأليف
آنا كاثرين جرين

ترجمة
أمنية طلعت

مراجعة
محمد حامد درويش



قضية ليفنوورث

آنا كاثرين جرين

The Leavenworth Case

Anna Katharine Green

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٥٣٥ ٧

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٨٧٨.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات

الجزء الأول

المعضلة

الفصل الأول

قضية ذات شأن

ليحدثَنَّ أمرٌ عظيم.

مسرحية «مكبث» [ترجمة خليل مطران]

كنت شريكًا ثانويًّا في شركة فيلي، وَكَر، وَرِيموند للمحاماة والاستشارات القانونية، لمدة تُناهز العام، حين قدِم إلى مكتبنا، في صباح أحد الأيام، وفي ظل غياب السيدَين فيلي وكَر بصفةٍ مؤقتة، شابٌّ كانت هيئته بأكملِها تدلُّ بشدةٍ على استعجاله واضطرابه، حتى إنني انتصبتُ واقفًا من جلستي لا إراديًّا عند اقترابِه، وسألتُه باندفاع:

«ما الأمر؟ أتمنى ألا تحمل معك خبرًا سيئًا.»

«جئتُ لمقابلة السيد فيلي؛ هل هو بالداخل؟»

أجبتُه: «لا، استُدعي فجأةً صباحَ اليوم إلى واشنطن؛ ولن يعود قبل الغد؛ لكن إن أردتَ أن تُطلِعَني على الأمر ...»

كرَّر ما قلته: «أُطلِعُك أنت، يا سيدي؟» ناظرًا نحوي بنظرة باردة جدًّا، لكن دون أن تحيد عيناه عني؛ ثم بعدما بدا مقتنعًا بعدَ تمعُّنه فيَّ، أردف قائلًا: «لا يوجد سببٌ يمنعني أن أُطلعك؛ فالشأن الذي جئتُ من أجله ليس سرًّا. جئت لأخبره بأن السيد ليفنوورث قد مات.»

صحتُ، متراجعًا خطوةً إلى الخلف: «السيد ليفنوورث!» كان السيد ليفنوورث موكلًا قديمًا لدى شركتنا، فضلًا عن كونه صديقًا خاصًّا للسيد فيلي.

«أجل، مات مقتولًا، أصابه شخصٌ مجهول بطلقةٍ في رأسه وهو جالسٌ إلى منضدة مكتبته.»

«أُصيب بطلقة! مات مقتولًا!» لم أُصدِّق ما سمعته.

قلتُ في ذهول: «كيف؟ ومتى؟»

«الليلةَ الماضية. على الأقل، هذا ما نظنه. لم يُعثر عليه إلا صباحَ هذا اليوم.» ثم وضَّح قائلًا: «أنا السكرتير الخاص بالسيد ليفنوورث. وأُقيم مع العائلة.» وتابع: «لقد كانت صدمةً مرعبةً لنا، ولا سيما للسيدَتَين.»

ردَّدتُ كلمته: «مرعبة! سيُصدَم السيد فيلي بهذا الخبر.»

بنبرةٍ جادة ومنخفضة تبيَّن لي فيما بعدُ أنها لازمة لا تنفكُّ عن هذا الرجل، أردف قائلًا: «إنهما بمفردهما تمامًا؛ الآنستان ليفنوورث، أقصد ابنتَي شقيقَي السيد ليفنوورث؛ وبما أن تحقيقًا سيُجرى هناك اليوم، فمن الأنسبِ لهما الاستعانةُ بشخصٍ ليحضر معهما ويكونَ قادرًا على توجيه النصح لهما. ولأن السيد فيلي كان الصديقَ المقرَّب لعمِّهما؛ أرسلَتاني إليه بطبيعة الحال؛ لكن لكونه غيرَ موجود لا أدري ماذا أفعل، أو إلى أين عليَّ أن أتَّجه.»

أجبتُه بتردُّد: «أنا شخص غريب عن السيدتين، لكن إذا سُمح لي أن أقدم أيَّ مساعدة لهما، فالاحترام الذي أُكِنُّه لعمِّهما ...»

أوقفني التعبير البادي على وجه السكرتير. دون أن يَزيغ بصرُه عن وجهي، أخذَت حدقتا عينيه في الاتساع فجأةً حتى بدتا وكأنهما ستبتلعاني بداخلهما.

ثم علَّق أخيرًا بعبوس قليلًا، دلَّ على أنه لم يرضَ بتاتًا عن المجرى الذي انعطفَت إليه الأمور: «لا أعرف.» ثم أضاف: «لعل من المستحسَن أن تفعل ذلك. يجب ألا تبقى السيدتان بمفردهما ...»

«مفهوم، سأذهب إلى هناك.» ثم جلستُ؛ لأبعثَ رسالة عاجلة إلى السيد فيلي، وبعدها، وبعد بعضِ التجهيزات الأخرى اللازمة، اصطحبتُ السكرتير إلى الشارع.

ثم قلت: «والآن أخبرني بكلِّ ما تعرفه عن هذه الواقعة المروعة.»

«كل ما أعرفه؟ كلمات قليلة ستَفي بهذا الغرض. تركتُه الليلةَ الماضية جالسًا كعادته إلى منضدة مكتبته، ثم وجدتُه صباحَ اليوم، جالسًا في المكان نفسِه، وفي الأغلب في الوضع نفسِه، لكن في رأسه ثقب رصاصة بحجم طرَفِ إصبعي الصغير.»

«ميتًا؟»

«جثة هامدة.»

صحتُ: «إنه لأمر مروِّع!» ثم قلت بعد لحظة: «هل من المحتمل أن تكون حادثةَ انتحار؟»

«لا. لم يُعثَر على المسدس الذي ارتُكبت به الواقعة.»

«لكن إذا كانت جريمة قتل، فلا بد أنَّ ثَمة دافعًا وراء ارتكابها. والسيد ليفنوورث كان رجلًا سخيًّا خيِّرًا ولا يمكن أن يكون له أعداء، ولو كان المقصود هو السرقة ...»

قاطعَني مجددًا: «لم تحدث سرقة. لم يُلاحَظ اختفاء أي شيء. ثَمة لغزٌ وراء الواقعة برُمَّتها.»

«لغز؟»

«لغزٌ غامض.»

التفَتُّ نحوه، ونظرتُ بفضولٍ إلى ذلك الرجل الذي برُفقتي والذي جاءني بالخبر. كان الرجل المقيم في المنزل الذي وقعَت فيه جريمة القتل الغامضة مثيرًا للاهتمام أيضًا. لكن وجه هذا الرجل، بملامحه المألوفة وغير المميزة على الإطلاق، لم يُقدم لي سوى أساسٍ بسيط لأغربِ تصور يمكن العملُ على أساسه، ثم بعدما أشحتُ بنظري عنه في الحال تقريبًا، سألته:

«هل السيدتان متأثرتان كثيرًا؟»

استغرق مسافةَ ستِّ خطواتٍ على الأقل قبل أن يُجيب.

«من غير الطبيعي ألا يظهر عليهما التأثر.» وسواءٌ كان ذلك بسبب تعبير وجهِه وقتها، أو لطبيعة الردِّ نفسه، شعرتُ أنني بالحديث عن هاتين السيدتين أمام السكرتير السمج والرزين الذي عمل لدى السيد ليفنوورث الراحل، كنت بطريقةٍ أو بأخرى أطأُ أرضًا محفوفةً بالمخاطر. وإذ كنتُ قد سمعت عنهما من قبلُ أنهما كانتا امرأتَين راقيتين جدًّا، فلم يسرَّني مطلقًا ما علمتُ به عن حالهما. ولهذا، تنفَّستُ الصُّعَداء عند رؤيتي عربةً متجهةً لشارع فيفث أفنيو تقترب.

قلت له: «سنُرجئ حوارنا لوقتٍ آخر. ها هي ذي العربة التي سنركبها.»

لكن، حالَما جلسنا بداخلها، سرعان ما تبيَّن لنا أن أيَّ تواصل بشأن هذا الموضوع كان مستحيلًا. لهذا، مستغلًّا الوقتَ في استحضارِ ما أعرفه عن السيد ليفنوورث، وجدتُ

أن حدود معرفتي به كانت تنحصر في مجرد حقيقة أنه تاجرٌ متقاعد ذو ثروةٍ ضخمة ومكانة اجتماعية رفيعة، ولأنه لم يكن له أبناء من صُلبه، كان قد ضم إلى كنفه في منزله ابنتَي شقيقَيه، وكانت واحدةٌ منهما قد أُعلِنَت الوريثةَ الشرعية له. ومن المؤكد أنني كنت قد سمعت السيد فيلي من قبلُ يتحدث عن غرابة أطواره، معطيًا مثالًا بواقعة كتابته وصيةً لصالح إحدى ابنتَي شقيقَيه وإقصاء الأخرى منها تمامًا؛ لكن عن عاداته في الحياة وعلاقته بالعالم بوجهٍ عام، لم أعرف شيئًا يُذْكَر.

كان يوجد حشدٌ كبير أمام المنزل عندما وصلنا إلى هناك، وبالكاد كان قد أُتيح لي وقتٌ لملاحظة أنه كان منزلًا على ناصية شارعَين وله عمقٌ غير عادي عندما تلقَّفَني الحشد وحملَني بمعنى الكلمة إلى قاعدة الدرجات الحجرية العريضة. محرِّرًا نفسي، وإن كان ببعض الصعوبة، بسبب لَجاجةِ ماسح الأحذية وصبيِّ الجزار، اللذَين ظنًّا على ما يبدو أنه بتشبُّثِهما بذراعي قد ينجحان في التسلُّل إلى داخل المنزل، أخذتُ أصعد الدرجات، وبحظٍّ جيد لا يمكن تعليله وجدتُ السكرتير إلى جانبي، ثم ضغَطتُ على الجرس في عُجالة. انفتح الباب على الفور، وظهر وجهٌ تعرَّفت عليه هو أحد رجال المباحث في مدينتنا.

صحت: «سيد جرايس!»

أجابني: «هو بشخصه. ادخل، يا سيد ريموند.» وأدخلَنا بهدوءٍ إلى المنزل، ثم أغلق الباب بابتسامةٍ صارمةٍ في وجه الحشد الذي خاب أملُه بالخارج. قال وهو يمدُّ يده ويرمق رفيقي بطرْفِ عينه: «أعتقد أنك لم تُفاجَأ برؤيتي هنا.»

أجبتُه: «لا.» ثم أتَتْني فكرةٌ لا أعرف من أين أتَتْ، أنَّ من الواجب أن أُقدِّم الشابَّ الواقف بجانبي، فأردفتُ: «أقدِّم إليك السيد ... السيد ... معذرةً، لكني لا أعرف اسمك.» قلتُ ذلك مستفسرًا من رفيقي. ثم سارعت بأن أضيف: «السكرتير الخاص بالراحل السيد ليفنوورث.»

ردَّ: «آه، السكرتير! كان محقق الوفَيَات يسأل عنك، يا سيدي.»

«محقِّق الوفيات هنا، إذن؟»

«أجل، صعدَت هيئة المُحلَّفين لتوِّها إلى الأعلى لمعاينة الجثة؛ هل ترغب في اللحاق بهم؟»

«لا، ليس هذا ضروريًّا. جئتُ فقط على أملِ أن أمدَّ يد العون إلى السيدَتَين الشابتَين. فالسيد فيلي غير موجود.»

فقال: «وظننتَ أنها فرصة ذهبية ويجب ألَّا تدعَها تُفلت منك. وهي كذلك بالضبط. لكن، ما دمت هنا الآن، وبما أن القضية تُبشر بأنها ستصبح قضيةً بارزة، فمن الواجب أن أظن أنك، بصفتك محاميًا شابًّا صاعدًا، قد ترغب في أن تُلِمَّ بكل تفاصيلها. ولكن ثِق في تقديرك الشخصي للأمور.»

بذلتُ جهدًا لأتغلبَ على شعوري بالاشمئزاز. وقلت: «سأصعد.»

«حسنًا، اتبعني إذن.»

لكن بمجرد أن وطئَت قدمي السُّلم، سمعتُ هيئة المحلَّفين تتجهُ لأسفل، لهذا، تراجعتُ مع السيد جرايس إلى فجوة بين غرفتَي الاستقبال والجلوس، ولبثتُ وقتًا قبل أن أعلِّق:

«يقول الشاب إنه من المستبعَد أن يكون الأمر حادثَ سرقة.»

أجاب مثبِّتًا عينَيه على مقبض الباب بجانبه: «فعلًا!»

«إذ لم يُلاحَظ اختفاءُ أي شيء ...»

«ولأن أقفال المنزل وُجِدَت كلُّها محكمةَ الغلق صباحَ هذا اليوم؛ صحيح.»

«لم يُخبرني بذلك.» ثم أضفتُ مرتجفًا: «في هذه الحالة لا بد أن القاتل كان موجودًا في المنزل طَوال الليل.»

ابتسم السيد جرايس ابتسامةً غامضة، موجهًا نظره صوبَ مقبض الباب.

صِحت: «يبدو الأمر مريعًا!»

قطَّب السيد جرايس جبينه ونظرُه موجَّهٌ لمقبض الباب.

وهنا اسمحوا لي أن أقول إن السيد جرايس، رجل المباحث، لم يكن شخصًا رفيعًا بعينَين ثاقبتَين كما تتوقَّعون، بلا شكٍّ، أن ترَوْا. على النقيض، كان السيد جرايس شخصًا بدينًا، واثقًا من نفسه، بعينَين لا تبدوان ثاقبتَين بتاتًا، ولا تستقرَّان حتى عليك. وإذا استقرَّت على أيِّ مكانٍ آخر، تقع دائمًا على بعض الأشياء التافهة بجواره؛ مثل مَزهريةٍ أو مِحْبرة أو كتابٍ أو زِر. على ما يبدو أن مثل هذه الأشياء كانت تستحوذ على ثقته، فيُودِع فيها خلاصةَ استنتاجاته، لكن فيما يتعلَّق بك، قد تكون في نظره كبرجِ كنيسة ترينيتي، فيما يخص كلَّ صلةٍ قد تربطك به أو بأفكاره. وفي هذه اللحظة إذن، كان السيد جرايس، كما سبق أن أشرْتُ، على صلةٍ وثيقةٍ بمقبض الباب.

كرَّرت: «يبدو الأمر مريعًا!»

حوَّل بصره إلى الزرِّ في كُمِّي.

وقال: «تعالَ، المكان خالٍ أخيرًا.»

سار في الطليعة، وصعد السلَّم، لكنه توقَّف عند بسطة السُّلم العُلوية. وقال: «سيد ريموند، لم أعتَد التحدثَ كثيرًا عن أسرار عملي، لكن في هذه القضية، كل شيءٍ يعتمد على الإمساك بطرَف الخيط الصحيح من البداية. لسنا بصددِ التعامل هنا مع مجرمٍ اعتيادي؛ فثَمة عبقريٌّ قد قام بالأمر. وأحيانًا قد يلتقطُ بالبداهة عقلٌ محدودُ الخبرة تمامًا شيئًا قد يغيبُ عن أذكى العقول المدرَّبة تدريبًا عاليًا. إنْ حدث أمرٌ كهذا، فتذكَّر أني مَن يجب أن تُخبره. لا تذهب للتحدث هنا وهناك، ولكن تعالَ إليَّ. لأن هذه ستُصبح قضية ذاتَ شأن، انتبه، قضية ذات شأن. والآن، هيا.»

«ولكن ماذا عن السيدتَين؟»

«إنهما في غرفتَيهما بالأعلى؛ في حالةِ حزن بكل تأكيد، لكنهما متماسكتان على نحوٍ مقبول مع كل ذلك، كما سمعت.» ثم تقدمَ نحو الباب، ودفعه وأشار إليَّ بالدخول.

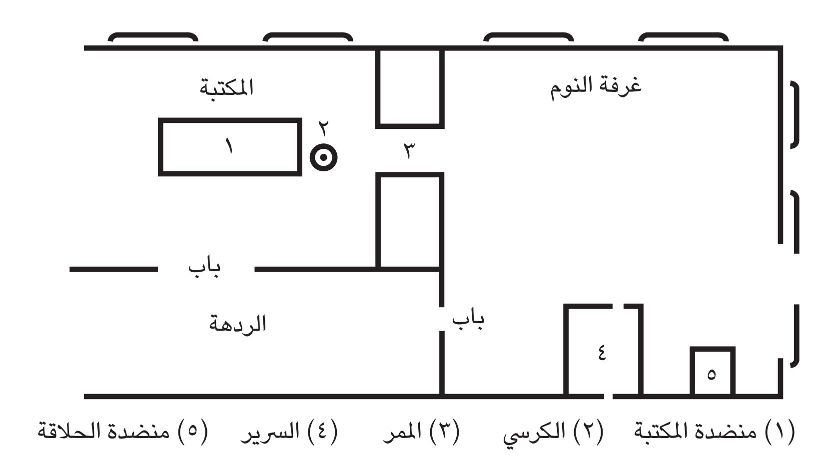
كان كل شيءٍ مظلمًا للحظةٍ، ولكن بعد قليل، بعدما ألِفَت عيناي المكانَ شيئًا فشيئًا، وجدتُ أننا كنَّا في المكتبة.

قال: «هذا هو المكان الذي عُثر عليه فيه، في هذه الغرفة وعلى هذه البقعة تحديدًا.» وبعد أن سار إلى الأمام، وضع يده على حافةِ منضدة مغطَّاة بنسيجٍ صوفي أخضر سميك كانت تَشغَل منتصف الغرفة مع الكراسيِّ الخاصة بها. ثم قال: «كما ترى بنفسك المنضدة في مواجهة الباب مباشرةً»، وعَبَر الأرضية، وتوقَّف أمام عتبة ممرٍّ ضيق، يؤدِّي إلى غرفةٍ في نهايته. وأضاف: «وبما أنه عُثِر على القتيل جالسًا على هذا الكرسي، وبالتبعية كان ظهره للممر، فلا بد أن القاتل تقدَّم عبر مدخل الباب ليُسدِّد طلقته، متوقفًا، لِنقُل، هنا تقريبًا.» ثم وضع السيد جرايس قدَمه بثباتٍ على بقعةٍ معينةٍ في السجاد، تبعد نحوَ قدمٍ عن العتبة التي ذُكِرَت آنفًا.

أسرعت بمقاطعته قائلًا: «ولكن ...»

صاح: «لا مجال لأن تقول «لكن». لقد درَسنا الموقف.» ومن دون أن يتكرَّم بأن يتوسَّع في الموضوع، استدار في الحال، وسار سريعًا أمامي، وتقدَّمَني في الممرِّ المذكور. شرح، وهو يلوح بيدَيه من جانبٍ لآخر بينما نسير باستعجالٍ عبر الممر: «خِزانة نبيذ، خِزانة ملابس، غسالة، رفُّ مناشف»، واختتم كلامه بقوله: «غرفة السيد ليفنوورث الخاصة»؛ إذ انفتحَت أمامنا تلك الغرفةُ الرحبة.

لأولئك المهتمين بتفاصيل هذه القضية، إليكم المخطط التالي:



غرفة السيد ليفنوورث الخاصة! لا بد إذن أنه هنا ترقد الجثة المروِّعة المفزعة لذلك الرجل الذي كان بالأمس حيًّا يُرزَق. تقدمتُ نحو السرير الذي كان محاطًا بستائرَ ثقيلة، ورفعت يدي لأُعيدها إلى مكانها، وعندئذٍ سحبها السيد جرايس من قبضةِ يدي، كاشفًا عن وجهٍ هادئ مطمئنٍّ على طبيعته يرقد على الوسادة، فانتفضت لا إراديًّا.

علَّق وهو يُدير الرأس إلى أحد الجانبَين بطريقة تكشف عن الجرح المروِّع في مؤخرة الجمجمة: «جاء موته مفاجئًا جدًّا لدرجة أن مَلامحه لم تتغير. فتحةٌ كهذه تنتزع الحياةَ من المرء دون سابقِ إنذار. سيُقنعك الجرَّاح بأن من المستحيل أن يكون هو مَن أصاب نفسَه بها. هذه حالةُ قتلٍ عمدي.»

تراجعتُ بسرعة مذعورًا، وحينها وقعَت عيني على بابٍ مواجِه لي مباشرةً في جانب الحائط ناحية الردهة. بدا أنه المخرَج الوحيد من الغرفة، باستثناء الممرِّ الذي كنا قد دخلنا منه، ولم أستطع أن أمنعَ نفسي من أن أتساءل عما إذا كان القاتلُ قد دخل من هذا الباب ليصلَ إلى المكتبة بطريقةٍ غير مباشرة. لكن السيد جرايس، الذي يبدو أنه لاحظَ نظرتي، مع أن نظره كان مسلَّطًا على النجفة، بادرَ بالتعليق، وكأنه يُجيب عن التساؤل الذي كان باديًا على وجهي:

«وُجد مُقفلًا من الداخل؛ ربما يكون قد أتى من ذلك الطريق وربما لا؛ لا يمكننا أن نزعمَ ذلك.»

ملاحظًا في تلك اللحظة أن السرير كان مرتبًا ولم تعبث به يدٌ، علَّقتُ: «لم يكن قد خلَد إلى النوم بعدُ؟»

«لا؛ لا بد أن هذه الفاجعةَ وقعَت منذ عشر ساعات. هذا وقتٌ كافٍ للقاتل لأن يكون قد درَس الموقف وتأهب لكلِّ الطوارئ.»

قلتُ بصوتٍ هامس: «القاتل؟ فيمن تشك؟»

نظر بفتورٍ إلى الخاتم في إصبعي.

«في الجميع، وليس في أحدٍ بعينه. ليس من اختصاصي أن أشك، بل أن أستدلَّ.» وبعد أن أسدَل الستار إلى وضعه السابق قادني إلى خارج الغرفة.

وإذ كان تحقيقُ محقق الوفَيَات جاريًا في تلك اللحظة، شعرتُ برغبةٍ جامحة في الحضور؛ ولهذا طلبتُ من السيد جرايس أن يُخبر السيدتين بأن السيد فيلي غائبٌ عن المدينة، وأنني جئتُ بدلًا منه لأقدِّم لهما أيَّ مساعدة قد تحتاجان إليها في هذا الموقف المفجِع، وتوجهت إلى غرفة الجلوس الواسعة بالأسفل، وجلستُ بين الأشخاص الكثيرين المجتمِعين هناك.

الفصل الثاني

تحقيق محقق الوفَيات

الرسم الصغير الذي يدلُّ على تفصيلٍ ما يرد من مجلدٍ ضخم.

مسرحية «ترويلوس وكريسيدا» [ترجمة د. عبد الحميد يونس]

لدقائق معدودة، جلستُ ذاهلًا من أثر فيض الضوء الذي انهال عليَّ فجأةً من النوافذ الكثيرة المُفتَّحة؛ ثم، نظرًا إلى أن العناصر المتباينةَ بشدةٍ في المشهد أمامي أخذَت في التأثير على وعيي، وجدتُ نفسي أتعرَّض لما يُشبه الإحساس ذاتَه بازدواج الشخصية الذي كنت قد تعرَّضت له منذ سنواتٍ بعد استخدام الإيثير رُغمًا عني. إذ في ذلك الوقت، بدا وكأنني أعيش حياتَين في الوقت نفسِه: في مكانَين مختلفين، وفي سياقين مختلفين من الأحداث الجارية؛ لذا الآن كنتُ مشتتًا بين سلسلتين متضاربتين من الأفكار؛ المنزل الفخم، وأثاثه الأنيق، ولمحات قليلة من حياة يوم أمس، كما تجلَّت في البيانو المفتوح، ونوتته الموسيقية المثبتة في مكانها بمروحة سيدة، وكان ذلك مستحوِذًا على انتباهي كلِّه بقدر ما استحوذ عليَّ مظهرُ حشد الأشخاص المتباينين والضجرين الذين كانوا مجتمِعين حولي.

لعل أحد أسباب هذا يكمن في البهاء غير العاديِّ للغرفة التي كنتُ فيها؛ إذ كانت العين تُصادف في كل مكان لمعانَ أقمشة الساتان، وتألُقَ البرونز، وبريقَ الرخام. لكنني رغم ذلك أميلُ أكثرَ إلى الظن في أن السبب الرئيسي كان قوةَ وبراعة التصوير في لوحةٍ بعينها كانت في مواجهتي على الحائط المقابل لي. لوحة بديعة، بديعة بما يكفي، وشاعرية بما يكفي لأن تَرْقى إلى خيال أكثرِ الرسَّامين نزوعًا إلى المثالية: كانت بسيطة أيضًا، تُصور امرأة شابة لَعوبًا شقراء الشعر، زرقاء العينين، مرتديةً زيًّا يرجع إلى عهد الإمبراطورية الأولى، واقفة في ممرٍّ خشبي، وتنظر إلى الخلف من فوق كتفها نحوَ شخصٍ يتبعها،

لكن كان بها لمسةٌ من شيء لا يُشبه تمامًا براءة القدِّيسين في زوايا عينَيها الوديعتين وشفتَيْها اللتَين تُشبهان شفاهَ الأطفال، لدرجة أنها أعطتني انطباعًا بهُويةٍ متفردة في الحياة. لولا الفستانُ المفتوح، بخصره المنسدل من أسفل الإبْطَين تقريبًا، وقصَّة الشعر القصيرة عند الجبين، وإبداع جمال رقبتها وكتفيها، لَحَسبتها صورة شخصية حقيقية لواحدة من سيدات المنزل. عندئذٍ، عجزتُ عن أن أتخلصَ من فكرة أنَّ واحدةً من ابنتَي شقيقَي السيد ليفنوورث، إن لم تكن الاثنتان، تتطلَّع إليَّ من أعلى من عينَي هذه الشقراء الجذابة بنظرتها الفاتنة ويدِها الزاجرة. أَثَّر عليَّ هذا التخيلُ بوضوح تام حتى إن أوصالي ارتعدَت قليلًا بينما كنت أنظر، وتساءلتُ إن كانت هذه المخلوقة الساحرة تدري بما وقع في هذا المنزل منذ ليلة أمسِ السعيدة؛ وإن كانت تدري، فكيف لها أن تقفَ هناك مبتسمةً ابتسامة مُغرية هكذا، حينها انتبهتُ فجأةً إلى أنني كنتُ أراقب الحشد الصغير من الرجال من حولي باندماج تام وكأنه لم يكن ثمة شيءٌ آخر في الغرفة قد جذب انتباهي؛ وأن وجه محقق الوفَيات، الذي يتمتع بذكاءٍ حاد، وانتباهٍ لكل صغيرةٍ وكبيرة، قد انطبعَ في ذهني تمامًا مثل وجه صاحبة هذه اللوحة الرائعة، أو مثل الملامح الأوضح والأكثر نبلًا لوجهِ منحوتة سايكي الإغريقية، التي تشعُّ بجمال ناعم من النافذة ذات الدلَّايات القرمزية على يمينه؛ أجل، وحتى ملامح الوجوه المتباينة لأعضاء هيئة المحلَّفين الذين تجمَّعوا أمامي، والتي كان أغلبها وجوهًا عاديةً وغير مميزة؛ والهيئات المرتجفة للخدم المضطربين الذين احتشدوا في ركنٍ بعيد؛ والمظهر الأبشع للصحفي ذي الوجه الشاحب والملابس الرثَّة، الجالس إلى منضدة صغيرة والذي كان يكتب بنهمٍ كالغول حتى أصابني بالفزع؛ كان كل ذلك في حد ذاته جزءًا لا يتجزَّأ من المشهد الاستثنائي أمامي تمامًا كبهاء الأشياء المحيطة بي التي جعلت وجود كلِّ ذلك كابوسًا من النشاز واللاواقعية.

سبق أن أشرتُ إلى محقق الوفيات. شاء الحظُّ أنه لم يكن غريبًا عليَّ. لم أكن قد رأيته من قبلُ فحسب، بل كان قد دار بيننا حديثٌ أكثرَ من مرة؛ في الحقيقة، كنتُ أعرفه. كان اسمه هاموند، وكان معروفًا عمومًا بأنه رجل ذو ألمعيَّة غير عادية، ولديه قدرةٌ فائقة على إجراء تحقيق جيد في القضايا الصعبة، بالمهارة والبراعة اللازمتَين. وبهذا القدرِ من الاهتمام الذي كنت عليه، أو بالأحرى كما كان محتملًا أن أكون عليه، بهذا التحقيق تحديدًا، لم أملك إلا أن أُهنئ نفسي على حظِّنا السعيد المتمثلِ في أن يكون معنا محققُ وفَيات بهذا الذكاء.

أما عن أعضاء هيئة المحلَّفين التابعةِ له، فقد كانوا، كما ألفتُهم، يُشبهون كثيرًا جميعَ الهيئات الأخرى التي تحمل طابَعًا مماثلًا. وإذ كان الاختيار يقع عليهم عشوائيًّا من الشوارع، لكن من شوارع مثل فيفث وسيكس أفنيو، فقد كان لهم إلى حدٍّ كبير نفس مظهر الذكاء المتوسط ودماثة الخلق التي قد تُرى فيمن يُصادف أن يكونوا من ركاب إحدى العربات في مدينتنا. وبالفعل، لاحظت أن واحدًا فقط من بينهم جميعًا بدا عليه الاهتمامُ بهذا التحري باعتباره تحرِّيًا حقيقيًّا؛ أما الباقون فبدا عليهم أنهم حُمِلوا على تأدية واجبهم بدافعِ غريزتَي الرجل العادي المتمثلتَين في الشفقة والاستياء.

كان الطبيبماينرد، ذلك الجراح المعروف من شارع ثيرتي سيكس، أول مَن استُدعي من الشهود. اختصَّت شهادته بطبيعة الجُرح الذي وُجِد في رأس القتيل. ونظرًا إلى أنه من المحتمل أن تثبت أهمية بعض الحقائق التي عرَضها في روايتنا، سأشرع في إعطاء ملخصٍ عما قاله.

استهلَّ ملاحظاته ببعض التفاصيل عنه، والطريقة التي استدعاه بها أحدُ الخدم إلى المنزل، وتابع حديثه متطرقًا إلى الإفادة بأنه، عند وصوله، وجد المتوفَّ راقدًا على سريرٍ في الغرفة الأمامية بالطابق الثاني، وكان الدمُ متجلطًا حول الجُرح الناتجِ عن رصاصة مسدس في مؤخرة الرأس؛ بعدما كان قد حُمِل إلى هناك، كما كان جليًّا، من الغرفة المجاورة بعد وفاته بساعات. وكان ذلك هو الجرحَ الوحيد الذي اكتُشف في الجثة، وبعدما فحصه، عثر على الرصاصة واستخرجها وسلَّمها عندئذٍ إلى هيئة المحلَّفين. كانت مستقرةً في الدماغ، بعد أن اخترقت قاعدة الجمجمة، ومرت بميلٍ إلى الأعلى، وأصابت في الحال النخاعَ المستطيل، متسببةً في الموت الفوري. واعتبر أن اختراق الرصاصة للدماغ بهذه الطريقة الغريبة أمرٌ جدير بالملاحظة؛ لأنها لن تؤديَ إلى موتٍ فوري فحسب، لكن أيضًا إلى موتٍ دون أي حركة للجسد على الإطلاق. علاوةً على ذلك، من منطلق موضع ثقب الرصاصة والاتجاه الذي سلَكَته، كان من المستحيل بجلاء أن يكون الرجل هو مَن أطلقَ الرصاصة على نفسه، حتى وإن لم تكن حالةُ الشعر المحيط بالإصابة تُثبت تمامًا حقيقة أن الرصاصة أُطلِقَت من نقطةٍ تبعد مسافة ثلاث أو أربع أقدام. علاوة على ذلك، بالأخذ في الاعتبار الزاوية التي اخترقَت بها الرصاصةُ الجمجمة، كان واضحًا أنه لا بد أن المتوفَّ لم يكن جالسًا فحسبُ في تلك اللحظة، وهي حقيقةٌ لا يمكن أن يكون ثَمة خلافٌ عليها، بل لا بد أنه كان مندمجًا في عملٍ ما استلزم أن يُميل رأسَه إلى الأمام. لأنه حتى يمكنَ لرصاصةٍ أن تخترق رأس رجلٍ جالس في وضع معتدلٍ بالزاوية الواضحة هنا، التي

قياسها ٤٥ درجة، لن يكون من الضروريِّ أن يُحمل المسدس في مستوًى شديد الانخفاضِ فحسب، وإنما في وضعية غريبة؛ ولكن إذا كان الرأسُ منحنيًا جدًّا إلى الأمام، كما في حالة الكتابة، فإن رجلًا يحمل مسدسًا ومرفقه مثنيٌّ على نحوٍ طبيعي، يمكنه بكل سهولة أن يطلق رصاصة صوبَ الدماغ بالزاوية المُلاحَظة.

وبسؤاله عن الحالة الصحية لجثمان السيد ليفنوورث، أجاب بأن المتوفَّى بدا أنه كان في حالة جيدة وقتَ وفاته، ولكن لأنه لم يكن طبيبَه المعالج، لم يكن بوُسعه أن يتكلَّم بطريقةٍ قاطعةٍ عن هذه النقطة دون المزيد من الفحص؛ وردًّا على ملاحظة أحد أعضاء هيئة المحلَّفين، ذكر أنه لم يرَ أي مسدسٍ أو سلاحٍ مُلقًى على الأرض، أو في الواقع في أي موضعٍ آخر في أيٍّ من الغرفتَين السالف ذكرهما.

يُمكنني أن أضيفَ أيضًا ما أدلى به بعد ذلك، وهو أنه استنادًا إلى موضع المنضدة والكرسي والباب وراءه، فإنَّ القاتل، حتى يستوفيَ الشروط التي فرضها الموقف، لا بد أن يكون قد وقف على، أو فقط في نطاق، عتبة الممرِّ المؤدي إلى الغرفة التي في آخره. أيضًا، بما أن الرصاصة كانت صغيرَة الحجم، وأُطلِقَت من ماسورة مُحَزَّزة حلزونيًّا، وهذا من ثَمَّ يجعلها عُرضةً للانحراف أثناء اختراقها للعظام والجلد، بدا له واضحًا أن الضحيةَ لم يُحاول حتى أن يرفعَ رأسه أو يُديرَه عندما كان قاتلُه يتقدَّم صوبه؛ وأن الاستنتاج المفزعَ هو أنَّ وقع الأقدام كان معهودًا، وأن وجود صاحب وقعِ الأقدام في غرفته إما كان معروفًا أو متوقَّعًا.

بعدما انتهَتْ شهادة الطبيب، التقط محققُ الوفَيات الرصاصةَ التي كانت موضوعةً على المنضدة أمامه، وللحظةٍ أخذَ يُقلِّبها بين أصابعه متمعِّنًا فيها؛ ثم أخرج قلم رصاص من جيبه، ورسم في عجالةٍ خطًّا أو خطَّين على ورقة، واستدعى ضابطًا إلى جانبه، وأوعزَ إليه ببعض التعليمات بنبرةِ صوتٍ منخفضة. أمسك الضابط بالورقة، ونظر فيها للحظة بتفهُّم، ثم التقطَ قبعته وغادر الغرفة. بعد بُرهةٍ، أصبح على مقربةٍ من الباب الأمامي، ثم دلَّت صيحةُ تحيةٍ صادرة من حشدٍ من أطفال الشوارع بالخارج عن ظهوره في الشارع. ومن المكان الذي كنتُ جالسًا فيه، كان بوُسعي أن أرى المشهد الكامل لناصية الشارع. نظرت إلى الخارج، ورأيت الضابط واقفًا هناك، يشير إلى عربة أجرة، ثم ركب فيها مسرعًا، واختفى في اتجاه شارع برودواي.

الفصل الثالث

الحقائق والاستنتاجات

هنا أتى شيطان الدماء بأشنع ما يقدر عليه. هنا استُبيح أحرم الدماء،
وحُطِّمت أبواب الهيكل المقدس، فأخرجت منه حياة السيد.

مسرحية «مكبث» [ترجمة خليل مطران]

عندما حولتُ انتباهي إلى الغرفة التي كنت فيها، وجدت محققَ الوفيَات يُراجع مذكرةً عبر نظارة ذهبية جذابة للغاية.

سأل: «هل رئيس الخدم هنا؟»

على الفور حدث اضطرابٌ وسطَ مجموعة الخدم الواقفين في الزاوية، وخرج من بينهم رجلٌ أيرلندي ذو هيئة تنمُّ عن ذكائه، وفي نفس الوقت إعجابه بنفسه نوعًا ما، ثم وقف ماثلًا أمام أعضاء هيئة المحلَّفين. قلت في نفسي بعد أن وقعَت عينيَّ على شاربه الدقيق، وعينيه الثابتتَين، وتعبيرِ الإصغاء الذي كان وقورًا، مع أنه لم يكن بأيِّ حالٍ من الأحوال متواضعًا: «أها، ها هو خادمٌ نموذجي، سيثبت على الأرجح أنه شاهدٌ نموذجي.» ولم أكن مخطئًا في ذلك؛ إذ كان توماس، رئيس الخدم، بلا نظيرٍ من كل النواحي، وكان يُدرك ذلك.

من دونِ ترددٍ بدأ محقق الوفَيات في استجواب رئيس الخدم، الذي بدا أنه ترك لديه، مثلما ترك لدى جميع الحاضرين في الغرفة، انطباعًا إيجابيًّا مماثلًا.

«هل اسمك توماس دوجرتي، كما قيل لي؟»

«أجل، يا سيدي.»

«حسنًا، يا توماس، منذ متى وأنت تعمل في وظيفتك الحاليَّة؟»

«لا بد أنني أمضيتُ سنتين حتى الآن، يا سيدي.»

«هل أنت أولُ شخص اكتشف جثة السيد ليفنوورث؟»

«أجل، يا سيدي، أنا والسيد هارويل.»

«ومَن هو السيد هارويل؟»

«السيد هارويل هو السكرتير الخاص للسيد ليفنوورث، يا سيدي؛ الشخص الذي كان يتولَّى أمر مكاتَباته.»

«جيد جدًّا. والآن، أيَّ وقت من النهار أو الليل اكتشفتَ هذا الأمر؟»

«مبكرًا، يا سيدي، في الصباح الباكر لهذا اليوم، حوالي الساعة الثامنة.»

«وأين كان ذلك؟»

«في المكتبة، يا سيدي، الملحقة بغرفة نوم السيد ليفنوورث. دخلنا عنوةً؛ لأننا شعرنا بالقلق لتغيُّبه عن الإفطار.»

«دخلتُما عنوة؛ هل هذا يعني إذن أن الباب كان موصدًا؟»

«أجل، يا سيدي.»

«مِن الداخل؟»

«لا يُمكنني أن أخمن ذلك؛ فلم يكن بالباب مِفتاح.»

«أين كان السيد ليفنوورث راقدًا عندما عثرتما عليه في البداية؟»

«لم يكن راقدًا، يا سيدي. كان جالسًا إلى المنضدة الكبيرة في منتصفِ غرفته، وكان ظهره في مواجهة باب غرفة النوم، وكان محنيًّا إلى الأمام، ورأسه على يديه.»

«ما الملابس التي كان يرتديها؟»

«كان في ملابس العشاء، يا سيدي، تمامًا مثلما كان حين غادر المائدةَ الليلة الماضية.»

«هل كانت توجد في الغرفة أيُّ أدلة على وقوع صراع؟»

«لا، يا سيدي.»

«هل كان يوجد أي مسدس على الأرض أو المنضدة؟»

«لا، يا سيدي.»

«هل يوجد أي سبب يدفعك إلى أن تظن أنه كان ثمة محاولةُ سرقة؟»

«لا، يا سيدي. كانت ساعة السيد ليفنوورث ومحفظته في جيوبه.»

عندما طُلب منه أن يذكر مَن كانوا في المنزل وقت اكتشاف الواقعة، أجاب: «السيدتان الشابتان: الآنسة ماري ليفنوورث والآنسة إلينور، والسيد هارويل، وكيت الطاهية، ومولي الخادمة المسئولة عن الطابق العلوي، وأنا.»

«هل هم الأفراد المعتاد وجودهم في المنزل؟»

«أجل، يا سيدي.»

«والآن، أخبِرني مَن مهمته غلقُ باب المنزل ليلًا؟»

«أنا، سيدي.»

«هل أوصدتَه كالمعتاد الليلة الماضية؟»

«فعلت، يا سيدي.»

«مَن فتَحه هذا الصباح؟»

«أنا، سيدي.»

«كيف وجدتَه؟»

«مثلما تركتُه.»

«عجبًا، ألم تكن توجد نافذة أو حتى باب غير موصد؟»

«لا، يا سيدي.»

في تلك اللحظة كان يمكنك أن تسمع رنينَ إبرةٍ إن سقطَت على الأرض. فبديهية أن القاتل، أيًّا كان، لم يكن قد غادر المنزل، على الأقل حتى جرى فتحه في الصباح، بدَت أنها كانت نقطةً شغَلَت تفكيرنا جميعًا. ولانتباهي إلى هذه الحقيقة مسبقًا، لم أستطع أن أمنعَ نفسي من الشعور بقدرٍ من الانفعال لكون هذا الأمرِ قد عُرِض أمامي؛ وتحركتُ حتى أجعل وجه رئيس الخدم في نطاق رؤيتي، وأخذتُ أتفحَّصه بحثًا عن دلالة خفية على أنه تكلم بتلك الطريقة القاطعة حتى يُخفي إخفاقًا ما في أداء واجبه. لكنَّ الصدق الباديَ على وجهه كان راسخًا، واحتمل نظرة التركيز من جميع الحاضرين في الغرفة بجمود كالصخر.

وبسؤاله الآن عن المرة الأخيرة التي رأى فيها السيد ليفنوورث على قيد الحياة، أجاب: «في عشاء الليلة الماضية.»

«لكن، هل رآه بعضكم بعدها؟»

«أجل، سيدي، السيد هارويل يقول إنه رآه في وقتٍ متأخر في الساعة العاشرة والنصف مساءً.»

«في أي غرفة تُقيم في هذا المنزل؟»

«في غرفة صغيرة في القبو.»

«وأين ينام باقي أفراد المنزل الآخرين؟»

«أغلبهم في الطابق الثالث، يا سيدي؛ السيدتان في الغرف الكبيرة الخلفية، والسيد هارويل في غرفة صغيرة في الواجهة. الخادمتان تنامان في الأعلى.»

«لم يكن يوجد أحد في الطابق نفسه مع السيد ليفنوورث؟»

«لا، يا سيدي.»

«في أي ساعة أويت إلى فراشك؟»

«حسنًا، أظن في نحو الساعة الحادية عشرة مساءً.»

«هل تتذكر أنك سمعت أيَّ ضوضاء في المنزل سواءٌ قبل ذلك الوقت أو بعده؟»

«لا، يا سيدي.»

«هذا يعني أن ما اكتشفتَه صباح هذا اليوم كان مفاجأةً لك؟»

«أجل، يا سيدي.»

بعدما طُلِب منه بعد ذلك أن يُقدم سردًا أكثرَ تفصيلًا لاكتشاف تلك الواقعة، استطرد قائلًا إنه لم يكن ثَمة شكٌّ ساورَ جميع من في المنزل في أن الأمور لم تكن على ما يُرام إلا بعد أن تغيَّب السيد ليفنوورث عن الحضور إلى مائدة الإفطار عندما دق الجرس الخاص بذلك. حتى حينئذٍ انتظروا بعضَ الوقت قبل أن يهمُّوا بفعل أي شيء، ولكن بعد أن أخذت الدقيقة تلو الأخرى تمر دون أن يأتي، ازداد قلق الآنسة إلينور، وأخيرًا غادرت الغرفة قائلةً إنها ستذهب وترى ما الأمر، لكنها عادت بعد مدة وجيزة وعليها أماراتُ ذعرٍ شديد، قائلةً إنها قد طرقت باب غرفة عمها، ونادت عليه حتى، لكن لم يأتها ردٌّ منه. عندئذٍ، صعد هو والسيد هارويل معًا لأعلى وحاولا فتح البابَين، وإذ وجدا أنهما موصَدان، فتحا باب المكتبة عنوةً، وعندئذٍ اقتربا من السيد ليفنوورث، كما قال قبل ذلك بالفعل، وكان جالسًا إلى المنضدة ميتًا.

«والسيدتان؟»

«آه، لحقَتا بنا إلى الأعلى ودخلتا الغرفةَ وسقطت الآنسة إلينور مغشيًّا عليها.»

«والأخرى، الآنسة ماري، أظن أن هذا اسمها؟»

«لا أتذكر أي شيءٍ عنها؛ كنت منشغلًا بإحضار الماء لإفاقة الآنسة إلينور، فلم أُلاحظ.»

«حسنًا، كم مر من الوقت قبل حمل السيد ليفنوورث إلى الغرفة المجاورة؟»

«على الفور تقريبًا، ما إن استردَّت الآنسة إلينور وعيها، وكان ذلك بمجرد أن لمس الماء شفتَيْها.»

«مَن الذي اقترح نقل الجثة من موضعها؟»

«هي، يا سيدي. ما إن وقفَت على قدميها، حتى اتجهَت ناحيتها وألقت نظرةً عليها فارتعدت أوصالُها، ثم نادتني أنا والسيد هارويل، وأمرتنا أن نحملها إلى الداخل وأن نضعَها على السرير وأن نذهب لإحضار الطبيب، وهو ما فعلناه.»

«انتظِر لحظة؛ هل ذهبَت معكما عند دخولكما إلى الغرفة الأخرى؟»

«لا، يا سيدي.»

«ماذا كانت تفعل؟»

«بقيَت بجوار منضدة المكتبة.»

«وماذا كانت تفعل؟»

«لم أستطع أن أرى؛ كان ظهرها مقابلًا لي.»

«ما المدة التي بقيَت فيها هناك؟»

«كانت قد غادرَت عند رجوعنا.»

«أتقصد تركت المنضدة؟»

«تركت الغرفة.»

«همم! متى رأيتها مرةً أخرى؟»

«بعد دقيقة. أتت إلى باب المكتبة بينما كنا نخرج.»

«هل كانت تحمل أي شيء في يدها؟»

«لم تكن تحمل شيئًا حسب ما رأيت.»

«هل لاحظتَ اختفاء أي شيء من فوق المنضدة؟»

«لم أفكر مطلقًا في التحقُّق من ذلك، يا سيدي. لم تُمثل المنضدة أي أهمية لي. لم أكن أفكر حينها إلا في الذَّهاب إلى الطبيب، مع أني كنت أعرف أن ذلك بلا فائدة.»

«مَن تركتَه في الغرفة عندما خرجت؟»

«الطاهية، يا سيدي، ومولي يا سيدي، والآنسة إلينور.»

«والآنسة ماري؟»

«لا، سيدي.»

«حسنًا. هل لدى هيئة المحلَّفين أيُّ أسئلة تُوجهها إلى هذا الرجل؟»

صدَرَت حركةٌ على الفور من تلك المجموعة الجادة.

«أودُّ أن أطرح بضعة أسئلة»، صاح بذلك رجلٌ نحيل الوجه، يبدو عليه الانفعال قليلًا، كنت قد لاحظت أنه كان متململًا في جلسته بطريقة متوترة تدلُّ بشدة على رغبةٍ عارمة، لكنها كانت مكبوتة حتى الآن، في مقاطعة سَير الاستجواب.

أجاب توماس: «على الرحب، يا سيدي.»

لكن حالما توقف المحلَّف ليأخذ نفَسًا عميقًا، انتهز الفرصة دون ترددٍ رجلٌ ضخمٌ ومختال بلا شك، كان يجلس عن يمينه لكي يسأل بصوتٍ جَهْوري يرغب صاحبُه في لفت الانتباه:

«تقول إنك تعمل هنا في خدمة الأسرة منذ عامين. هل كانت من الأُسَر التي يمكن أن تطلق عليها أسرة مترابطة؟»

«مترابطة؟»

«متوادَّة، كما تعرف، تربط بينهم علاقة جيدة.» ورفع المحلَّف سلسلة ساعته الطويلة والثقيلة التي كانت معلقة عبر صدريته وكأنه هو وهي من حقهما أن يتلقَّيان إجابة مناسبة ومدروسة.

نظر رئيس الخدم نظرة حوله تنم عن عدم ارتياحه؛ إذ ربما أثاره أسلوبُ ذلك الرجل. ثم قال: «أجل، سيدي، حسب حدود معرفتي.»

«هل كانت السيدتان الشابتان متعلقتَين بعمِّهما؟»

«أجل، سيدي.»

«وإحداهما بالأخرى؟»

«حسنًا، أجل، أظن ذلك؛ لستُ أهلًا لأن أقول ذلك.»

«تظن ذلك! هل لديك أي سبب يدفعك إلى أن تظن خلاف ذلك؟» ولفَّ سلسلة ساعته حول أصابعه وكأنه يريد أن يُضاعف انتباهها مثلما أراد أن يضاعف انتباهه.

تردَّد توماس لحظةً. ولكن ما إن أوشك المُحاور على إعادة سؤاله ثانيةً، شدَّ جسده لأعلى بأسلوب متكلِّفٍ ورسمي نوعًا ما وأجاب:

«حسنًا، يا سيدي، لا.»

بدا أن المحلف، مع كل غطرسته، قدَّر تحفُّظ الخادم الذي امتنع عن إبداء رأيه في مثل هذا الأمر، ثم تراجع إلى الخلف راضيًا عن نفسه، وأشار بتلويحة من يده إلى أنه لم يعد لديه المزيدُ مما يرغب في قوله.

في الحال تقدم الرجل المنفعل، الذي أشرنا إليه سابقًا، إلى حافة الكرسيِّ الخاص به وسأل، ولكن دون تردد هذه المرة: «في أيِّ ساعة فتحتَ المنزل صباح هذا اليوم؟»

«في نحو الساعة السادسة، يا سيدي.»

«وهل يمكن لأي أحد أن يُغادر المنزل بعد ذلك الوقت دون عِلمك؟»

نظر توماس نظرة خاطفة بغير ارتياح إلى زملائه من الخدم، لكنه أجاب فورًا كما لو كانت إجابتُه من دون تحفظ:

«لا أظن أنه يمكن لأي أحد أن يُغادر هذا المنزل بعد الساعة السادسة صباحًا دون علمي أو علمِ الطاهية بذلك. لن يقفز أحدٌ من نوافذ الطابق الثاني في وضَح النهار، وأما عن المغادرة من أبواب المنزل، فالباب الأمامي يُغْلَق بصوتٍ عنيف يسمعه كلُّ من في المنزل من أعلاه إلى أسفله، وأما عن الباب الخلفي، فلا يمكن لأحدٍ يخرجُ منه أن ينفذَ إلى باحة المنزل دون أن يمرَّ بنافذة المطبخ، ولا يمكن لأحدٍ أن يمر بنافذة مطبخنا دون أن تلمحَه الطاهية، ويمكنني ببساطة أن أُقْسِم على ذلك.» ثم رمق الشخصية المعنية ذات الوجه المستدير المحمرِّ بنظرةٍ تنطوي من ناحيةٍ على استفسار ومن الناحية الأخرى على مكر، وتُشير بشدة إلى مشاجرات حديثة وغير منسية ربما حول غلَّاية القهوة بالمطبخ وحامل أواني البهارات.

هذه الإجابة، التي كانت ذاتَ طبيعة محسوبة لتعميق التوجُّسات التي كانت قد استقرَّت بالفعل في أذهان الحاضرين، أحدثت تأثيرًا ملموسًا. فالمنزل كان موصدًا، ولم يُلاحَظ خروجُ أحدٍ منه! بات واضحًا إذن أننا لم نكن بحاجةٍ إلى البحث عن القاتل بعيدًا.

متململًا على كرسيِّه بحماس متزايد، إن صحَّ لي قولُ ذلك، نظر المحلَّف نظرةً حادة إلى مَن حوله. لكن، إذ لمس الاهتمامَ المتجدد في وجوه من حوله، تراجع عن أن يُضعف تأثيرَ الإقرار الأخير بطرح أي سؤالٍ آخر. لذلك، تراجع في جلسته مستقرًّا بارتياح، وترك المجال مفتوحًا لأي محلَّفٍ آخر قد يختار أن يُتابع الاستجواب. لكن لم يَبدُ أن أحدًا كان مستعدًّا لفعل هذا، وأبدى توماس بدوره نفادَ صبره، وأخيرًا، ناظرًا بتوقيرٍ فيمن حوله، سأل:

«هل يرغب أي أحد آخرَ من السادة الموقَّرين في توجيه أي سؤالٍ لي؟»

لم يُجب أحد، فألقى نظرة ارتياحٍ سريعةً ناحية الخدم الذين كانوا واقفين إلى جانبه، وبينما اندهش الجميع من التغيُّر المفاجئ الذي طرأ على ملامح وجهِه، انسحب بنشاط شغوف ورضًا جليٍّ لم أستطع أن أفسرهما في هذه اللحظة.

لكن إذ تبين أن الشاهد التاليَ لم يكن سوى الشخص الذي تعرفتُ عليه هذا الصباح، السيد هارويل، سرعان ما نسيت أمر توماس، وكذلك الشكوك التي كانت قد أثارتها حركتُه الأخيرة، في سياق الاهتمام الذي من المرجح أن يُشكله استجوابُ شخص بأهمية مثل سكرتير السيد ليفنوورث وذراعه اليمنى.

متقدمًا بمظهر هادئ وبهيئة شخصٍ أدرك أن الحياة والموت نفسهما قد يكونان رهنَ كلماته، مَثَل السيد هارويل أمام هيئة المحلَّفين بدرجةٍ من الوقار لم تكن خلَّابة في ذاتها فحسب، بل بدَت لي، أنا الذي لم أكن قد أُعجِبت كثيرًا به في لقائنا الأول، جديرةً بالإعجاب ومفاجئة. مع افتقاره، كما سبق أن ذكرت، إلى أيِّ سِمة مميزة في وجهه وإلى أي هيئة مقبولة أو خلافِها — كونه مِمَّن قد تُستحضر هيئته باعتباره شخصًا ذا طابَع سلبي، إذ كان يتَّضح في وجهه الشاحب، وملامحه العادية، وشعره الداكن والناعم، وشاربه البسيط، أن تلك الصفات تخصُّ شريحة تقليديَّة ومألوفة من الناس — بدَت واضحةً للعيان مع ذلك، في هذا الظرف على الأقل، درجةٌ من الرصانة في وقفتِه نجحَت كثيرًا في أن تُعوض افتقاره إلى القدرة على ترك انطباعٍ عميق بملامح وجهه وتعبيراته. وحتى ذلك لم يكن لافتًا للانتباه بأي حال من الأحوال. قطعًا، لم يكن يوجد أي شيء لافتٍ للانتباه في هذا الرجل يجعله مختلفًا عن آلافٍ من الأشخاص الآخرين الذين تُصادفهم يوميًّا في برودواي، إلا إذا استثنيت نظرة التركيز والرصانة التي طغَت على شخصه؛ رصانة ربما لم يكن لها أن تكون ملحوظةً في ذلك الوقت، لو لم تكن على ما يبدو التعبيرَ النمطيَّ لشخصٍ كان قد رأى خلال حياته القصيرة ما يُثير الأسى أكثرَ مما يبعث على الفرح، وسعادةً أقلَّ من الهم والقلق.

وَجَّه محقق الوفيات، الذي بدَت له هيئتُه أمرًا بلا أهمية بطريقةٍ أو بأخرى، حديثَه إليه على الفور ومن دون تحفُّظ:

«ما اسمك؟»

«جيمس ترومان هارويل.»

«ما وظيفتك؟»

«شغلتُ منصب السكرتير والكاتب الخاص للسيد ليفنوورث خلال الثمانية أشهر الماضية.»

«أنت آخر شخص رأى السيد ليفنوورث على قيد الحياة، أليس كذلك؟»

رفع الشاب رأسه بلفتةٍ أبيَّة غيَّرت تقريبًا من هيئته.

«لا بالتأكيد؛ لأنني لستُ الشخصَ الذي قتله.»

هذه الإجابة، التي أضفت شيئًا أشبهَ بالاستهانة أو الهزل في تحقيقٍ بدأنا جميعًا نُدرك مدى جدِّيته، أحدثَت على الفور شعورًا بالنفور تجاه الرجل الذي، في مواجهة الحقائق التي كُشفت والتي كانت ستُكْشَف، لم يكن يمكن أن يستفيدَ منه إلا قليلًا جدًّا.

عمَّت الغرفةَ همهمةُ استنكار، وبتلك الملاحظة، خسر جيمس هارويل كلَّ ما كان قد ظفر به سابقًا من وقفته الرصينة والنظرة الحازمة في عينَيه. بدا أنه هو نفسُه أدرك هذا؛ إذ رفع رأسه أعلى مما كان، مع أن هيئته العامة ظلَّت بلا تغيير.

صاح محققُ الوفيات، مغتاظًا بوضوحٍ مِن توصُّل الشاب إلى مثل هذا الاستنتاج من كلماته: «أقصد، هل أنت آخر مَن رآه قبل أن يغتاله شخصٌ مجهول؟»

عقد السكرتير ذراعيه، إما من أجل أن يُخفي الرجفةَ التي تملَّكته، أو من أجل أن يحظى من هذا التصرف البسيط بلحظةِ تفكير أخرى؛ إذ لم يكن بوسعي أن أُقرر عندئذٍ. أجاب أخيرًا: «سيدي، ليس بوسعي أن أُجيب عن هذا السؤال بالتأكيد أو بالنفي. من المحتمل أن أكون آخِرَ مَن رآه في حالةٍ صحية ومعنوية جيدة، ولكن في منزلٍ بهذه الضخامة لا يمكنني أن أكون واثقًا من حقيقة بسيطةٍ كتلك.» ثم، بعدما لاحظ نظرةَ الاستياء التي علَت وجوهَ مَن حوله، أضاف ببطء: «طبيعة عملي تفرض عليَّ أن أراه في وقتٍ متأخر.»

«طبيعة عملك؟ آه، بصفتك سكرتيرَه، على ما أظن؟»

هز رأسه إيجابًا بشدة.

أردف محققُ الوفَيات: «سيد هارويل، إن منصب السكرتير الخاص في هذه المدينة ليس وظيفةً معتادة. هل لك أن تشرح لنا طبيعةَ المهام التي كنتَ مكلَّفًا بها؛ بإيجاز، في أي شيءٍ كان يستعين السيد ليفنوورث بمساعد؟ وكيف عيَّنك في هذا المنصب؟»

«بالتأكيد. كان السيد ليفنوورث، كما لعلَّك تعرف، رجلًا ذا ثروةٍ ضخمة. كان على تواصلٍ مع مختلف المجتمعات الراقية، والنوادي، والمؤسسات، وخلافه، هذا بالإضافة إلى شهرته بين القاصي والداني بأنه رجلٌ مِعطاء، فكان معتادًا في كل يومٍ من حياته على تلقِّي العديد من الخطابات، والالتماسات، وغير ذلك، وكان من اختصاصي أن أفتحها وأردَّ عليها، أما مراسلاته الخاصة فكانت دائمًا تحمل علامةً تُميِّزها عن باقي المراسلات الأخرى. ولكن لم يكن هذا كلَّ ما كان متوقعًا مني فِعْله. فنظرًا إلى انخراطه في بداية حياته في تجارة الشاي، كان قد ذهب في أكثرَ من رحلةٍ إلى الصين، وتبعًا لذلك كان يُولي اهتمامًا كبيرًا بمسألة التواصل بين تلك الدولة وبلدنا. وظنًّا منه أنه خلال زياراته المتعددة إلى هناك كان قد تعلَّم الكثير الذي، إن عرَفه الشعب الأمريكي، قد يساعد في تعزيز فَهْمنا لتلك الأمة وما يُميزها من خصائص، وأفضل طريقةٍ للتعامل معها، كان منشغلًا بعضَ الوقت بتأليف كتابٍ عن هذا الموضوع، والذي كان جزءًا من عملي طيلةَ الثمانية الأشهُر

الأخيرة مساعدته في وضعه، بكتابة ما كان يُمليه عليَّ طَوال ثلاث ساعاتٍ من اليوم، وعادةً ما كانت الساعةُ الأخيرة تُقتطَع من فترة المساء، لِنَقُل من الساعة التاسعة والنصف حتى الساعة العاشرة والنصف؛ إذ كان السيد ليفنوورث رجلًا منظَّمًا ومعتادًا على ترتيب شئون حياته وحياة المحيطين به بدقةٍ كادت أن تكون متناهيةً.»

«تقول إنك كنتَ معتادًا على كتابة ما يُمليه عليك في المساء؟ هل فعلتَ هذا كالمعتاد في الليلة الماضية؟»

«أجل، فعلتُ يا سيدي.»

«ما الذي يمكنك أن تُخبرنا به عن سلوكه وهيئته حينها؟ هل كانا بأي طريقة على غير المعتاد؟»

ارتسم عبوسٌ عابر على جبين السكرتير.

«ما دام لم يكن لديه على الأرجح حَدسٌ بقدَره المشئوم، فلماذا يُفترَض أن يكون قد طرأ على سلوكه أيُّ تغيير؟»

منحَت هذه الإجابة محققَ الوفيات فرصةً لينتقم لنفسه لإيقاعه في الحرج منذ لحظةٍ، فقال بلهجة صارمة نوعًا ما:

«إن مهمة الشاهد هي أن يُجيب عن الأسئلة، وليس أن يطرحها.»

احمرَّ وجه السكرتير، وتوقف كذلك عن سردِ روايته.

«حسنًا، إذن، يا سيدي؛ لو أن السيد ليفنوورث شعر بأي توجسات بنهايته، فهو لم يَبُح لي بها. على العكس، بدا أكثرَ استغراقًا في عمله من المعتاد. من آخر الكلمات التي قالها لي: «في خلال شهر سيكون هذا الكتابُ مطبوعًا بين أيدينا، أليس كذلك، ترومان؟» أتذكر قوله هذا تحديدًا، في اللحظة التي كان يملأ فيها كأس النبيذ. كان دومًا يشرب كأسًا واحدًا قبل أن يخلد إلى النوم، وكانت مهمتي أن أُحضر زجاجة نبيذ الشيري من الخِزانة، وذلك كان آخر شيء أفعله قبل أن أتركه. كنتُ واقفًا ويدي على مقبض الباب المؤدي إلى الردهة، وتقدمت عندما قال هذا وأجبتُه: «أتمنى ذلك، حقًّا، يا سيد ليفنوورث.» ثم قال: «إذن شارِكْني في شرب كأسٍ من الشيري»، مشيرًا إليَّ لأُخرج كأسًا آخرَ من الخزانة. ففعلت، وصبَّ لي النبيذ بيده. لستُ مغرمًا بنبيذ الشيري تحديدًا، لكن المناسبة كانت سعيدة وتجرعتُ كأسي كلَّه. أتذكر أني استحَيتُ قليلًا من فعل ذلك؛ لأن السيد ليفنوورث أنزل كأسه نصفَ ممتلئ. كان نصف ممتلئ عندما عثَرنا عليه صباح اليوم.»

بصرف النظر عما فعله، ولكونه رجلًا متحفِّظًا، بدا حريصًا على السيطرة على انفعاله؛ إذ بدا أن هول صدمته الأولى أربكه عند هذه النقطة. سحب منديله من جيبه،

ومسح جبينه. ثم قال: «أيها السادة، هذا هو آخرُ ما رأيت السيد ليفنوورث يفعله. بينما كان يضع الكأس على المنضدة، تمنيتُ له ليلةً سعيدة وغادرتُ الغرفة.»

مال محقق الوفيات، بطبيعة شخصيته التي لا تتأثَّر بأي تعبيرات انفعالية، بظهره إلى الوراء وتفحَّص الشابَّ بنظرةٍ متمعِّنة. وسأله: «وأين ذهبتَ بعدها؟»

«إلى غرفتي الخاصة.»

«هل قابلتَ أحدًا في الطريق؟»

«لا، يا سيدي.»

«هل سمعتَ أي شيء أو رأيت أي شيء غير معتاد؟»

انخفض صوتُ السكرتير قليلًا. وقال: «لا، يا سيدي.»

«سيد هارويل، فكِّر مرةً أخرى. هل أنت مستعد لأن تُقسِم بأنك لم تُقابل أحدًا، ولم تسمع أحدًا، ولم ترَ أي شيء ما زال عالقًا في ذهنك أنه أمر غريب؟»

ظهر التكدُّر الشديد على وجهه. فتح شفتَيْه مرتين ليتحدث، وكالعادة أغلقهما دون أن ينطق بشيء. وأخيرًا، وبجهد، أجاب:

«رأيتُ شيئًا واحدًا، شيئًا بسيطًا، لا يستحق أن أذكره، ولكنه كان غيرَ معتاد، ولم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير فيه وأنت تتحدث.»

«ما هو؟»

«فقط الباب كان مواربًا.»

«باب مَن؟»

«الآنسة إلينور ليفنوورث.» كاد صوته أن يكون هامسًا عندئذٍ.

«أين كنتَ عندما لاحظتَ هذا؟»

«لا أتذكر تحديدًا. على الأرجح عند باب غرفتي؛ لأنني لم أتوقف في الطريق. لو لم تكن هذه الواقعة المروعة قد حدثت، ما كان خطر ذلك في ذهني مرةً أخرى.»

«عندما دخلتَ غرفتك، هل أغلقتَ بابك؟»

«فعلتُ، يا سيدي.»

«متى خلدتَ إلى النوم بعدها؟»

«في الحال.»

«ألم تسمع أيَّ صوت قبل أن تستغرق في النوم؟»

ظهر من جديد ذلك التردد الغامض.

«بالكاد لا.»

«ولا وَقْع أقدام في الردهة؟»

«ربما سمعتُ صوت وقع أقدام.»

«هل سمعتَ فعلًا؟»

«لا يمكنني أن أجزم بذلك.»

«هل تظن أنك سمعت؟»

«أجل، أظن ذلك. لأُوضِّح الأمر برمته: بمجرد أن بدأتُ في النعاس، أتذكر أنني سمعت حفيفًا ووقع أقدام في الردهة؛ ولكن دون أن يترك انطباعًا لديَّ، ثم غرقت في النوم.»

«وماذا بعد ذلك؟»

«بعد فترةٍ استيقظت، استيقظت فجأةً، وكأنَّ شيئًا أفزعني، ولكن إن كانت جلَبة أو حركة، لا يمكنني أن أجزم بذلك. أتذكر أنني نهضتُ في سريري ونظرت حولي، لكن لم أسمع أي شيء آخر، ثم سرعان ما استسلمتُ للنعاس الذي غلبَني، ودخلت في سُباتٍ عميق. ولم أُفِق من نومي مرةً أخرى حتى الصباح.»

عند هذه النقطة، طُلِب منه أن يرويَ كيف ومتى عَلِم بواقعة القتل، فدَعَّم في روايته لجميع التفاصيل صحةَ الرواية التي أدلى بها رئيسُ الخدم؛ وبعد أن فرَغ تمامًا من الإدلاء بروايته في هذا الموضوع، تابع محققُ الوفَيات استجوابه، وسأله إن كان قد لاحظ حالةَ منضدة المكتبة بعد نقل الجثمان.

«نوعًا ما؛ أجل، يا سيدي.»

«ماذا كان عليها؟»

«المتعلقات المعتادة، يا سيدي، كتب، وأوراق، وقلم عليه حبرٌ قد جفَّ، بالإضافة إلى زجاجة النبيذ وكأس النبيذ الذي شرب منه الليلة الماضية.»

«لا شيء آخر؟»

«لا أتذكَّر شيئًا آخر.»

تدخَّل المحلَّف صاحبُ الساعة والسلسلة قائلًا: «فيما يتعلق بزجاجة النبيذ والكأس، ألم تقل إن السيد ليفنوورث عُثِر عليه في نفس الحالة التي رأيتَه عليها عندما تركتَه جالسًا في مكتبته؟»

«أجل، يا سيدي، بقدرٍ كبير جدًّا.»

«ولكن، هل كان من عادته أن يشرب كأسًا كاملًا؟»

«أجل، سيدي.»

«لا بد إذن أن مقاطعته عن مواصلة الشرب حدثَت بعد مغادرتك بفترة وجيزة جدًّا، يا سيد هارويل.»

فجأةً ساد وجهَ الشاب شحوبٌ أزرقُ باهت. انتفض، وللحظة بدا وكأنما أذهلته خاطرةٌ مرعبة. فنطق ببعض الصعوبة: «هذا لا يستتبع ذاك، يا سيدي.» وأردف: «فربما يكون السيد ليفنوورث قد ...» لكنه توقف فجأةً، وكأنَّ اضطرابه الشديد منعه من مواصلة حديثه.

«أكمِل، سيد هارويل، دعنا نسمع ما لديك.»

أجاب بضعف، وكأنه يُصارع انفعالًا قويًّا ما: «لا شيء.»

نظرًا إلى أنه لم يكن قد أحجم عن الإجابة عن أحد الأسئلة، وإنما تطوع فقط بالتوضيح، تجاوز محققُ الوفيات الأمر؛ لكنني رأيت أكثرَ من زوجَين من الأعين يلتفت من جانبٍ لآخر في ارتياب، وكأن كثيرًا من الحضور شعروا بأن انفعال هذا الرجل قد منحهم طرَفًا من حل هذا اللغز. أما محقق الوفيات، متجاهلًا بأسلوبه السلس كلًّا من انفعال الرجل وحالة الاضطراب العام التي أثارها، فواصل استجوابَه في تلك اللحظة: «هل تعرف ما إذا كان مِفتاح المكتبة في مكانه عندما غادرت الغرفة الليلة الماضية؟»

«لا، يا سيدي، لم أُلاحظ ذلك.»

«افتراضك أنه كان في مكانه؟»

«أظن ذلك.»

«في جميع الأحوال، كان الباب موصدًا في الصباح، والمفتاح مختفيًا، صحيح؟»

«أجل، يا سيدي.»

«إذن فمرتكب هذه الجريمة، أيًّا كان، أوصد الباب عند خروجه، وأخذ المفتاح، صحيح؟»

«يبدو ذلك.»

استدار محققُ الوفيات مواجهًا هيئة المحلَّفين بنظرةٍ جادة. ثم قال: «أيها السادة، يبدو أن ثمة لغزًا ما بخصوص هذا المفتاح وهي نقطة لا بد من البحث فيها.»

في الحال، عمَّت الغرفةَ همهمةٌ من الجميع، تُبرهن على إجماع جميع الحضور على هذه النقطة. نهض المحلَّف الضئيلُ الحجم باندفاع من مكانه مقترحًا ضرورةَ إجراء تفتيش فوري للوصول إليه؛ لكن محقق الوفَيات، ملتفتًا إليه بنظرة ينبغي أن أُسمِّيها

نظرةَ إسكات، قرر أن التحقيق ينبغي أن يظل جاريًا في المسار المعتاد، حتى الانتهاء من جميع الإفادات الشفهية.

مجددًا تطوع الرجل الذي استعصى كَبته، وقال: «إذن اسمح لي أن أُوجِّه إليك سؤالًا. سيد هارويل، قيل لنا إنه عند اقتحام باب المكتبة صباحَ هذا اليوم، لحقَت بكما ابنتا شقيقَي السيد ليفنوورث إلى داخل الغرفة.»

«واحدةٌ منهما، سيدي، الآنسة إلينور.»

وهنا تدخَّل محقق الوفيات في الحديث: «هل الآنسة إلينور هي التي يُقال إنها الوريثةُ الوحيدة للسيد ليفنوورث؟»

«لا، يا سيدي، تلك هي الآنسة ماري.»

واصل المحلفُ الشاب كلامه: «أهي التي أعطت الأوامر بنقل جُثمانه إلى الغرفة الأخرى؟»

«أجل، يا سيدي.»

«وهل امتثلتَ لأمرها بالمساعدة في نقله إلى الداخل؟»

«أجل، يا سيدي.»

«وأنت تمرُّ بين الغرف، هل لاحظت أي شيء يدفعك إلى الارتياب في القاتل؟»

هز السكرتير رأسه نفيًا. ثم قال بلهجة حاسمة: «ليس لدي أيُّ ارتياب.»

لسببٍ ما لم أُصدقه. سواءٌ بسبب نبرة صوته، أو تشبُّث يده على كمِّه — فاليدُ غالبًا ما تفضح أكثرَ من الوجه — شعرت بأن هذا الرجل لم يكن يُعتمَد عليه في تقديم هذا التأكيد.

قال محلَّفٌ لم يكن قد تحدث بَعدُ: «أود أن أطرح سؤالًا على السيد هارويل. سبق أن حصلنا على رواية مفصَّلة عن كيفية اكتشاف القتيل. أما الآن، فلا تُرتكَب جريمةٌ أبدًا من دون دافع. هل السكرتير يعرف ما إذا كان للسيد ليفنوورث أيُّ عدو خفي؟»

«لا أعرف.»

«هل كانت تربطه علاقة طيبة بجميعِ مَن في المنزل؟»

«أجل، سيدي»، ومع ذلك كان ثَمة ارتعاشة، توحي برأيٍ معارض، في تأكيده.

«ألم يكن ثمة لمحةُ خلاف بينه وبين أحد أفراد منزله، بحسَب علمك؟»

أجاب، باضطراب شديد: «لستُ أهلًا للجزم بذلك. اللمحة أمر هين. ربما كانت ثمة لمحة ...»

«بينه وبين من؟»

تردَّد لفترةٍ طويلة. ثم قال: «واحدة من بنتَيْ شقيقيه، سيدي.»

«أيهما؟»

من جديد رفع رأسه في جُرأة، وقال: «الآنسة إلينور.»

«منذ متى كانت لمحة الخلاف هذه ملحوظة؟»

«لا يمكنني أن أجزم.»

«ألا تعرف السبب؟»

«لا أعرف.»

«ولا حتى مدى هذا الشعور؟»

«لا، يا سيدي.»

«هل تفتح خطابات السيد ليفنوورث؟»

«أفعلُ ذلك.»

«هل كان يوجد أي شيء في مراسلاته الأخيرة من المرجَّح أن يُؤدِّي إلى إلقاء أي ضوءٍ على هذه الفعلة؟»

بدا في الواقع وكأنه لن يهمَّ مطلقًا بالإجابة. هل كان يُفكر بتروٍّ في ردِّه، أم أن الرجل صار حجرًا جامدًا؟

تساءَلَ محقِّقُ الوفيات: «سيد هارويل، هل سمعت سؤال المحلَّف؟»

«أجل، يا سيدي؛ كنت أفكِّر.»

«حسنًا، والآن أجِب.»

أجاب، مستديرًا وناظرًا إلى وجوه أعضاء هيئة المحلَّفين بأكملهم، وبهذه الطريقة اتَّضحَت لنظري يدُه اليسرى من دون حاجز: «سيدي، فتحتُ خطاباتِ السيد ليفنوورث كالمعتاد خلال آخر أسبوعَين، ولا يُمكنني أن أفكِّر في أي شيءٍ فيها له صلةٌ على الإطلاق بهذه الفاجعة.»

كان الرجل يكذب؛ أدركتُ ذلك على الفور. كان كافيًا لي توقُّفُ يده المقبوضة في تردُّد، ثم قرَّر أن يُواصلَ كذبته في ثبات.

قال محقِّق الوفيات: «سيد هارويل، هذا صحيح بلا شك حسَب تقديرك؛ ولكن ستخضع مراسلاتُ السيد ليفنوورث للتدقيق مع كل ذلك.»

أجاب بلا مبالاة: «ذلك هو التصرف الصحيح.»

بهذا التعليق انتهى التحقيق مع السيد هارويل في الوقت الحالي. وعندما جلس لاحظت أربعة أشياء.

أولًا: أن السيد هارويل نفسه، لسببٍ غير معلوم، كان لديه شك، وكان حريصًا على كتمانه حتى في عقله شخصيًّا.

ثانيًا: أن ثَمة امرأةً كانت لها علاقةٌ بالأمر بطريقةٍ أو بأخرى؛ فقد سمع حفيفًا وكذلك وَقْع أقدامٍ على السُّلم.

ثالثًا: أن ثَمة خطابًا وصل إلى المنزل، وإذا ما عُثِر عليه فمن المرجَّح أن يُلقي بعض الضوء على هذا الموضوع.

رابعًا: أن اسم إلينور ليفنوورث خرج بصعوبة من بين شفتَيْه؛ هذا الرجل الذي لم يكن يبدو عليه الانفعال، كان ينفعل بطريقة أو بأخرى كلما كان عليه أن يتفوَّه باسمها.

الفصل الرابع

طرف خيط

في دولة الدانمرك فسادٌ وعفن.

مسرحية «هَمْلِت» [ترجمة جبرا إبراهيم جبرا]

استُدعيَت الآن طاهية المنزل، فتقدَّمت إلى الأمام في خفةٍ، تلك السيدة ذاتُ القوام الممتلئ والوجه المتورد، وعلى وجهها البشوش تعبيرٌ يمزج بين الحماسة والاضطراب حتى إن أكثر من شخصٍ من الحضور استعصى عليه أن يمنع نفسَه من الابتسام عند ظهورها. لاحظَت ذلك وأخذَت الأمر على محمل المجاملة؛ كونها امرأةً إلى جانب كونِها طاهيةً، وفي الحال انحنَت احترامًا، وفتحت شفتَيْها وكانَت على وشك أن تتحدَّث، عندما سبقها محققُ الوفيات، وهو يعتدل في جلسته على مقعده في نفاد صبر، إلى الحديث قائلًا في حزم:

«ما اسمُكِ؟»

«كاثرين مالون، يا سيدي.»

«حسنًا، يا كاثرين، منذ متى وأنت تعملين في خدمة السيد ليفنوورث؟»

«أمرُك، اثنَي عشرَ شهرًا بالتمام حتى الآن، يا سيدي، منذ أن جئت، بناءً على توصية من السيدة ويلسون، حتى وصلت إلى هذا الباب الأمامي، و…»

«دعكِ من الباب الأمامي، لكن أخبرينا لماذا تركتِ خدمةَ السيدة ويلسون هذه؟»

«أمرك، كانت هي التي استغنَت عني؛ لأنها كانت ستُسافر بحرًا إلى موطنها في اليوم نفسِه الذي جئتُ فيه بِناءً على توصيتها إلى هذا الباب الأمامي …»

«حسنًا، حسنًا، لا يهم ذلك. هل أمضيتِ عامًا في خدمة أسرة السيد ليفنوورث؟»

«أجل، سيدي.»

«وهل أحببتِ العمل هنا؟ هل وجَدتِه سيدًا طيِّبًا؟»

«آهٍ، يا سيدي، لم أجد أحدًا أفضلَ منه أبدًا، سحقًا للوغد الذي قتله. كان سخيًّا وكريمًا، يا سيدي، حتى إنني أرهقتُه وأزعجته في مراتٍ كثيرة. كان سخيًّا وكريمًا، يا سيدي، حتى إنني قلتُ مراتٍ كثيرةً لهانا ...» ثم توقفت، وشهقت شهقةً فجائية من الفزع لكن بأسلوبٍ فكاهي، ونظرت إلى زملائها من الخدم مثل شخص وقع سهوًا في الخطأ. لاحظ محققُ الوفيات ذلك، فسأل سريعًا:

«هانا؟ من هانا؟»

صاحت الطاهية بجُرأة، وهي تشد جسدها الممتلئ لأعلى بشكلٍ معين في محاولةٍ منها لأن تبدوَ غيرَ قلقة، قائلةً: «هي؟ يا إلهي، إنها الخادمة القائمة على خدمة السيدتين، يا سيدي.»

قال المحققُ مستديرًا إلى توماس: «لكنني لا أرى أيَّ أحد ينطبق عليه ذلك الوصف. لم تذكر أي شخص في المنزل يحمل اسم هانا.»

أجاب الأخيرُ بانحناءة وهو ينظر نظرة جانبية إلى الفتاة الحمراءِ الوجنتين بجانبه: «لا، سيدي. سألتني عمن كانوا في المنزل وقتَ اكتشاف واقعة القتل، وأخبرتك.»

صاح محقق الوفيات في سخريةٍ وقال: «آه، أرى أنك معتادٌ على أسلوب محاكم الجنح والمخالفات.» ثم، مستديرًا مرةً أخرى إلى الطاهية، التي كانت طوال هذا الوقت تُدير عينيها في الغرفة في خوفٍ غامض، سأل: «وأين هانا هذه؟»

«أمرك، سيدي، لقد ذهبَت.»

«منذ متى؟»

أجابت الطاهية وهي تلتقط أنفاسها بطريقةٍ هستيرية: «منذ الليلة الماضية.»

«في أيِّ ساعة من الليلة الماضية؟»

«صدقًا، يا سيدي، لا أعرف. لا أعرف أي شيء عن الأمر.»

«هل أُنهِيَت خدمتُها؟»

«ليس على حد علمي؛ فمَلابسها هنا.»

«آه، ملابسها هنا. في أي ساعة لاحظتِ اختفاءها؟»

«لم ألحَظ اختفاءها. كانت هنا الليلة الماضية، ولم تكن هنا هذا الصباح، ولهذا قلت إنها ذهبت.»

صاح محقق الوفيات قائلًا: «همم!» وهو يوجِّه نظرةً متأنية عبر الغرفة، بينما نظر كلُّ الحضور وكأنَّ بابًا قد انفتح فجأةً في حائطٍ مغلق.

«أين كانت تنام هذه الفتاة؟»

رفعَت الطاهيةُ، التي كانت تتحسس مِئزرها في اضطراب، بصرَها لأعلى.

«أمرك، ننام جميعنا في الطابق العلويِّ الأخير من المنزل، يا سيدي.»

«في غرفةٍ واحدة؟»

أجابت ببطء. وقالت: «أجل، يا سيدي.»

«هل صعدتْ إلى الغرفة الليلة الماضية؟»

«أجل، يا سيدي.»

«في أي ساعة؟»

«أمرك، كانت الساعة العاشرة عندما صعدنا جميعًا لأعلى. سمعتُ الساعة وهي تدق.»

«هل لاحظتِ أي شيءٍ غريب في هيئتها؟»

«كانت أسنانها تؤلمها، يا سيدي.»

«آه، أسنانها تؤلمها، وماذا فَعَلَت، إذن؟ أخبريني بكل ما فَعَلَته.»

ولكن عندئذٍ، انفجرت الطاهية في البكاء والعويل.

«أمرك، لم تفعل أي شيءٍ يا سيدي. لم تكن هي يا سيدي، لم تفعل أي شيء؛ لا أعتقد أنها فعلَت ذلك. هانا فتاة طيبة، وأمينة، يا سيدي، ولن تجد مثيلًا لها. أنا على استعدادٍ لأن أُقسم على الكتاب المقدَّس أن يدها لم تلمس مقبض بابه. وما الذي يدفعها إلى ذلك؟ نَزَلَت فقط لأسفل إلى الآنسة إلينور لتطلب قطراتٍ لتخفيف الألم في أسنانها، وكان وجهها يؤلمها ببشاعة؛ وأوه، يا سيدي ...»

قاطعها المحقق قائلًا: «مهلًا، مهلًا، أنا لا أتَّهم هانا بأي شيء. لم أسألكِ إلا عمَّا فَعَلَته بعد أن وَصَلَت إلى غرفتكن. قُلْتِ إنها نزلَت لأسفل. بعد مرور كم من الوقت من صعودكن؟»

«صدقًا، يا سيدي، لا يمكنني أن أعرف؛ لكن مولي تقول ...»

«دعكِ مما تقوله مولي. ألم ترَيها أنتِ بنفسكِ وهي تتجه لأسفل؟»

«لا، يا سيدي.»

«ولا عندما عادت؟»

«لا، يا سيدي.»

«ولا هذا الصباح؟»

«لا، سيدي؛ كيف يمكنني أن أراها وقد ذهبَت؟»

«لكنكِ رأيتِ الليلة الماضية أنها على ما يبدو كانت تُعاني ألمًا في أسنانها؟»

«أجل، يا سيدي.»

«عظيم، والآن أخبريني كيف ومتى علمتِ أولَ مرة بحقيقة وفاة السيد ليفنوورث.»

لكنَّ إجاباتها على هذا السؤال، مع ثرثرتها المفرطة، لم تكن تحوي إلا معلوماتٍ قليلة؛ وما إن تبيَّن ذلك للمحقِّق، حتى كاد أن يصرفها، عندما تذكَّر المحلَّف الضئيل الحجم إقرارًا أدْلَت به مفادُه أنها رأت الآنسة إلينور ليفنوورث تخرجُ من المكتبة بعد دقائق قليلةٍ من نقل جثمان السيد ليفنوورث إلى الغرفة المجاورة، فسألها عمَّا إذا كانت سيدتها تحمل أيَّ شيءٍ في يدها في ذلك الوقت.

صاحَت فجأةً: «لا أعرف، يا سيدي. صدقًا! أظن أنها كانت تحمل ورقة. تذكرتُ الآن أني رأيتُها تضعها في جيبها.»

كانت الشاهدة التالية هي مولي، خادمة الطابق العلوي.

كانت مولي أوفلاناجان، كما كانت تُطلق على نفسها، فتاةً سليطة ذاتَ خدَّين ورديين وشعرٍ أسود، وتبلغ من العمر ثمانيةَ عشر عامًا، وفي الظروف العادية كانت ستجد في نفسها القدرةَ على الإجابة، بدرجةٍ من الذكاء، عن أي سؤالٍ قد يُوجَّه إليها. لكن في بعض الأحيان يُضْعِف الخوفُ أشجعَ القلوب، ومولي، وهي ماثلةٌ أمام محقِّق الوفيات في هذا الظرف، لم تظهر إلا بمظهرٍ غير مكترث، وصار خداها الورديَّان بطبيعتهما شاحبَين عند أول كلمةٍ وُجِّهَت إليها، وأحْنَت رأسها إلى الأمام على صدرها في ارتباكٍ كان حقيقيًّا لدرجة أنه لم يكن ممكنًا أن يكون تظاهُرًا، وكان واضحًا لدرجة أنه لم يكن من الممكن أن يُساء فهمه.

نظرًا إلى أن أغلب شهادتها كانت متعلقةً بهانا، وما كانت تعرفه عنها، واختفائها الغريب، سأكتفي بأن أعرض مجردَ نبذةٍ عمَّا قالته.

على قدرِ علم مولي، كانت هانا، كما قد صرَّحَت به عن نفسها، فتاةً غير متعلِّمةٍ من أصلٍ أيرلندي، كانت قد قَدِمَت من بلدها لتعمل وصيفةً وخيَّاطة للآنستَين ليفنوورث. عملَت في خدمة العائلة بعضَ الوقت؛ قبل أن تأتيَ مولي نفسُها في الحقيقة؛ ورغم أنها بطبيعتها كانت قليلةَ الكلام على نحوٍ ملحوظ؛ إذ كانت ترفض أن تُفصح عن أي شيءٍ عن نفسها أو عن حياتها السابقة، كانت قد نجحَت في أن تُصبح مفضلةً جدًّا لدى جميع مَن في المنزل. لكنها كانت ذات طبيعةٍ كئيبةٍ ومغرمةٍ بأن تُطيل التفكير وهي مهمومة، وكثيرًا ما كانت تنهض في الليل وتجلس وتفكِّر في الظلام، «وكأنها سيدةُ منزل!» وذلك على حد تعبير مولي.

ولكون هذه العادة هي واحدة من العادات الغريبة لفتاةٍ في مثل وضعها؛ جرَت محاولةٌ للظفَر بأي تفاصيل أخرى من الشاهدة في هذا الصدد. لكن مولي، بإطراقةٍ من رأسها، اقتصرت على هذه العبارة الوحيدة. قالت إنها اعتادت على أن تستيقظ ليلًا وتجلس عند النافذة، وكان ذلك كلَّ ما كانت تعرفه عن الأمر.

بعدما انتُقِل بمولي بعيدًا عن هذا الموضوع، الذي كان قد تجلَّى في تناولها له قليلٌ من حِدةِ طبعِ مولي، مضت تروي، فيما يتصل بأحداث الليلة الماضية، أن هانا كان قد مضى عليها يومان أو أكثرُ وهي مريضة ووجهها متورِّم؛ وأن الأمر ازداد سوءًا بعد أن صعدْن لأعلى، في الليلة الماضية، حتى إنها تركت فراشها، وارتدَت ملابسها — استُجوِبَت مولي بتدقيقٍ حول هذه النقطة، لكنها أصرَّت على أن هانا كانت قد ارتدت ملابسها كاملةً، حتى إنها هندمت ياقتها ووشاحها — وأضاءت شمعة، وأفصحت عن نيتها في النزول إلى الآنسة إلينور طلبًا للمساعدة.

وهنا سأل أحد المحلَّفين: «لماذا الآنسة إلينور؟»

«أوه، كانت هي مَن تُعطي دائمًا الأدويةَ وأشياءَ من هذا القبيل للخدم.»

عندما أُلِحَّ عليها لتُكمل، تابعت مصرحةً بأنها ذكرَت بالفعل كل ما كانت تعرفه عنها. لم تعد هانا، ولم يُعْثَر عليها في المنزل وقت الإفطار.

قال محقق الوفيات: «تقولين إنها حملَت شمعة معها. هل كانت داخل شمعدان؟»

«لا، يا سيدي؛ أمسكتها كما هي.»

«لماذا أخذت شمعة؟ ألا يشعل السيد ليفنوورث مصابيح الغازِ في ممرَّاته؟»

«بلى، يا سيدي، لكننا نُطفئها عندما نصعد لأعلى، وهانا تهاب الظلام.»

«إذا أخذَت شمعة، فلا بد أنها في مكانٍ ما في المنزل. والآن، هل رأى أي شخصٍ شمعة هنا أو هناك؟»

«ليس على حد علمي، يا سيدي.»

صاح صوتٌ أتى من فوق كتفي: «هل هذه هي؟»

كان ذلك هو السيد جرايس، وكان يحمل على مرأًى من الجميع شمعةَ برافين محترقةً حتى نصفها.

«أجل، يا سيدي؛ أين وجدتَها؟»

أجاب في هدوء: «على عُشب ساحة انتظار العربات، في منتصف الطريق من باب المطبخ إلى الشارع.»

حدثَت ضجة. أخيرًا، توصلنا إلى طرف خيط لحل اللُّغز! كان قد عُثِر على شيءٍ بدا أنه كان يربط جريمةَ القتل الغامضةَ هذه بالعالم في الخارج. وفي الحال اعتُبِر الباب الخلفي محلَّ الاهتمام الرئيسي. بدا أن الشمعة التي عُثِر عليها في الساحة أثبتت، ليس فقط أن هانا كانت قد غادرت المنزل بُعَيْدَ نزولها من غرفتها، بل أيضًا أنها كانت قد غادرته من الباب الخلفي، الذي تذكَّرنا في تلك اللحظة أنه كان على بُعد خطواتٍ قليلة فقط من البوابة الحديدية التي تؤدي إلى الشارع الجانبي. لكن توماس، بعدما أُعيد استدعاؤه، كرَّر تأكيده بأنه كان قد وجد، ليس الباب الخلفي وحده، وإنما كل نوافذ المنزل السُّفلي موصَدة ومقفلة في الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم. كان الاستنتاج الحتميُّ أن شخصًا ما كان قد أوصد الباب وأقفله خلف الفتاة. من هو؟ مع الأسف، كان هذا حينئذٍ قد أصبح السؤالَ الخطير والمهم جدًّا.

الفصل الخامس

شهادة خبير

وكثيرًا ما تلجأ قُوى الظلام — من أجل تدميرنا — إلى قول الحق لنا،
وإلى استخدام تفاهاتٍ صحيحة من أجل اصطيادنا،
ثم تخوننا وتتخلَّى عنا في اللحظة الحاسمة.

مسرحية «مكبث» [ترجمة حسين أحمد أمين]

وسط هذا الوجوم العامِّ الذي خيَّم على الحضور هناك، سُمِع صوتُ دقٍّ عنيف للجرس. اتجهت كلُّ الأنظار في الحال تجاه باب غرفة الجلوس، بينما كان الباب يُفتَح ببطءٍ، ودخل الضابط، الذي كان محققُ الوفيات قد بعث به في ظروفٍ غامضة منذ ساعة، برفقة شابٍّ، بدا من هيئته الأنيقة، وعينَيْه النبيهتَين، والانطباع العامِّ عنه بأنه أهلُ ثقة، أنه المندوب الخاصُّ لمجموعةٍ تِجاريةٍ موثوقٍ بها، وفي الحقيقة كان كذلك.

تقدم دون أن يظهر عليه أيُّ ارتباك واضح، رغم أن كل الأنظار في الغرفة كانت مُسلَّطةً عليه في فضول واضح، وانحنى انحناءةً بسيطة لمحقق الوفيات.

قال: «لقد طلبت استدعاءَ أحدٍ من متجر بون وشركاه.»

حدث اضطرابٌ قوي في الحال. كان بون وشركاه متجرًا ذائعَ الصيت للأسلحة والذخائر في برودواي.

أجاب محققُ الوفيات: «أجل، يا سيدي. لدينا رصاصة هنا، لا بد لنا من أن نطلب منك فحصها، فأنت على دراية تامة بجميع الأمور المتعلقة بمجال عملك، أليس كذلك؟»

مكتفيًا برفع أحد حاجبَيه في إيماءة مُعبِّرة، أخذ الشاب الرصاصة في يده دون اكتراث.

«هل يمكنك أن تُخبرنا من أي نوع من المسدسات أُطلِقَت هذه الرصاصة؟»

قَلَّب الشاب الرصاصةَ بتأنٍّ بين إصبعَيه الإبهام والسبابة، ثم وضعها. وقال: «رصاصة رقم ٣٢، تُباع عادةً مع المسدس الصغير من صُنع سميث آند ويسون.»

صاح رئيس الخدم، قافزًا من مقعده: «مسدس صغير! كان سيدي يحتفظ بمسدسٍ صغير في درج خِزانته. رأيتُه كثيرًا. جميعنا كنا نعرف بشأنه.»

عمَّ هرجٌ عارم يصعب السيطرة عليه، لا سيما بين الخدم. سَمِعتُ صوتًا غليظًا يصيح: «هذا صحيح! رأيتُه مرةً بنفسي؛ كان سيدي يُنظفه.» كانت الطاهية هي من تكلمت.

سأل محقق الوفيات: «في درج خزانته؟»

«أجل، يا سيدي؛ عند رأس سريره.»

أُرسِلَ ضابطٌ لتفتيش درج الخزانة. وعاد في غضون بضع لحظات، ومعه مسدسٌ صغير وضعه على منضدة محقق الوفيات، قائلًا: «ها هو.»

في الحال، هبَّ الجميع واقفين، لكن محقق الوفيات، الذي كان يُناوله لمندوب متجر بون، استفسر عما إذا كان من صُنع الجهة السالفِ ذِكرُها. ومن دون ترددٍ أجاب: «أجل، سميث آند ويسون؛ يمكنك التأكدُ من ذلك بنفسك»، وواصل معاينته.

وجه المحقق سؤاله إلى الضابط قائلًا: «أين عثرتَ على هذا المسدس؟»

«في الدرج العلوي لمنضدةِ حِلاقةٍ بالقرب من رأس سرير السيد ليفنوورث. كان في حافظة مخمليةٍ مع علبة خراطيش، أحضرتُ واحدةً منها على سبيل العيِّنة»، ووضعها بجانب الرصاصة.

«هل كان الدرج مقفلًا؟»

«أجل، يا سيدي؛ لكن المفتاح لم يُؤخَذ منه.»

في تلك اللحظة، كان التشويق قد بلغ ذروته. اجتاحت الغرفةَ صيحةُ تساؤلٍ من الجميع: «هل هو محشو؟»

علَّق محقق الوفيات، مقطبًا جبينه في وجه الحضور، بنظرة وقار عظيمة:

«كنتُ على وشك أن أطرح ذلك السؤال بنفسي، لكن لا بد أولًا أن أطلب من الحضور الالتزامَ بالنظام.»

أعقب قولَه هدوءٌ في الحال. حرَصَ الجميعُ حرصًا شديدًا على منع أي عقبةٍ تحول دون إشباع فضولهم.

صاح المحقق قائلًا: «الآن، يا سيدي!»

أخرج مندوبُ متجر بون أسطوانةَ المسدس، ورفعها. قال: «توجد سبع حجيرات هنا، وجميعها محشوَّة.»

أعقَبَت هذا الإثباتَ همهمةُ إحباط.

أضاف بهدوء بعد معاينةٍ عابرة للوجه الأمامي لأسطوانة المسدس: «لكن هذه الرصاصات لم تكن جميعها محشوةً منذ وقت طويل. لقد أُطْلِقَت رصاصةٌ مؤخرًا من إحدى هذه الحجيرات.»

صاح أحد المحلَّفين قائلًا: «وكيف عرَفتَ؟»

أجاب، مستديرًا إلى محقق الوفيات: «كيف عرَفت؟ سيدي، هل لك أن تتفضل بمعاينة حالة هذا المسدس؟» وناولَه إلى ذلك الرجل. وأردف: «انظر أولًا إلى الماسورة؛ إنها نظيفةٌ ولامعة، ولا تُظهِر أيَّ دليل على أن رصاصةً مرت خارجةً منها من وقت قريب جدًّا؛ وذلك لأنها نُظِّفَت. ولكن الآن، لاحظ الوجه الأماميَّ للأسطوانة: ماذا تُلاحظ هناك؟»

«أُلاحظ خطًّا خفيفًا من السِّنَاج الأسود بالقربِ من إحدى الحجيرات.»

«بالضبط؛ اعرضه على السادة الأفاضل.»

ما لبثت أن تناقلَته الأيدي في الحال.

«هذا الخطُّ الخفيف من السِّنَاج الأسود، على حافة إحدى الحجيرات، هو العلامةُ يا سادة. الرصاصة عند مرورها خارجةً تُخلِّف سِناجًا أسودَ وراءها دائمًا. الرجل الذي أطلقَها، متذكرًا المعلومةَ، نَظَّفَ ماسورة المسدس، لكنه أغفل تنظيفَ الأسطوانة.» ثم تنحى جانبًا، وعقد ذراعيه.

تحدث صوتٌ حماسي أجشُّ: «بحق أورشليم! أليس ذلك مذهلًا!» جاء ذلك التهليلُ من رجلٍ قروي قد دخل من الشارع، وفي تلك اللحظة وقف فاغرًا فمَه عند مدخل الباب.

كانت مقاطعةً وقحة منه، لكنها لم تكن غيرَ مقبولة تمامًا. عمَّت ابتسامةٌ الغرفةَ، والتقط الرجال والنساء على حدٍّ سواءٍ أنفاسَهم بسهولة أكبر. ما إن استُعيد النظام أخيرًا، حتى طُلِب من الضابط أن يصفَ موضع الخِزانة، والمسافة بينها وبين منضدة المكتبة.

«منضدة المكتبة في غرفة، والخِزانة في غرفة أخرى. حتى يصل المرءُ إلى الغرفة الأولى من الغرفة الأخيرة؛ يتعين عليه المرورُ بغرفة نوم السيد ليفنوورث في اتجاهٍ قُطري، مارًّا عبر الممر الفاصل بين تلك الغرفة والغرفة الأخرى، و…»

«انتظر لحظة؛ أين موضع هذه المنضدة مِن الباب الذي يُفضي من غرفة النوم إلى الردهة؟»

«يمكن للمرء أن يدخل من الباب، ويمرَّ مباشرةً حول مؤخرة السرير وصولًا إلى الخِزانة، ويتحصل على المسدس، ويقطع نصف الطريق إلى الممر، دون أن يراه أيُّ أحد جالس أو واقف في المكتبة في آخر الممر.»

صاحت الطاهيةُ مذعورةً، وهي تُلقي مئزرها على رأسها وكأنها تمنع منظرًا مرعبًا ما: «بحق العذراء المقدسة! لم تكن هانا تمتلكُ أبدًا الشجاعة حتى ترتكب ذلك، أبدًا، أبدًا!» لكن السيد جرايس، ممسكًا بالسيدة في قسوةٍ، أرغمها على العودة إلى مقعدها، موبخًا إياها ومُهدِّئًا من رَوعها في آنٍ واحد، بأسلوبٍ بارع وعجيب. فبكَت متوسلةً إلى من حولها: «أتوسل إليكم أن تُسامحوني؛ لكن لم تكن هانا أبدًا، أبدًا!»

وهنا أُعْطِي مندوبُ متجر بون الإذنَ بالانصراف، وانتهز الجمعُ الفرصة ليُغيروا أماكنهم قليلًا، وبعد ذلك، نُودِيَ اسم السيد هارويل مجددًا. نهض ذلك الشخص والتردُّد بادٍ عليه. كان من الواضح أن الشهادة السابقة قد شوَّشَت على بعض أفكاره، أو دعمَت بلا شكٍّ بعضَ الشكوك غير المرغوب فيها.

بدأ المحقق كلامه: «سيد هارويل، علمنا بوجود مسدس تَئول ملكيتُه إلى السيد ليفنوورث، وعند التفتيش، وجدناه في غرفته. هل كنتَ على علمٍ بامتلاكه لهذا السلاح؟»

«كنتُ أعلم.»

«هل كان أمرًا معروفًا بوجهٍ عام في المنزل؟»

«يبدو كذلك.»

«كيف كان ذلك؟ هل كان من عادته أن يتركه في مكانٍ ما حيث يمكن لأي أحد أن يراه؟»

«لا يمكنني أن أجزم؛ يُمكنني فقط أن أُطلِعَك على الكيفية التي عرَفتُ عن طريقها بوجوده.»

«عظيم، تفضَّل.»

«كنَّا نتحدَّث ذات مرةٍ عن الأسلحة النارية. هذا الموضوع يَستهويني بعضَ الشيء، وكنتُ توَّاقًا دومًا إلى اقتناء مسدسٍ صغيرٍ بحجم الجيب. وعندما أفصحتُ له عن شيءٍ من هذا القبيل ذات يوم، نهض من مقعده، وأحضر إليَّ هذا المسدس، وأراني إياه.»

«منذ متى حدث هذا؟»

«منذ أشهرٍ قليلة.»

«أهذا يعني أنه كان يمتلك هذا المسدسَ منذ مدة؟»

«أجل، يا سيدي.»

«هل كانت تلك هي المناسبة الوحيدة التي رأيته فيها؟»

«لا، يا سيدي»، واحمرَّ وجهه، ثم أردف: «رأيته مرة واحدةً أخرى منذ ذلك الحين.»

«متى؟»

«منذ نحوِ ثلاثة أسابيع.»

«في أي ظروف؟»

أخفض السكرتير رأسَه، وظهرت فجأةً على وجهه نظرةُ إرهاق.

سأل بعد لحظة تردُّد: «أيمكنكم إعفائي من الإجابة، أيها السادة؟»

أجاب محقِّق الوفيات: «هذا مستحيل.»

ازداد وجهه امتقاعًا واستنكارًا. صرَّح في ترددٍ: «أجدُني مُضطرًّا إلى أن أذكر اسم سيدة.»

علَّق محقِّق الوفيات: «يؤسفنا ذلك جدًّا.»

اندفع الشاب بقوةٍ ناحيته. ولم أستطع أن أمنع نفسي من التعجُّب من أنني كنت قد ظننتُ أنه رجل عادي. وصاح قائلًا: «الآنسة إلينور ليفنوورث!»

عند سماع هذا الاسم، الذي نُطق به للتو، انتفضَ الجميع من أماكنهم عدا السيد جرايس، كان منهمكًا في عقد حوارٍ وثيق وسرِّي مع أطراف أصابعه، ولم يبد أنه انتبه.

واصل السيد هارويل حديثه: «بالتأكيد يتعارض مع قواعد اللياقة والاحترام التي نُكِنُّها جميعًا تجاه السيدة نفسِها، أن نذكر اسمَها في هذه المناقشة.» لكن نظرًا إلى أن محقق الوفيات كان لا يزال مُصرًّا على الحصول على إجابة، فقد عاد وعقد ذراعيه (وهي حركةٌ تدلُّ على الاتفاق معه)، وبدأ بنبرة منخفضة ومُكرَهة يقول:

«هذه هي المرة الوحيدة، أيها السادة. ذاتَ يوم بعد الظهيرة، منذ قرابة ثلاثة أسابيع، تَسنَّى لي أن أذهب إلى المكتبة في ساعةٍ لم أَعْتَد الذَّهاب فيها إلى هناك. وعندما كنت أتَّجِه ناحية رفِّ المدفأة لكي أُحضر مِطواةَ جيب كنت قد تركتها دون انتباهٍ هناك في الصباح، سمعتُ ضوضاء في الغرفة المجاورة. وإذ كنتُ أعلم أن السيد ليفنوورث كان بالخارج حينها، وظنًّا مني أن السيدَتَين كانتا بالخارج أيضًا، سمحتُ لنفسي بالدخول لأتبيَّن مَن

كان الدخيل؛ حينها أذهلَني أنني وجدتُ الآنسة إلينور ليفنوورث واقفةً بجانب فِراش عمِّها، والمسدس في يدِها. مرتبكًا جرَّاء فعلتي المتهورة، حاولتُ الهرَب دون أن تلمحَني، ولكن عبثًا، وذلك لأنه ما إن كنتُ أعبر عتبة الباب، حتى التفتَت، ونادَتْني باسمي، وطلبَت مني أن أوضح لها المسدس. أيها السادة، حتى أتمكنَ من فعل ذلك، كنت مضطرًّا إلى أن أمسكه بيدي؛ وتلك، يا سادة، هي المناسبة الوحيدة الأخرى التي رأيت فيها مسدسَ السيد ليفنوورث أو أمسكته.» ثم نكَّس رأسه، وانتظر السؤال التاليَ في قلقٍ لا يُوصف.

«طلبَت منك أن توضح لها المسدس؛ ماذا تقصد بذلك؟»

تابع بضعف، ملتقطًا أنفاسَه محاولًا دون جدوى أن يبدوَ هادئًا: «أعني كيفية حشوِ المسدس، والتصويب به، وإطلاق الرصاص منه.»

ظهرَت ومضةٌ عابرة من التنبه على وجوه جميع الحاضرين. وحتى محقق الوفيات ظهرَت عليه أماراتُ انفعال مفاجئة، وحدَّق جالسًا في الوجه المنكَّس والشاحب للرجل الماثل أمامه، بنظرةٍ غير مألوفة من الشفقة المندهشة، نجحَت في أن تتركَ انطباعًا في النفس، ليس فقط على الشاب نفسه، ولكن على جميع من أبصروه.

أخيرًا سأله: «سيد هارويل، هل لديك أيُّ شيء تُضيفه إلى الإفادة التي أدليت بها للتو؟»

هزَّ السكرتير رأسه نفيًا في أسًى.

وهنا همستُ: «سيد جرايس»، متشبثًا بذراع ذلك الشخص وجاذبًا إياه لأسفل بجانبي؛ مردفًا: «طَمْئنِّي، أتوسَّل إليك ...» لكنه لم يدَعْني أُكمل كلامي.

قاطعني سريعًا: «محقق الوفيات على وشك أن يستجوبَ السيدتَين الشابتَين. إذا كنت ترغب في أن تؤديَ واجبك تجاههما، استعِدَّ لذلك، وهذا كل ما في الأمر.»

أؤدِّي واجبي! هذه الكلمات البسيطة جعلَتني أسترجع زِمام نفسي. فيمَ كنتُ أفكر؛ أجُننت؟ ودون أن يكون في ذهني شيءٌ أفظعُ من صورةٍ شجية لابنتَي العمِّ الحسناوَين المنكبَّتين في حُرقةٍ على جثمانِ مَن كان عزيزًا عليهما وفي منزلة الأب لهما، نهضتُ ببطء، وبِناءً على طلبٍ مُقَدَّم من أجل الآنسة ماري والآنسة إلينور ليفنوورث، تقدمتُ وقلت إنه، بصفتي صديقَ العائلة — وهي كذبة صغيرة، آمُل ألا تنقلب ضدي — ألتمس الإذن بأن أذهب إلى السيدَتَين وأصطحبهما إلى الأسفل.

على الفور نظرَت عشراتُ الأعين نحوي بنظراتٍ خاطفة، وشعرتُ بإحراجِ مَن، بكلمةٍ أو بفعلٍ غيرِ متوقع، جذَب تجاهَه انتباهَ وتركيزَ غرفةٍ بأكملها.

لكن بعد أن قُوبل الإذن الذي طلبتُه بالموافقة في الحال، تمكنتُ سريعًا من الانسحاب من ذلك الوضع المزعجِ نوعًا ما، ووجدتُ نفسي، تقريبًا قبل أن أدرك، في الردهة، ووجهي متَّقد، وقلبي ينبض من شدة الانفعال، وكلمات السيد جرايس ترن في أذني: «الطابق الثالث، الغرفة الخلفية، أول باب عند مقدمة السُّلم. ستجد السيدَتَين الشابتَين في انتظارك.»

الفصل السادس

أضواء جانبية

يا إلهي! إنَّ لها جمالًا قد يوقع نفسَ محاربٍ منتصر في شَرَكه،
ويجعله يتخلَّى عن تاجِه على نحوٍ عشوائي، ليصارعَه عليه العبيدُ.

أوتواي

الطابق الثالث، الغرفة الخلفية، أول باب عند مقدمة السلَّم! ماذا عساي أن أجد هناك؟

صاعدًا درجاتِ السلم السفليةَ، وأوصالي ترتعدُ بجانب حائط المكتبة، الذي بدا لخيالي المشوَّش مكتوبًا على أرجائه إشارات مروعة، أخذت أشقُّ طريقي على مهلٍ صاعدًا درجات السلم، وأشياءُ كثيرة تجول في ذهني، من بينها موعظةٌ نصحتني بها أمي منذ مدةٍ طويلة شَغلَت مكانة مميزة لديَّ.

«يا بُني، تذكَّر أن المرأة التي تُخفي سرًّا قد تكون موضوعَ بحث مشوق، لكنها لا يُمكن أبدًا أن تكون رفيقًا يُؤتمَن ولا حتى يَسُر.»

حكمة بليغة، بلا شك، لكنها لا تنطبق بتاتًا على الموقف الحاليِّ؛ لكنها ظلت تُطاردني حتى وقعت عيناي على الباب الذي كنت قد وُجِّهتُ إليه، وتخلَّصت من كل فكرة أخرى ساورَتني إلا أنني كنت على وشك أن ألتقيَ بابنتَي الأخِ المكلومتَين لذلك الرجلِ الذي قُتِل بوحشية.

متوقِّفًا مدةً طويلةً بما يكفي على عتبة الباب كي أستجمعَ شَتات نفسي تأهُّبًا للمقابلة، رفعتُ يدي لأطرق الباب، وعندئذٍ ارتفع صوتٌ رخيم جليٌّ من الداخل، وسمعت بوضوحٍ هذه الكلماتِ التي لُفظَت ونزلَت عليَّ كالصاعقة: «أنا لا أتَّهمُكِ أنكِ فعلتِ ذلك بيدكِ، رغم أني لا أعرف أحدًا آخرَ من شأنه أن يرتكب أو يمكن أن يكون قد ارتكب هذه

الفعلة؛ لكن قلبكِ، ورأسكِ، ونيتكِ، هي ما أتهمُه وما يجب أن أُوجِّه إليه الاتهام، بيني وبين نفسي على الأقل؛ ومن الجيد أن تُدركي ذلك!»

ترنَّحتُ إلى الوراء في هلعٍ، ويداي على أُذُنَيَّ، وعندها شعرتُ بيدٍ تلمس ذراعي، واستدرتُ، فرأيت السيد جرايس واقفًا بجانبي، وإصبعه على شفتَيه، وآخِرُ طيفٍ عابر من الانفعال المفاجئ آخذٌ في الزوال من على وجهه الثابت، الذي كان يحمل أمارات الشفقة.

صاح قائلًا: «تعالَ، تعال. أرى أنك لم تبدأ في استيعاب طبيعة العالم الذي تعيش فيه. انتبه لنفسك؛ وتذكَّر أنهم في انتظارك في الأسفل.»

«لكن مَن؟ من الذي قال ذلك؟»

«سنرى ذلك بعد قليل.» ومن دون أن ينتظر أن يُواجه نظرتي المتوسلة، ولا حتى أن يُجيبها، طرَق البابَ، وفتحه على مِصراعَيه.

على الفور برَز أمامنا مشهدٌ مفعم بلونٍ مبهج. ستائر زرقاء، وسجادات زرقاء، وجدران زرقاء. كأن قطعة من السماء وُضِعَت في مكان لم يكن متوقعًا إلا أن تُخيِّم عليه أجواء مظلمة وكئيبة. منبهرًا بالمشهد، اندفعتُ بتهوُّر إلى الأمام، لكنني على الفور توقفت مجددًا، متأثرًا بشدةٍ ومأخوذًا بالصورة الفاتنة التي رأيتها أمامي.

أبصرتُ امرأةً بهيةً جالسةً على كرسيٍّ مريحٍ يكسوه قماش ساتان مُطرَّز، لكنها كانت تنهض من جلستها التي كانت أشبهَ بالاستلقاء، كمن كان يهمُّ بإطلاق سُبَّة حادة. كانت شقراء، هيفاء، متكبِّرة، رقيقة؛ تُشبه زَنْبقةً في ثوبها الفضفاض السميك الكريمي الذي كان تارةً يلتصق بجسدها البديع التكوين وأخرى يتماوَج مبتعدًا عنه؛ وكان جَبينها، المتوَّج بأكثرِ جديلة فاتحةٍ من بين جدائلها الصفراء، مرتفعًا ويتوهَّج بالعِزة؛ وإحدى يدَيها ترتجف متشبثةً بمسند كرسيِّها، والأخرى مبسوطةً وتشير تجاه شيء بعيدٍ في الغرفة؛ كانت هيئتها كلُّها مذهلة، واستثنائية، حتى إنني حبستُ أنفاسي في دهشة، وفي الحقيقة ساورَني للحظة إن كان ما أراه امرأةً حيَّة، أو عرَّافة مشهورةً ما، استُحضِرَت من قصة قديمة؛ لتُعبر بإيماءة مخيفة عن الغضب العارم لأنوثة ثائرة.

همس الصوت الذي لازمني دائمًا وأبدًا من فوق كتفي: «الآنسة ماري ليفنوورث.»

أوه! ماري ليفنوورث! يا له من ارتياحٍ ذاك الذي بعثَه في نفسي هذا الاسم. هذه المخلوقة الجميلة، إذن، لم تكن إلينور التي استطاعت أن تحشوَ مسدسًا، وتُصوبه، وتُطلق الرصاص منه. ملتفتًا برأسي، تبعتُ اتجاهَ يدها المرفوعة لأعلى، التي كانت في تلك الحظة قد تجمَّدَت في مكانها على إثرِ شعورٍ جديد انتابها: الشعور بأنها تعرضَت للمقاطعة

وسط إفشائها لسرٍّ مريع يُخفي وراءه الكثير، ورأيتُ … ولكن، لا، هنا يعجز لساني عن الوصف! فلا بد أن يرسم أحدٌ آخرُ بالكلمات صورةَ الآنسة إلينور ليفنوورث. يمكنني أن أمضيَ نصف اليوم في الإسهاب في وصف الجمال البارع، والطلاوة المشرقة، وكمال الجسم والملامح الذي يجعل من ماري ليفنوورث مثارَ إعجاب كلِّ من رأَوها؛ أما إلينور … فكان بإمكاني سريعًا أن أصفَ اضطراب نبضات قلبي. ساحرة، مهيبة، رائعة، شجيَّة، ذلك الوجه الأجمل الذي مرَّ أمام عيني كلمحِ البصر، وفي الحال اختفى مِن ذاكرتي الجمالُ البهي لابنة عمها، ولم أرَ سوى إلينور، ولا أحد إلا إلينور من تلك اللحظة وإلى الأبد.

عندما وقع نظري عليها لأول مرة، كانت تقف إلى جانب منضدةٍ صغيرة، ووجهها ملتفتٌ تجاه ابنة عمها، وإحدى يدَيها مستقرةٌ على صدرها، والأخرى على المنضدة، في وضعيةٍ عدائية. لكن قبل أن تسكن الغصَّة المفاجئة التي أصابتني عند رؤية جمالها، كانت قد أدارت رأسها، والتقى بصرُها ببصري؛ فظهر هولُ الموقف كلُّه على محيَّاها، وبدلًا من أن أرى فتاةً متغطرسةً، تنتفض غضبًا لتلقِّيها تلميحاتٍ من الأخرى وتتصرف حيال الأمر بقسوةٍ واستعلاء، رأيت، للأسف! إنسانةً ترتجف، بأنفاسٍ مضطربة، مدركةً أن سيفًا قد استُلَّ فوق رأسها، دون أن تنطق بكلمةٍ تُبرر لماذا يجب ألا يسقط هذا السيف عليها ويذبحها.

كان تغييرًا مثيرًا للشفقة؛ مفاجأة يَدْمى لها القلب! تحوَّلتُ بوجهي عن هذا المشهد وكأنني أتحوَّل عن مشهدِ اعتراف. لكن في تلك اللحظة تحديدًا، تقدمَت ابنةُ عمها، التي كانت على ما يبدو قد استعادت زِمام نفسِها عند أول انفعال فضحَ الأخرى، وباسطةً يدها سألت:

«أليس هذا السيد ريموند؟ يا له من لطفٍ منك، يا سيدي.» والتفتت إلى السيد جرايس وقالت: «وأنت؟ جئتَ تُخبرنا أنهم يطلبوننا في الأسفل، أليس كذلك؟»

كان ذلك هو الصوت الذي سمعته من قبل من وراء الباب، لكنه جوِّد ليصير عذبًا، جذابًا، تغلب عليه نبرة دلال.

رمقتُ السيد جرايس بنظرةٍ سريعة، متطلعًا إليه لأرى وقْعَ الصوت عليه. ومن الواضح أن وقعَه كان بالغًا، وذلك بسبب أن الانحناءة التي استقبل بها كلماتها كانت أدنى من المعتاد، والابتسامة التي لقيَ بها نظرتها الجادة كانت مستنكرةً وباعثة على الاطمئنان في آنٍ واحد. لم تشمل نظرته ابنة عمتها، رغم أن عينَيها كانتا شاخصتَين إلى وجهه وفي أعماقهما استفهامٌ أكثرُ إيلامًا من أي صُراخ كان من الممكن أن يُعبر عنه.

ولمعرفتي بالسيد جرايس كما كنت حينها، شعرت أن لا شيء يمكن أن يُنذر بما هو أسوأ من، أو يحظى بأهمية عن، هذا التجاهل الواضح لمن بدَت أنها ملأت الغرفةَ بذُعرها. وفي خِضمِّ تأثري بشعورٍ بالشفقة، نسيتُ أن ماري ليفنوورث كانت قد تكلمت، ونسيتُ وجودها ذاتَه في الحقيقة، ومتحولًا عنها بسرعة، خطوتُ خطوةً نحو ابنة عمها، عندئذٍ استوقفَتني يدُ السيد جرايس التي سقطَت على ذراعي.

قال: «الآنسة ليفنوورث تتحدث.»

استرجعتُ شتات نفسي، وولَّيت ظهري لِما كان قد شغَل اهتمامي كثيرًا حتى عندما كان منفرًا، ومجبرًا نفسي على أن أُبدي أي ردٍّ على هذه المخلوقة الجميلة التي أمامي، مدَدتُ لها ذراعي وقُدتها ناحية الباب.

على الفور لانت ملامحُ الآنسة ماري ليفنوورث الشاحبة والأبية إلى حدِّ الابتسام؛ وهنا دعوني أقُل، لم تكن توجد امرأةٌ مطلقًا بإمكانها أن تبتسمَ ولا تبتسمَ في الوقت نفسِه مثلُ ماري ليفنوورث. ناظرةً إلى وجهي، وعيناها تنطقان بإعجابٍ صريح وجذَّاب، تمتمَت قائلةً:

«أنت شخص طيب جدًّا. لديَّ شعور مُلِح بالحاجة إلى الدعم؛ الموقف مريعٌ للغاية، وابنة عمي ...» وهنا التمعَت ومضةُ حذرٍ بسيطة في عينيها «في حالة غريبة جدًّا اليوم.»

حدَّثت نفسي: «همم! أين هي العرَّافة العظيمة الغاضبة، التي يرتسم على وجهها غضبٌ ووعيد يستعصي وصفُه، والتي رأيتها عندما دخلتُ الغرفة أولَ مرة؟» هل من الممكن أنها كانت تُحاول تضليلَنا عما وصلنا إليه من افتراضات، بالتخفيف من تعبيراتها السابقة؟ أو هل كان محتملًا أنها خدعَت نفسها كثيرًا إلى حدٍّ أن تعتقدَ أننا لم نُبالِ بالاتهام الخطير الذي سمعناه مصادفةً في لحظةٍ حرجة للغاية؟

لكن سرعان ما استحوذَت إلينور ليفنوورث على انتباهي كلِّه وهي تتَّكئ على ذراع رجل المباحث. كانت قد استعادت زِمام نفسها أيضًا في ذلك الوقت، ولكن ليس تمامًا مثل ابنة عمها. تعثَّرَت خطواتها وهي تُحاول السير، وكانت اليدُ المستقرة على ذراعه ترتجف كورقة شجر. قلتُ لنفسي: «بحق السماء ليتني ما كنت دخلتُ هذا المنزلَ قطُّ.» ولكن قبل أن أُكمل هذا التمني، أدركت اعتراضًا خفيًّا على هذه الفكرة؛ وانتابني شعور، إن صحَّ القول، بالامتنان لأنني كنتُ أنا، وليس شخصًا آخر، الذي سُمح له باقتحام خصوصيتهما، والذي سمع بالصدفة هذا التعليقَ الخطير، والذي، وينبغي أن أقرَّ بذلك، تبع السيد جرايس وإلينور ليفنوورث بجسدها المرتجف المتمايل على درجات السلم إلى

الأسفل. لا يعني ذلك أنني شعرتُ بنفسي تلين ولو قليلًا تجاه الجُرْم. فالجريمة لم تبدُ بهذه السوداويةِ من قبل؛ لم يبدُ الانتقام، والأنانية، والبغض، والجشع أكثرَ بشاعةً قبلَئذٍ؛ ومع ذلك ... ولكن لِماذا التطرقُ إلى تناول مشاعري في تلك اللحظة. لا يمكن أن تكون محلَّ اهتمام الآن؛ علاوةً على ذلك، مَن ذا الذي يمكنه أن يَسبُرَ أغوارَ نفسِه، أو يحلَّ للآخرين تعقيدَ الخيوط السرية للنفور والانجذاب، التي تُمثل، ودومًا كانت، لغزًا ومثارَ تساؤل للمرء نفسِه؟ يكفي هذا؛ مسندًا إلى ذراعِي جسدَ امرأةٍ واهنة قليلًا، ولكن انتباهي واهتمامي كانا مكرَّسَين لأخرى، نزلتُ درجات سلم بيت السيد ليفنوورث، ودخلت من جديد على الجمع المنفِّر من أولئك المحققين القانونيِّين الذين كانوا قد ظلُّوا في انتظارنا بنفادِ صبر.

إذ إنني ما إن تجاوزتُ تلك العتَبة، وواجهت وجوهَ أولئك الذين كنتُ قد تركتُهم منذ مدةٍ قصيرة للغاية، شعرت وكأنَّ أزمانًا قد انقضَت في هذه المدة؛ يمكن للنفس البشرية أن تُكابد الكثيرَ في مدة زمنية قصيرة فيها لحظاتٌ قليلة شاقة ومضنية.

الفصل السابع

ماري ليفنوورث

لك الشكر على هذا الإخلاص.

مسرحية «هَمْلِت» [ترجمة د. محمد عناني]

هل لاحظتَ من قبلُ تأثير ضوء الشمس الذي يسطع فجأةً على الأرض من وراء كتلٍ متراكمة من السُّحب المثقَلة بالماء؟ إذا كنتَ قد فعلت، فبإمكانك أن تُكَوِّن فكرةً ما عن الشعور الذي أحدثَه دخولُ هاتَين السيدتَين الجميلتَين إلى الغرفة. كان لهما حُسنٌ من شأنه أن يكون جليًّا في جميع الأماكن وتحت كلِّ الظروف؛ فعلى أقلِّ تقديرٍ لم يكن من الممكن مطلقًا أن تدخل ماري، مع كونها أقلَّ ابنتَي العمِّ جاذبيةً، وإن لم تكن بأي حال من الأحوال الأقلَّ لفتًا للانتباه، أيَّ تجمُّعٍ دون أن تجتذبَ انتباهَ جميعِ الحاضرين وتساؤلَهم. ولكن، إذ قَدِمَت كما هو الحال هنا، تسبقها أكثرُ الفاجعات رهبةً، ماذا كان يمكنك أن تتوقع من زمرةٍ من الرجال مثل هؤلاء الذين سبق أن وصفتهم، إلا أن تبدوَ عليهم دهشةٌ طاغية وانبهار غير مُصَدِّق؟ لا شيء ربما، ومع ذلك عند صدور أول صوتِ همهمة ذهول واستحسان، شعرتُ بأن نفسي تنفرُ من فرط الاشمئزاز.

سارعت إلى أن أُجلِس مُرافقتي، التي كانت ترتجفُ في تلك اللحظة، في أكثرِ بقعة منزوية تمكَّنت من العثور عليها، ونظرتُ حولي بحثًا عن ابنة عمها. لكن إلينور ليفنوورث، الضعيفة كما كانت قد بدَت في المقابلة بالأعلى، لم يكن يظهر عليها في تلك اللحظة ترددٌ أو ارتباك. تقدمَت مستندةً على ذراع رجل المباحث، الذي لم تكن قدرته المفترَضة على الإقناع في حضور هيئة المحلَّفين تُثير أي قدرٍ من الطمأنينة، ووقفت برهةً تُحدق في هدوء في المشهد أمامها. ثم بعد انحنائها لمحقِّق الوفَيات ببهاء وتفضُّل والذي بدا منه على الفور

أنها تضعُه في موضع الدَّخيل الذي يتعيَّن احتمالُه بأدبٍ في هذا المنزل الراقي، جلست على الكرسي الذي أسرع خدمها بإحضاره إليها، في سلاسةٍ ووقار استحضرا الحفلات التي شهدتها غرفة الاستقبال الرسميةِ أكثرَ من الوعي الذاتي بمشهدٍ مثل ذلك الذي وجدنا أنفسَنا فيه. كان تصنعًا واضحًا، ورغم كونه كذلك، لم يكن عديمَ الأثر. توقفت في الحال أصواتُ الهمس، وغُضَّت النظرات المتطفِّلة، وفرَض شيءٌ يُشبه إجلالًا متكلَّفًا نفسَه بقوة على وجوه جميع الحاضرين. حتى أنا، الذي كنت قد تأثرت بسلوكها المختلف جدًّا في الغرفة بالأعلى، انتابني شعورٌ بالراحة؛ ثم ازدادت دهشتي عندما استدرتُ إلى السيدة التي بجانبي، ورأيتُ عينيها ثابتتَين على ابنة عمها وفي أعماقهما تساؤلٌ لم يكن مشجعًا على الإطلاق. ولخوفي من الانطباع الذي قد تتركه هذه النظرة على من حولنا، أسرعتُ بإمساك يدها التي كانت متشبثة من دون وعي منها وممسكةً بحافة مقعدها، فكنت على وشك أن أُناشدَها أن تكون حذرة، عندما أفاقها من شرودها اسمُها الذي نادى عليه محققُ الوفَيات بطريقة متأنِّية ومؤثرة. سرعان ما أبعدت نظرتها عن ابنة عمها، ورفعت وجهها إلى هيئة المحلَّفين، ورأيت عليه ومضةً عابرة أعادت إليَّ صورتي الذهنية الأولى عن العرَّافة. لكنها مرت، وبتعبيرٍ ينطوي على تواضعٍ شديد تأهبت لتلبية طلب محقق الوفيات والإجابةِ عن بعض الأسئلة التمهيدية الأولى.

لكن، ما الذي يمكن أن يُعبَّر به عن توترِ تلك اللحظة؟ مع هدوئها الذي كان باديًا عليها في تلك اللحظة، كانت قادرةً على إبداء غضبٍ عارم، كما عَرَفْت. هل كانت ستُكرر شكوكها هنا؟ هل كرهَت ابنة عمها وفقدت ثقتها فيها؟ هل ستجرؤ على التأكيد وسطَ هذا الحشد، وأمام العالم، على ما تيسَّر عليها أن تنطق به على انفرادٍ في غرفتها وعلى مَسمع من الشخص المعنيِّ؟ هل كانت ترغب في ذلك؟ لم يُعطني وجهُها أي فكرة عن نواياها، وفي ظل قلقي، التفتُّ مرةً أخرى لأُلقيَ نظرةً على إلينور. لكنها كانت قد تراجعت إلى الوراء، في رهبةٍ وتوجُّس، يمكنني بسهولةٍ أن أتفهَّمَهما، مع أول تنويه بأن ابنةَ عمها كانت الشخصَ الذي سيتكلَّم، وفي تلك اللحظة كانت جالسةً ووجهها مستترٌ عن الأنظار، بيدَيها التي كاد شحوبُها يكون كشحوب الموتى.

كانت شهادة ماري ليفنوورث قصيرة. بعد أن وُجِّهَت إليها بعض الأسئلة القليلة، التي كان أغلبها يتعلق بمكانتها في المنزل وعلاقتها بعمِّها المتوفَّى، طُلِب منها أن ترويَ ما كانت تعرفه عن واقعة القتل ذاتِها، وعن اكتشاف ابنةِ عمها والخدم لها.

رفعَت أحد حاجبَيها الذي بدا أنه لم يكن قد عَهِد مطلقًا حتى الآن ذرةَ جزعٍ أو كَدَر، وبصوتٍ، مع انخفاضه ونعومته، أحدثَ رنينًا كالجرس في الغرفة من أولها لآخرِها، أجابت قائلةً:

«أنتم تطرحون عليَّ، أيها السادة، سؤالًا لا يُمكنني الإجابةُ عنه من منطلَقِ معرفتي الشخصية. لا أعلم شيئًا عن واقعة القتل هذه، ولا عن اكتشافها، باستثناء ما وصلَني على ألسنة الآخرين.»

وثبَ قلبي ارتياحًا، ورأيت يدَي إلينور ليفنوورث تهوي من على جبينها كالحجر، بينما مرَّ بصيصُ أمل خاطفٌ على وجهها، ثم أخذ يتلاشى شيئًا فشيئًا كضوءِ شمس يُفارق تمثالًا رخاميًّا.

واصلَت ماري بنبرةٍ جادة، وقد عاود شبحُ الخوف الذي جاءها من قبلُ الظهورَ على وجهها مجددًا: «وذلك لأنني، مع الغرابة التي قد يبدو بها هذا لكم، لم أدخل الغرفةَ التي كان عمي راقدًا فيها. لم أفكر حتى في أن أفعل ذلك؛ كان الباعث الوحيد الذي راودَني حينها أن أهرب من هذا المشهد الذي كان مُريعًا ومفجعًا للغاية. لكن إلينور دخلت، ويُمكنها أن تُخبركم ...»

قاطعها محقق الوفَيات، لكن بأسلوبٍ لطيفٍ جدًّا من جانبه، قائلًا: «سوف نستجوب الآنسة إلينور ليفنوورث لاحقًا.» بدا واضحًا أن جمال هذه المرأةِ الحسناء وأناقتَها كانا لهما تأثيرُهما. وأردف: «ما نريد أن نعرفه هو ما رأيتِه «أنتِ». تقولين إنكِ ليس بوُسعكِ أن تُخبرينا بأي شيءٍ ممَّا حدث في الغرفة وقتَ اكتشاف الواقعة؟»

«أجل، يا سيدي.»

«فقط ما حدث في الردهة؟»

علقَت ببراءة: «لم يحدث شيءٌ في الردهة.»

«ألم يمرَّ الخدم من الردهة، وخرجَت ابنةُ عمِّك إلى هناك بعد أن استفاقت من إغماءتها؟»

اتسعَت عينا ماري ليفنوورث البنفسجيتان في تعجبٍ.

«بلى، يا سيدي؛ لكن ذلك لم يكن يعني شيئًا.»

«هل تتذكَّرين، مع ذلك، مجيئَها إلى الردهة؟»

«أجل، يا سيدي.»

«ومعها ورقة في يدها؟»

«ورقة؟» ثم استدارت فجأةً ونظرت إلى ابنة عمها. وقالت: «هل كانت معكِ ورقة يا إلينور؟»

كانت لحظةً عصيبة. انتصبَت إلينور ليفنوورث، التي كانت قد جفلت بوضوحٍ عندما ذُكِرَت كلمة «ورقة» للمرة الأولى، واقفةً على قدمَيها استجابةً لهذه المناشدة الساذَجة، وفتحت شفتَيها، وبدا أنها كانت على وشك أن تتكلم، وعندئذٍ رفع محقق الوفيات، بأسلوبه الصارم الذي كان معتادًا، يده في حزمٍ، وقال:

«لستِ بحاجةٍ إلى سؤال ابنة عمكِ، يا آنسة؛ لكن دعينا نسمع ما لديكِ من أقوال.»

في التوِّ، هوَت إلينور ليفنوورث على كرسيِّها مجددًا، وقد تفشَّت على وجنتَيها بقعةٌ وردية اللون؛ بينما سرَت همهمةٌ خفيفة شهدت على إحباط أولئك الحاضرين في الغرفة، الذين كان حرصُهم على إشباع فضولهم أشدَّ من حرصهم على الالتزام بالقواعد القانونية المتَّبَعة.

راضيًا عن أدائه لواجبه، وميَّالًا إلى التساهل مع هذه الشاهدة الفاتنة، كرَّر محققُ الوفَيات سؤاله. «أخبِرينا، من فضلكِ، هل رأيتِ شيئًا كهذا في يدها؟»

«أنا؟ أوه، لا، لا؛ لم أرَ شيئًا.»

وبسؤالها عندئذٍ عن أحداث الليلة السابقة، لم تُلقِ أيَّ ضوء جديد على هذا الموضوع. أقرَّت بأن عمها كان متحفظًا قليلًا على العشاء، لكن ليس بدرجة تَزيد كثيرًا عن مرَّات سابقة عندما كانت تُزعجه بعضُ مشاغل العمل.

وبسؤالها عمَّا إذا كانت قد رأت عمها مجددًا تلك الليلة، نفَت ذلك، وأفادت بأنها بقيت في غرفتها. وأضافت أن صورته، جالسًا على مقعده على رأس المائدة، كانت الذِّكرى الأخيرة التي كانت تحملها له.

ثَمة شيءٌ في ذِكراها البسيطة كان مؤثرًا للغاية، ومثيرًا للبؤس، ولكنه خفي، حتى إن نظرة تعاطف سرَت ببطء في أنحاء الغرفة.

حتى إنني اكتشفْتُ أن نظرة السيد جرايس إلى المحبرة خفَّت حِدتها. لكن إلينور ليفنوورث ظلَّت جامدةً في مكانها.

عندئذٍ سُئِلَت: «هل كان عمُّكِ على علاقة متوترة بأي شخص؟ هل كانت في حوزته أيُّ أوراق قيِّمة أو مبالغَ نقدية مُخبَّأة؟»

أجابت على جميع تلك الأسئلة بنفيٍ مماثل.

«هل قابل عمكِ أيَّ شخص غريب في الآونة الأخيرة، أو تسلَّم أي خطاب ذي أهميةٍ أثناء الأسابيع القليلة الماضية، قد يبدو أنه يكشف بطريقةٍ أو بأخرى عن أي تفاصيل بشأن هذا اللغز؟»

كان ثمة ترددٌ طفيف للغاية في صوتها، وهي تُجيب قائلةً: «لا، ليس على حد علمي؛ ليس لديَّ علم بأي شيء من هذا القبيل.» لكن عند تلك اللحظة، استرقت نظرةً جانبيةً إلى إلينور، وكان واضحًا أنها رأت شيئًا أعاد الطُّمأنينة إليها؛ لأنها سارعت مضيفةً:

«أعتقد أنني يُمكنني أن أمضيَ إلى ما هو أبعدُ من ذلك، وأن أُجيب عن سؤالك بنفيٍ قاطع. كانت من عادة عمِّي أن يُفضيَ إليَّ بأسراره، وكنت سأعرف إذا كان قد جرى معه أيُّ شيءٍ ذي أهمية.»

بسؤالها عن هانا، تحدثت عنها على نحو ممتاز، ولم يكن لديها علمٌ بأي شيءٍ كان يمكن أن يؤديَ إلى اختفائها الغريب، أو إلى أن يكون لها صلةٌ بالجريمة. لم يكن بإمكانها أن تجزمَ بأنها كان لها رفيق، أو كان يأتيها أيُّ زائرين؛ لم تعرف سوى أنه لم يأتِ إلى المنزل أيُّ أحد بتلك الذرائع. أخيرًا، عندما سُئلت متى كانت آخر مرة رأت فيها المسدسَ الذي كان السيد ليفنوورث يحتفظ به دائمًا في درج خِزانته، أجابت بأنها لم ترَه منذ اليوم الذي اشتراه فيه؛ فإلينور، وليس هي، كانت المسئولة عن غرفة عمِّها.

كان هذا هو الشيء الوحيد فيما قالته الذي يبدو، حتى لعقل متوجِّس كعقلي، أنه قد يشير إلى أي شكٍّ شخصي أو اشتباهٍ دفين؛ وهذا، الذي قيل بلا مُبالاة، كان سيمرُّ دون تعليق لو لم تُوجه إلينور إلى المتحدثة في تلك اللحظة نظرةً ثائرة ومتسائلة للغاية.

لكن كان الوقت قد حان للمحلَّف الفضوليِّ أن يجعل صوتَه مسموعًا مرةً أخرى. متحركًا إلى حافة الكرسي، التقطَ أنفاسه، في إكبارٍ مبهم لجمال ماري، حتى إنه كاد يبدو لمن يراه مثيرًا للضحك، وسأل إن كانت قد أمعنَت التفكير فيما قالته لتوها.

فأجابت بجدِّية: «آمُل، يا سيدي، أن أتمعنَ في التفكير في كل ما يُطلَب مني أن أقوله في ظرفٍ مثل هذا.»

تراجع المحلف الشابُّ إلى الخلف، ثم تطلعتُ لأرى أنه كان قد انتهى من استجوابها، عندئذٍ لفت زميلُه ثقيل الظلِّ ذو السلسلة والساعة انتباهَ السيدة الشابة، وسألها فجأةً:

«آنسة ليفنوورث، هل سبق أن كتب عمُّكِ وصيته؟»

في الحال شعر جميعُ الحاضرين في الغرفة بالغضب، وحتى هي لم تستطع أن تمنع توردًا بطيئًا نابعًا من جرحِ كبريائها من أن يظهرَ على وجنتَيها. لكن إجابتها كانت حازمةً، ودون أيِّ إبداء للاستياء.

أجابت ببساطة: «أجل، سيدي.»

«أكثر من واحدة؟»

«لم أسمع إلَّا عن واحدةٍ.»

«هل أنتِ على علمٍ بفحوى تلك الوصية؟»

«نعم. لم يُخْفِ نواياه على أحدٍ.»

رفع المحلف نظارتَه ونظر إليها. كان بهاؤها أو جمالها أو تأنُّقها قليلًا في عينيه. وقال: «ربما، إذن، بإمكانكِ أن تُخبريني عن الشخص الذي من الأرجح أن يستفيدَ من موته؟»

كانت قسوة السؤال ملحوظةً إلى حدٍّ أنه لم يكن يمكن أن يمرَّ دون اعتراض. لم يكن ثمة رجلٌ في الغرفة، ولا حتى أنا، لم يكفهرَّ وجهُه فجأةً استهجانًا لما قيل. لكن ماري ليفنوورث نظرت، وهي تشدُّ قامتها، إلى وجه محاورها بهدوءٍ، وسيطرَت على نفسها لتقول:

«أعرف من سيكون الخاسرَ الأكبر بموته. إنهما الطفلتان اللتان ضمَّهما إلى كنَفِه في ظلِّ ضعفهما وحزنهما؛ الفتاتان الصغيرتان اللتان أحاطهما بهالةٍ من الحب والحماية، حينما كان الحبُّ والرعاية هما أسمى الاحتياجات في مرحلة عدم اكتمالِ نُضجهما؛ السيدتان اللتان لجأَتا إليه التماسًا لتوجيهه عندما انقضَت مرحلة الطفولة والشباب، هاتان، يا سيدي، هاتان هما الوحيدتان اللتان يُمثل موته خَسارةً لهما، والذي، مقارنةً به، لا بد أن تبدوَ جميعُ المصائب الأخرى التي قد تحلُّ بهما مستقبلًا تافهةً وبلا أهمية.»

كان ردًّا راقيًا على أحطِّ التلميحات، وتراجع المحلف شاعرًا بالتأنيب؛ ولكن عندئذٍ فإن واحدًا آخرَ منهم، واحدًا لم يكن قد تكلم من قبل، لكن مظهره لم يكن أفضلَ من الباقين فحسب، بل أيضًا كاد أن يكون مَهيبًا في وقاره، مال بجسده على مقعده وقال بصوتٍ رَزين:

«آنسة ليفنوورث، العقل البشري لا يملك أن يمنع نفسَه من تكوين انطباعات. والآن، هل شعرتِ في أيِّ وقتٍ، بسببٍ أو من دون سبب، بالشك تجاه أيِّ شخص بصفته قاتلَ عمك؟»

كانت لحظةً مرعبة. فيما يتعلق بي وفيما يتعلق بشخصٍ آخر، أثق بأنها لم تكن مرعبةً فقط، بل كانت مؤلمة. هل ستخذلها شجاعتها؟ هل سيظل عزمُها على حماية ابنة عمِّها صامدًا في وجه ما يُمليه الواجب والأمانة؟ لم أجرؤ على تمنِّي ذلك.

لكن ماري ليفنوورث، بعد أن اعتدلت في وقفتها، نظرت إلى المحقِّق وهيئة المحلَّفين بهدوءٍ في وجوههم، ودون أن ترفعَ صوتها، مضفيةً عليه نبرةً واضحةً وصارمةً إلى حدٍّ يصعب وصفُه، أجابت:

«لا؛ ليس لديَّ شكٌّ في أحد ولا سببٌ في أي شكٍّ. إن واقعة قتل عمي ليست مجهولةً كليًّا لي فحسب، بل أيضًا لا تُثير بداخلي أي شكوك.»

بدا وكأن ردَّها رفع عِبئًا ثقيلًا على النفس. وبينما كان الحاضرون يتنفَّسون الصُّعداء، تنحت ماري ليفنوورث جانبًا، واستُدعِيَت إلينور مكانها.

الفصل الثامن

دليل ظرفي

أوه، ظلام، ظلام، ظلام!

والآن إذ بلغ الاهتمامُ ذِروتَه، وإذ بدا أن السِّتار الذي كان يُواري هذه الكارثةَ المفجعة على وشك أن يُرفَع، إن لم يكن سيُزاح تمامًا، شعرتُ برغبة في الهروب من المشهد، في مغادرة المكان، في ألَّا أعرف المزيد. لم يكن ذلك لأني كنت أشعر بأيِّ خوفٍ من أن تفضح هذه المرأة نفسَها. فالثبات البارد لملامح وجهها التي كانت حينئذٍ مستقرةً وجامدة كان ضمانةً كافية في حدِّ ذاتها في مواجهة احتمال وقوعِ مثل هذه الكارثة. ولكن، إذا صح بالفعل أن شكوكَ ابنة عمها لم تكن نِتاج كرهٍ فحسب، وإنما نِتاج معلومات لديها؛ وإن لم يكن ذلك الوجهُ الجميل في حقيقة الأمر سوى قِناع، وأن حقيقة إلينور ليفنوورث كانت على نحو ما يبدو أن كلمات ابنة عمها توحي به، ويوحي به تصرُّفها بعد ذلك، كيف لي أن أُطيق الجلوس وأرى أفعى الخداع والخطيئة المخيفة تخرج من قلب هذه الزَّهرة البيضاء؟! ولكن، في ظل هذا التشويق النابع من عدم التيقُّن، ورغم أني رأيتُ شيئًا من أحاسيسي منعكسًا على وجوه كثيرينَ حولي، لم يُظهِر رجلٌ واحد في ذلك الجمع أيَّ ميل إلى المغادرة، وكنت أنا أقلَّهم ميلًا إلى ذلك.

كان مُحقق الوفَيات، الذي كان حُسن ماري الأشقرُ قد أثَّر عليه إلى حدِّ الإضرار الواضح بإلينور، الشخصَ الوحيدَ بالغرفة الذي أظهر عدم تأثره في تلك اللحظة. التفتَ ناحية الشاهدةِ بنظرةٍ، مع ما كانت تحمله من توقير، كانت تشوبُها لمسةُ قسوة، وبدأ حديثه:

«قيل لي، يا آنسة ليفنوورث، إنكِ كنتِ مقرَّبةً من أسرة السيد ليفنوورث منذ الطفولة، صحيح؟»

أجابت بنبرةٍ هادئة: «منذ كان عمري عشر سنوات.»

كانت تلك هي المرةَ الأولى التي أسمعُ فيها صوتها، وأدهشَني ذلك؛ فصوتها كان يُشبه بدرجةٍ كبيرة صوتَ ابنة عمها، ولا يُشبهه في الوقت نفسِه. فمع أنه كان يُشبهه في نبرة الصوت، كان يفتقر إلى قدرته على التعبير، إن جاز أن أقول ذلك؛ كان يَصدُر دون أن يُسمَع له طنينٌ في الأذن، ويتوقف دون أن يترك صدًى.

«قيل لي إنه منذ ذلك الوقت وأنت تُعامَلين مثلَ ابنةٍ له، صحيح؟»

«أجل، سيدي، مثل ابنته، حقًّا؛ كان أكثر من مجرد أب لكِلتَينا.»

«أعتقد أنكِ والآنسة ماري ليفنوورث ابنتا عم. متى دَخَلَت في الأسرة؟»

«في الوقت نفسِه الذي دخلتُ فيه. راح أبَوانا ضحية الكارثة نفسِها. ولولا عمُّنا، لَصرنا مشردتَين في هذا العالم ونحن طفلتان كما كنَّا.» وهنا توقَّفت عن الكلام، وسرَت في شفتَيْها المطبقتَين رجفةٌ خفيفةٌ ثم أضافَت: «لكنه، بطيبةِ قلبه، تبنَّى كِلتَينا لنُصبح جزءًا من أسرته، وأعطانا ما كانَت كِلتانا قد فقدَته؛ الأبوَّة والمأوى.»

«تقولين إنه كان بمنزلة الأبِ لكِ وكذلك لابنة عمكِ؛ لأنه تبنَّى كلتَيكما. هل تعنين بذلك أنه لم يكتفِ بأن يُحيطَكِ بحياةٍ منعَّمة، بل جعلكِ تفهمين أن الوضع نفسَه سيكون مكفولًا لكِ بعد مماتِه؛ بإيجاز، أنه كان ينوي أن يتركَ لكِ أي جزءٍ من ممتلكاته؟»

«لا، يا سيدي؛ فهمتُ من البداية أن ممتلكاته ستورَّث بموجب وصيةٍ إلى ابنة عمي.»

«لم تكن صلةُ القرابة بين ابنة عمِّكِ وبينه أقربَ له منكِ، يا آنسة إلينور؛ ألم يمنَحْكِ أبدًا أيَّ سببٍ لهذا التحيُّز الواضح؟»

«لا سبب سوى رغبتِه، يا سيدي.»

كانت إجابتها على هذه النقطة صريحةً وشافية حتى بدا أن ثقةً تدريجيَّةً أخذَت تحلُّ محلَّ الشكوك المزعجة التي أخذَت تحوم من البداية حول اسم هذه السيدة وشخصها. لكن بهذا الإقرار، الذي قيل بصوتٍ هادئ غيرِ مضطرب، لم تشعر هيئةُ المحلَّفين وحدها، ولكن أنا نفسي الذي كان لديَّ مبررٌ أكثر واقعيَّة لفقد الثقة فيها، أن مسألة الاشتباه الفعليِّ في أمرها لا بد أن تهتزَّ كثيرًا أمام الغياب المطلَق للدافع الذي دلَّت عليه إجابتُها بوضوح.

في تلك الأثناء تابَعَ المحققُ: «إذا كان عمُّكِ محسنًا إليكِ كما تقولين، فلا بد أن علاقتكِ به أصبحَت وطيدةً بدرجةٍ كبيرة، صحيح؟»

اتخذ فمُها هيئة انحناءةٍ حازمة مفاجئة، وقالت: «أجل، سيدي.»

«إذن، لا بد أن موته كان صدمةً قوية لكِ؟»

«قوية جدًّا جدًّا.»

«أكان ذلك في حدِّ ذاته كافيًا لأن يُغشى عليكِ، كما أخبروني، عندما لمحتِ جُثمانه لأول مرة؟»

«كافيًا، تمامًا.»

«ومع ذلك بدَوتِ مستعدةً للأمر، صحيح؟»

«مستعدة؟»

«يقول الخدم إنكِ كنتِ مضطربةً بشدةٍ عندما وجدتِ أن عمكِ لم يحضر إلى مائدة الإفطار.»

«الخدم!» بدا أن لسانها التصقَ بسقف حلقها؛ فلم تستطع أن تتكلَّم.

«وإنكِ عندما رجعتِ من غرفته، كنتِ شاحبةً جدًّا.»

هل كانت بدأَت تُدرك أن بعض الشك، إن لم يكن اشتباهًا فعليًّا، كان يجول في ذهنِ الرجل الذي كان بوسعه أن ينهالَ عليها بأسئلةٍ من هذه النوعية؟ لم أرَها من قبلُ مضطربةً بشدة هكذا منذ تلك اللحظة المشهودة في غرفتها بالأعلى. لكن ارتيابها، إن كانت قد شعرَت بأي ارتياب، لم ينفضح مدةً طويلة. هدَّأت نفسها بجهدٍ بالغ، وأجابَت بإيماءةٍ هادئة:

«ذلك ليس غريبًا جدًّا. كان عمي رجلًا منظمًا جدًّا؛ من المرجَّح أن من شأن أقلِّ تغييرٍ في عاداته أن يُثير تخوفاتنا.»

«أكنتِ قلقةً، إذن؟»

«كنت قلقةً إلى حدٍّ ما.»

«آنسة ليفنوورث، مَن الذي كان من عادته أن يباشر تنظيمَ الغرف الخاصة بالسيد ليفنوورث؟»

«أنا، يا سيدي.»

«إذن، أنتِ بلا شكٍّ على علمٍ بخِزانةٍ بعينها في غرفته تحتوي على درجٍ؟»

«أجل، يا سيدي.»

«كم مضى من الوقت منذ أُتيحَت لكِ فرصة الذَّهاب إلى هذا الدرج؟»

قالَت وهي ترتجف بوضوحٍ عند إقرارها: «أمسِ.»

«في أي ساعة؟»

«قُرب الظهيرة، حسب ظني.»

«هل كان المسدس الذي اعتاد أن يحتفظَ به هناك في مكانه في ذلك الوقت؟»

«أظن ذلك؛ لم ألاحظ.»

«هل أدَرتِ المفتاح عند غلق الدرج؟»

«فعلتُ.»

«هل أخرَجتِه؟»

«لا، يا سيدي.»

«آنسة إلينور، ذلك المسدس، كما لعلكِ لاحظتِ، موضوعٌ على المائدة أمامكِ. هل لكِ أن تُلقيَ نظرةً عليه؟» ورفَعه إلى مستوى النظر، وحمله ناحيتها.

إن كان يقصد أن يُباغتها بهذا التصرُّف المفاجئ، فقد نجَح في ذلك ببراعة. عندما وقع نظرُها أول مرة على السلاح القاتل، تراجعَت إلى الوراء، وانطلقت من شفتَيها صرخةٌ مفزوعة، لكنها سرعان ما كُبِتَت. أطلقت أنينًا، ملوحةً بيدَيْها أمامها: «يا إلهي، لا، لا!»

واصل المحققُ حديثه: «يتوجَّب عليَّ أن أُصرَّ على أن تُلقيَ نظرةً عليه، يا آنسة ليفنوورث. عندما عُثر عليه للتو، كانت جميع الحجيراتُ محشوةً بالرصاص.»

في الحال اختفَت من وجهها تلك النظرةُ المتألِّمة. قالت: «أوه، إذن ...» ولم تُكمل كلامها، لكنها مدَّت يدها نحو السلاح.

لكن المحقِّق، الذي ظل يُحملق فيها بثباتٍ، تابع: «لقد أُطلِقَت منه رَصاصة مؤخرًا، مع ذلك. اليد التي نظَّفَت الماسورة، أغفلت غرفة الخرطوش، يا آنسة ليفنوورث.»

لم تصرخ مرةً أخرى، لكنَّ نظرةً يائسة وبائسة علَت وجهَها في بطءٍ، وبدَت على وشك أن تَهويَ أرضًا؛ لكنَّ ردَّ فِعْلها جاء كومضةٍ خاطفة، وبعدما رفعت رأسها في ثباتٍ ووقار لم أرَ لهما مثيلًا، صاحت: «عظيم، إذن ماذا؟»

وضع المحققُ المسدَّس على المنضدة؛ أخذ الرجال والسيدات ينظر بعضُهم إلى بعض؛ وبدا كلُّ فردٍ متردِّدًا في المتابعة. سَمِعتُ تنهيدةً مرتجفةً بجانبي، فالتفتُّ، ورأيت ماري ليفنوورث شاخصةً ببصرها نحو ابنة عمِّها وقد سرى في وجنتَيْها تورُّدُ ذهول، وكأنها بدأت تُدرك أن الحضور، وهي أيضًا، لاحظوا في هذه المرأة شيئًا يستدعي التفسير.

أخيرًا استجمع المحققُ شجاعته ليُتابع.

«أتسألينني، يا آنسة ليفنوورث، عن الدليل أمامك، قائلةً إذن ماذا؟ سؤالكِ يُلزمني أن أقول إنه لم يكن يمكنُ لسارقٍ ولا قاتل مأجور، أن يستخدم هذا المسدَس بغرض

القتل، ثم يُكلِّفَ نفسه عناء، ليس تنظيف المسدس فحسب، بل إعادة تعبئته، وإعادته مرةً ثانية في الدرج الذي كان قد أخذه منه وإغلاقه بالمفتاح.»

لم تُجِب عمَّا قيل هذا؛ لكنني رأيتُ السيد جرايس يُدوِّن ملاحظةً عن هذه النقطة بإيماءة موافقة مميِّزة لشخصه.

تابع حديثه بجِدِّية أكبر قائلًا: «ولم يكن من الممكن لأي شخصٍ لم يعتَدْ على الدخول والخروج من غرفة السيد ليفنوورث طَوال الوقت، أن يدخل غرفته في ساعةٍ متأخِّرة من الليل، ويُحضِر هذا المسدس من مخبئِه، ويقطع غرفته سيرًا، ثم يتقدَّم مقتربًا منه كما أظهرَت الوقائعُ أنه كان ضروريًّا، دون أن يجعله على الأقل يلتفتُ برأسه إلى أحد الجانبين؛ وهو الأمر الذي لا يُمكننا، أخذًا في الاعتبار شهادةَ الطبيب، أن نُصدق أنه فعَله.»

كان هذا تلميحًا مُخيفًا، وتوجَّهنا ببصرنا لنرى إلينور ليفنوورث تنكص. لكنَّ التعبير الدالَّ على الشعور بالغضب ظهر على وجه ابنة عمها. انتفضَت ماري غضبًا من مقعدها، وألقَت نظرة سريعة على مَن حولها، ثم فتحت شفتَيها لتهمَّ بالحديث؛ لكن إلينور، بعد أن التفتَت قليلًا، أشارت إليها بأن تتحلَّى بالصبر، وأجابت بنبرةٍ فاترةٍ وحذرة: «أنت لستَ على يقين، يا سيدي، بأنَّ هذا حدث. إذا كان عمي، لغرضٍ شخصي، قد أطلقَ رصاصةً من مسدسه، لنقُل مثلًا، أمسِ — وهو أمر واردٌ بالتأكيد، إن لم يكن مرجَّحًا — فقد تُرصَد نتائجُ مماثلة، ويمكن التوصلُ إلى الاستنتاجات نفسِها.»

تابع المحقق: «آنسة ليفنوورث، الرصاصة استُخرِجت من رأس عمكِ!»

«آه!»

«وتتطابق مع تلك التي في الخراطيش التي عُثِر عليها في درج خِزانته، وتحمل الرقمَ المستخدم مع هذا المسدس.»

هوَت رأسها بين يدَيها؛ وأخذت تنظر بعينَيها في الأرض؛ كان مسلكُها بأكمله يُعبر عن الإحباط. وإذ لاحظَ المحققُ هذا، واصل في تصعيد حدته.

قال: «آنسة ليفنوورث، لديَّ الآن بعضُ الأسئلة التي يتعيَّن أن أطرحَها عليكِ بشأن الليلة الماضية. أين قضيتِ تلك الليلة؟»

«بمفردي، في غرفتي الخاصة.»

«ولكن، هل رأيتِ عمَّكِ أو ابنة عمكِ أثناءها؟»

أجابت، بعد لحظة توقُّف: «لا، يا سيدي؛ لم أرَ أحدًا بعدما غادرتُ مائدة العشاء … باستثناء توماس.»

«وكيف رأيتِه؟»

«جاء ليُعطيَني بطاقة رجل جاء لزيارة المنزل.»

«هل لي أن أسأل عن اسمه؟»

«الاسم على البطاقة كان السيد لي روي روبنز.»

بدا الأمرُ تافهًا؛ لكنَّ الاختلاجةَ المفاجئة التي صدرت من السيدة التي كانت بجانبي جعلَتني أتذكَّره.

«آنسة ليفنوورث، عندما تجلسين في غرفتكِ، هل من عادتكِ أن تتركي بابَ غرفتكِ مفتوحًا؟»

عندئذٍ بدَت على وجهها نظرةُ ذهول، سرعان ما كبَتَتها. وردت: «ليس من عادتي ذلك؛ لا، يا سيدي.»

«لماذا تركتِه مفتوحًا الليلة الماضية؟»

«كنت أشعر بالحر.»

«ألا يوجد سببٌ آخر؟»

«ليس لديَّ سبب آخر.»

«متى أغلقتِ الباب؟»

«عندما كنتُ على وشك أن أخلد إلى النوم.»

«هل كان ذلك قبل أن يصعد الخدمُ لأعلى أم بعده؟»

«بعده.»

«هل سمعتِ السيد هارويل وهو يُغادر المكتبة ويصعد إلى غرفته؟»

«أجل، سمعته، يا سيدي.»

«ما المدة التي ترَكتِ فيها بابَكِ مفتوحًا بعد ذلك؟»

أضافت بسرعة: «أنا ... أنا ... بعد دقائق قليلة ... لا يمكنني أن أجزم.»

«لا يُمكنكِ أن تجزمي؟ لماذا؟ هل نسيتِ؟»

«نسيتُ فقط كم من الوقت مرَّ قبل أن أُغلق الباب بعد صعود السيد هارويل.»

«هل كان أكثرَ من عشر دقائق؟»

«أجل.»

«أكثر من عشرين دقيقة؟»

«ربما.» كم كان وجهها شاحبًا، وكم كان جسدها يرتجف!

«آنسة ليفنوورث، حسَب الأدلة، فإن عمك لقي حتفَه بعد أن تركه السيد هارويل بمدَّة قصيرة. إذا كان بابُكِ مفتوحًا، فلا بد أن تكوني قد سمعتِ إن كان أحدٌ دخل غرفتَه، أو أي رصاصة أُطلِقَت من مسدس. والآن، هل سمعتِ أي شيء؟»

«لا يا سيدي؛ لم أسمع أيَّ جلبة.»

«هل سمعتِ أي شيء؟»

«ولا صوت أيِّ إطلاق نار من مسدس.»

«آنسة ليفنوورث، سامحيني على إلحاحي، ولكن هل سمعتِ أي شيء؟»

«سمعتُ صوت بابٍ يُغلَق.»

«أي باب؟»

«باب المكتبة.»

«متى؟»

«لا أعرف.» شبَّكت يديها بطريقة هيستيرية. وأضافت: «لا يمكنني أن أجزم. لمَ تسألني كلَّ هذه الأسئلة؟»

هببتُ واقفًا على قدمي؛ كانت تترنَّح، وكاد يُغشى عليها. لكن قبل أن أتمكنَ من الوصول إليها، كانت قد شدَّت قامتها من جديد، واستعادَت هيئتها السابقة. قالت: «عفوًا؛ لست في حالتي الطبيعية منذ صباح هذا اليوم. أرجو أن تلتمسوا لي العذر»، واستدارت في ثبات لتُواجه المحقق. «ماذا كان سؤالك؟»

قال: «سألتُكِ»، وازداد رفعُ صوتِه وارتفاعه — كان واضحًا أنَّ أسلوبها بدأ يُثير الشك تجاهها — «متى سمعتِ صوتَ باب المكتبة يُغْلَق؟»

«ليس بوسعي تحديدُ وقتٍ معين، لكن كان ذلك بعد أن صعد السيد هارويل لأعلى، وقبل أن أُغلق باب غرفتي.»

«ولم تسمعي صوتَ طلقة من مسدس؟»

«لا، لم أسمع، سيدي.»

ألقى المحققُ نظرةً سريعةً على هيئة المحلَّفين، التي كان كلُّ واحدٍ منهم تقريبًا يُشيح بناظرَيْه جانبًا مثلما فعل هو أيضًا.

«آنسة ليفنوورث، قيل لنا إن هانا، إحدى الخادمات، توجهَت إلى غرفتكِ في ساعةٍ متأخرةٍ من ليلة أمسِ لتطلب دواءً. هل جاءَت إليكِ؟»

«لا، يا سيدي.»

«متى نما إلى علمكِ أمرُ اختفائها الغريب من هذا المنزل أثناء الليل؟»

«هذا الصباح قبل الإفطار. قابلَتْني مولي في الردهة، وسألَتْني عن حال هانا. وجدتُ السؤال غريبًا، وبالطبع سألتُها. بعد لحظة من الحوار توصلتُ إلى الاستنتاج الواضح، وهو أن الفتاة غادرَت.»

«ما الذي تبادرَ إلى ذهنكِ عندما تأكدتِ من هذه الحقيقة؟»

«لم أعرف فيمَ أفكر.»

«ألم يخطر ببالكِ أيُّ شك في سلوك إجرامي؟»

«لا، يا سيدي.»

«ألم تربِطي بين هذه الحقيقة وواقعةِ مقتل عمكِ؟»

«لم أكن أعلمُ حينها بواقعة القتل.»

«وبعد أن علمتِ؟»

«أوه، ربما خطرَت ببالي فكرةٌ ما بشأن احتمال أن يكون لديها علمٌ بشيء عنها؛ لا يمكنني أن أجزم.»

«أيمكنكِ أن تُخبرينا بأي شيء عن ماضي هذه الفتاة؟»

«ما يمكنني أن أخبرك به لن يزيدَ في شيء عما أدْلَت به ابنةُ عمي.»

«ألا تعرفين ما الذي كان يُحزنها في الليل؟»

تورَّدَت وجنتاها غضبًا؛ لكني لم أعرف أكان ذلك بسبب نبرته، أم من السؤال نفسه.

«لا، يا سيدي! لم تَبُح لي بأسرارها قطُّ.»

«إذن لا يُمكنكِ أن تُخبرينا عن المكان الذي من المحتمل أن تذهب إليه عند مغادرة هذا المنزل؟»

«بالقطع لا.»

«آنسة ليفنوورث، يتعيَّن علينا أن نُوجه إليكِ سؤالًا آخَر. قيل لنا إن جثمان السيد ليفنوورث نُقل بأمرٍ منكِ من المكان الذي عُثر عليه فيه، إلى الغرفة المجاورة.»

أحنَت رأسها.

«ألم تعلمي أنه من غير القانوني لكِ أو لأي شخصٍ آخرَ أن ينتهكَ حُرمةَ جثةِ شخص عُثِر عليه قتيلًا، إلا في حضور الضابط المختصِّ وتحت سلطته.»

«لم أسترشد بمعرفتي، يا سيدي، فيما يتعلَّق بهذا الموضوع؛ لم أسترشد إلَّا بمشاعري.»

«إذن أفترض أن مشاعركِ هي التي أوعزَت إليكِ بالبقاء واقفةً بجانب المنضدة التي قُتل عندها، بدلًا من أن تتبعي الجثمانَ إلى الداخل وتتأكَّدي من أنه وُضِع كما ينبغي؟» ثم واصل حديثه بسخريةٍ لاذعة، قائلًا: «أو ربما كنتِ مهتمةً للغاية، في هذه اللحظة، بالورقة التي أخذتِها، لدرجةٍ جعلَتكِ لا تُفكرين كثيرًا في قواعد السلوك المتبَعة في هذا الظرف؟»

رفعَت رأسها في حسمٍ وقالت: «ورقة؟ مَن قال إني أخذتُ ورقةً من فوق المنضدة؟»

«أحد الشهود أقسَم بأنه رآكِ وأنتِ تنحَنين على المنضدة التي كان عليها العديدُ من الأوراق المبعثَرة؛ وشاهدٌ آخرُ أفاد بأنه التقى بكِ بعد بِضْع دقائق في الردهة وكنتِ حينها تضَعين ورقةً في جيبكِ. والاستدلال يستتبع ذلك، يا آنسة ليفنوورث.»

كانت هذه طعنةً نَجْلاء، وتطلَّعنا لنرى علامةً ما على الاضطراب، لكن شفتَها الشامخة لم ترتجف قطُّ.

«لقد استنتجتَ استدلالًا، وعليك أن تُثبت صحته.»

كان الردُّ مُفحِمًا في حد ذاته، ولم يُفاجئنا أن نرى أن المحقِّق قد ارتبك قليلًا، لكن، بعدما استعادَ رِباطة جأشِه، قال:

«آنسة ليفنوورث، يتوجَّب عليَّ أن أسألَكِ مرةً أخرى، هل أخذتِ أم لم تأخُذي شيئًا من فوق تلك المنضدة؟»

عقدَت ذِراعيها. وقالت في هدوء: «أرفض الإجابةَ عن السؤال.»

ردَّ عليها: «معذرةً، من الضروري أن تُجيبي.»

اتخذت شفتُها انحناءةً أكثرَ إصرارًا. «عندما يُعثَر على أي ورقة مشتبَهٍ في أمرها بحوزتي، سيَحينُ الوقت لأن أفسِّر كيف وصلَتْني.»

بدا أن هذا التحديَ أذهل المحققَ إلى حدٍّ بعيد.

«هل تُدركين إلام يُعرضك هذا الرفض؟»

نكَّسَت رأسها. «يُؤسفني أن أقول إنني أدرك ذلك؛ أجل، يا سيدي.»

رفع السيد جرايس يده، وبخفةٍ بَرَمَ هُدبَ ستارة النافذة.

«هل ما زلتِ على إصراركِ؟»

امتنعَت تمامًا عن الرد.

لم يُلِحَّ المحققُ أكثر من ذلك.

كان قد صار واضحًا عندئذٍ للجميع أن إلينور ليفنوورث لم تتخِذ موقفَ الدفاع عن نفسها فحَسْب، بل كانت تُدرك تمامًا موقفها، وكانت مستعدةً لأن تُبقي عليه. حتى ابنة عمها، التي كانت قد ظلت حتى تلك اللحظةِ محتفظةً بشيءٍ من رِباطة الجأش، بدأَت تُظهِر أماراتِ اضطرابٍ شديد وخارج عن السيطرة، وكأنها وجدَت أن توجيهَ اتهامٍ بنفسها أمر، وأن تراه منعكسًا في ملامح الرجال حولها أمرٌ مختلف تمامًا.

واصل المحقِّق حديثه، مغيرًا نَهْجه في الهجوم: «آنسة ليفنوورث، كنتِ تتمتعين دومًا بحرية الدخول إلى جناح عمِّك، أليس كذلك؟»

«بلى، يا سيدي.»

«ربما حتى إلى حدِّ دخول غرفته في ساعةٍ متأخِّرةٍ من الليل، واجتيازها والوقوف بجانبه، دون إزعاجه بالدرجة التي تجعله يُدير رأسه؟»

قالت: «أجل»، وأخذت تعتصرُ يدَيها بألم.

«آنسة ليفنوورث، مِفتاح باب المكتبة مفقود.»

لم تُجِب عن ذلك.

«أحد الشهود شهد بأنكِ، قبل الاكتشاف الفعليِّ لواقعة القتل، وقفتِ عند باب المكتبة وحدَكِ. هل لكِ أن تُخبرينا هل كان المِفتاحُ موجودًا حينئذٍ في قُفل الباب؟»

«لم يكن موجودًا.»

«هل أنتِ متأكدة؟»

«متأكدة.»

«إذن، هل كان ثَمة أيُّ شيءٍ مميز في هذا المفتاح، سواءٌ في حجمِه أو شكله؟»

حاولَت جاهدةً أن تقمعَ الذعر المفاجئ الذي أثاره هذا السؤال، فجالت بناظِرَيها في غيرِ اكتراث في مجموعة الخدم المتمركزين وراءها، وارتجفت. وأخيرًا أقرَّت: «كان مختلفًا قليلًا عن المفاتيح الأخرى.»

«ما وجهُ الاختلاف؟»

«كان مقبضه مكسورًا.»

أكد المحقق، وهو ينظر تجاه المحلَّفين: «آه، أيها السادة، كان المقبض مكسورًا!»

بدا أن السيد جرايس احتفَظ بهذه المعلومة لنفسه؛ إذ أبدى إيماءةً أخرى من إيماءاته السريعة.

«إذن هل يمكن أن تتعرَّفي على هذا المفتاح، يا آنسة ليفنوورث، إذا ما رأيتِه؟»

نظرَت إليه بذهول، وكأنها توقعَت أن تراه في يده؛ لكن بدا أنها استجمعَت شجاعتها عندما وجدَتْ أنه لم يُخرجه، فأجابت بسلاسةٍ تامَّة:

«أظن أنَّ بإمكاني ذلك، يا سيدي.»

بدا على المحقق أنه اكتفى، وكان على وشك أن يأذنَ للشاهدة بالانصراف عندما سار السيد جرايس في هدوءٍ نحوه ولمس ذراعه. قال ذلك الرجل: «لحظة واحدة.» وبعد أن انحنى، همَس في أذن المحقق ببضع كلمات؛ ثم اعتدل، ووقف واضعًا يده اليمنى في جيب صدريته وعيناه على النجفة.

جَروْتُ بصعوبةٍ على أن أتنفَّس. هل أعاد على المحقق الكلام الذي كان قد سمعه دون قصدٍ في الردهة بالأعلى؟ لكنَّ نظرةً على وجه الأخير بعثَت في نفسي طُمَأنينةً بأنه لم يتسرَّب أمرٌ بتلك الأهمية. لم يبدُ عليه الضجر فحَسْب، بل بدا منزعجًا قليلًا.

قال وهو يلتفت مرةً أخرى تجاهها: «آنسة ليفنوورث، لقد أكدتِ أنكِ لم تزوري غرفةَ عمكِ الليلة الماضية. هل تُكررين التأكيد؟»

«نعم.»

نظر إلى السيد جرايس، الذي أخرج في الحال من جيب صدريته منديلًا متسخًا بغرابة. «من الغريب، إذن، أنه قد عُثِر على منديلك في تلك الغرفة صباحَ هذا اليوم.»

بدرَت صرخةٌ من الفتاة. ثم، في الوقت الذي تيبَّس فيه وجهُ ماري ليبدو محبطًا بشدَّة، زمَّت إلينور شفتَيها وأجابت ببرود: «لا أجدُ الأمر غريبًا إلى هذا الحد. كنتُ في تلك الغرفة في وقتٍ مبكِّر من صباح هذا اليوم.»

«وأوقعتِه عندئذٍ؟»

بدا على وجهها توردُ اضطرابٍ عابر؛ ولم تُعقِّب.

فاستطرد: «متسخًا بهذه الطريقة؟»

«لا أعرف شيئًا عن الاتِّساخ. ما هذا؟ دعني أرَ.»

«بعد لحظة. ما نرغب فيه الآن هو أن نعرف كيف وصل إلى غرفة عمكِ.»

«ثَمة طرقٌ كثيرة. ربما تركتُه هناك منذ أيام. لقد أخبرتك أنني اعتدت على زيارة غرفته. لكن أولًا، دعني أرَ إن كان هذا منديلي.» وبسَطَت يدها.

علَّق، بينما كان السيد جرايس يُناولها إياه: «أظنه كذلك، لأنه قيل لي إن الأحرفَ الأولى من اسمكِ مطرزةٌ في الزاوية.»

لكنها قاطعَته بصوتٍ مذعور. «هذه البقع المتسخة! ما هي؟ إنها تُشبه ...»

قال المحقق: «ما تشبهه. إذا نظَّفتِ مسدسًا من قبل، فلا بد أنكِ تعرفين ماهيتها، يا آنسة ليفنوورث.»

بارتجافٍ تركت المنديل يسقط من يديها، ووقفت تُحدق فيه، وهو يستقرُّ أمامها على الأرض. قالت: «لا أعرف شيئًا عنه، أيها السادة. إنه منديلي، ولكن …» لسببٍ ما لم تُكمل جملتها، لكنها كرَّرَت مرةً أخرى: «حقًّا، أيها السادة، لا أعرف شيئًا عنه!»

بهذا انتهت شهادتها.

بعدئذٍ استُدعِيَت كيت، الطاهية، وطُلِب منها أن تذكر متى كانت المرة الأخيرة التي غسلَت فيها المنديل؟

قالت وهي تنظر نظرةَ استهجانٍ إلى سيدتها: «هذا، يا سيدي؛ هذا المنديل؟ أوه، في وقتٍ ما خلال هذا الأسبوع، يا سيدي.»

«في أيِّ يوم؟»

«حسنًا، أتمنى لو كان بوُسعي أن أنسى، يا آنسة إلينور، لكن لا يمكنني. هذا هو المنديل الوحيد بهذا الشكلِ في المنزل. غسلته أولَ أمس.»

«ومتى قمتِ بكيِّه؟»

أجابت، مختنقةً قليلًا والكلماتُ تخرج من فمِها: «صباح يوم أمس.»

«ومتى أخذتِه إلى غُرفتها؟»

ألقت الطاهية مِئزرَها على رأسها. وقالت: «بعد ظهيرة يوم أمس، مع باقي الثياب، قبل موعد العشاء مباشرةً.» وأضافت هامسةً: «حقًّا، لم يكن بوُسعي ألَّا أفعل، يا آنسة إلينور! هذه كانت الحقيقة.»

قطَّبت إلينور ليفنوورث جبينَها. كان هذا الدليل المناقِض إلى حدٍّ ما قد أثَّر عليها تأثيرًا واضحًا جدًّا؛ وبعدما سمح المحقق، بعد لحظةٍ، للشاهدة بالانصراف، استدار ناحيتَها، وسألها إن كان لديها أيُّ شيء آخر تودُّ قوله على سبيل التوضيح أو خلافه، فلوَّحَت بيدها لأعلى على نحوٍ متقطِّع، وهزَّت رأسَها ببطءٍ، ومن دون أيِّ كلمة أو سابقِ إنذار، أُغشي عليها في مقعدها.

أعقبَ ذلك، بالطبع، اضطرابٌ، لاحظتُ خلاله أن ماري لم تُهرَع إلى ابنة عمها، لكنها تركت لمولي وكيت أن يفعلا ما بوُسعِهما أن يفعلا معها لإفاقتها. في لحظاتٍ قليلة تحقق هذا بدرجةٍ كبيرة وتمكَّنَتا من اقتيادها إلى خارج الغرفة. وبينما كانتا تفعلان ذلك، لاحظت أن رجلًا طويلًا قام وتبعها إلى الخارج.

أعقب ذلك صمتٌ مؤقَّت، ما لبث أن كسرته حركةٌ متململة إذ نهض المحلف الضئيل الحجم واقترح أنه ينبغي على هيئة المحلَّفين أن تُرجئ اجتماعها اليوم. وإذ بدا أن هذا جاء موافقًا لرأي محققِ الوفيات، أعلن أن التحقيقَ سيُرجَأ حتى الساعة الثالثة من اليوم التالي، عندما تأكد من أن المحلَّفين سيكونون حاضرين.

تلا ذلك اندفاعٌ من الجميع نحو الخارج، وفي غضون دقائقَ أُخلِيَت الغرفة من جميع الحضور ما عدا الآنسة ماري ليفنوورث، والسيد جرايس، وأنا.

الفصل التاسع

اكتشاف

لم تستقرَّ عيناه الدائرتان في مَحجِرَيْهما في مكانهما أبدًا،
لكنهما جالتا في كلِّ مكان خشيةً من مكروه خفي،
بينما كان لا يزال يحمل أمامه شبكةً تسبق خطواته،
يختلس النظر من خلالها كلَّما مضى إلى الأمام.

قصيدة «ملكة الجن»

الآنسة ليفنوورث، التي بدا أنها قد توانَت عن الخروج تحت وطأة ذُعر مبهم من كلِّ شيء وكل فرد في المنزل ليس تحت ملاحظتها المباشرة، نأت عن جانبي في اللحظة التي وجدَت فيها نفسها وحيدةً نسبيًّا؛ ومنزويةً في ركنٍ بعيد، استسلمَت لمشاعر الحسرة والحزن. ومن ثَمَّ محولًا انتباهي تجاه السيد جرايس، وجدته مُستغرقًا في إحصاء أصابع يدَيه وهناك تعبيرُ انزعاج بادٍ على وجهه، ربما كان ناتجًا عن ذلك العمل المضني أوْ لا. ولكن، عند اقترابي منه، كان قد بدا عليه ارتياحٌ ربما لأنه لم يكن يمتلك أصابعَ أكثر من العدد اللازم، فأنزل يدَيه واستقبلَني بابتسامة باهتةٍ كانت، بالنظر إجمالًا إلى الأمور، موحيةً للغاية ولا تُعبر عن السرور.

قلت، وأنا أقفُ أمامه: «حسنًا، لا يُمكنني أن ألومَك. كان من حقِّك أن تفعل ما ترى أنه الأفضل؛ لكن كيف طاوعَك قلبُك على فعلِ ذلك؟ ألم تكن في موضع شبهة بما يكفي من دون أن تُخرج ذلك المنديل القذر الذي ربما تكون قد أَوْقَعَته في تلك الغرفة وربما لم تفعل، لكن وجوده هناك، متسخًا حسب الظن من أثر الاحتراق في المسدس، ليس بالطبع دليلَ إثبات على أنها نفسها كان لها علاقة بجريمة القتل هذه؟»

أجابه: «سيد ريموند، لقد أُسند إليَّ التحقيق في هذه القضية بصفتي ضابطَ شرطة ومحققًا، وهذا ما أعتزم فعله.»

سارعتُ بالرد عليه: «بالطبع. أنا آخر رجل يتمنى لك أن تتهرَّب من أداء واجبك؛ لكن لا يمكنك أن تندفعَ بتهوُّر وتُعلن أن هذه الإنسانة الشابة الرقيقة يمكن أن تُعتبَر، تحت أي فرضيةٍ ممكنة، متورطةً في جريمة بهذه البشاعة والغرابة. إن مجرد تأكيد شكوك امرأةٍ أخرى حول هذا الأمر يجب ألَّا ...»

لكن هنا قاطعَني السيد جرايس. وقال: «أنت تتحدثُ بينما ينبغي أن تُولِيَ انتباهك لأمورٍ أكثرَ أهمية. تلك المرأة الأخرى، التي يُسعدك أن تُكنيَها بمفخرة جميلات مجتمع نيويورك، تجلس هناك والدموعُ في عينيها؛ اذهب وهوِّن عليها.»

ناظرًا إليه في ذهول، ترددتُ في أن أمتثل لقوله؛ ولكن إذ تبيَّنت أنه جادٌّ في قوله، ذهبتُ إلى ماري ليفنوورث وجلستُ بجانبها. كانت تنتحب، ولكن ببطء، ودون وعي، وكأنَّ الخوف قد طغى لديها على الحزن. كان الخوف واضحًا معلنًا عن نفسه للغاية وكان الحزن طبيعيًّا للغاية حتى استحال عليَّ أن أشكَّ في صدق أيٍّ منهما.

قلت لها: «آنسة ليفنوورث، أي محاولة مواساة من طرف شخصٍ غريبٍ لا بد أن تبدوَ في وقتٍ مثلِ هذا عبثًا لا يوجد ما هو أكثرُ مرارةً منه؛ لكن حاولي أن تضَعي في اعتباركِ أن الدليل الظرفيَّ ليس دائمًا دليلَ إثباتٍ حاسمًا.»

جفلَت متفاجئة، وأدارت عينَيها تجاهي بنظرةٍ متأنية وعميقة من المبهر أن تُرى في مقلتَين بهذه الرقَّة والأنوثة.

كرَّرَت: «صحيح؛ الدليل الظرفي ليس دليلَ إثباتٍ حاسمًا، لكن إلينور لا تعرف هذا. إنها متوترةٌ للغاية؛ وليس بوُسعها أن ترى إلا شيئًا واحدًا في اللحظة ذاتِها. كانت تُوقع نفسها في ورطة، ويا إلهي، ...» توقفت، وتشبَّثَت بذراعي بانفعال، وأردفَت: «هل تظن أن ثمة أيَّ خطر؟ هل سوف ...» ولم تستطع أن تُكمل.

قلت، مسددًا نظرةً محذرةً نحو المحقق جرايس: «آنسة ليفنوورث، ماذا تقصدين؟»

كلمح البصر، تَبِعَت ببصرها نظرتي، وطرأ تغيير سريع طرأ على جلستها.

واصلتُ حديثي، وكأنَّ شيئًا لم يحدث: «ربما تكون ابنةُ عمِّك متوترةً، لكن لا أعرف إلامَ تُشيرين بقولكِ إنها كانت تُوقع نفسها في ورطة.»

أجابت بحزم: «أقصد أنها، سواءٌ بقصدٍ أو من دون قصد، كانت تتجنَّب الإجابةَ عن الأسئلة التي وُجِّهت إليها في هذه الغرفة حتى قد يُخيَّل إلى أيِّ شخصٍ كان يستمع إليها

في هذه الغرفة أنها تعرف أكثرَ مما ينبغي لها عن هذه الواقعة البشعة.» ثم تحدَّثَتْ على نحوٍ هامس، ولكنَّ همسها لم يكن منخفضًا للغاية، حتى إن كل كلمة كان يُمكن أن تُسمَع بوضوحٍ في كل أركان الغرفة قائلة: «إنها تتصرَّف وكأنها كانت حريصةً على إخفاء شيءٍ ما. لكنها لا تقصد ذلك، أنا واثقةٌ من أنها لا تقصد ذلك. أنا وإلينور لسنا صديقتَين حميمتَين؛ ولكن العالم كله لا يمكن أبدًا أن يجعلَني أُصدق أنها تعرف عن جريمة القتل هذه أكثرَ مما أعرف. لذا، ألا يُمكن أن يخبرها أحدٌ، ألا يُمكنك أن تُخبرها أنت، بأنَّ مسلكها خاطئ، وأنه سيُفضي إلى إثارة الشكوك حولها، وأنه أفضى إلى ذلك بالفعل؟» هنا انخفض صوتها إلى همسٍ واضح وقالت: «أيضًا، لا تنسَ أن تُضيف ما قلته على سمعي للتو: أن الدليل الظرفيَّ ليس دائمًا دليلَ إثباتٍ حاسمًا.»

تفحَّصتُها في ذهولٍ تام. يا لبراعة هذه المرأة في التمثيل!

قلتُ: «تطلبين مني أن أخبرها بهذا. أليس من الأفضل أن تتحدَّثي إليها بنفسكِ؟»

أجابت: «التواصل الخاصُّ بيني وبين إلينور محدودٌ أو منعدم.»

كان بإمكاني أن أُصدق هذا بسهولة، ومع ذلك كنت متحيرًا. قطعًا، كان ثَمة شيءٌ غير مفهوم في أسلوبها إجمالًا. ولجهلي بما يُمكن أن أقوله، علَّقت قائلًا: «ذلك مؤسِف. يجب أن يُقال لها إن الصراحة هي أفضل سبيل بالتأكيد.»

لم تفعل ماري ليفنوورث شيئًا سوى النحيب. وقالت: «يا إلهي، لماذا حلَّ بي هذا الكرب المؤلم، وأنا التي كنتُ قبل ذلك أعيش في سعادة غامرة دائمًا!»

«ربما لهذا السبب تحديدًا وهو أنكِ كنتِ تعيشين في سعادة غامرة دائمًا.»

«لم يكن كافيًا أن يموتَ عمِّي العزيز بهذه الطريقة المروعة؛ لكنها، ابنة عمي، كان عليها ...»

لَمَستُ ذراعها، وبدا أن هذه الحركة أعادتها لرشدها. فتوقفت فجأة، وعضَّت شفتَها.

همستُ: «آنسة ليفنوورث، ينبغي أن تأمُلي خيرًا. علاوةً على ذلك، صدقًا أعتقد أنكِ تُكدِّرين نفسكِ بلا ضرورة. إن لم يظهر أيُّ شيء جديد، فمجرد لجوء ابنة عمِّكِ إلى المراوغة أو نحو ذلك لن يكون كافيًا لإلحاق ضررٍ بها.»

قلت هذا لأرى إن كان لديها أيُّ سبب في الشك فيما سيأتي مستقبلًا. وقد حصلتُ على ما يكفي ويَزيد.

«أي شيء جديد؟ كيف يمكن أن يكون ثمة أيُّ جديد، وهي بريئة تمامًا؟»

فجأةً، بدا أن فكرةً خطرَت لها. التفتَت في مقعدها حتى لامسَ ثوبُها الأنيقُ الذي يفوح منه العِطر رُكبتي، وسألت: «لماذا لم يسألوني المزيدَ من الأسئلة؟ كان بإمكاني أن أُخبرهم أن إلينور لم تُغادر غرفتها الليلة الماضية مطلقًا.»

«كان بإمكانكِ ذلك؟» ما هذا الذي جال بخلَدي بشأن هذه السيدة؟

«أجل؛ غرفتي أقربُ إلى مقدمة درجات السلَّم من غرفتها؛ لو أنها كانت قد مرَّت بباب غرفتي، لَكنت سمعتُها، ألا ترى ذلك؟»

آه، كان ذلك كلَّ ما الأمر.

أجبتُ بحزن: «هذا لا يستتبع ذلك. ألا يُمكنكِ أن تُقدمي سببًا آخر؟»

همسَت: «سأقول كلَّ ما يلزم قوله.»

جفلت متراجعًا إلى الوراء. نعم، هذه السيدة قد تكذب الآن لتُنقذ ابنة عمها؛ وقد كذبت أثناء التحقيق. لكن حينها شعرتُ بامتنانٍ تجاهها، أما الآن فلم يكن يعتريني سوى الخوف.

قلت: «آنسة ليفنوورث، لا يوجد أيُّ شيء يمكن أن يُبرر للمرء أن يُخالف ما يُمليه عليه ضميره، ولا حتى من أجل حماية شخصٍ لا يُحبه بتاتًا.»

أجابت: «لا يوجد؟» واتخذت شَفتاها انحناءةً مرتجفة، وارتفع صدرها الجذاب، وأشاحت بناظرَيها بعيدًا بنعومة.

لو كان جمال إلينور قد ترك أثرًا أقلَّ على خيالي، أو أن موقفها المريع قد أثار قلقًا أقلَّ بداخلي، لأصبحتُ رجلًا هائمًا من تلك اللحظة.

أردفَت الآنسة ليفنوورث: «لم أقصد أن أفعل أيَّ شيء خاطئ. لا تأخذ فكرة سيئة جدًّا عني.»

قلت: «لا، لا»؛ ولا يوجد رجل على وجه الأرض لم يكن سيقول ما قلته لو كان مكاني.

لا يُمكنني أن أقول المزيدَ عما يُمكن أن يكون قد دار فيما بيننا حول هذا الموضوع؛ وذلك لأنه حينئذٍ فُتِح الباب ودخل رجلٌ تبيَّن لي أنه الذي تبع إلينور ليفنوورث إلى الخارج، منذ وقتٍ قصير.

قال، بعدما توقَّف بعد مروره مباشرةً من الباب: «سيد جرايس؛ كلمة على انفرادٍ من فضلك.»

أومأ المحقِّق برأسه، لكنه لم يُسرع الخطى تجاهه؛ بدلًا من ذلك، سار متعمِّدًا بعيدًا تجاه النهاية الأخرى من الغرفة، حيث أزاح الغِطاء عن محبرةٍ رآها هناك، وتمتمَ فيها

بكلماتٍ غير مفهومة، وأغلقها مرةً أخرى بسرعة. على الفور سوَّلَت لي هواجسي الغريبة أني إذا أسرعتُ إلى المحبرة، وفتحتُها وأمعَنتُ النظرَ فيها، فسأجد ما يُفاجئني وأحظى بالسرِّ الصغير الذي ائتمنَها عليه. لكني منعت نفسي من هذا الاندفاع الأحمق، ورضيَت نفسي بمُلاحظة نظرة الاحترام الهادئة التي شاهد بها المرءوسُ النحيلُ قدومَ رئيسه.

سأل الأخيرُ وهو يقترب منه: «خيرًا، ما الأمرُ الآن؟»

هزَّ الرجل كتفَيه، وجذب رئيسه عبر الباب المفتوح. ما إن أصبَحا في الردهة حتى انخفض صوتهما وصار همسًا، وإذ كان ظَهراهما فقط ظاهرَين، استدرتُ لأنظر لرفيقتي. كانت شاحبة، ولكنها كانت متماسكة.

«هل جاء من عند إلينور؟»

«لا أعرف؛ لكن أخشى ذلك.»، تساءلت قائلًا: «آنسة ليفنوورث، هل من المحتمل أن يكون لدى ابنةِ عمكِ أيُّ شيء ترغب في إخفائه؟»

«إذن أنت تظن أنها تُحاول إخفاء شيءٍ ما؟»

«لا أقول ذلك. لكن كان ثمة قدرٌ كبير من الحديث عن ورقة …»

قالت ماري، مقاطِعةً: «لن يجدوا أبدًا أيَّ ورقةٍ أو أي شيءٍ آخرَ مريب في حوزة إلينور.» وأضافت بينما رأيت جسد السيد جرايس يتيبَّس فجأةً: «في المقام الأول، لم يكن ثمة ورقةٌ ذات أهمية إلى الحد الذي يدفع أيَّ شخصٍ إلى أخذها خلسةً وإخفائها.»

«هل بوُسعكِ أن تكوني متأكدةً من ذلك؟ أليس من المحتمل أن تكون ابنة عمكِ قد اطلعت على شيءٍ …»

«لم يكن يوجد شيءٌ لتطَّلع عليه، يا سيد ريموند. لقد عشنا حياةً في منتهى النظام والألفة. يستعصي عليَّ أن أفهم، من جانبي، الداعيَ إلى تضخيم هذا الأمر لهذه الدرجة. توفي عمي دون شك على يد لصٍّ عتيد. عدم وجود مسروقات من المنزل ليس دليلًا على أن السارق لم يدخل قطُّ. أما بشأن أن أبواب المنزل ونوافذه كانت مقفلة، فهل ستأخذ كلام خادمٍ أيرلندي باعتباره منزَّهًا عن الخطأ حيال نقطة مهمة كهذه؟ لا يمكنني ذلك. أعتقد أن القاتل من عصابةٍ تكسب قوتها من اقتحام المنازل، وإن لم تتفق معي صدقًا فيما قلته، فحاول أن تأخذَ هذا التفسير في اعتبارك قدر الإمكان؛ إن لم يكن من أجل سمعة العائلة، إذن فمن أجل …» وأدارت وجهها بكل جماله البهيِّ ناحيتي، وكانت عيناها ووجنتاها وثغرها، كل ذلك كان ساحرًا وفاتنًا للغاية «إذن، فمن أجل سُمعتي.»

في الحال استدار السيد جرايس تجاهنا. وقال: «سيد ريموند، هل لك أن تتكرَّم وتأتيَ إلى هنا؟»

سعيدًا بفراري من موقفي الحالي، هُرعت لتلبية طلبه.

سألته: «ماذا حدث؟»

كان ردُّه في سلاسة: «ننوي أن نأتمنَك على سرٍّ. سيد ريموند، دَعْني أعرفك بالسيد فابز.»

انحنيتُ للرجل الذي رأيته أمامي، ووقفت أنتظر مضطربًا. متلهفًا كما بدا عليَّ لأعرِفَ ما الذي كان علينا أن نخشاه فعلًا، كنت بحسِّي الداخلي لا أزال مُحجِمًا عن أي تواصلٍ مع الشخص الذي كنت أعتبره جاسوسًا.

أردَفَ المحققُ جرايس قائلًا: «هذه مسألةٌ على قدرٍ من الأهمية. لستُ بحاجة إلى أن أُذكِّرك بأنه أمر سري، أليس كذلك؟»

«بلى.»

«هذا ما ظننته. سيد فابز، بإمكانك أن تبدأ.»

في الحال تبدَّل مظهرُ السيد فابز بأكمله. متخذًا تعبيرًا ينمُّ عن أهميةٍ بالغة، وضع يده الكبيرة مبسوطةً على قلبه وبدأ الحديث.

«كلَّفني السيد جرايس بمراقبة تحركات الآنسة إلينور، فغادرت هذه الغرفة عند خروجها منها، وتبعتها هي والخادمتَين اللتَين صعدتا بها إلى غرفتها الخاصة. وما إن صارت هناك ...»

قاطعه السيد جرايس. وقال: «ما إن صارت هناك؟ أين؟»

«في غرفتها الخاصة، يا سيدي.»

«أين مكانها؟»

«عند مقدمة درجات السلم.»

«تلك ليست غرفتَها. أكمل.»

صاح، وهو يخبط على ركبته: «ليست غرفتَها؟ إذن فالنار هي ما كانت تبحث عنه!»

«النار؟»

«عذرًا؛ استبقتُ الأحداث. بدا أنها لم تُلاحظني إلى حدٍّ كبير، رغم أني كنت وراءها مباشرةً. لم تلاحظ شيئًا حتى وصلت إلى باب هذه الغرفة؛ التي لم تكن غرفتها!» أضاف الكلمات الأخيرة بطريقة درامية، ثم أردف: «واستدارت لتصرف خادمتَيها، وحينها بدا

أنها أدركت أنَّ ثمةَ من يتبعها. نظرَت إليَّ بوقار جم، سرعان ما اختفى، ولكن بتعبير ينمُّ عن أناة، دخلتْ إلى الغرفة، وتركَت الباب مفتوحًا خلفها بأسلوبٍ مهذب أعجز عن أن أوفِّيَه حقَّه من الثناء.»

لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أُقطب جبيني. فمع الصراحة التي بدا عليها ذلك الرجل، كان من الواضح أن هذا الموضوع لم يُمثل له أيَّ إحراج. وما إن لاحظ عبوسي، لطَّف من أسلوبه.

«لم أجد أيَّ طريقة أخرى لأجعلها تحت ملاحظتي، سوى أن أدخل الغرفة، فتبعتُها إلى الداخل، وجلست في ركنٍ بعيد. نظرت إليَّ نظرة خاطفة وكذلك نظرتُ نحوها، ثم أخذتْ تروح وتغدو بأسلوبٍ يغلب عليه القلق لم أكن غيرَ معتاد عليه بتاتًا. وأخيرًا توقفَت فجأة، في وسط الغرفة بالضبط. وقالت وهي تلهث: «أحضِر لي كوبًا من الماء! أكاد أفقدُ وعيي ثانيةً ... بسرعة! من الرفِّ في الزاوية.» وحينئذٍ حتى يتسنى لي إحضار كوب الماء هذا، كان من الضروري أن أمرَّ خلف مِرآة تغيير ملابس كانت تكاد تصل إلى السقف؛ وبطبيعة الحال تردَّدت. لكنها استدارت ونظرت نحوي، و... حسنًا، أيها السيدان، أظن أنَّ كلَيكما كنتما ستُسرعان إلى تلبية ما طلَبَتْه، أو على الأقل» نظر نظرةً متشككة إلى السيد جرايس «كنتما ستُعيرانِ انتباهكما إلى هذا الشرف، حتى إن لم ترضَخا إلى الإغراء.»

صاح السيد جرايس بنفاد صبر: «حسنًا، حسنًا!»

قال: «سأُكمل. سِرت بعد ذلك متواريًا عن نظرها، للحظةٍ؛ لكنها بدَت طويلة بما يكفي لتُنجز مرادها؛ إذ عندما ظَهَرتُ والكوب في يدي، كانت جاثيةً على ركبتَيها عند موقد المدفأة على بُعد خمسِ أقدام كاملة من المكان الذي كانت واقفةً فيه، وكانت تتحسَّس خصر ثوبها بطريقةٍ تُقنعني بأنه كان معها شيء مخفيٌّ هناك كانت حريصة على التخلص منه. نظرتُ إليها عن قرب إلى حدٍّ ما وأنا أُناولها كوب الماء، لكنها كانت تُحدق في موقد المدفأة، وبدا أنها لم تنتبه. شَرِبَت بالكاد قطرةً، ثم أعادته إليَّ، وفي غضون لحظةٍ أخرى كانت تمدُّ يدَيها فوق النار. صاحت قائلةً: «يا إلهي! أشعر ببرد شديد! بردٍ شديد.» وأظن حقًّا أنها كانت كذلك. على أي حال، كانت ترتجف على نحوٍ طبيعي جدًّا. ولكن كان يوجد في الموقد بضعُ جمرات على وشك أن تخمد، وعندما رأيتها تدفع يدها مرة أخرى في طيَّات ثوبها، أصبحتُ مرتابًا في نواياها، ومقتربًا خطوةً منها، نظرتُ من فوق كتفها، وحينها رأيتها بوضوحٍ تُلقي شيئًا في الموقد أصدر صوت رنين عندما سقط. ولارتيابي في ماهيته، كنت على وشك أن أتدخل، عندما هبَّت واقفةً، وأمسكَت بسَطْل الفحم الذي كان أعلى المدفأة،

وبحركة واحدة أفرغَته كلَّه على الجمرات الخامدة. وصاحت: «أريد نارًا، نارًا!» فأجبتها: «تلك ليست طريقة إشعال النار»، وأنا أخرج الفحم بيديَّ بحذر، قطعةً قطعة، وأعدتُه إلى السَّطل، حتى ...»

سألت، وأنا أراه يتبادلُ مع السيد جرايس نظرةَ تعجُّل: «حتى ماذا؟»

رد وهو يفتح يدَه الكبيرة، ويُريني مفتاحًا مكسور المقبض: «حتى وجدت هذا!»

الفصل العاشر

السيد جرايس يحصل على دافعٍ جديد

لا مجال للشر أن يتسرَّب إلى هذا الهيكل المقدَّس.

مسرحية «العاصفة» [ترجمة: أنطوان مشاطي]

ترَك هذا الاكتشاف المذهل في نفسي شعورًا بتعاسة هائلة. إذن، فما سمعتُه كان صحيحًا. إلينور الجميلة، الفاتنة كانت ... لم أُكمل الجملة، لم يكن بوُسعي أن أكمل الجملة، حتى في ظل السكون الذي خيَّم على عقلي.

قال السيد جرايس، وهو ينظر بفضولٍ إلى المفتاح: «تبدو متفاجئًا. الآن، أنا لستُ متفاجئًا. فالمرأة لا ترتجف، ويحمر وجهها، وتراوغ، ويُغشى عليها دون سبب؛ لا سيما إذا كانت امرأة مثل الآنسة ليفنوورث.»

أجبت: «المرأة التي يُمكنها أن تفعل فعلةً كهذه هي آخرُ شخص يمكن أن يرتجفَ ويُراوغ ويُغشى عليه. أعطني المفتاح؛ دعني أرَه.»

وضعه في يدي برضًا عن نفسه. وقال: «هذا الذي كنَّا نريده. لا مهربَ من ذلك.»

أعدتُه إليه. وقلت: «إذا قرَّرت أنها بريئة، سأُصدقها.»

حدَّق في اندهاشٍ كبير. وضحك قائلًا: «لديك إيمانٌ قوي بالنساء. آمُل ألا يُخيِّبنَ أملك أبدًا.»

لم يكن لديَّ إجابةٌ على هذا، وتبع ذلك لحظةُ صمت، كسرها أولًا السيد جرايس. قال: «لم يتبقَّ لنا سِوى أن نفعل شيئًا واحدًا. فابز، سيتعين عليك أن تطلب من الآنسة ليفنوورث أن تنزل. لا تُثِر مخاوفها؛ تأكد فقط من أنها ستأتي.» وأضاف، والرجل ينسحب إلى الخارج: «إلى غرفة الاستقبال.»

ما إن أصبحنا بمفردنا حتى تحركتُ عائدًا إلى ماري، لكنه أوقفني.

همس: «تعالَ واحتمل الأمرَ حتى النهاية. ستنزل بعد بُرهة؛ احتمل الأمر حتى النهاية؛ ذلك أفضلُ لك.»

تردَّدت وأنا أنظر إلى الخلف؛ لكن احتمال أن أرى إلينور مرةً أخرى استهواني رُغمًا عني. أخبرته أن ينتظر، ورجعت إلى جانب ماري حتى أختلقَ لها أعذارًا.

سألت بتلهُّف: «ما الأمر ... ماذا حدث؟»

«لا شيء حتى الآن يستدعي أن تقلقي بشأنه كثيرًا. لا تقلقي.» لكن ملامح وجهي خانَتني.

قالت: «ثَمة أمرٌ ما!»

«ابنة عمكِ ستنزل.»

«إلى الأسفل هنا؟» وبدا عليها انقباضٌ واضح.

«لا، إلى غرفة الاستقبال.»

«لا أفهم. الأمر كلُّه مريع؛ ولا أحد يُخبرني بأي شيء.»

«أصلي إلى الرب ألا يكون ثَمة ما يُخبركِ به أحد. بحكم ثقتك الحاليَّة في ابنة عمكِ، لن يكون ثمة شيء. لذا استريحي، وتأكدي أنني سأُخبركِ إن حدث أي شيء لا بد أن تعرفيه.»

نظرت إليها نظرة تشجيع، وتركتها محطَّمة على الوسائد القرمزية للأريكة التي كانت جالسةً عليها، وانضممت من جديد إلى السيد جرايس. وما إن دخلنا غرفة الاستقبال حتى دخلت إلينور ليفنوورث.

بدَت أضعفَ مما كانت عليه قبل ساعة، ولكنها لا تزال محتفظةً بكبريائها، سارت في بطءٍ، وعندما التقت عينُها بعيني، أحنَت رأسها بلطفٍ.

قالت، موجهةً حديثها إلى السيد جرايس فقط: «استدعاني إلى هنا شخصٌ أظنه يعمل تحت إمرتك. إن كان كذلك، فاسمح لي أن أطلب منك أن تُطلعني على ما تريده في الحال، لأني متعبة، وفي أمسِّ الحاجة إلى الراحة.»

أجاب السيد جرايس، وهو يفرك يدَيه بعضهما ببعض ويُحملق بنظرةٍ أبوية تمامًا إلى مقبض الباب: «آنسة ليفنوورث، أعتذرُ جدًّا على إزعاجك، لكن الحقيقة هي أني أردتُ أن أسألكِ ...»

لكنها عندئذٍ أوقفَته. وقالت: «أي شيءٍ بخصوص المفتاح الذي أخبرك ذلك الرجل قطعًا أنه رآني أُلقيه في الرماد؟»

«أجل، يا آنسة.»

«إذن لا مفرَّ من أن أمتنع عن الإجابة عن أي أسئلة بخصوصه. ليس لديَّ ما أقوله عن الموضوع، إلا إذا كان هذا بخصوص» نظرت إليه نظرةً مليئة بالمعاناة، ولكنها مفعمة بشيءٍ من الشجاعة أيضًا «ما إذا كان مُحقًّا لَمَّا أخبرك بأني قد أخفيتُ المفتاح معي، وأني حاولت إخفاءه في رماد الموقد.»

«لكن، آنسة ...»

لكنها كانت قد انسحبت بالفعل ناحيةَ الباب. وقالت: «أرجو أن تُعفيَني. لا يمكن لأي نقاش قد تُجريه أن يُحدِث أيَّ فارق في قراري؛ لهذا فأيُّ محاولة من جانبك لن تكون سوى إهدارٍ لطاقتك.» وبعد نظرة خاطفة تجاهي، لم تغب عنها جاذبيتُها المعهودة، غادرَت الغرفة بهدوء.

لبرهةٍ ظل السيد جرايس واقفًا يُحدق وراءها بنظرةٍ تعكس شغفًا شديدًا، ثم، بعد أن انحنى باحترامٍ مبالَغ فيه، تبعها مسرعًا إلى الخارج.

كنتُ بالكاد قد أفقْتُ من أثر المفاجأة الناجمة عن هذه الخطوة غير المتوقَّعة عندما سُمع وقعُ خطواتٍ سريعة في الردهة، وظهرت ماري بجانبي، متوردةَ الوجه وقلقة.

سألَت: «ما الأمر؟ ماذا كانت تقول إلينور؟»

أجبتُ: «للأسف! لم تقل شيئًا. تلك هي المشكلة، يا آنسة ليفنوورث. ابنة عمكِ تلتزم الصمت في نقاط بعينها يُعذبها أن تشهدَ بها. يجب أن تفهم أنها إذا استمرَّت على ذلك، فإنها ...»

«فإنها ماذا؟» لم يكن خافيًا القلقُ الشديد الذي حملها على هذا السؤال.

«فإنها لن يكون بوُسعها تجنبُ العناء الذي سينتج عن ذلك.»

لبرهةٍ ظلَّت تُحدق نحوي بعينَين مرتابتَين فزعتين للغاية؛ ثم عادت تَهوي في مقعدها، وطرحت يدَيها على وجهها وصاحت:

«يا إلهي! لماذا خُلقنا أصلًا! لماذا تُرِكنا لنحيا! لماذا لم نهلك مع مَن جاءوا بنا إلى الدنيا!»

في مواجهةِ ألمٍ مفجع كهذا، لم أستطع أن أظل ساكنًا.

بذلت جهدًا في أن أقول لها: «يا عزيزتي الآنسة ليفنوورث، لا يوجد مبررٌ للقنوط إلى هذه الدرجة. المستقبل يبدو مظلمًا، لكنه ليس مسدودًا. سوف تستمع ابنةُ عمكِ إلى صوت العقل، وعند توضيح ...»

لكنها، متجاهلةً كلامي، وقفَت أمامي في حالةٍ شبه مريعة.

«بعض النساء في مكاني قد يُصَبن بالجنون! الجنون! الجنون!»

تفحَّصتها في ذهولٍ متزايد. ظننت أني كنت أعرف ما كانت تقصده. كانت مدركةً أنها قد أعطت طرَفَ الخيط الذي قاد إلى إثارة هذا الشك حول ابنة عمِّها، وأنها بهذه الطريقة هي المتسببةُ في الكرب الذي حل فوق رأسيهما. حاولتُ جاهدًا أن أُطمئنها، لكن محاولاتي كلها ذهبَت هباءً. وفي ظل انغماسها في حزنها، لم تُعِرني إلا القليل من انتباهها. وبعد أن توصلتُ إلى قناعةٍ في النهاية أنه لم يكن بوسعي أن أفعل لها أي شيء أكثرَ مما فعلت، استدرت وهممتُ بالانصراف. وبدا أن الحركة نبَّهتها.

قلت: «يؤسفني أن أغادر دون أن أكون قد قدَّمت لكِ أي عزاء. صدِّقيني؛ أنا حريصٌ جدًّا على مساعدتكِ. ألا يوجد أي أحد يُمكنني أن أبعثه ليكون بجانبكِ؛ أي صديقة أو واحدة من أقربائكِ؟ من المحزن أن أتركِكِ وحدكِ في هذا المنزل وفي مثل هذا الوقت.»

«وهل تتوقَّع أن أظل هنا؟ عجبًا، قد أموت! هنا هذه الليلة؟» وسرَت في جسدها قُشَعريرة طويلة.

جاء صوتٌ فاترٌ من خلفنا: «ليس من الضروريِّ على الإطلاق أن تفعلي ذلك، يا آنسة ليفنوورث.»

التفتُّ منتفضًا. فالسيد جرايس لم يكن وراءنا فحسب، بل من الواضح أنه كان موجودًا لمدَّةٍ. جالسًا بالقرب من الباب، وإحدى يديه في جيبه، والأخرى تُربِّت على مسند كرسيه، استقبلَ نظرتنا بابتسامة جانبية بدَت في الحال أنها تلتمسُ الصفح على تطفُّله، وتؤكد لنا أنه لم يكن وراء تطفلِه أيُّ دافعٍ غيرِ لائق. وقال: «سيكون كل شيء على ما يرام، يا آنسة؛ يمكنكِ المغادرة في أمانٍ تام.»

توقَّعت أن أرى استياءها من هذا التدخل؛ لكن على العكس من ذلك، أظهرَت شيئًا من الاستحسان عند رؤيته هناك.

جذبَتني إلى جانبٍ، وهمسَت: «تظن أن السيد جرايس هذا بارع جدًّا، أليس كذلك؟»

أجبتُ بحذر: «حسنًا، يتعيَّن أن يكون كذلك ليتولَّى المنصب الذي هو فيه. من الواضح أن السلطات تمنحه ثقةً كبيرة.»

ابتعدَت عن جانبي فجأةً كما اقتربت، وقطعَت الغرفة ووقفَت أمام السيد جرايس.

قالت وهي تُحدق فيه بنظرة استعطاف: «سيدي، سمعت أنك تتمتع بقدراتٍ متميزة، وأن بوُسعك أن تتوصل إلى المجرم الحقيقي من بين عشراتٍ من المشتبه فيهم، وأن لا شيء

يمكن أن يخفى عن عينك الثاقبة. إن صحَّ ذلك، أرجو أن ترأفَ بفتاتين يتيمتَين، حُرِمتا فجأةً من وليٍّ أمرهما وسندهما، وأن تستعين بمهارتك المشهودة في اكتشافِ مرتكب هذه الجريمة. قد تكون حماقةً مني أن أحاول أن أُخفي عنك أن ابنة عمي في شهادتها قد أعطت مبررًا لإثارة الشكوك حولها؛ لكني أُعلن هنا أنها بريئة من أي جُرْمٍ مثلي؛ ولا أسعى إلا إلى أن أُحَوِّل عين العدالة بعيدًا عن الشخص البريء لتلتفتَ إلى الجاني عندما أطلب منك أن تبحث في مكانٍ آخر عن المجرم الذي ارتكب هذه الفعلة.» توقفَت عن الكلام، وبسطَت يديها أمامه. «لا بد أن مَن فعل ذلك هو لص عادي أو مجرم خارج عن القانون؛ ألا يمكنك أن تُقدمه، إذن، للمحاكمة؟»

كانت طريقتها مؤثرةً للغاية، ومظهرها كله صادقًا ومؤثرًا جدًّا، حتى إنني رأيت ملامح السيد جرايس تكاد تجيش بمشاعرَ مكبوتة، رغم أن عينَيه لم تُفارقا غلاية القهوة التي كانتا مثبتتَين عليها عند اقترابها منه في البداية.

أكملت حديثها: «لا بد أن تجده ... أنت تستطيع ذلك! هانا، الفتاة التي غادرَت، لا بد أنها تعرف كلَّ شيءٍ عما حدث. ابحث عنها، مَشِّط المدينة، افعل أي شيء؛ كل ما أملك تحت تصرفك. سأُقدم مكافأةً كبيرة مقابلَ اكتشاف السارق الذي ارتكب هذه الفعلة!»

نهض السيد جرايس في تأنٍّ. وبدأ حديثه قائلًا: «آنسة ليفنوورث»، ثم توقف؛ كان الرجل في الحقيقة مرتبكًا. «آنسة ليفنوورث، لم أكن في حاجةٍ إلى الْتِماسِكِ المؤثر جدًّا ليحثَّني على أداء واجبي في هذه القضية بأقصى ما في وُسعي. حَسْبي اعتزازي الشخصي والمهني في حدِّ ذاتهما. لكن، بما أنكِ شرفتِني بهذا التعبير عن أمنياتكِ، فلن أُخفي عنكِ أنني سأعطي اهتمامًا متزايدًا للأمر اعتبارًا من هذه الساعة. سأفعل أقصى ما في وسع أي إنسان أن يفعله، وإذا لم آتِ إليكِ في غضون شهر من أجل مكافأتي، فإن إبينيزر جرايس ليس هو الرجلَ الذي عهدته دائمًا.»

«وإلينور؟»

قال، وهو يُلوح بيدَيه بلطفٍ إلى الأمام والخلف: «لن نذكر أيَّ أسماء.»

بعد دقائق معدودة، غادرتُ المنزل مع الآنسة ليفنوورث، التي كانت قد أبدت رغبتها في أن أُرافقها إلى بيت صديقتها، السيدة جيلبرت، التي كانت قد قررَت أن تلجأ إليها. بينما أخذنا نتحرك في الشارع بالعربة التي كان السيد جرايس لطيفًا بما يكفي ليُزودنا

بها، لاحظت أن رفيقتي ألقت نظرةَ ندمٍ وراءها، وكأنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الشعور ببعض تأنيب الضمير لتخلِّيها عن ابنة عمها.

لكن سرعان ما تبدَّل هذا التعبيرُ إلى نظرةٍ حذرة لشخصٍ يخشى أن يرى وجهًا بعينه يظهر فجأةً من منطقة غير معلومة. وإذ ظلَّت تنظر هنا وهناك في الشارع، تحدق خلسةً في المداخل ونحن نمر، وتنتفض وترتجف وكأنَّ وجهًا باغتَها على الرصيف، لم يبدُ أنها تنفست الصُّعداء حتى كنا قد تركنا الشارع وراءنا ودخلنا شارع ثيرتي سيفنث. عندئذٍ، في الحال عادت إلى حالتها الطبيعية، ومالت بلطفٍ نحوي، وسألتني إن كنت أحمل قلمَ رصاصٍ وورقةً يمكنني أن أعطيهما إياها. لحسن الحظ كان معي الاثنان. فناولتهما إياها، وراقبتها بشيءٍ من الفضول وهي تكتب سطرين أو ثلاثة سطور، متعجبًا من اختيارها لمثل هذا التوقيت والمكان لهذا الغرض.

أوضحت، وهي تنظر إلى شخبطة تكاد تكون غيرَ مقروءة وتعبير وجهها ينمُّ عن شك: «رسالة قصيرة أردت أن أرسلها. ألا يمكنك أن توقف العربة لحظةً بينما أكتب بيانات المرسَل إليه؟»

لبَّيت طلبها، وفي غضون لحظةٍ أخرى طُوِيَت الورقة التي كنت قد قطعتها من مفكرتي، ودُوِّن عليها بيانات المرسل إليه، وأُلصِق عليها طابعٌ بريدي كانت قد أخرجَته من محفظة جيبها.

تمتمت، وهي تضعها: «تلك رسالة تبدو مجنونة.»

«إذن لماذا لا تنتظري، حتى تصلي إلى وجهتك، وهناك يمكنك أن تُوقِّعيها كما ينبغي، وتوجهيها على راحتك؟»

«لأني في عجلة من أمري. أرغب في إرسالها الآن. انظر، يوجد صندوق عند الناصية؛ من فضلك اطلب من السائق أن يتوقف مرةً أخرى.»

سألتها، وأنا أمدُّ يدي: «ألا يُمكنني أن أضعها في الصندوق نيابةً عنكِ؟»

لكنها هزَّت رأسها نفيًا، ومن دون أن تنتظر مساعدتي، فتحت باب العربة من جانبها ووثبَت على الأرض. حتى عندئذٍ توقفَت لتنظر إلى الشارع هنا وهناك، قبل أن تُجازف بإيداع رسالتها التي كُتِبَت على عجلٍ داخل صندوق البريد. لكن عندما تركَتها من يدها، بدَت أكثر إشراقًا وتفاؤلًا مما رأيتها منذ قليل. وعندما استدارت، بعد لحظاتٍ قليلة، لتُودِّعني أمام منزل صديقتها، مدَّت يدها في شعورٍ يغلب عليه السرور، وطلبت مني بلطفٍ أن أزورها في اليوم التالي، لأُخبرها بالتطورات في التحقيق.

لن أحاولَ أن أُخفيَ عنكم حقيقة أنني أمضيت تلك الليلة الطويلة كلَّها في مراجعة الشهادات التي أُدلي بها في التحقيق، وبذل جهد في ربط ما كنت قد سمعته بأي فرضية أخرى غير أن إلينور هي الجانية. أخذت ورقةً، ودوَّنت سريعًا وبإيجاز الأسباب الرئيسية للاشتباه فيها كما يلي:

(١) خلافها الأخير مع عمها، وقطيعتها الواضحة له، كما شهد السيد هارويل.
(٢) الاختفاء الغامض لواحدةٍ من خادمات المنزل.
(٣) الاتهام العنيف الذي وجَّهته ابنة عمها، والذي مع ذلك لم يسمعه مصادفةً أحدٌ سواي أنا والسيد جرايس.
(٤) مراوغتها فيما يخص المنديل الذي وُجِد متسخًا بسناج المسدس في مسرح الفاجعة.
(٥) رفضها التحدثَ بشأن الورقة التي من المفترض أنها أخذَتها من منضدة السيد ليفنوورث بعد نقل الجثمان فورًا.
(٦) العثور على مِفتاح المكتبة في حوزتها.

انتهيت تلقائيًّا إلى أنه «سجل أسود»، وأنا أُراجعه؛ لكن حتى أثناء فعل ذلك، بدأتُ أُدون سريعًا على الجانب الآخر من الورقة النقاط الإيضاحيةَ التالية:

(١) الخلافات وحتى القطيعة بين الأقارب أمورٌ شائعة. الحالات التي أدَّت فيها الخلافات والقطيعة إلى ارتكاب جريمة نادرة الحدوث.
(٢) يُشير اختفاء هانا إلى أنه لا يوجد اتجاه مؤكَّد أكثر من الآخر.
(٣) إذا كان اتهامُ ماري الذي وجهته على انفرادٍ لابنة عمها دامغًا ومقنعًا، فيستوي معه إقرارُها على الملأ بأنها لا تعرف ولا تشتبهُ فيمن يمكن أن يكون مرتكبَ هذه الجريمة. من المؤكد، أن الأمر الفارق في الاتهام الأول أنه خرج بتلقائية؛ لكن كان صحيحًا بالمثل أنه خرج في لحظة انفعال عابرة، دون توقُّعٍ للعواقب، وربما دون مراعاةٍ واجبة للحقائق.
(٤، ٥) أي رجل أو امرأة بريئة، تحت تأثير الخوف، سيُراوغ على الأغلب في الأمور التي يبدو أنها تُدينه.

ولكن المفتاح! ماذا يمكنني أن أقول بشأنه؟ لا شيء. بوجود ذلك المفتاح في حوزتها، ومن دون تفسير لوجوده معها، فإن إلينور ليفنوورث كانت في موقف اشتباه حتى أنا نفسي شعرت بأنني مرغمٌ على الإقرار به. عندما وصلت إلى هذه النقطة، دسست الورقة

في جيبي، وأمسكت بجريدة «إكسبريس» المسائية. ومن دون مقدمات وقعَت عيني على تلك الكلمات:

جريمة قتل صادمة

* * *

العثور على السيد ليفنوورث، المليونير المشهور، مقتولًا في غرفته

* * *

لا دليل على مرتكب الجريمة

* * *

الجريمة الشنعاء ارتُكِبَت بمسدس ... تفاصيل مثيرة عن الواقعة

آه! هنا على الأقل كان ثمة شيءٌ واحد مطمئن؛ فاسمها لم يُذكَر بعدُ بصفتها طرفًا مشتبَهًا به. لكن ما الذي قد يحمله الغد؟ فكرت في النظرة المعبرة على وجه السيد جرايس وهو يُناولني المفتاح، وارتجفت.

أخذت أردِّد في نفسي: «لا بد أنها بريئة؛ لا يمكن أن تكون غيرَ ذلك.» ثم توقفت، وسألت ما الضمان الذي كان لديَّ على هذا؟ فقط وجهها الجميل؛ فقط، فقط وجهها الجميل. مرتبكًا، تركت الجريدة، ونزلت لأسفل بمجرد أن وصل صبيٌّ تلغراف حاملًا رسالةً من السيد فيلي. كانت موقَّعةً ومُرسَلةً من صاحب الفندق الذي نزل فيه السيد فيلي عندئذٍ وكان هذا نصها:

واشنطن، العاصمة،
إلى السيد إيفرت ريموند،
السيد فيلي يرقد مريضًا في فندقي. لم أُطلعه على البرقية، خشيةً من عواقبها عليه. سأفعل في أقرب فرصة مواتية.

توماس لوورذي

أخذت أتأمَّل. لماذا هذا الشعور المفاجئ بالارتياح من جانبي؟ هل من المحتمل أنني كنت مذنبًا في عقلي الباطن بإضمار خوفٍ دفين من عودة رئيسي؟ عجبًا، مَن غيرُه يمكن

أن يكون على دراية تامة بمنابع الأسرار التي كانت تُسيطر على هذه العائلة؟ مَن غيره يمكن أن يضعَني فعليًّا على المسار الصحيح؟ هل كان من المحتمل أنني أنا، إيفرت ريموند، كنت أخشى من معرفة الحقيقة أيًّا كانت؟ لا، لا ينبغي قولُ ذلك مطلقًا؛ وجلستُ مرة أخرى، وأخرجت الملاحظات التي كنت قد دوَّنتها، وراجعتها بتأنٍّ، ثم كتبت أمام النقطة رقم ٦ كلمة «مشتبه فيها» بأحرف بارزة وواضحة. هاك! ليس بوُسع أحد أن يقول، بعد ذلك، إنني قد سمحتُ لنفسي بأن يُعميني وجهٌ فاتن عن أن أرى، في امرأة لا خلاف على حُسنِها، ما قد يُنظَر إليه في الحال على أنه دليل جرم قاطع تقريبًا.

ومع ذلك، بعد أن فرغت من كل شيء، وجدت نفسي أُردد بصوتٍ عالٍ وأنا أُحدق في الملاحظات: «إذا أعلنَت أنها بريئة، فسأُصدقها.» إننا حقًّا عبيدٌ لأهوائنا.

الفصل الحادي عشر

الاستدعاء

في منتهى الأدب.

مسرحية «روميو وجوليت» [ترجمة د. محمد عناني]

وردَت في الصحف الصباحية روايةٌ أكثر تفصيلًا عن الحادثة مقارنةً بصحف الليلة السابقة؛ ولكن ما أراحني كثيرًا، أنه في أيٍّ منها لم يُذكر اسم إلينور فيما يتصل بما كنت أخشاه للغاية.

الفِقرة الأخيرة في جريدة «ذا تايمز» كان نصُّها: «يعمل المحققون على اقتفاء أثر الفتاة المفقودة، هانا.» أما في صحيفة «ذا هيرالد»، طالعت الإعلان التالي:

> مكافأة سخيَّة سيمنحها أقارب المبجَّل المتوفَّى هوراشيو ليفنوورث مقابل أي أخبار عن مكان وجود المدعوة هانا تشيستر، التي اختفت من المنزل ... الكائن في شارع فيفث أفنيو، اعتبارًا من ليلة الرابع من مارس. الفتاة المذكورة من أصل أيرلندي؛ عمرها يُناهز الخامسة والعشرين، ويمكن التعرُّف عليها بالمواصفات التالية. البِنْية طويلة ونحيلة؛ الشعر بُنِّي داكن تتخلَّله خصلات حمراء؛ البشَرة نضرة؛ الملامح رقيقة وجميلة؛ اليدان صغيرتان، لكن أصابعها بها آثارُ وخزٍ كثيرةٌ من استخدام إبرة الحياكة؛ القدَمان كبيرتان، وأخشن من اليدين. في آخر مرة شُوهدت فيها كانت ترتدي ثوبًا من القطن بمربعاتٍ باللونَين البني والأبيض، ومن المفترض أنها كانت تتدثَّر بشالٍ قديم باللونين الأحمر والأخضر.

عِلاوةً على هذه العلامات البارزة أعلاه، كان على مِعصَم يدها اليمنى ندبةٌ من أثر حرق كبير؛ أيضًا على صُدغها الأيسر بثرة أو بثرتان بسبب الجدري.

حوَّلَت هذه الفقرةُ تفكيري إلى اتجاه جديد. من الغريب أنني لم أستغرق إلا قليلًا جدًّا في التفكير بأمر هذه الفتاة؛ ورغم أنه كان واضحًا جدًّا أنها الشخصية الوحيدة التي كانت القضيةُ كلها متوقفةً في الحقيقة على شهادتها، إذا أُدلي بها، فلم أستطع الاتفاقَ مع أولئك الذين اعتبروها شخصيًّا متورطةً في جريمة القتل. كان من شأن شريكةٍ في الجريمة، تعي ما هي مُقبلةٌ عليه، أن تُخبئ في جيوبها كلَّ ما كان بحوزتها من مال. لكن لفة الأوراق النقدية التي عُثر عليها في صندوق هانا تُثبت أنها غادرت في عجلةٍ بالغةٍ من أمرها ولم تتَّخذ هذا الاحتياط. من الناحية الأخرى، إذا كانت الفتاة قد تفاجأت بالقاتل وهو يفعل فعلته، فكيف تمكَّنَت من الاندفاع إلى خارج المنزل دون أن تُحدِثَ ضجةً عاليةً بما يكفي لتسمعها السيدتان، اللتان كان باب إحداهما مفتوحًا؟ إن رد الفعل التلقائي الأول لفتاةٍ بريئة أمام مثل هذا الحدث كان الصراخ؛ ولكن لم يُسمع صراخ؛ فقد اختفت ببساطة. فيمَ يجب أن نفكِّر إذن؟ أن الشخص الذي رأَتْه كان شخصًا معروفًا ومحلَّ ثقة؟ لن أفكِّر في مثل هذا الاحتمال؛ لذا بعدما وضعت الجريدة، حاولت جاهدًا أن أتحاشى تمامًا المزيدَ من التفكير حول هذا الأمر إلى أن أتمكنَ من الحصول على المزيد من الحقائق التي يمكنني أن أضع على أساسها الفرضية. لكن مَن بيده أن يُسيطر على أفكاره وهو في ذروة تأثره بأي موضوع؟ طوال الصباح وجدتُني أقلِّب القضية في ذهني، حتى توصلت إلى استنتاجٍ من استنتاجين. لا بد من العثور على هانا تشيستر، أو لا بد أن توضح إلينور ليفنوورث متى وبأي طريقة أصبح مفتاح المكتبة في حوزتها.

في الساعة الثانية ظهرًا تحركت من مكتبي لحضور التحقيق؛ ولكن نظرًا إلى تأخُّري في الطريق، لم أصل إلى المنزل إلا بعد صدور الحكم. كان هذا محبِطًا لي، لا سيما أنه بهذه الطريقة ضاعت فرصتي في رؤية إلينور ليفنوورث، التي كانت قد صعدت إلى غرفتها فورَ انصراف هيئة المحلَّفين. لكن السيد هارويل كان حاضرًا، ومنه سمعتُ بالحكم الذي صدر.

«الوفاة نتيجة إطلاق رصاصة من مسدسٍ على يد شخصٍ مجهول.»

بعثَت نتيجة التحقيق في نفسي ارتياحًا عظيمًا. كنت أخشى من الأسوأ. ولم أستطع أن أمنع نفسي من ملاحظة أن السكرتير الشاحبَ الوجه، مع تحكمه المدروسِ في نفسه، شاركَني نفس شعوري بالرضا.

ما لم يبعث في نفسي ارتياحًا هو الحقيقة، التي سرعان ما أُبلِغتُ بها، التي مفادها أن السيد جرايس ومرءوسيه قد غادروا المبنى فور صدور الحكم. لم يكن السيد جرايس ذلك الرجل الذي يتخلى عن قضيةٍ كهذه بينما لا يزال أي شيء مهم ذي صلة بها دون تفسير. هل يمكن أن يكون قد اعتزم اتخاذ أيِّ تصرف حاسم؟ منزعجًا بعض الشيء، كنت على وشك أن أغادر المنزل مسرعًا بغرض أن أعرف ماذا كانت نواياه، حينما لفتت انتباهي حركةٌ مفاجئةٌ في النافذة الأمامية السفلية للمنزل في الجهة المقابلة للطريق، فنظرت عن كثب، ولاحظت وجه السيد فابز يتلصَّص من وراء الستار. رؤيتي له أكدت لي أني لم أكن مخطئًا في تقديري للسيد جرايس؛ وبدافعٍ من الشفقة على هذه الفتاة المنعزلة التي تُركت وحدها لتُواجه مقتضيات مصير كانت هذه المراقبة لتحركاتها المقدمة الواضحة عليه، خطوتُ راجعًا وأرسلت إليها رسالة قصيرة، عرضت فيها خدماتي، بصفتي ممثلَ السيد فيلي، في حال وقوع أي طارئ فُجائي، موضحًا أنني أتواجد دائمًا في منزلي بين الساعة السادسة والثامنة. بعد أن انتهيت من هذا، اتجهت إلى المنزل الكائن في شارع ثيرتي سيفنث حيث كنت قد أوصلت الآنسة ماري ليفنوورث اليوم الماضي.

اصطُحِبتُ إلى غرفة الاستقبال الطويلة والضيقة التي كانت رائجةً جدًّا في السنوات الأخيرة في منازل شمال مدينتنا، ووجدت نفسي في التو تقريبًا في حضرة الآنسة ماري ليفنوورث.

صاحت بصوتٍ عالٍ، في لفتةٍ معبرةٍ عن الترحيب: «يا إلهي! كنت قد بدأت أظن أنني هُجِرت وحدي!» ثم تقدمت باندفاعٍ نحوي، ومدت يدها لتسلم علي. وقالت: «ما الأخبار الآتية من البيت؟»

«صدر حكم نهائي بأنها جريمة قتل، يا آنسة ليفنوورث.»

ما فَتِئت عيناها تعكسان ما بهما من تساؤل.

«ارتكبها شخصٌ أو أشخاص مجهولون.»

بنعومة سرَى في ملامح وجهها طيف ارتياح.

وصاحت فجأة: «وجميعهم انصرفوا؟»

«لم أجد في المنزل أيَّ شخص غريب.»

«يا إلهي! إذن يمكننا أن نتنفسَ الصُّعداء من جديد.»

ألقيتُ نظرة سريعة في أنحاء الغرفة.

قالت: «لا يوجد أحدٌ هنا.»

وظللت مترددًا. وأخيرًا، وبطريقة غريبة بما يكفي، التفتُّ ناحيتها وقلت:

«لا أرغب في أن أُضايقكِ أو أن أُقلقكِ، لكن لا بد أن أقول إنني أرى من واجبكِ أن تعودي إلى بيتكِ الليلة.»

تلعثمت قائلةً: «لماذا؟ هل يوجد سبب معين حتى أفعل ذلك؟ ألم تُدرك استحالةَ بقائي في نفس المنزل مع إلينور؟»

«آنسة ليفنوورث، ليس بوسعي أن أتبينَ أي استحالة حسب زعمكِ في هذا الأمر. إلينور ابنة عمكِ؛ ونشأت وهي تعتبركِ أختًا لها؛ فلا يليق بكِ أن تتخلَّيْ عنها في وقت شدتها. ستتَّفقين معي في الرأي، إذا أعطيتِ نفسَكِ لحظةً من التفكير المحايد.»

أجابت، وعلى وجهها ابتسامةٌ تنم عن سخريةٍ لاذعة: «التفكير المحايد يكاد يكون مستحيلًا في ظل هذه الظروف.»

لكن قبل أن أتمكن من الردِّ على ما قالته، لانت وسألت إن كنتُ حريصًا جدًّا على عودتها؛ وعندما أجبت: «أكثر مما يُمكنني قوله»، ارتجفت ونظرت برهةً وكأنها كانت قد مالت نوعًا ما إلى الإذعان؛ لكن دموعها انهمرت فجأة، قائلةً وهي تبكي إن هذا مستحيل، وإنها كانت قسوةً مني أنْ طلبت منها هذا.

تراجعت مرتبكًا ومنزعجًا. وقلت: «معذرةً، لقد تجاوزت حقًّا الحدودَ المسموحة لي. لن أُكرر ما فعلتُه ثانيةً؛ لديكِ بلا شك صديقاتٌ كثيرات؛ اطلبي النصيحة من بعضهن حيال هذا الأمر.»

استدارت تجاهي في استنكارٍ شديد. وقالت: «الصديقات اللواتي تتحدث عنهن متزلِّفات. أنت وحدك لديك الشجاعة لتوجيهي إلى فعلِ ما هو صائب.»

«معذرةً، أنا لا أُوجهكِ؛ أنا فقط أناشدكِ.»

لم تُجِب، ولكنها أخذت تذرع الغرفة جيئةً وذَهابًا، وعيناها ثابتتان، ويداها تتحركان في اضطراب. قالت: «أنت لا تعرف إلا قليلًا عما تطلب. أشعر وكأنَّ جوَّ ذلك المنزل نفسه يمكن أن يدمرني؛ ولكن — وسألت باندفاع — لماذا لا تأتي إلينور إلى هنا؟» ثم أردفت: «أعرف أن السيدة جيلبرت سترحب كثيرًا بذلك، ويمكنني أن أظل بغرفتي، ولا داعي لأن نلتقي.»

«أغفلتِ أن ثمة أمرًا آخرَ يستدعي حضورَكِ إلى البيت، بخلاف الأمر الذي كنت قد أشرتُ إليه من قبل. غدًا بعد الظهر سيُدفَن عمك.»

«آه، صحيح؛ مسكين، عمي المسكين!»

تجرَّأْت في تلك اللحظة وقلت: «أنت رأس هذا المنزل، والشخص المناسب لحضور المراسم الأخيرة لمن فعل الكثير من أجلكِ.»

كان ثَمة شيءٌ غريب في النظرة التي وجَّهَتْها نحوي. ووافقت قائلةً: «هذا صحيح.» ثم التفتَت بجسمها التفاتةً مهيبة، وبحِسٍّ سريع من العزم قالت: «لديَّ رغبة في أن أكون جديرة برأيك الطيب. سأعود إلى ابنة عمي، يا سيد ريموند.»

شعرتُ بمعنوياتي ترتفع قليلًا؛ وأمسكت بيدها. وقلت: «أرجو ألَّا تحتاجَ ابنة عمكِ تلك إلى التعزية التي أنا واثقٌ من أنكِ على استعدادٍ لأن تمنحيها إياها.»

أفلتَت يدها من يدي. «أسعى لأداء واجبي» كان هو ردَّها الفاتر.

بينما كنت أنزل درَجَ مدخل المنزل، قابلت شابًّا نحيفًا يرتدي ملابس عصرية، رمَقني بنظرةٍ حادة جدًّا وهو يمر أمامي. نظرًا إلى أنه كان يرتدي ملابسَ من الواضح جدًّا أنها لم تكن تليق بالرجل المحترم كما ينبغي أن يكون، ولأني تذكرت أني رأيته من قبل في التحقيق، عدَدتُه رجلًا يعمل تحت إمرة السيد جرايس، وسارعت خطوتي ناحية الطريق؛ وحينها فاجأني أن أجد عند الناصية شخصًا آخر، أثناء تظاهره بأنه يبحث عن عربة ليستقلَّها، نظر إليَّ خلسةً، بينما كنتُ أقترب، نظرةَ تدقيق شديد. وإذ كان هذا الأخير، من دون شك، رجلًا محترمًا، شعرتُ ببعض الانزعاج، وسِرت نحوه في هدوء، وسألته إن كانت ملامحي تبدو مألوفةً له حتى يتفحصَها بهذه الدقة.

كانت إجابته غيرُ المتوقعة، وهو يستدير مبتعدًا عني ويسير في الشارع: «أراها لطيفة جدًّا.»

أربكَني الوضع غير المواتي الذي وضعني فيه أسلوبُه المهذب، لكنه لم يُشعرني بأدنى إهانة، فوقفت أراقبه حتى توارى عن ناظِرَيَّ، وأنا أتساءل عن هُوية هذا الشخص وطبيعة عمله. وذلك لأنه لم يكن رجلًا محترمًا فحسب، وإنما كان مميزًا؛ إذ كانت ملامحه ذاتَ تناسقٍ غير عادي كما كانت هيئته تعكس أناقةً فريدة. لم يكن رجلًا في أوج شبابه — ربما في الأربعينيَّات من عمره — لكن كان واضحًا على وجهه انطباعٌ بمشاعرَ شابَّةٍ بالغة القوة، ولم تكن ثَمة انحناءةٌ في ذقنِه ولا نظرة عينه تشي بأي حالٍ عن أدنى ميلٍ إلى السأم، رغم أن وجهه وقوامه كانا من النوع الذي يبدو أنه يغلب عليه الميلُ إليه والتعلُّق به.

قلت في نفسي: «لا يمكن أن تكون له صلةٌ بقوات الشرطة؛ ولا من المتيقَّن بأي حالٍ من الأحوال أنه يعرفني، أو أنه مهتمٌّ بأمري؛ لكنني لن أنساه سريعًا، مع كل ذلك.»

جاء الاستدعاء من الآنسة إلينور ليفنوورث في نحو الساعة الثامنة مساءً. أحضره توماس، وكان نصه كما يلي:

«احضر، يا إلهي، تعالَ! أنا ...» وهنا توقف المكتوب في ارتجاف، وكأنَّ القلم قد سقط من يدٍ واهنة.

لم أستغرق طويلًا ومضيتُ في طريقي إلى بيتها.

الفصل الثاني عشر

إلينور

أنتِ ثابتة الجَنان …
… وفي حفظ السر
لا تضاهيكِ امرأة.

مسرحية «هنري الرابع»

لا، إن ما يقتلها هو سم الاغتياب السريع المفعول والقاطع أكثر من حد السيف، واللسان الجارح أفظع من جميع تماسيح النيل.

مسرحية «سيمبلين» [ترجمة أنطوان مشاطي]

فتحت مولي الباب. وقالت وهي تُرافقني إلى الداخل: «ستجد الآنسة إلينور في غرفة الجلوس، يا سيدي.»

خوفًا من جهلي بالأمر، أسرعت إلى الغرفة التي أشِيرَ إليها؛ وشعرتُ كما لم أشعر من قبلُ بفخامةِ هذه الردهة البهية بأرضيتها الأثرية، وأخشابها المنحوتة، وزخارفها البرونزية؛ عبَثيَّة الأشياء تفرض نفسها عليَّ لأول مرة. وضعت يدي على باب غرفة الجلوس، وأرهفتُ السمع. كان السكونُ يُخيِّم على كل شيء. سحبت الباب ببطءٍ وفتحته، ثم أزحت ستائرَ الساتان الثقيلة المنسدلة أمامي حتى الأرض، ونظرت إلى الداخل. ويا له من مشهدٍ ذاك الذي أبصرَتْه عيناي!

رأيت إلينور ليفنوورث جالسةً في ضوء مصباحٍ غازي وحيد، لم يُساعد ضوءُه الخافتُ إلا على إظهار الساتان اللامع والرخام البرَّاق لهذه الغرفة الرائعة. كانت شاحبةً

من أثر الشفق الناعم من النافذة المقوسة التي كانت تجلس بالقرب منها، مثل تمثال سايكي المنحوت الذي كانت جاثمةً تحته، وجميلة مثله، وتقريبًا بلا حَراك مثله، ويداها متيبِّستان ومتجمدتان أمامها في تضرعٍ كانت قد انقطعَت عنه، وبدا أنها كانت غيرَ واعية لأي صوتٍ أو حركةٍ أو لمسة؛ هيئة صامتة معبرة عن اليأس في حضرة قَدرٍ لدود.

متأثرًا بالمشهد، وقفتُ ويدي ممسكةٌ بالستارة، مترددًا في أن أتقدم أو أتراجع، وفجأةً هزت رجفةٌ قوية وجهَها الجامد، وانحلَّت يداها المتيبستان، ورقت عيناها المتحجرتان، وبعدما هبَّت واقفةً، أطلقت تنهيدةَ ارتياح، وتقدمت نحوي.

صِحت، وقد أجفلَني صوتي نفسُه: «آنسة ليفنوورث!»

توقفت، وضغطت بيديها على وجهها، وكأن العالم بأسرِه وكل ما كانت قد نسيته اندفع نحوها من جديد ما إن نُطِق اسمُها.

سألتها: «ما الأمر؟»

هوت يداها بقوة. «ألا تعرف؟ لقد … لقد بدءوا يقولون إنني …» توقفَت، وأمسكتْ بحلقها. قالت بأنفاس متقطعة، وهي تشير إلى الجريدة الملقاة على الأرض عند قدميها: «اقرأ!»

انحنيتُ ورفعت ما اتضح من أول نظرة أنها صحيفة «ذي إيفينينج تليجرام». كانت نظرةٌ واحدة كافيةً لكي تُطلعَني على ما أشارت إليه. رأيت مكتوبًا فيها بحروف مفزعة:

جريمة قتل ليفنوورث

* * *

آخر تطوُّرات القضية الغامضة

* * *

أحد أفراد عائلة القتيل يُشتبه بشدةٍ في ارتكابه الجريمة

* * *

أجملُ امرأة في نيويورك في موضع شبهة

* * *

التاريخ السابق للآنسة إلينور ليفنوورث

كنت مهيَّأً للأمر؛ يمكنك القول إنني كنتُ قد درَّبت نفسي على هذا الأمر تحديدًا؛ ومع ذلك لم أستطع أن أمنعَ نفسي من التراجُع في ذُعرٍ. أسقطْتُ الجريدة من يدي، ووقفْتُ أمامها مشتاقًا إلى النظر إلى وجهها، ومع ذلك وَجِلًا من النظر إليه.

قالت بأنفاسٍ متقطعة: «ماذا يعني هذا؟ ماذا، ماذا يعني هذا؟ هل أُصيبَ العالم بالجنون؟» وحدَّقت عيناها، بثبات وجمود في عينَيَّ وكأنما استحال عليها أن تستوعب معنى هذا العمل الشائن.

هززت رأسي. لم أستطع أن أرد.

تمتمَت قائلةً: «يتَّهمونني أنا؛ أنا، أنا!» وهي تضرب صدرها بيدها المقبوضة، وصاحت قائلةً: «أنا التي أحببت التراب الذي كان يمشي عليه؛ أنا التي كنت سأُلقي بجسدي بينه وبين الرصاصة القاتلة لو أنني فقط كنتُ أعلم بالخطر الذي كان معرَّضًا له. يا إلهي! ما قالوه لم يكن بهتانًا فحسب، بل خِنجر طعنوني به في قلبي!»

متأثرًا كثيرًا بألمها، ولكن عازمًا على ألَّا أُظهر تعاطفي حتى أصل إلى قناعة أكثرَ رسوخًا ببراءتها التامة، أجبتها، بعد صمت:

«يبدو أن هذا أصابكِ بدهشةٍ عظيمة، يا آنسة ليفنوورث؛ ألم يكن بوُسعكِ إذن أن تتوقَّعي عواقب امتناعكِ بإصرارٍ عن الردِّ على نقاطٍ بعينها؟ ألم تعرفي إلا القليلَ عن الطبيعة البشرية حتى تتخيَّلي، في الموقف الذي أنتِ فيه، أنَّ بإمكانكِ التزامَ الصمت حيال أي أمرٍ متصلٍ بهذه الجريمة، دون أن تُثيري عداء عامة الناس، ودون أن يقولوا شيئًا عن شكوك الشرطة؟»

«لكن ... لكن ...»

لوحت سريعًا بيدي. وقلت: «عندما تحدَّيتِ المحقق أن يعثر في حوزتك على أي ورقة مريبة؛ عندما» أرغمت نفسي على الحديث «امتنعتِ عن إخبار السيد جرايس بالكيفية التي صار بها المفتاح في حوزتكِ ...»

تراجَعَت بسرعةٍ إلى الوراء، وكأن وابلًا ثقيلًا يسقط عليها من أثر كلماتي.

همست، وهي تنظر حولها في ذعرٍ، قائلة: «اسكت، اسكت! أحيانًا أظنُّ أنَّ للجدران آذانًا، وأن الظلال نفسها تُنصت.»

أجبت: «آه؛ إذن تأمُلين أن تُخفي عن العالم ما يعرفه المحققون؟»

لم يبدر منها رد.

أردفتُ: «آنسة ليفنوورث، يؤسفني أن أقول إنكِ لا تستوعبين طبيعة موقفك. حاولي للحظةٍ أن تُلقي نظرةً على القضية بعين شخصٍ حيادي؛ حاولي أن ترَيْ بنفسكِ ضرورةَ تفسير ...»

تمتمت بصوتٍ أجشَّ قائلةً: «ولكن ليس بوُسعي أن أفسر.»

«ليس بوسعِك!»

لا أدري إن كان ذلك بسبب نبرة صوتي أم لطبيعة العبارة نفسِها، لكن بدا أن ذلك التعبير البسيط كان له أثرُ اللطمة عليها.

صاحت، متراجعةً: «يا إلهي! أتشكُّ فيَّ، أيمكن أن تشك فيَّ أنت أيضًا؟ ظننت أنك ...» وتوقفَت. «لم أحلم أنني ...» وتوقفَت مرةً أخرى. فجأةً ارتجف جسدُها كلُّه. «يا إلهي، لقد فهمت! لقد أسأت الظن بي من البداية؛ الظواهر ضدي كانت قويةً للغاية»؛ وهوَت إلى مقعدها ببطء، مستسلمةً لشعورٍ عميقٍ بالخزي والمهانة. غمغمَت قائلةً: «آه، ولكن الآن أنا منبوذة.»

لمس الاستعطاف شغافَ قلبي. تحركتُ إلى الأمام، وصِحْت: «آنسة ليفنوورث، لست إلا إنسانًا؛ لا يمكنني أن أراكِ مغتمَّةً هكذا. قولي إنكِ بريئة، وسأُصدقكِ، بصرف النظر عن أي ظواهر.»

هبَّتْ واقفةً، فأصبحت قامتها أعلى مني. قالت: «هل يمكن لأي أحدٍ أن ينظرَ إلى وجهي ويتَّهمَني بالجُرم؟» ثم، وأنا أهزُّ رأسي نفيًا في حزن، ما لبثَت أن قالت بصوتٍ متهدِّج: «تحتاج إلى دليلٍ آخر!» وارتجفت بانفعالٍ غير عادي، وانطلقت مسرعة نحو الباب.

صاحت: «تعال، إذن، تعال!» وعيناها تشعَّان بإصرارٍ تامٍّ نحوي.

تحركت رغمًا عني في اضطرابٍ وفزع، وقطعتُ الغرفة إلى الموضع الذي كانت تقف فيه؛ لكنها كانت قد وصلَت بالفعل إلى الردهة. أسرعتُ وراءها، وقد ملأني خوفٌ لم أجرُؤ أن أُعبِّر عنه، ووقفت عند سفح الدَّرَج؛ كانت في منتصف الطريق إلى الأعلى. تبعتها إلى ردهة الطابق الأعلى، ورأيتها واقفة منتصبةً وشامخة عند باب غرفة نوم عمها.

صاحت مجددًا، لكن بنبرةٍ هادئة ووَقورة هذه المرة: «تعال!» وفتحت الباب على مِصراعَيه، ودخلت.

متغلبًا على الحيرة التي انتابتني، تبعتُها ببطء. لم يكن يوجد ضوء في غرفة الموت، باستثناء شعلة المصباح الغازي، في أقصى نهاية الردهة، تبعث ضوءًا غريبًا في الداخل،

وعلى بصيصِ ضوئها رأيتُها جاثيةً على رُكبتَيها عند السرير المغطَّى، ورأسها منحنٍ على رأس القتيل، ويدُها على صدره.

صاحت، وهي ترفع رأسها بينما أدخل: «لقد قلتَ إنني إذا أعلنتُ براءتي فستُصدقني. انظر هنا»، وبعدما وضعَت وجنتها على الجبين الشاحب لذلك الرجل البارِّ بها الذي فارق الحياة، قبَّلَت شفتَيه الشاحبتَين برفقٍ وانفعالٍ وألم، ثم بعدما هبَّت واقفةً، صاحت بنبرةٍ مكبوتةٍ لكنها جذابة: «هل بوسعي أن أفعلَ ذلك لو كنتُ مذنبة؟ ألن يتجمَّد النفَسُ على شفتَيَّ، ويجمدَ الدمُ في عروقي، ويهونَ قلبي عند ملامسته؟ بصفتك ابنًا لأبٍ كنت تُحبُّه وتحترمه، هل يُمكنك أن تُصدق أنني امرأةٌ موصومةٌ بعارِ هذه الجريمة بينما بوُسعي أن أفعل هذا؟» ثم عادَت لتجثوَ على ركبتَيها وتُلقي بذراعَيْها فوق هذا الجسد الميت وحوله، وهي تنظر في وجهي في الوقت نفسِه بتعبيرٍ تعجز يدٌ بشرية عن رسمه، ويعجز اللسان عن وصفه.

أردفت: «في الأزمان الغابرة، كانوا يقولون إن جسدَ المتوفَّى قد ينزف دمًا إذا لامسَه القاتل. إذن ماذا يُمكن أن يحدثَ هنا، إذا كنت أنا، ابنته، وطفلته الغالية، التي تنعَّمت في خيره، وتزيَّنت بمجوهراته، وأحاطها دفءُ قبُلاته، كما يتهمونني؟ ألن ينشقَّ الكفن عن جسد المتوفَّى الحانق وينفرَ مني؟»

لم يكن باستطاعتي أن أُجيب وذلك في حضرة بعضِ المشاهد التي ينعقد معها اللسان.

واصلَت حديثها: «آه! إن كان يوجد ربٌّ في السماء يحبُّ العدل ويُبغض الإثم، فليَسمعْني الآن. لو كنتُ، بالتفكير أو بالفعل، بقصدٍ أو دون قصد، السبب فيما آل إليه هذا الإنسانُ العزيز؛ لو كان ثَمة مقدار طيف جرم، فضلًا عن الجرم نفسِه، يقع على عاتق قلبي ويمتدُّ إلى هاتَين اليدَين الواهنتَين، فلْيتَجلَّ غضبُه في قِصاصٍ عادلٍ أمام العالم، وليسقطْ جبين المذنب هنا، على صدر الميت، ولا يرتفعْ ثانيةً أبدًا!»

أعقب هذا الابتهالَ صمتٌ مهيب؛ ثم تصاعدت من صدري تنهيدةُ ارتياح طويلة جدًّا ومرتعشة، وانفلتَت كلُّ المشاعر المكبوتة في قلبي حتى تلك اللحظةِ من عقالها، فانحنيت نحوها وأمسكت بيدها.

هَمَسَت: «أتُصدق، أيمكنك أن تُصدق أني موصومةٌ بجُرم الآن؟» وبنعومةٍ تبدَّت الابتسامة، التي لا تُحرك الشفاهَ فحسب، بل تشعُّ من الوجه، مثل فيضِ سلام داخلي، على وجنتَيها وأساريرها.

«جرم!» أفلتَت الكلمةُ من شفتي دون سيطرة «جرم!»

قالت في هدوء: «لا، ما عاش مَن بوسعه أن يتَّهمني بجرم، هنا.»

ردًّا على ذلك، أخذتُ يدها، التي كانت في يدي، ووضعتُها على صدر الميت.

أحنَت رأسها بنعومة وتأنٍّ وامتنان.

هَمَسَت: «والآن حان وقت المقاومة! ثَمة شخص واحدٌ سيُصدقني، مهما تكُن الظواهر القاتمة.»

الفصل الثالث عشر

المعضلة

لكن من الذي قد يحمل النفس، المسلحة بقشةٍ، على مواجهةِ بطلٍ مغلَّف بالعناد.

ووردزوورث

عندما عاودنا دخولَ غرفة الجلوس، كانت أول ما أبصرته أعينُنا هي ماري، واقفةً متدثرةً في معطفها الطويل في منتصف الغرفة. كانت قد وصلَت أثناء غيابنا، وفي تلك اللحظة كانت في انتظارنا برأسٍ مرفوع وملامحَ راسخةٍ عليها تعبيرٌ ينمُّ عن أعلى درجات الاعتداد بالنفس. عندما نظرَت في وجهها، أدركت الحرجَ الذي لا بد أن يُثيره هذا اللقاء بين هاتَين السيدتَين، وكنت سأنسحب، لكنَّ شيئًا في موقف ماري ليفنوورث بدا أنه يمنعُني من فعل ذلك. في الوقت نفسِه، عاقدًا العزمَ على ألَّا تمرَّ هذه الفرصة دون نوعٍ من المصالَحة بينهما، تقدَّمت إلى الأمام، ومنحنيًا لماري، قلت:

«نجحت ابنة عمكِ لتوها في إقناعي ببراءتها التامة، يا آنسة ليفنوورث. أنا الآن مستعدٌّ لأنضمَّ إلى السيد جرايس، عن إيمانٍ تام، لاكتشاف المجرم الحقيقي.»

كان ردُّها غير المتوقع: «كان عليَّ أن أستنبط أنَّ نظرةً واحدةً في وجه إلينور ليفنوورث كانت كافيةً لإقناعك بأنها تعجز عن ارتكاب جرم»؛ ثم رفعت ماري ليفنوورث رأسها في إيماءةٍ متغطرسة، وحدقت عيناها في عينيَّ بثبات.

شعرتُ بالدمِ يتفجر في جبيني، ولكن قبل أن أتمكنَ من التحدث، ارتفع صوتُها مرةً أخرى، ولكن بفتورٍ أكثر مما كان عليه من قبل.

«من الصعب على فتاةٍ رقيقة، لم تعتدْ على شيء البتة سوى عباراتِ الإطراء النابعة من الإعجاب، أن تُضطرَّ إلى أن تؤكد للعالم براءتها من ارتكاب جريمةٍ مروعة. إنني أتعاطفُ مع إلينور.» وبينما كانت تُزيح معطفها من فوق كتفها بحركةٍ سريعة، أدارت بصرَها لأول مرة ناحيةَ ابنة عمِّها.

في الحال تقدَّمت إلينور، وكأنها تستقبلُ هذه النظرة؛ ولم يكن بوُسعي إلا أن أشعر، لسببٍ ما، أن هذه اللحظة كانت لكلتَيهما ذاتَ أهمية لم أكن قادرًا على تقديرها. ولكن حتى وإن وجدتُ نفسي عاجزًا عن إدراك أهميتها، فإنني على الأقل تجاوبتُ بما يتلاءم مع شدتها. وبالفعل كانت مناسَبةً لا تُنسى. أن أرى امرأتَين كهاتين، قد تُعتبَر أيٌّ منهما آيةَ عصرها، وجهًا لوجهٍ، واقفتَين في عداءٍ واضح، كان مشهدًا يُثير أكثرَ الأحاسيس كآبةً. لكنْ ثَمة شيءٌ آخر في هذا المشهد أكثرُ من ذلك. كان التصادم بين أسمى المشاعر العاطفية في النفس البشرية؛ التقاء بحرَين لا يمكنني أن أُخمن عمقهما وقوتهما إلا عن طريق الأثر. كانت إلينور أولَ من استعاد زِمام نفسِه. متراجعةً إلى الوراء في غطرسةٍ غير مبالية كنتُ، للأسف، قد نسيتها تقريبًا في خضمِّ إظهار الانفعالات الأخيرة والأكثر رقَّةً، صاحت:

«ثَمة شيءٌ أفضل من التعاطف، وهو العدل»؛ واستدارت، وكأنها ستُغادر. «سأتشاور معك في غرفة الاستقبال يا سيد ريموند.»

لكن ماري، مندفعةً فجأةً إلى الأمام، أمسكَت بها من الخلف بقبضةٍ قوية. صاحت: «لا، يجب أن تتشاوَري معي أنا! لديَّ شيء أريد أن أُخبركِ به، يا إلينور ليفنوورث.» وبعدما اتخذَت موضعها في وسط الغرفة، انتظرت.

نظرتُ إلى إلينور، ورأيت أنه لا مكانَ لي، فانسحبت مسرعًا. أخذت أذرَعُ غرفة الاستقبال لمدة عشر دقائق طويلة، كنت فيها فريسةً لآلاف الشكوك والتخمينات. ماذا كان سر هذا البيت؟ ما الذي أفضى إلى انعدامِ الثقة الفتَّاك والمتجلِّي باستمرارٍ بين ابنتَي العم هاتَين، المهيَّأتَين بطبيعتهما لأن تجمعَ بينهما رفقةٌ بالمعنى الأكمل وصداقةٌ في غاية الود؟ لم يكن الأمر وليدَ اليوم أو الأمس. لا يمكن لجذوةٍ مفاجئة أن تستنهض حدةً في المشاعر مثل تلك التي كنت شاهدًا عليها رغمًا عني. يجب على المرء أن يرجع إلى ما قبلَ جريمة القتل هذه ليكشفَ السبب الجذريَّ في تضخُّم انعدام الثقة لدرجة أن الصراع الذي تسبَّب فيه كان محسوسًا حتى حيثما كنت أقف، على الرغم من أنه لم يكن يصل إلى سمعي عبر الأبواب المغلقة سوى صوتِ همهمة خافتة إلى أقصى حد.

في تلك اللحظة، كانت ستارةُ غرفة الجلوس قد أُزيحت، وصار صوتُ ماري مسموعًا بوضوحٍ جلي.

«لا يمكن أبدًا أن يجمعَنا سقفٌ واحد بعد هذه اللحظة. غدًا، لا بد أن تجدي أنتِ أو أنا بيتًا آخر.» واندفعت إلى الردهة، متوردةَ الوجه ولاهثةً، وتقدمت نحو المكان الذي كنت أقف فيه. لكن ما إن أبصرَت وجهي، حتى طرأ عليها تغيير؛ بدا أن كل كبريائها قد تبدَّد، فأشاحَت بيدَيها، وكأنها تصدُّ نظرتي المتمعنة، وولَّت مسرعةً من جانبي، واندفعت صاعدةً لأعلى على درَج السلم وهي تنتحب.

كنتُ لا أزال أرزحُ تحت وطأة هذه النهاية المؤلمة للمشهد الغريب عندما أُزيحت ستارة غرفة الجلوس مرةً أخرى، ودخلت إلينور الغرفةَ التي كنتُ فيها. كانت شاحبةً لكنها هادئة، ولم تُظهِر أيَّ أماراتٍ على الصراع الذي كانت قد خاضته للتو، باستثناء علامات إجهادٍ طفيفة حول العينَين، وجلست بجانبي، وقابلت نظرتي بنظرةٍ مستغلِقة في شجاعتها، وقالت بعد بُرهة: «أخبرني بوضعي؛ دعني أعرف الأسوأَ في الحال؛ أخشى أنني لم أكُن بالفعل أدرك موقفي.»

ابتهجتُ لسماعي هذا الإقرار من شفتَيها، وسارعت إلى الامتثال لطلبها. بدأتُ بأن وضعت أمامها القضية برُمَّتها كما بدَت لشخصٍ حيادي؛ وتوسعت في أسباب الارتياب، وبيَّنتُ الحيثيات التي جعلت بعض الأمور تؤخَذ ضدَّها، والتي ربما كانت في ذهنها سهلةَ التفسير وقليلة الأهمية؛ حاولت أن أجعلَها ترى أهميةَ قرارها، وأخيرًا أنهيتُ كلامي بالتِماس. أيُمكنها أن تأتمنني على سرِّها؟

علقَت مرتجفةً: «ولكني ظننت أنك كنت مقتنعًا؟»

«وأنا كذلك بالفعل؛ لكني أريد أن يكون العالم كلُّه كذلك، أيضًا.»

أجابت بحزن: «آه؛ الآن أنت تطلب ما ليس بوسعي! إن أصابع الاتهام لا تنسى أبدًا الاتجاهَ الذي أشارت إليه مرةً. إن اسمي موصومٌ إلى الأبد.»

«وسترضخين لهذا، عندما تعلمين أن بكلمةٍ منكِ ...»

تمتمَت قائلةً: «أظن أن أيَّ كلمة مني الآن ستُحدِث فارقًا طفيفًا جدًّا.»

أشحتُ بناظرَيَّ، فمشهد السيد فابز، مختبئًا خلف ستائر المنزل المقابل، كان يُعاود الظهورَ في ذهني على نحوٍ يبعث على الألم.

واصلَتْ حديثها: «إذا كان الأمر يبدو سيئًا بالقدرِ الذي أوضحته، فمن غير المحتمل أن السيد جرايس سيهتمُّ كثيرًا بأيِّ تفسير مني فيما يخصُّ القضية.»

«سيُسَر السيد جرايس بمعرفة المكان الذي أحضرتِ منه المفتاح، فقط إذا كان الهدفُ من ذلك هو مساعدتَه على توجيه سَير التحقيقات إلى المسار الصحيح.»

لم يبدر ردٌّ منها، فهبطت معنوياتي ليُصيبها الإحباطُ من جديد.

تابعتُ: «إن الأمر يستحقُّ أن تبذلي جهدًا في سبيل إقناعه؛ حتى وإن كان من شأن هذا أن يفضحَ شخصًا ترغبين في التستُّر عليه ...»

نهضَت باندفاع. قالت: «لن أبوحَ أبدًا لأي شخصٍ عن الكيفية التي آتاني بها ذلك المفتاح.» ثم عاودت الجلوس، وأطبقت يدَيها أمامها في إصرار ثابت.

نهضت بدوري وأخذت أذرَع الغرفة جيئةً وذهابًا، فأنيابُ غيرةٍ غيرِ منطقية كانت تنغرس بعمقٍ في قلبي.

«سيد ريموند، إن كان الأسوأ سيأتي لا محالة، فحتى إن توسل إليَّ كل مَن يُحبونني راكعين أن أُفصِح، فلن أفعل ذلك أبدًا.»

عازمًا على ألَّا أُفصح عن الفكرة التي كانت تنطوي عليها سريرتي، ولكن بالقدرِ نفسِه مصممٌ على أن أكتشف إن أمكن الدافعَ وراء هذا الصمت، قلت: «إذن أنتِ راغبةٌ في أن تُبطِلي مبدأ العدالة.»

لم تنبس ببنتِ شَفةٍ ولا صدرَت منها حركة.

قلتُ في تلك اللحظة: «آنسة ليفنوورث، إن هذا التستُّر الثابت العزم على شخصٍ آخر على حساب سُمعتك هو بلا شكٍّ من كرم أخلاقكِ؛ لكنَّ أصدقاءكِ والمحبين للحقِّ والعدل لا يمكن أن يقبَلوا بمثل هذه التضحية.»

انتفضت بتكبُّر. وقالت: «سيدي!»

واصلتُ الحديثَ في هدوءٍ، ولكن بإصرار: «إن لم تُساعدينا، فسنُضطرُّ إلى أن نستغنيَ عن عونكِ. فبعد المشهد الذي رأيته للتوِّ بالأعلى؛ بعد أن نجحتِ في إجباري على الاقتناع، ليس فقط ببراءتك، وإنما أيضًا بهلَعِك من الجريمة وعواقبها، سأشعر بأني أقلُّ مروءةً إن لم أُضحِّ حتى بحُسن ظنكِ فيَّ، لأُصرَّ على الدفاع عن قضيتك، ولأرفع عن اسمك هذا الظلم المشين.»

خيَّم ذلك الصمتُ المطبق من جديد.

سألتْ أخيرًا: «ما الذي تعتزم فعله؟»

وأنا أقطع الغرفة سيرًا، وقفتُ أمامها. «أعتزم أن أُريحكِ تمامًا وإلى الأبد مِن الاشتباه فيكِ، بأن أعثرَ على المجرم الحقيقيِّ وأكشفه أمام العالم.»

توقعت أن أراها تتراجع، إذ كنت في تلك اللحظة قد أصبحتُ متيقنًا من هُوية الجاني. لكن بدلًا من ذلك، اكتفت بعَقْد ذِراعيها في إحكامٍ أشدَّ وصاحت:

«أشكُّ أنك ستقدر على ذلك، يا سيد ريموند.»

«تشكِّين في أنني سأتمكَّن من أن أضع يدي على المجرم، أم تشكِّين إن كنت سأقدر على تقديمه إلى العدالة؟»

قالت بجهدٍ جهيد: «أشكُّ في أن بوسع أيِّ شخص على الإطلاق أن يعرف مَن المجرم في هذه القضية.»

قلت وبداخلي رغبةٌ في اختبارها: «ثمة شخصٌ واحد يعرف.»

«شخص واحد؟»

«يا آنسة ليفنوورث، الفتاة هانا على دِرايةٍ بلُغز الأفعال الشريرة التي وقعَت في تلك الليلة. بالعثور على هانا، سنعثر على الشخص الوحيد الذي بإمكانه أن يدلَّنا على قاتل عمكِ.»

قالت: «هذا مجردُ افتراض»؛ ولكنني رأيت الصدمة وقد بدَت عليها.

«لقد عرضت ابنة عمكِ مكافأة سخية لمن يجد الفتاة، والبلد بأكمله يبحث عنها. خلال أسبوع سنراها بيننا.»

طرأ تغييرٌ على تعبير وجهها ووقفتها.

قالت: «ليس بوُسع الفتاة أن تُساعدني.»

متحيرًا من مسلكِها، تراجعتُ إلى الوراء. قلت: «هل يوجد أيٌّ شيء أو أي شخص بوسعه ذلك؟»

أشاحت بناظرَيها ببطء.

واصلت حديثي بنبرةٍ جادة من جديد: «آنسة ليفنوورث، ليس لكِ أخٌ ليُقنعك، ولا أمٌّ لتُرشدك؛ اسمحي لي إذن أن أُناشدك، في ظل غياب الأصدقاء الأعزَّاء والمقربين، أن تُوليني ثقةً كافية لأن تُخبريني بأمر واحد.»

سألت: «ما هو؟»

«هل أخذتِ الورقة التي اتُّهمتِ فيها من منضدة المكتبة؟»

لم تُجب على الفور، ولكن جلست تنظر بجدِّيةٍ أمامها في عزمٍ بدا أنه كان ينمُّ عن إمعانها في السؤال وكذلك في إجابتها. أخيرًا، استدارت نحوي، وقالت:

«ردًّا على سؤالك، سأُفضي إليك بسرٍّ. أجل، يا سيد ريموند، لقد فعلت.»

كظَمتُ أنين اليأس الذي بان على شفتي، وأردَفْت.

«لن أسألَكِ عمَّا كان في هذه الورقة» لوَّحَت بيدها في استنكارٍ «لكنكِ ستُخبرينني بأكثرَ من هذا. هل تلك الورقة لا تزال موجودة؟»

نظرت إلى وجهي بثبات.

«ليسَت موجودة.»

استطعتُ بصعوبةٍ أن أمتنعَ عن إظهار خيبة أملي. قلتُ في تلك اللحظة: «آنسة ليفنوورث، قد تبدو قسوةً مني أن أضغط عليكِ في هذا الوقت؛ لا شيء سوى إدراكي الشديدِ للخطر الذي أنتِ بصَددِه قد يحثُّني على أن أجازفَ بأن أتسبب في شعورك بالاستياء بطرح أسئلةٍ قد تبدو في ظروف أخرى صِبيانيةً ومُهينة. لقد أخبرتِني بشيءٍ واحد كنت أرغب بشدةٍ في معرفته؛ هل لكِ أن تُخبريني أيضًا بما سمعتِه تلك الليلةَ وأنت جالسة في غرفتكِ، في المدَّةِ بين صعود السيد هارويل لأعلى وإغلاق باب المكتبة، التي أشرتِ إليها في التحقيق؟»

كنتُ قد تماديتُ في أسئلتي، وتبيَّنت ذلك في الحال.

أجابت: «سيد ريموند، بتأثيرٍ من رغبتي في ألا أبدوَ ناكرةً لجميلك تمامًا، حُمِلتُ على البوح بسرٍّ ردًّا على أحد مناشداتك المُلحَّة؛ لكن لا يمكن أن أبوحَ بأكثرَ من ذلك. لا تطلب مني أن أفعل.»

أفجعَتْني نظرةُ العتاب الباديةُ عليها، فأجبتُ بشيءٍ من الحزن أن رغباتها لا بد أن تَلقى احترامًا. وقلت: «ومع ذلك أعتزمُ أن أبذل قُصارى ما في وُسعي لكي أكتشف الجانيَ الحقيقي لهذه الجريمة. فذلك واجبٌ مقدَّس أشعر بأنني مُلزَم بإنجازه؛ ولكن لن أسألَكِ أيَّ أسئلة أخرى، ولن أُثقِلَ عليكِ بمناشدات أخرى. سأفعل ما ينبغي فعلُه من دون مساعدتك، ومن دون التعلقِ بأي أملٍ سوى أنه إذا حالفَني النجاح، ستُقرِّين بأن دوافعي كانت نزيهةً وعملي كان مجردًا من أيِّ مصلحة شخصية.»

بدأت حديثَها قائلةً: «أنا مستعدة لأن أُقرَّ بذلك الآن»، لكنها توقفَت عن الكلام ورمقَتني بنظرة استعطافٍ متألِّمة. وأردفت: «سيد ريموند، ألا يُمكنك أن تترك الأمورَ على حالها؟ ألا يمكنك؟ لا أطلب المساعدة، ولا أريدها؛ أُفَضِّل ...»

لكني لم أُصْغِ إليها. وقلت: «لا يحقُّ للمذنب أن يستغل مروءة البريء. اليد التي وجَّهَت هذه الضربة القاضية لن تكون مسئولة أيضًا عن ضياع شرفِ امرأةٍ نبيلة وسعادتها.»

ثم أضفت: «سأفعل ما في وُسعي، يا آنسة ليفنوورث.»

بينما كنت أسير في الشارع تلك الليلة، وبداخلي شعورٌ بأني مثل رحَّالة مغامر وطئت قدمه في لحظة يأسٍ لوحًا خشبيًّا يمتدُّ على نحو لا يُرى على جانبيه الكثير فوق هوَّةٍ بلا قرار، انبعثت هذه المعضلة من العتمة التي أمامي؛ كيف يُمكنني، من غير طرَفِ خيط سوى الاقتناعِ بأن إلينور ليفنوورث كانت متورطةً في التستُّر على شخص آخر على حساب سمعتها، أن أُصارع ظنون السيد جرايس، وأتوصل إلى القاتل الحقيقي للسيد ليفنوورث، وأُحرِّر امرأةً بريئة من ظلال الشك التي سقطت عليها، والتي لم تخلُ من بعض الإبداء للمنطق؟

الجزء الثاني

هنري كلافرينج

الفصل الرابع عشر

زيارة السيد جرايس في منزله

لا، بل أصغِ إليَّ.

مسرحية «الصاع بالصاع»

لم يَعُد لديَّ شكٌّ في أن المذنب الذي كانت إلينور ليفنوورث مستعدةً لأن تُضحِّيَ بنفسها من أجله هو شخصٌ كانت تُكِنُّ له الحبَّ فيما مضى؛ فالحب، أو الإحساس القويُّ بالواجب النابع من الحب، يكفي في حد ذاته ليُبرر مثل ذلك التصرف الحاسم. لم يتبادَر إلى ذهني، كلما سألتُ نفسي مَن يمكن أن يكون هذا الشخص، سوى اسمٍ واحد فقط، بغيض كما كان بِناءً على كلِّ أحكامي المسبقة، هو اسم السكرتير العادي، بانفعالاته المفاجئة وتصرُّفاته المتقلبة، وبأساليبه المحيِّرة واعتداده المدروس بالنفس.

ومع ذلك، من دون الضوء الذي سلَّطه مسلك إلينور الغريبُ على تلك المسألة، لم أكن سأختار هذا الرجلَ باعتباره شخصًا معرَّضًا بأي حال من الأحوال للاشتباه فيه؛ فلم تكن غرابةُ مسلكه في التحقيق واضحةً بالدرجة الكافية حتى تدحضَ عدم احتمال أن يجدَ شخصٌ بمثلِ علاقاته مع المتوفَّى دافعًا كافيًا لارتكاب جريمة كان من الواضح جدًّا أن عواقبَها لن تكونَ في صالحه. لكن إذا كان الحبُّ قد دخل بوصفه عاملًا في المسألة، فما الذي لا يمكن توقُّعُه؟ كان جيمس هارويل، السكرتير البسيط لتاجر شاي متقاعد، شخصًا؛ أما جيمس هارويل، الذي هيمنَت عليه عاطفتُه نحو امرأةٍ جميلةٍ مثل إلينور ليفنوورث، فكان شخصًا آخر؛ وبوضعه على قائمة الأطراف الواقعين تحت طائلةِ الاشتباه، شعرتُ أنني لم أكن أفعلُ سِوى ما كان يُبرِّره النظرُ على النحو الواجب في الاحتمالات المطروحة.

لكن، بين اشتباهٍ سطحي ودليلٍ فعلي، ثَمة فارقٌ شاسع! أن تعتقد أن جيمس هارويل قادرٌ على ارتكاب جُرم، وأن تجد دليلًا كافيًا على اتهامه بهذا الجرم، كانا أمرَين شتان بينهما. وجدتُ نفسي تلقائيًّا أنفر من هذه المهمة، التي كنت قد عقدتُ العزم تمامًا على الشروع فيها؛ أخذ تصور ما لموقفه التعس، إن كان بريئًا، يفرض نفسه عليَّ، وأخذ يجعل انعدام ثقتي فيه يبدو لي غيرَ لائق إن لم يكن جائرًا تمامًا. لو كنتُ أستلطف هذا الرجلَ أكثر، ما كنت سأغدو متأهبًا هكذا لأن أشكَّ في أمره.

لكن لا بد من إنقاذ إلينور ليفنوورث أيًّا كانت المخاطر. ما إن تصبح فريسة لآفة الشك، مَن بإمكانه أن يعرف عاقبة الأمور؛ فإلقاءُ القبض عليها ربما — في حال وقوعه — قد يُعكر صفوَ شبابها ويستلزم أكثرَ من مجرد مرور الوقت حتى ينقشع. أما اتهامُ سكرتير مُعدِم فقد يكون أقلَّ بشاعةً من هذا. عزمت أن أزور السيد جرايس باكرًا.

في تلك الأثناء، المشهدان المتناقضان لإلينور من ناحية وهي تقف ويدها على صدر المتوفَّى، ووجهها مرفوعٌ يعكس كبرياءها، الأمر الذي لم أستطع أن أتذكره دون أن يغلبَني الانفعال، وماري، من ناحية أخرى، وهي تتركها غاضبةً بعد نصف ساعة فقط من لقائها، لم يُفارقا ذهني وأبقَيَاني مستيقظًا بعد منتصف الليل بوقتٍ طويل. كان الأمر أشبهَ بمشهدٍ مزدوج يجمع بين النور والظلام اللذين، مع تناقضهما، لا يندمجان ولا ينسجمان معًا. عجزت عن الهروب من ذلك الأمر. مهما فعلت، لازمَتني الصورتان، وأفعمتا روحي بأملٍ وتشكُّكٍ متناوبَين، حتى لم أعد أعرف ما إذا كان عليَّ أن أضع يدي مع إلينور على صدر المتوفَّى، وأقسم بثقتي المطلقة في صدقها ونقائها، أم أُدير وجهي مثل ماري، وأهرب مما عجزتُ عن فهمه والتصالح معه.

متوقعًا أن أواجه صعوبةً، بدأتُ في صباح اليوم التالي بحثي عن السيد جرايس، وبداخلي إصرارٌ قوي على ألَّا أسمح لنفسي بأن تُحبطني خيبةُ أملٍ أو أن يُثبط عزيمتي إخفاقٌ مبكر. كانت مهمتي أن أُنقذ إلينور ليفنوورث؛ وحتى أفعل ذلك، كان ضروريًّا لي ألا أُحافظ فقط على هدوئي، وإنما أيضًا على رِباطة جأشي. كان أسوأ ما كنت أتوقعه أن تتأزَّم الأمورُ قبل أن أحصل على الحق، أو أنال الفرصة، في أن أتدخَّل. رغم ذلك، منحَني الإعلانُ عن إقامة جنازة السيد ليفنوورث في ذلك اليوم بعض الارتياح في ذلك الاتجاه؛ كانت معرفتي بالسيد جرايس كافية، كما ظننت، لتُبرر اعتقادي بأنه سينتظر إلى ما بعدَ انتهاء مراسمِ تلك الجنازة قبل أن يشرع في اتخاذ إجراءاتٍ قصوى.

لا أعرفُ إن كان لديَّ أيُّ أفكار واضحة عن الشكل الذي يجب أن يكون عليه منزلُ محقِّق؛ لكن حالما وقفتُ أمام المنزل الأنيق ذي الثلاثة الطوابق المبنيِّ من الطوب الذي أُرشِدت إليه، لم يكن بوسعي سوى الإقرارِ بأنه كان ثمة شيءٌ في شكل مصاريع النافذة نصف المفتوحة، التي تنسدلُ فوقها ستائرُ نظيفة لا عيبَ فيها، يدل بشدة على شخصية المقيم فيه.

أجاب دقاتي العصبيةَ نوعًا ما على جرس الباب شابٌّ ذو هيئة شاحبة، له خصلات شعر حمراء تنسدل على أذنيه. ردًّا على سؤالي بشأنِ ما إذا كان السيد جرايس بالداخل، أعطاني شيئًا أشبهَ بنخرة ربما كانت تعني النفي، لكنني أخذتها على أنها تعني الإيجاب.

«اسمي ريموند، وأود مقابلته.»

رمقَني بنظرةٍ تفحَّصت جميعَ تفاصيل هيئتي وملابسي، ثم أشار إلى بابٍ عند أعلى السلم. دون انتظارٍ لتوجيهاتٍ أخرى، أسرعتُ لأعلى، وطرَقتُ الباب الذي كان قد أشار إليه، ودخلت. كان في مواجهتي الظهر العريض للسيد جرايس منكبًّا على مكتبٍ ربما تكون قد حملته سفينة مايفلاور.

صاح: «عجبًا! هذا شرف لي.» ثم نهض، وفتح باب مِدفأة ضخمة كانت تشغل منتصف الغرفة مُصدِرًا صريرًا ثم أغلقه بعنفٍ. وقال: «يوم قارس البرودة، أليس كذلك؟»

أجبتُه: «بلى»، وكنت أنظر إليه بتمعُّن لأرى إذا كان في مِزاج يسمح بالتواصل معه. أردفت: «ولكن، لم يكن لديَّ سوى وقتٍ محدود لأتحقَّق من حالة الطقس. فقلقي بشأن جريمة القتل هذه ...»

قاطعني: «هذا مؤكد»، مثبتًا عينَيه على مِسْعار المدفأة، لكن من دون أن يُضمر أيَّ نية عدائية، أنا متأكد من ذلك. «شأن محير تمامًا. لكن لعله كتابٌ مفتوح لك. أرى أنَّ لديك شيئًا تريد أن تخبرني به.»

«بالفعل، مع أني أشكُّ إن كان من قبيل ما تتوقَّعه. سيد جرايس، منذ آخرِ مرةٍ رأيتك فيها، أخذَت اعتقاداتي عن نقطةٍ بعينها تَقْوى حتى صارت قناعةً مطلقة. إن محور شكوكِك هو امرأة بريئة.»

لو أنني كنت أتوقَّع منه أن يُظهر أيَّ استغراب على هذا، لكان مقدرًا لي خيبة الأمل. علَّق قائلًا: «تلك قناعةٌ مفرحة جدًّا. وأنا أحترمك من أجل امتلاكك لها، يا سيد ريموند.»

كظمتُ ردَّ فعلٍ غاضبًا. أردفت مُصرًّا على استفزازه بطريقةٍ ما: «وأنا لي كل الشرف؛ لذا أتيت إلى هنا اليوم لأطلبَ منك باسم العدالة والإنسانية المشتركة أن تُرجِئَ العمل في ذلك الاتجاه إلى أن نكون مقتنعين بأنه لا يوجد أثرٌ أصدق يمكن اقتفاؤه.»

لكن لم يكن ثمة أيُّ مظهر دالٍّ على الفضول أكثرَ من ذي قبل. صاح: «حقًّا! من الغريب أن يصدر من رجل مثلك طلبٌ كهذا.»

لم أنزعج من قوله، وأردفت قائلًا: «سيد جرايس، إن سُمعة امرأة، ما إن تُوصَم، تظل كذلك إلى الأبد. إن إلينور ليفنوورث تمتلكُ الكثير من الصفات النبيلة التي لا ينبغي التعامل معها باستهانةٍ في قضيةٍ مصيريةٍ بهذا القدر. إذا منحتَني انتباهك، أعدك أنك لن تندم على هذا.»

ابتسم، وسمح لعينَيْه بأن تشردا من مِسْعار المدفأة إلى مسند مقعده. علَّق قائلًا: «حسنًا؛ أسمعُكَ؛ هاتِ ما عندك.»

أخرجت مفكرتي من محفظتي، ووضعتها على المنضدة.

صاح: «ما هذه! مفكرة؟ هذا غير آمن، غير آمن جدًّا؛ لا تضَع مخطَّطاتك على الورق أبدًا.»

دون التفاتٍ إلى مقاطعته، تابعتُ حديثي.

«سيد جرايس، لقد أُتيحت لي فرصٌ أكثر منك لدراسة هذه السيدة. رأيتها في وضعٍ لا يمكن لأي شخصٍ مذنبٍ أن يكون فيه، وأنا واثق، بما لا يدعُ مجالًا للشك، ليس فقط من أنها لم تقترف هذه الجريمة، وإنما أيضًا من أن قلبها بريءٌ منها. ربما كان لديها بعض المعلومات عن أسرارها؛ وهو ما لا أتجرَّأ على إنكاره. فالمفتاح الذي شوهد بحوزتها سيدحضُ قولي إن فعلت. ولكن ماذا لو كانت تمتلكُ بعض المعلومات؟ لا يمكنك أن ترغب أبدًا في أن ترى العار يلحق بامرأةٍ بهذا الجمال لأنها تُخفي معلوماتٍ من الواضح أنها تعتبر أن مِن واجبها أن تتكتَّم عليها، بينما بقليلٍ من البراعة المتسِمة بالصبر قد ننجحُ في مقاصدنا من دونها.»

قاطعني المحقق قائلًا: «ولكن، إذا افترضنا أن هذا صحيح؛ فكيف لنا أن نصلَ إلى المعلومات التي نسعى إليها من دون اتباع الخيطِ الوحيد الذي أُتيح لنا حتى الآن؟»

«لن تصلَ إليها أبدًا باتباع أي خيط قدمَتْه لك إلينور ليفنوورث.»

ارتفع حاجباه على نحوٍ معبِّر، لكنه لم يقل شيئًا.

«لقد استُغِلَّت الآنسة إلينور ليفنوورث على يدِ شخص يعرف مدى ثباتها وكرم أخلاقها، وربما حُبها. دعنا نكتشف مَن يمتلك النفوذ الكافيَ ليتحكم فيها إلى هذا الحد، وسنجد الرجل الذي نبحث عنه.»

صدَرت من بين شفتَي السيد جرايس المطبقتَين همهمةٌ لا أكثر من ذلك.

ولإصراري على أنه يجب أن يتحدث؛ انتظرت.

علَّق أخيرًا، بشيء من الاستخفاف: «في ذهنك، إذن، شخصٌ ما.»

أجبتُ: «لن أذكر أي أسماء. كل ما أريده المزيدُ من الوقت.»

«إذن، أنت تعتزم أن تجعل هذا الأمر مهمةً شخصية.»

«أجل، أعتزم ذلك.»

أطلق صفيرًا طويلًا، بصوتٍ منخفض. وأخيرًا سأل: «هل تسمح لي أن أسألَك إذا كنت تتوقَّع أن تعمل بمفردك تمامًا؛ أم إذا توفَّر لك مساعدٌ مناسب، ستترفَّع عن مساعدته وتستخف بنصيحته؟»

«لا أرغب في شيء أكثرَ من أن تكون زميلي.»

اتسعت الابتسامة التي على وجهه بسخرية. وقال: «لا بد أنك واثقٌ من نفسك جدًّا!»

«أنا واثق جدًّا من الآنسة ليفنوورث.»

بدا أن الإجابة سرَّته. وقال: «دعنا نسمع لما تعتزم فعله.»

لم أُجِب على الفور. كانت الحقيقة أنني لم أكن قد وضعت أيَّ خططٍ.

تابع حديثه: «يبدو لي أنك أخذتَ على عاتقك مهمةً صعبةً إلى حدٍّ ما على هاوٍ. من الأفضل أن تدعَ الأمر لي، يا سيد ريموند؛ من الأفضل أن تدع الأمر لي.»

أجبتُه: «أنا متأكد من أن لا شيء سيُسعدني أكثر من أن ...»

قاطعني قائلًا: «لا داعي لذلك، ولكن سيكون مُرحَّبًا بأي تواصلٍ منك من حينٍ لآخر. لست أنانيًّا. أنا مستعدٌّ لتقبُّل الاقتراحات: مثل، على سبيل المثال، إذا كان بوسعك، الآن، أن تُخبرني بأريحيةٍ بكل ما رأيته وسمعته فيما يتعلق بهذه القضية، سيُسعدني للغاية أن أستمع.»

شعرت بالارتياح لأنني وجدتُه مستجيبًا جدًّا، وسألت نفسي ماذا عليَّ حقًّا أن أُخبره؛ لم تكن توجد أمورٌ كثيرة من شأنه أن يراها حيوية. ومع ذلك، لم يكن من المناسب أن أتردَّد في تلك اللحظة.

قلت: «سيد جرايس، لا أملك إلا حقائقَ قليلةً يمكنني أن أضيفها إلى ما تعرفه بالفعل. بالتأكيد، أنا متأثر بالقناعات أكثرَ من الحقائق. إن عدم ارتكاب إلينور ليفنوورث

لهذه الجريمة مطلقًا هو أمرٌ أنا متأكد منه. وعلى الجانب الآخر، أنا متأكد بالقدر نفسِه من أن الجانيَ الحقيقي هو شخصٌ معروف لها؛ ويستتبع ذلك باعتباره أمرًا مفروغًا منه استنادًا إلى الحقائق أنها تعتبر لسببٍ ما أن التسترُّ على القاتل واجبٌ مقدس، حتى ولو على حساب سلامتها الشخصية. والآن، بالاستعانة بهذه المعلومات، لا يمكن أن تكون مهمةً صعبة عليك أو عليَّ أن نتوصَّل على نحوٍ مُرضٍ، لعقولنا على الأقل، إلى هُوية هذا الشخص. المزيد من المعلومات القليلة الأخرى عن العائلة ...»

«إذن أنت لا تعرف أي شيء عن التاريخ الخفيِّ لهذه العائلة؟»

«لا شيء.»

«ولا تعرف حتى ما إذا كانت أيٌّ من هاتَين الفتاتَين مخطوبة؟»

أجبتُ، فَزِعًا من هذا التعبير المباشر عن أفكاري: «لا أعرف.»

ظل صامتًا لبرهة. وأخيرًا صاح قائلًا: «سيد ريموند، هل لديك أي فكرة عن الأوضاع غير المواتية التي يعمل فيها أيُّ محقق؟ على سبيل المثال، ربما يُخيَّل إليك أنه بوُسعي التخفِّي تحت عباءة أي فئة من فئات المجتمع؛ لكنك مخطئ. مع الغرابة التي قد يبدو عليها الأمر، لم قطُّ أبدًا بأي وسيلةٍ ممكنةٍ في التخفِّي تحت عباءة إحدى الطبقات على الإطلاق. لا يمكنني انتحالُ شخصية سيد نبيل. لم يكن مجديًا انتحالُ شخصية الخياطين والحلاقين؛ دائمًا ما يُكتَشَف أمري.»

بدا مغتمًّا للغاية حتى إنني بالكاد استطعتُ أن أمنعَ نفسي من الابتسام، على الرغم من اهتمامي وقلقي الخفيَّين.

«حتى إنني استخدمت خادمًا فرنسيًّا، كان يفهم في الرقص والشوارب؛ ولكن كل ذلك كان بلا جدوى. أول سيدٍ نبيلٍ دنوت منه حدَّق فيَّ — أعني سيدًا نبيلًا بمعنى الكلمة، وليس أحد المتأنِّقين الأمريكيين الذين تعرفهم — ولم أُبادله التحديق؛ كنت قد نسيت تلك الضرورة أثناء دردشتي بوجه بيير كاتنيي ماري المصطنع.»

كنت مستمتعًا، ولكني كنتُ مرتبكًا قليلًا من هذا التغيير المفاجئ في مجرى الحديث، فنظرت إلى السيد جرايس بتساؤل.

«أظن الآن أنه ليس لديك مشكلة؟ ربما خُلِق المرء هكذا. أتظن أنه يُمكنني حتى أن أطلب سيدةً للرقص من دون أن يحمرَّ وجهي خجلًا، ها؟»

قلت: «حسنًا، ...»

أجاب: «بالضبط؛ لا يمكنني. يمكنني أن أدخل منزلًا، وأنحنيَ أمام سيدة المنزل، وأدعَها تبدو أنيقة كما يحلو لها، ما دامت في يدي مذكرةُ توقيف، أو كانت ثمة مسألةٌ تخص العمل تجول في ذهني؛ ولكن عندما يتعلق الأمر بزيارةٍ متسمة باللين والرفق، ورفع كأس شامبانيا ردًّا على نَخْبٍ، وأمور من هذا القبيل، فأنا فاشل تمامًا.» وغمس يدَيه الاثنتين في شعره، ونظر في كآبة شديدة إلى رأس العصا التي كنت أحملها في يدي. وأردف: «لكنَّ الأمر نفسَه ينطبق تقريبًا علينا جميعًا. عندما يُعوِزُنا سيدٌ نبيل ليعمل لصالحنا، يتعين علينا أن نلجأ إلى شخصٍ من خارج نطاق عملنا.»

بدأت أفهم ما كان يقصده؛ لكني التزمتُ الصمت، مدركًا على نحوٍ مبهَم أنه على الأرجح سيتبيَّن في نهاية المطاف احتياجه إليَّ.

عندئذٍ قال، على نحوٍ مفاجئ تقريبًا: «سيد ريموند، هل تعرف سيدًا نبيلًا يُدعى كلافرينج يقيم حاليًّا في فندق هوفمان؟»

«لا أعرف أحدًا بهذا الاسم.»

«إنه رجلٌ مهذب جدًّا؛ هل تُمانع أن تتعرف عليه؟»

اتبعت نهج السيد جرايس، وحدقت في المدخنة. وأخيرًا أجبت: «لا يمكنني أن أجيب حتى أفهم الأمور بصورةٍ أوضح قليلًا.»

«ليس ثمة الكثيرُ لتفهمه. السيد هنري كلافرينج، سيد نبيل ومحنَّك، يُقيم في فندق هوفمان. إنه رجل غريب عن المدينة، ولا يتصرف كالغرباء؛ يقود عربته، ويتجوَّل في الشوارع، ويُدخن، لكنه لا يزور أحدًا أبدًا؛ ينظر إلى السيدات، لكن لم يرَه أحد مطلقًا وهو ينحني لإحداهن. بإيجاز، شخص من المحبب التعرف عليه؛ ولكن كونه رجلًا معتدًّا بنفسه، ولديه قدرٌ من تحامل العالم القديم تجاه تحرُّر الأمريكيِّين وجُرأتهم، لا يمكنني أن أتقرَّب إليه بقصد التعارف معه إلا بالقدر الذي يمكنني فعلُه مع إمبراطور النمسا.»

«وترغب في ...»

«من شأنه أن يكون رفيقًا مناسبًا جدًّا لمحامٍ شاب صاعد من أسرة طيبة، ويتمتع بالاحترام بكل تأكيد. لا شك لديَّ، أنك إذا بادرت بمصادقته، ستجده شخصًا يستحق العناء.»

«ولكن ...»

«قد ترغب حتى في استدراجه إلى علاقات ودية؛ تأتمنُه على أسرارك، و...»

قاطعته بسرعة: «سيد جرايس؛ لا يمكن أبدًا أن أوافق على أن أُخطط لإقامة صداقة مع أي رجل من أجل أن أفضح سرَّه للشرطة.»

ردَّ بنبرةٍ جافَّة: «من الجوهري لمخططاتك أن تتعرف على السيد كلافرينج.»

أجبت، وقد خطر لي أمرٌ فجأة: «يا إلهي! هل له صلةٌ ما بهذه القضية إذن؟»

أخذ السيد جرايس يُملِّس على كُمِّ معطفه بتأمُّل. «لا أعلم حيث إنه سيكون من الضروري أن تُفشي سرَّه. هل تُمانع أن يُقدِّمك أحدٌ إليه؟»

«لا.»

«وأن تتحدث معه، حتى إن وجدته لطيفًا؟»

«لا.»

«وحتى إذا صادفتَ، في سياق الحديث، شيئًا قد يُفيد كقرينة في جهودك لإنقاذ إلينور ليفنوورث؟»

كلمة «لا» التي تفوَّهت بها هذه المرةَ كانت بثقةٍ أقل؛ فدور الجاسوس كان آخِرَ دورٍ أرغب في أن أؤديَه في الأحداث المثيرة القادمة.

أردف، متجاهلًا النبرةَ المتشككة التي أعطيتُ بها موافقتي: «حسنًا، إذن، أنصحك بأن تنزل على الفور بفندق هوفمان.»

قلت: «أشك في أن ذلك سيكون كافيًا. إن لم أكن مخطئًا، فإني قد رأيت هذا السيد النبيل وتحدثتُ إليه.»

«أين؟»

«صِفه لي أولًا.»

«حسنًا، إنه رجلٌ طويلٌ، ذو قوامٍ حسَن، وقامة مستقيمة جدًّا، ووجه أسمر وسيم، وشعر بُني يتخلَّله الشيب، وعين ثاقبة، ودماثة في الخطاب. أؤكد لك أنه ذو شخصية مهيبة.»

أجبته: «لديَّ من الأسباب ما يجعلني أظن أنني رأيته»؛ وبكلمات قليلة أخبرتُه متى وأين قابلته.

قال في النهاية: «همم! من الواضح أنه يهتمُّ بأمرك بقدر ما نهتم بأمره.»

أضاف بعد لحظةٍ من التفكير: «كيف ذلك؟ أظن أنني فهمت. من المؤسف أنك تحدثت إليه؛ ربما أعطيته انطباعًا سلبيًّا؛ فكل شيء يعتمد على مقابلتك له من دون أي سوء ظن.»

ثم نهض وأخذ يذرع الغرفة جَيئة وذهابًا.

«حسنًا، علينا أن نتحرك بتأنٍّ، هذا كل ما في الأمر. امنَحْه فرصة أن يراك في ظروفٍ أخرى أفضل. اذهب إلى غرفة القراءة في فندق هوفمان. تحدث مع أفضل رجل تُقابله وأنت هناك؛ لكن لا تُفرط في الحديث، ولا تكن عشوائيًّا بدرجة مبالَغ فيها. فالسيد كلافرينج رجلٌ صعب الإرضاء، ولن يشعر بالفخر من اهتمام شخصٍ وَدود أكثرَ من اللازم مع الجميع. أظهِر نفسَك على طبيعتك، واترك كل المبادرات عليه؛ سيتَّخذها هو.»

«ماذا لو أننا مخطئان، وأن الرجل الذي قابلته عند ناصية شارع ثيرتي سيفنث لم يكن السيد كلافرينج؟»

«سأُفاجأ بشدة، بكل بساطة.»

لم أعرف أيَّ اعتراض آخرَ يُمكنني أن أُبديَه، فبقيت صامتًا.

تابع بمرح: «وسيتعيَّن على رأسي هذا أن يخوض في كثير من التفكير.»

قلت حينها، وأنا متلهفٌ لإظهار أن كل هذا الحديث عن شخص مجهول لم يؤدِّ إلى إبعاد مخططاتي عن ذهني: «سيد جرايس، ثَمة شخصٌ واحد لم نتحدَّث عنه.»

قال متعجبًا بنعومة، وهو يستدير حتى أصبحَ ظهره العريض مواجهًا لي: «حقًّا؟ ومَن يكون ذاك الشخص؟»

«عجبًا، مَن غير السيد ...» لم أتمكن من مواصلة الحديث. بأيِّ حق أذكر اسم أي رجلٍ في هذا الصدد، من دون أن يكون لديَّ دليلٌ كافٍ ضده حتى يكون ذكر اسمه مبرَّرًا؟ فقُلت: «أستميحك عذرًا؛ لكني أظن أنني سأتمسَّك برغبتي الأولى، ولن أذكر أي أسماء.»

قال فجأةً ببساطة: «هارويل؟»

كان التورُّد السريع الذي بدا على وجهي بمنزلة موافقة تلقائية.

تابع قائلًا: «لا أرى سببًا يمنعنا من الحديث عنه؛ أعني، إن كان ثَمة أيُّ شيءٍ نجنيه من ذلك.»

«أتظنُّ أن شهادتَه في التحقيق كانَت صادقة؟»

«لم يثبت بُطلانها.»

«إنه رجلٌ غريب الأطوار.»

«وأنا كذلك.»

شعرت بأني مشوَّشٌ قليلًا، وإذ أدركتُ أني في وضعٍ سيئ؛ أخذتُ قبَّعتي من المنضدة وتهيَّأْتُ للانصراف، ولكن إذ خطرَت هانا ببالي فجأة، استدرتُ وسألته إن كانت توجد أيُّ أخبار عنها.

بدا أنه كان يُشاور نفسه، وظل مترددًا مدةً طويلة حتى إنني بدأت أشك في أن هذا الرجل سيُفضي إليَّ بسرٍّ، في نهاية الأمر، عندما أنزل يدَيه أمامه فجأةً وصاح بعنفٍ:

«الشيطان نفسه مشتركٌ في هذا الأمر! لو كانت الأرض قد انشقَّت وابتلعَت هذه الفتاة، لما كان من الممكن أن تختفيَ تمامًا هكذا.»

شعرت وكأن قلبي يسقط بين أضلعي. فقد سبق أن قالت إلينور: «لا يمكن لهانا أن تفعل شيئًا من أجلي.» هل من الممكن أن هذه الفتاة قد هربت بالفعل، وبلا رجعة؟

«يعمل تحت إمرتي عددٌ لا يُحصى من العملاء، هذا بخلاف عامة الناس، ومع ذلك لم يصلني حتى إشاعةٌ عن مكان إقامتها أو وَضْعها. أخشى فقط من أننا قد نجدُ جثَّتَها طافيةً في النهر في صباح يومٍ ما، دون أن نعثر على اعترافٍ في جيبها.»

قلت: «كل شيءٍ رهن شهادة تلك الفتاة.»

أصدر نخرةً قصيرة. وقال: «ماذا تقول الآنسة ليفنوورث عن هذا؟»

«إن الفتاة لا يمكن أن تساعدها.»

ظننت أنه بدا متفاجئًا قليلًا من هذا، لكنه أخفى ذلك بإيماءةٍ وصيحة. قال: «لا بد أن يُعثَر عليها رغم كل ذلك، وسيحدث ذلك، حتى وإن تعين عليَّ أن أبعث «كيو».»

«كيو؟»

«عميل لديَّ يتمتَّع بقدرةٍ هائلةٍ على التحري والاستجواب؛ لذا نَدْعوه «كيو»، اختصارًا لكلمة query (تَحرٍّ).» ثم، بينما كنت أستدير مرةً أخرى للانصراف، قال: «عندما يُعلن عن فحوى الوصية، تعالَ إليَّ.»

الوصية! لقد نسيت أمر الوصية.

الفصل الخامس عشر

انفتاح مسارات

ساء ما عَمِلَتْ وساءت عُقباه.

مسرحية «هملت» [ترجمة خليل مطران]

حضرت جنازة السيد ليفنوورث، لكنني لم أرَ السيدَتَين قبل مراسم الجنازة أو بعدها. ومع ذلك، لدقائق معدودة، دار بيني وبين السيد هارويل حديثٌ؛ منَحني، من دون أن يُثير أي شيءٍ جديد، مادةً لتكهنات خصبة. وذلك لأنه كان قد سألني، تقريبًا فور تبادل التحية، إن كنت قد طالعت صحيفة «ذي إيفينينج تليجرام» التي صدرت الليلة السابقة؛ وعندما رَدَدت بالإيجاب، نظر إليَّ نظرة أسًى واستعطاف، مما حثَّني على أن أسأله كيف أمكن لمثل هذا التعريض المريع بسيدةٍ شابة ذاتِ سمعة حسَنة ونشأة طيبة أن يصل إلى الصحف. فجاءني رده الذي صدَمني.

«ربما يعترف الجاني، مدفوعًا بتأنيب الضمير، بأنه المجرم الحقيقي.»

يا له من تعليقٍ غريب يصدر من شخصٍ لم يكن لديه أي معلومات أو شكوك بشأن الجاني وشخصيته؛ وكنت سأخوض في الحديث أكثرَ من ذلك، لولا أن السكرتير، الذي كان رجلًا قليل الكلام، انسحب عندئذٍ، ولم يكن من الممكن حثُّه على قول المزيد. كان من الواضح أن شغلي الشاغل هو أن أسعى إلى التعرف على السيد كلافرينج، أو على أي شخص آخر يمكن أن يُلقيَ أي ضوءٍ على التاريخ الخفي لهاتَين الفتاتَين.

في ذلك المساء تلقيتُ إخطارًا بأن السيد فيلي قد وصل إلى البيت، لكنه لم يكن في حالةٍ تسمح بأن يتشاور معي في أمر مؤلم للغاية مثل مقتل السيد ليفنوورث. وكذلك وصلَتْني رسالةٌ قصيرة من إلينور، تُعطيني فيها عنوانها، لكنها تطلب مني في الوقت

نفسه ألَّا أزورها إلا إذا كان ثمة أمرٌ مهمٌّ يتعيَّن أن أبلغها به؛ وذلك لأنها كانت تشعر بإعياء شديد يمنعها من استقبال أي زوار. تركَت هذه الرسالةُ القصيرة وقعًا على نفسي. كانت مريضة، ووحيدة، وفي بيت غريب، … كان الأمر مثيرًا للشفقة!

في اليوم التالي، نزولًا على رغبة السيد جرايس، دخلت إلى فندق هوفمان، وجلست في غرفة القراءة. لم أكن قد أمضيت هناك سوى دقائقَ معدودةٍ عندما دخل سيدٌ نبيل تبيَّن لي على الفور أنه الرجل نفسه الذي كنت قد تحدثت إليه عند ناصية شارع ثيرتي سيفنث. ولا بد أنه تذكرني أيضًا؛ وذلك لأنه بدا عليه الارتباك قليلًا عندما رآني؛ ولكنه، وبعدما استعاد زِمام نفسه، التقط جريدة وسرعان ما أصبح ظاهريًّا شاردًا في محتوياتها، رغم أنه كان بإمكاني أن أشعر بعينَيْه السوداوَين الوسيمتَين تتطلَّعان نحوي، وتتفرَّسان في ملامحي، ووجهي، وملابسي، وحركاتي بدرجةٍ من الاهتمام أذهلتني وأربكتني على حدٍّ سواء. شعرت بأن من الرعونة من جانبي أن أُبادله نظرته الفاحصة، كما كنت متلهفًا إلى أن تلتقيَ عيني بعينه، وأعرف كُنْه الإحساسِ الذي ألهبَ فضولَهُ بشأنِ شخصٍ غريبٍ عليه تمامًا؛ لذا نهضت، ثم، عبرت الغرفة إلى صديقٍ قديم لي كان يجلس إلى طاولة مقابلة، فبدأت حوارًا عابرًا، وانتهزت الفرصة لأسأله إن كان يعرف مَن ذاك الغريب الوسيم. كان ديك فربيش من رجال المجتمع، وكان يعرف الجميع.

«اسمه كلافرينج، وهو من لندن. لا أعرف أكثرَ من ذلك عنه، رغم ذلك تراه في كل مكان عدا المنازل الخاصة. لم يلقَ ترحيبًا من المجتمع بعد؛ ربما كان ينتظر خطابات تعريف.»

«هل هو سيد نبيل؟»

«بلا شك.»

«شخص تودُّ أن تتحدث إليه؟»

«أوه، نعم؛ أتحدث إليه، لكن المحادثة من طرفٍ واحد فقط.»

لم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام من التجهم الذي بدا على وجه ديك مصاحبًا لهذا التعليق. وأردف: «وهو الأمر نفسُه الذي يُثبت أنه سيد نبيل حقًّا.»

بعدما ضحكت ضحكةً صريحة هذه المرة، تركتُه، وفي خلال دقائق معدودة مشيت خارجًا من الغرفة على مهلٍ.

وأنا أنخرط من جديد وسط الزحام في برودواي، وجدتُ نفسي أتعجب بشدة من هذه التجربة البسيطة. بدت لي مسألة إمكانية أن يكون لهذا السيد النبيل المجهول من لندن،

الذي يذهب إلى كل مكان عدا المنازل الخاصة، صلةٌ بأي شكلٍ بالقضية التي كنت منصرفًا بالكلية إليها، ليست مستبعَدةً فحسب، بل أيضًا غير معقولة؛ وللمرة الأولى شعرت بميلٍ إلى التشكُّك في حكمة السيد جرايس في توصيته بأن أُعيره اهتمامي.

في اليوم التالي كرَّرت التجرِبة مرةً ثانية، لكن دون نجاح أكثرَ من السابق. دخل السيد كلافرينج إلى الغرفة، لكن، ما إن رآني، حتى انصرف من المكان. بدأت أُدرك أن التعرف عليه لم يكن أمرًا سهلًا. ولأُكفِّر عن خيبة أملي، زرت ماري ليفنوورث في المساء. استقبلَتني بأُلفة أشبه بألفةِ أخت.

بعد أن قدَّمتني إلى سيدة كبيرة في السنِّ إلى جانبها — كانت، حسبما أعتقد، ذاتَ صلةٍ ما بالعائلة، وكانت قد قَدِمَت لتظلَّ برفقتها مدةً — صاحت: «آه، أنت هنا لتخبرني أنه قد عُثِر على هانا؛ أليس كذلك؟»

هززتُ رأسي نفيًا، معتذرًا عن أنني خيبتُ ظنها. وقلت: «لا، ليس بعد.»

«لكن السيد جرايس كان هنا اليوم، وأخبرني بأنه يأمل أن تُسمَع عنها أخبار في غضون أربعٍ وعشرين ساعة.»

«السيد جرايس كان هنا!»

«أجل؛ جاء ليُبلغني بالتطورات، ولكن لا يبدو أنهم أحرَزوا تقدمًا بعيدًا.»

«ولكن لا يمكن أن تكوني قد توقَّعتِ ذلك. يجب ألا تُحبَطي بسهولة.»

«لكني لا أستطيع أن أمنعَ نفسي من ذلك؛ كل يوم، وكل ساعة تمرُّ في هذه الحالة من عدم التيقن، تُشبه ثقل جبل هنا»؛ ووضعت يدَها المرتجفة على صدرها. «لو كان الأمر بيدي، كنت سأجعل العالمَ بأسره يعمل على هذا الأمر. ما كنت سأترك مكانًا إلا وبحثت فيه؛ كنت ...»

«ماذا كنتِ ستفعلين؟»

صاحت، وقد تغيَّر أسلوبها كله فجأةً: «أوه، لا أعرف؛ لا شيء، ربما.» ثم، قبل أن أتمكن من الرد على هذا، قالت: «هل رأيت إلينور اليوم؟»

أجبتُ بالنفي.

لم تبدُ راضيةً، ولكنها انتظرت حتى غادرت صديقتها الغرفة قبل أن تتفوَّه بشيءٍ آخر. ثم، بنظرةٍ جادة، سألَت إن كنتُ أعرف إذا كانت إلينور على ما يُرام.

أجبت: «يؤسفني أن أقول إنها ليست كذلك.»

«إنه ابتلاءٌ عظيم لي، أن تكون إلينور ليفنوورث بعيدةً عني.» ثم واصلَت حديثها، مُلاحِظةً، ربما، نظرةَ الارتياب الباديةَ على وجهي، وقالت: «لا أريدك أن تظن أني أرغب في التنصُّل من مسئوليتي في التسبب في هذا الوضع البائس الذي آلت إليه الأمور. أنا على استعداد لأن أعترف بأنني كنت أنا أولَ مَن اقترح الانفصال. ولكن احتماله لم يكن أسهل بتاتًا بِناءً على ذلك.»

قلت: «صعوبة الأمر عليكِ ليست بنفس قدر صعوبته عليها.»

«ليس صعبًا بالقدر نفسِه؟ لماذا؟ لأنها تُركت فقيرة نسبيًّا، بينما أنا غنية؛ أهذا ما ستقوله؟» ثم تابعت، دون أن تنتظر ردِّي: «آه، وكان بإمكاني أن أُقنع إلينور بأن تُشاركني ثروتي! أنا على استعدادٍ لأن أمنحَها عن طِيب خاطرٍ نصفَ ما ورثْتُه؛ ولكنني أخشى أنه لا يمكن أبدًا إقناعها بقَبول ولو حتى دولارًا واحدًا مني.»

«تحت هذه الظروف، سيكون من الأفضل لها ألَّا تقبل.»

«هذا بالضبط ما فكرت فيه؛ ومع ذلك إن قبلت فسيُزيح هذا عني حملًا ثقيلًا. هذه الثروة التي حظيتُ بها فجأةً ودون تَوَقع مني، تجثم على صدري كالكابوس، يا سيد ريموند. عندما تُلِيَت اليوم الوصيةُ التي تجعلني مالكةَ كلِّ هذه الثروة، لم يسَعْني إلا أن أشعر بأنه قد هبط عليَّ كفنٌ ثقيلٌ قاتمٌ، ملطَّخ بالدماء ومنسوج من الأهوال. آه، وشتَّان بين ذلك وبين المشاعر التي كنت قد اعتدت أن أترقَّب بها هذا اليوم!» وتابعَت، بأنفاسٍ لاهثةٍ متقطعة: «وذلك يا سيد ريموند؛ لأنني مع ما يبدو عليه الأمر من فظاعةٍ الآن، كنت قد تربَّيْت على أن أتطلَّع لهذه الساعة بعزة نفسٍ، بل بلهفة حقيقية أيضًا. كان المال يشكل جزءًا كبيرًا جدًّا في عالمي الصغير. ولا أرغب في وقت الجزاء اللعين هذا أن أُلقي باللائمة على أي أحد؛ وبالأخص على عمي؛ ولكن من اثنتي عشرةَ سنة، من اليوم الذي ضمَّنا فيه بين ذراعَيْه لأول مرة، ناظرًا إلى وجهَينا الطفوليَّين، وصاح: «هذه الطفلة ذات الشعر الأشقر هي أكثر مَن يبعث السرور في نفسي؛ سوف تصبح وريثتي الشرعية»، وكنتُ أُعامَل بلطفٍ وأُمتدَح، وأُدلَّل؛ كنت أُدْعى الأميرةَ الصغيرة، وقرةَ عين عمِّها، حتى بات من الغريب فحسب أن أحتفظَ في هذا الصدر الذي كان محطَّ تفضيلٍ مُجحفٍ بأيٍّ من النوازع إلى صفات الأنوثة المعطاءة؛ نعم، رغم أنني كنت أدرك من البداية أن النزوة وحدها هي التي كانت قد أثارَتْ هذا التمييزَ بيني وبين ابنة عمي؛ تمييزًا لم يكن يمكن أبدًا للجمال الفائق، أو الجدارة، أو الإنجازات أن تستجلبَه؛ إذ إن إلينور تفوقني في كل هذه الأشياء.» توقَّفَتْ

عن الحديث، وكبحَت النشيجَ المفاجئ الذي تصاعَدَ في حَلْقها، وبذلَت جهدًا في السيطرة على نفسها، كان مؤثرًا ومثيرًا للإعجاب في الوقت نفسِه. ثم، بينما كانت عيناي تَسْترِقان النظر إلى وجهها، تمتمَتْ، بصوتٍ خفيضٍ وجذَّابٍ: «إذا كانت لديَّ عيوب، فكما ترى ثَمة عذر بسيط لوجودها؛ فالغطرسة، والغرور، والأنانية لم يكن يُنظَر إليها في الوريثة الشابَّة المَرِحة إلا باعتبارها دلائلَ كثيرةً على وقارٍ محمود.» ثم صاحَت في مرارةٍ: «آه، آه، المال وحده كان السببَ في هلاكنا جميعًا!» ثم، بصوتٍ منخفضٍ، قالَت: «والآن قد جاءني بإرثِهِ الشرير، وقد ... قد أتنازَلُ عنه كله في مقابل ... لكن هذا ضعف! لا يحقُّ لي أن أزعجك بهمومي. أرجوك انسَ كل ما قُلتُه، يا سيد ريموند، أو اعتبر جميع شكوايَ مجردَ كلامٍ صدرَ من فتاةٍ بائسةٍ مُثقَلةٍ بالأحزان، وأرهقَتْها وطأةُ الكثير من الأمور المحيِّرة والمخيفة.»

أجبتُها: «لكنني لا أرغب في أن أنسى. لقد قلتِ كلامًا طيبًا، أظهرَ الكثير من المشاعر النبيلة. لا يمكن لمتلكاتكِ إلا أن تكون دليلًا على برَكةٍ وُهِبت إليكِ إذا أقبلتِ عليها بمشاعر مثل تلك.»

لكن، بإيماءةٍ سريعة، اندفعَت قائلةً: «مستحيل! لا يمكن لها أن تكون دليلًا على بركة.» ثم، وكأنما أذهلَتْها كلماتُها، عضَّت على شفتها، وأضافَتْ سريعًا: «الثروة الفاحشة ليست بركةً أبدًا.»

ثم قالت، وقد طرأ تغيُّرٌ كلِّيٌّ في أسلوبها: «والآن، أودُّ أن أتحدَّثَ إليك في مسألةٍ قد تصدمك باعتبار أنها في توقيتٍ غير مناسب، ولكن، مع ذلك، لا بد أن أذكرها، إن أُريدَ للغرض الذي أنا حريصةٌ عليه أن يُنجَز. كان عمي، كما تعرف، منشغلًا وقتَ وفاتِه بتأليفِ كتابٍ عن عادات الصينيين وانحيازاتهم. كان متلهِّفًا إلى أن يرى هذا العمل منشورًا، وبطبيعة الحال أتمنَّى أنْ أُنفِّذَ رغباتِه؛ ولكن، وحتى أُحقِّق هذا، أجد أنه من الضروري ألَّا أهتمَّ بالأمر بنفسي فحسب الآن — بالرغم من الحاجة إلى خدمات السيد هارويل، فإني أرغب في أن أتخلَّى عن خدمات ذلك السيد في أسرعِ وقتٍ ممكنٍ — بل أن أعثر على شخصٍ كُفءٍ ليُشرف على إنجاز هذه المهمة. والآن لقد سمعت أنك، كما قيل لي، أنت الشخص الوحيد من بين الجميع الذي يُمكنه إنجاز هذا الأمر؛ ورغم أنه من الصعب، إن لم يكن من غير اللائق لي، أن أطلب معروفًا كبيرًا كهذا من شخصٍ كان منذ أسبوعٍ فقط غريبًا تمامًا عني، فإني سأشعرُ بسعادةٍ غامرة إذا وافقت على تَصَفح هذا المخطوط بتأنٍّ وإطلاعي على ما لا يزال يلزم إنجازه.»

كان الحياء الذي نُطقت به هذه الكلماتُ دليلًا على جدِّيتها، ولم يكن بوُسعي سوى أن أتعجَّب من التوافُق الغريب لطلبها مع رغباتي الدفينة؛ إذ كانت تُلحُّ عليَّ بعضَ الوقت مسألةُ كيفية دخول هذا المنزل بحريةٍ من دون أن أُسيءَ بأي شكلٍ من الأشكال إلى أيٍّ من المُقيمين فيه أو إلى نفسي. لم أكن أدري حينها أن السيد جرايس كان هو من رشحني لتستفيدَ مني في هذا الشأن. لكن، بغض النظر عن الرضا الذي ربما يكون قد انتابني، شعرت بأن مِن واجبي أن أعترف بعدم كفاءتي لأداء مهمةٍ بعيدةٍ كليًّا عن نطاق مهنتي، وأن أقترح توظيف شخصٍ على درايةٍ أفضلَ بهذه الأمور مني. لكنها لم تكن لتُصغيَ لي.

صاحَت: «لدى السيد هارويل ملاحظاتٌ ومذكراتٌ كثيرة، وبإمكانه أن يُعطيَك جميعَ المعلومات اللازمة. لن تجد أيَّ صعوبةٍ؛ حقًّا، لن تُواجه أي صعوبة.»

«لكن، ألَا يستطيع السيد هارويل أن يقوم بكلِّ ما يلزم؟ يبدو شابًّا ذكيًّا ودَءُوبًا.»

لكنها هزَّت رأسها نفيًا. وقالت: «إنه يظن أنه يستطيع؛ لكني أعرف أن عمي لم يثِقْ فيه مطلقًا في تحرير جملةٍ واحدة.»

«ولكن ربما لن يسرَّه، أقصد السيد هارويل، إقحامُ شخصٍ غريبٍ في عمله.»

فتحَت عينَيْها على اتساعهما في اندهاش. وصاحَت: «ذلك لا يُشكِّل فارقًا. فالسيد هارويل يتلقَّى راتبه مني، وليس لديه ما يقوله في هذا الشأن. لكنه لن يعترض. لقد استشرته بالفعل، وأبدى رضاه عن هذا الترتيب.»

قلت: «حسنًا، أعدُكِ إذن أن أفكِّر في الأمر. بإمكاني على أي حالٍ أن أفحصَ المخطوط وأعطيَكِ رأيي عن حالته.»

قالت، بأجملِ إيماءةٍ معبِّرةٍ عن الرضا: «أوه، أشكرك. يا له من لطفٍ منك، وماذا بوُسعي أن أفعله لأردَّ صنيعك؟ لكن هل تودُّ أن تُقابِل السيد هارويل؟» واتَّجهَت ناحية الباب؛ لكنها توقَّفَت فجأة، ثم قالَت وهي تهمس، برجفةِ تذكُّر قصيرة: «إنه في المكتبة؛ هل تُمانع؟»

وللتخفيف من وطأةِ التوجُّس المنفِّر الذي ظهر عند ذكرِ ذاك المكان، أجبتُها بالنفي.

«الأوراق كلُّها هناك، ويقول إن بإمكانه أن يعملَ في مكانه القديم على نحوٍ أفضل من أي مكان آخر؛ ولكن إن كنت ترغب، فبإمكاني أن أطلب منه النزول إلى الأسفل.»

لكني لم أكن لأستمعَ إلى هذا، وسِرت في المقدمة إلى أسفل الدَّرَج.

قالت معلِّقةً في عُجالة: «لقد فكرت أحيانًا في أن أُغلق هذه الغرفة؛ لكنَّ شيئًا ما يمنعُني. لم يعد بوسعي أن أفعل ذلك مثلما لم يعد بوسعي أن أترك هذا المنزل؛ ثمة قوةٌ

تفوقني تُجْبرني على مواجهة جميع أهواله. ومع ذلك أُعاني دائمًا من الرعب. أحيانًا، في عتمة الليل ... لكني لن أُثقِل عليك. لقد تحدثت أكثرَ من اللازم بالفعل؛ تعالَ»، ورفعت رأسها فجأةً وصعدت درجات السلم.

عندما دخلنا تلك الغرفة المشئومة، كان السيد هارويل جالسًا، في الكرسيِّ الوحيد التي توقعتُ أن أراه شاغرًا من دون جميع الكراسيِّ الأخرى؛ وإذ أبصرتُ جسده النحيل منحنيًا في الموضع الذي كانت عيناه قد صادفَتا فيه منذ فترة ليست ببعيدة جسدَ سيدِه القتيل، لم يكن بوسعي سوى أن أتعجَّب من ضعف خيال هذا الرجل الذي، في مواجهة مثلِ هذه الذكريات، لم يكن بوسعه فحسب أن يُخصص هذا الموضعَ تحديدًا لاستخدامه الشخصي، بل أن يُواصل مهامه هناك بكل هذا الهدوء وبتلك الدقة الجليَّة. لكن بعد لحظة أخرى اكتشفت أن توزيع الإضاءة في الغرفة جعل ذلك الكرسيَّ هو الوحيدَ المستحسَن لهذا الغرض؛ وفي الحال تبدَّل عجبي إلى إعجابٍ بهذا التخلِّي الهادئ عن شعورٍ شخصيٍّ انصياعًا لمقتضيات الظرف.

رفع بصره لأعلى تلقائيًّا بينما كنَّا ندخل، لكنه لم ينهض، وكان يغشى وجهَه تعبيرٌ عن الانهماك يدل على انشغال الذهن.

همسَت ماري: «إنه في غفلةٍ تامَّةٍ؛ فهذا طبعه. أشك إن كان يعرف مَن أو ما الذي قاطعه.» ثم تقدَّمَت إلى داخل الغرفة، ومرَّت أمام مجال رؤيته، وكأنَّها تسترعي انتباهَه إليها، وقالَت: «لقد أتيت بالسيد ريموند لأعلى ليُقابلك، يا سيد هارويل. لقد تفضَّلَ ووافق على رغباتي فيما يخصُّ إنهاء المخطوط الماثل أمامك الآن.»

نهض السيد هارويل على مهلٍ، ونَشَّف قلمه، ثم وضعه جانبًا؛ مُظْهِرًا، مع ذلك، إحجامًا عن تنفيذ الأمر بَرْهن على أن هذا التدخُّل لم يكن في الحقيقة مقبولًا له على الإطلاق. مُلاحِظًا هذا، لم أنتظر أن يتكلَّم، وإنما التقطتُ كومة المخطوطات، ونظمتها في كتلةٍ واحدةٍ على المنضدة، قائلًا:

«هذا يبدو مكتوبًا بوضوحٍ شديد؛ إذا سمحت لي، فسأُلقي نظرةً عليه ومِن ثَمَّ أعرف شيئًا عن طابَعِه العام.»

انحنى، وغمغمَ بكلمةٍ أو نحوِ ذلك تنمُّ عن الإذعان، ثم، بينما كانت ماري تُغادر الغرفة، عاد ليجلسَ بارتباك، وأمسك بقلِمه.

في الحال تلاشى من أفكاري أمرُ المخطوط وكل ما يَتَّصل به؛ وعاد أمر إلينور، وموقفها، والغموض المحيط بهذه العائلة، يَشغلني بقوةٍ متجدِّدة. شاخصًا ببصري إلى وجه السكرتير، علَّقتُ:

«إنني سعيدٌ للغاية بهذه الفرصة التي سمحت لي أن أراك وحدك للحظةٍ، يا سيد هارويل، ولو فقط من أجل أن أقول ...»

«أي شيءٍ بخصوص جريمة القتل؟»

قلت: «أجل.»

أجاب باحترامٍ ولكن بحزم: «إذن لا بدَّ أن تعفيَني. فهذا موضوعٌ ثقيلٌ على نفسي، ولا أُطيق التفكير فيه، فضلًا عن النقاش فيه.»

شاعرًا بالحرج، والأكثر من ذلك، مقتنعًا باستحالة الحصول على أي معلومةٍ من هذا الرجل، عدَلتُ عن المحاولة؛ وأخذت المخطوط مرةً أخرى، وسعيت جاهدًا إلى أن أتمكَّنَ بقدرٍ بسيطٍ من فَهْم طبيعة محتوياته. محققًا ما يتجاوز آمالي، فتحتُ حوارًا قصيرًا معه فيما يتعلَّق بالمخطوط، وأخيرًا، متوصلًا إلى استنتاج أنه بإمكاني أن أُنجز ما رغبَت فيه الآنسة ليفنوورث، تركته ونزلت مرةً أخرى إلى غرفة الاستقبال.

عندما غادرت المنزل، بعد ساعةٍ أو أكثر، كان يُسيطر عليَّ شعورٌ بأن ثمة عقَبةً واحدةً قد أُزيلَت من طريقي. وإذا فشلت فيما كنت قد أخذته على عاتقي، فلن يكون ذلك بسبب غياب فرصة دراسة قاطني هذا المنزل.

الفصل السادس عشر

وصية مليونير

إن دواءنا كثيرًا ما يأتي من أنفسنا،
وإن عزَوناه إلى السماء أحيانًا.

مسرحية «العبرة بالخواتيم» [ترجمة عباس حافظ]

احتوى العدد الصادرُ في صباح اليوم التالي من صحيفة «ذا تريبيون» ملخَّصًا لوصية السيد ليفنوورث. كانت بنودها مفاجئة لي؛ وذلك لأنه في الوقت الذي وُرِّثَ فيه القسم الأكبر من هذه التركة الضخمة، حسَب الفهم العام، إلى ابنة أخيه، ماري، تبيَّن من ملحق إضافي، كان مرفقًا بوصيته منذ خمس سنوات، أن إلينور لم تكن منسيَّة تمامًا، إذ جُعِلت وريثةً لتركةٍ، إن لم تكن كبيرة، كانت كافيةً على الأقل لدعمها حتى تنعمَ بعيش رغيد. بعد الاستماع إلى تعليقاتٍ مختلفة من زملائي عن هذا الموضوع، اتجهت إلى منزل السيد جرايس، امتثالًا لطلبه بأن أزوره في أسرع وقتٍ ممكن بعد نشر الوصية.

علَّق أثناء دخولي قائلًا: «صباح الخير»، لكن كان من الصعب أن أُحدد إن كان يُخاطبني أم يخاطب الجزء العلوي المتغضِّن من المكتب الذي كان جالسًا قبالته. ثم أضاف: «ألن تجلس؟» مشيرًا برأسه إلى الوراء في حركةٍ غريبة ناحية كرسيٍّ موضوع خلفه.

سحبتُ الكرسي إلى جانبه. وقلت: «يحدوني الفضولُ لأن أعرفَ ما ستقول عن هذه الوصية، وعن أثرها المحتمل على الأمور التي نحن بصددها.»

«ما فكرتك الشخصية بشأن هذه المسألة؟»

«أظن إجمالًا أن الوصية لن تصنع إلا فارقًا ضئيلًا في الرأي العام. أولئك الذين ظنُّوا من قبلُ أن إلينور مذنبةٌ سيشعرون أن لديهم الآن سببًا أكبرَ من أي وقتٍ مضى ليتشكَّكُوا

في براءتها؛ بينما أولئك الذين تردَّدُوا حتى هذه اللحظة في الشك فيها لن يعتبروا أن من شأن المقدار الصغير نسبيًّا الذي وُرِّث لها أن يُشكِّل دافعًا كافيًا لارتكاب جريمة كبيرة كهذه.»

«لقد سمعتَ الرجال يتحدَّثون؛ ما الرأي الذي يبدو أنه الرأي العامُّ السائد بين أولئك الذين تتحدَّث معهم؟»

«أن الدافع وراء الفاجعة سيكون موجودًا في التحيُّز الظاهر في وصيةٍ بهذه الغرابة، ولكن الكيفية لا أحد يدَّعي معرفتها.»

فجأةً أصبح السيد جرايس مهتمًّا بأحد الأدراج الصغيرة أمامه.

قال: «وكل هذا لم يجعلك تُفكِّر في شيء؟»

أجبته: «أفكِّر. لا أعرف ما الذي تقصده. بالتأكيد لم أفعل شيئًا سوى التفكيرِ خلال الثلاثة الأيام الأخيرة. فأنا ...»

صاح: «بالطبع، بالطبع. لم أقصد قول أي شيء غير مقبول. إذن هل رأيت السيد كلافرينج؟»

«رأيته فحسب؛ لا أكثرَ من ذلك.»

«وهل ستُعاون السيد هارويل في إنهاء كتاب السيد ليفنوورث؟»

«كيف علمت بذلك؟»

اكتفى بالابتسام.

قلت: «أجل؛ طلبَت مني الآنسة ليفنوورث أن أُسدِيَ لها ذلك المعروفَ الصغير.»

صاح في حماسٍ مفاجئ: «يا لها من مخلوقة عظيمة!» ثم، في عودةٍ فورية إلى نبرة صوته العمَلية، قال: «سيكون لديك فرص، يا سيد ريموند. والآن ثمة أمران أريد منك أن تكتشفهما؛ أولًا، ما الصلة بين هاتَين السيدتَين والسيد كلافرينج ...»

«أثَمة صلة، إذن؟»

«بلا شك. وثانيًا، ما سبب الشعور بالجفوة الموجود بوضوحٍ بين ابنتَي العم.»

تراجعت إلى الخلف وفكَّرتُ مليًّا في المهمة التي عُرضت عليَّ. جاسوس في منزل امرأةٍ جميلة! كيف يتسنَّى لي أن أُوفق بين هذه المهمة وبين غرائزي الطبيعية بصفتي رجلًا كريمَ الأخلاق؟

سألته أخيرًا: «ألا يمكنك أن تجد شخصًا أكثرَ تمرُّسًا مني ليكتشفَ لك هذه الأسرار؟ دور الجاسوس ليس مستساغًا لمشاعري على الإطلاق، أؤكد لك هذا.»

ارتخى حاجبا السيد جرايس.

قلت: «سأُعاون السيد هارويل في جهوده لتنسيق مخطوط السيد ليفنوورث من أجل طباعته. وسأمنح السيد كلافرينج الفرصةَ لعقد صداقةٍ معي؛ وسأُصغي، إن اختارت الآنسة ليفنوورث أن تجعلني مؤتمنًا على أسرارها بأي حال. لكنني أرفض ضمن هذا أيَّ تنصُّتٍ على الأبواب، أو مباغَتات، أو خدع حقيرة أو حِيَل غير لائقة؛ لأنها خارج اختصاصي؛ فمهمتي هي أن أكتشفَ ما في وُسعي اكتشافُه بطريقةٍ علنية، ومهمتك أن تُفتِّش في خبايا هذه القضية المفجعة وزواياها.»

«بعبارة أخرى، عليك أن تؤدي دور متصيِّد الأخبار، وأؤدي أنا دور الجاسوس؛ بالضبط، فأنا أعرف ما يليق بسيدٍ نبيل.»

قلت: «والآن، ما أخبار هانا؟»

هزَّ كِلتا يدَيْه عاليًا في الهواء. وقال: «لا شيء.»

لا يمكنني أن أقول إنني فوجئت كثيرًا، ذلك المساء، عندما صادفتُ، عند نزولي بعد ساعةٍ من العمل الشاقِّ مع السيد هارويل، الآنسةَ ليفنوورث واقفةً عند أسفل درجات السلَّم. كان ثَمة شيءٌ في سلوكها، الليلة الماضية، هيَّأني لمقابلةٍ أخرى هذا المساء، رغم أن طريقتها في بَدْء المقابلة كانت مفاجئة. قالت، بمظهرٍ يدل على حرجٍ واضح: «سيد ريموند، أريد أن أوجِّه إليك سؤالًا. لديَّ قناعة بأنك رجلٌ طيب الخلق، وأعرف أنك ستُجيبني بما يُمليه عليك ضميرك.» وأضافت، وهي ترفع عينَيْها إلى وجهي لوهلةٍ: «مثلما يفعل أخٌ.» وأردفت: «أعرف أن الأمر سيبدو غريبًا؛ ولكن تذكَّر أن ليس لديَّ مَن أستشيره سواك، ولا بد أن أسأل أحدًا ما. سيد ريموند، هل تظن أن شخصًا قد يقترف أمرًا خاطئًا جدًّا، ثم يغدو إنسانًا صالحًا تمامًا بعد ذلك؟»

أجبتها: «بالتأكيد، إن كان نادمًا حقًّا على خطئه.»

«لكن لنفترض أنه تعدَّى كونه مجردَ خطأ؛ لنقُلْ إنه كان أذًى محققًا؛ ألن تُعكر ذكرى تلك الساعة البغيضة صفو حياة هذا الشخص إلى الأبد؟»

«ذلك يتوقَّف على طبيعة الأذى وأثره على الآخرين. إن كان هذا الشخص قد أصاب إنسانًا بضررٍ يستعصي إصلاحُه، فسيصبح من الصعب على شخصٍ ذي طبيعة حساسةٍ أن يحيا حياةً سعيدة بعد ذلك؛ مع أن حقيقةَ ألَّا يحيا المرء حياةً سعيدةً يجب ألَّا تكون سببًا يمنعه من أن يعيش حياةً طيبةً.»

«لكن حتى تعيش حياةً طيبة، هل من الضروري أن تكشف عن الإثم الذي ارتكبته؟ ألَا يمكن أن يواصلَ المرء حياته ويعملَ صالحًا من دون أن يعترف أمام العالم بجُرمه السابق؟»

«بلى، إلا إذا كان اعترافه به يُمكِّنه بطريقةٍ ما من إصلاح الأمر.»

بدا أن إجابتي أزعجَتها. تراجَعَت إلى الخلف، ووقفَت أمامي لوهلةٍ مستغرقةً في التفكير، وجمالها يشعُّ ببهاءٍ يُضاهي بهاءَ تمثالٍ في وهج المصباح المظلل بالبورسلين بجانبها. ورغم أنها شدَّتْ قامتها، وتقدَّمَتْني إلى غرفة الجلوس بإيماءةٍ كانت تنطوي على جاذبيةٍ في حدِّ ذاتها، لم تُعاود الحديث في هذا الموضوع من جديد؛ بل بدَتْ أنها تُحاول جاهدةً، في الحديث الذي أعقب ذلك، أن تُنسيَني ما سبق أن دار بيننا. كان عدمُ نجاحها في ذلك راجعًا إلى اهتمامي الشديد الذي لا يفتر بابنة عمها.

بينما نزلت من بسطة المدخل، رأيت توماس، رئيس الخدم، مستندًا على البوابة الخارجية. سيطرَت عليَّ في الحال رغبةٌ في استجوابه بخصوص أمرٍ كان قد استحوذ على اهتمامي بشكلٍ أو بآخر منذ وقت التحقيق؛ وكان ذلك الأمر هو مَن السيد روبنز الذي كان قد جاء لزيارة إلينور ليلةَ وقوع جريمة القتل؟ لكن توماس كان متحفظًا على نحوٍ واضح. تذكَّر مجيء ذلك الشخص، لكنه لم يتمكن من وصف هيئته بأكثرَ من قوله إنه لم يكن رجلًا صغيرَ البِنية.

ولم أُلحَّ في الأمر.

الفصل السابع عشر

بداية مفاجآت كبيرة

إنك تنظر إلى النجم بدافعين؛ لأنه ساطع، ولأنه ممتنعٌ على الفهم. إن إلى جانبك شعاعًا ألطف، ولغزًا أعظم؛ المرأة.

رواية «البؤساء» [ترجمة منير البعلبكي]

وتوالت أيامٌ لم يبدُ أني أحرزت فيها إلا تقدمًا قليلًا أو لم أُحرز أيَّ تقدم على الإطلاق. فالسيد كلافرينج، الذي ربما أزعجَه حضوري، تخلى عن تردُّده المعتاد على المكان؛ ومن ثَمَّ حرمني من أي فرصةٍ للتعارف بأي طريقة طبيعية، بينما لم تُثمر الليالي التي أمضيتها في منزل الآنسة ليفنوورث إلا عن القليل بجانب الترقُّب والقلق الدائمَين.

كان المخطوط يحتاج إلى مراجعةٍ أقلَّ مما افترضت. لكن، أثناء إجراء تلك التغييرات الطفيفة حسب الضرورة، توفرَت لي فرصةٌ كبيرةٌ لدراسة شخصية السيد هارويل. وجدتُه سكرتيرًا ممتازًا لا أكثرَ ولا أقل. كان جافًّا، ومتحفظًا، ومتجهمًا، لكنه كان مخلصًا لعمله وجديرًا بالاعتماد عليه في أدائه، وتعلَّمت أن أكُنَّ له الاحترام، بل أن أُعجب به؛ وكان هذا، أيضًا، مع أني وجدتُ أن الإعجاب لم يكن متبادَلًا، بغضِّ النظر عن درجة الاحترام. لم يتحدث مطلقًا عن إلينور ليفنوورث أو، حتى، ذكر العائلة أو مُصابها بأي طريقةٍ كانت؛ حتى بدأت أشعر بأن كلَّ هذا الصمت كان له سببٌ أعمقُ من طبيعة الرجل، وأنه إذا تحدث، فسيكون لهدفٍ ما. عجزت عن أن أمنع نفسي من اختلاس النظر إليه من حينٍ لآخر، حتى أرى كيف يتصرف عندما يعتقد في داخله أنه غيرُ مراقَب؛ لكنه كان دائمًا على الحال نفسِه، عامل ساكن، مجتهد، يصعب استثارته.

أخيرًا صار هذا الدقُّ المستمر على حائطٍ حجري، فهكذا كنت أنظر للموقف، أمرًا لا يكاد يُطاق. فالسيد كلافرينج نافر، والسكرتير لا يمكن الدنوُّ منه؛ فكيف لي أن أظفر بأي شيء؟ ولم تساعد المحادثات القصيرة التي كنتُ أُجريها مع ماري في شيء. إذ كانت متعجرفة، متكلفة، متوتِّرة، نَزقة، ممتنَّة، جذابة، تجمع بين كل ذلك دفعةً واحدة، ولا تُكرر الصفة مرتين، تعلمت أن أهاب الحديث معها، رغم رغبتي فيه في الوقت ذاتِه. كان يبدو أنها تمرُّ بأزمةٍ ما جلَبَت لها أشدَّ المعاناة. رأيتها، حينما كانت تظن أنها بمفردها، ترفع يديها لأعلى في حركة نستخدمها لندرأ بها شرًّا آتيًا أو لنحجب مشهدًا بشعًا. رأيتها أيضًا واقفة ورأسها الشامخ صاغرٌ ذليلٌ، ويداها المرتجفتان ترتخيان، وجسدها كلُّه يهوي هامدًا، وكأن ثقل حملٍ عجزت عن رفعه أو عن طرحه جانبًا قد سلبها حتى قدرتها على إظهار المقاومة. لكن هذا لم يحدث سوى مرةٍ واحدة. عادةً ما كانت على الأقل تبدو شامخةً في عزِّ محنتها. حتى عندما كانت عيناها تلمعان باستمالةٍ رقيقةٍ إلى أبعد الحدود كانت تقف منتصبة، وتحتفظ بتعبيرٍ يعكس قوةً شعورية. حتى في الليلة التي قابلتني فيها في الردهة، بوجنتَين محمومتَين وشفتَين ترتجفان بشغف، لتستديرَ وتهرب من جديدٍ من دون أن تنطقَ بما كان عليها أن تبوح به، كانت تتصرَّف بكرامةٍ متَّقدة كادَت أن تكون مهيبة.

كنت واثقًا من أن كل هذا كان يعني شيئًا؛ ومن ثَمَّ تحلَّيْتُ بالصبر على أمل أن تبوح بما لديها يومًا ما. فتلك الشفتان المرتجفتان لن تظلَّا مطبقتَين دومًا؛ وستكشف هذه الإنسانة القلقة، إن لم يكن شخص آخر، عن السرِّ المتعلق بشرف إلينور وسعادتها. لم يكن تذكُّر ذلك الاتهام غيرِ العادي، إن لم يكن القاسي، الذي كنت قد سمعتها تُصرِّح به كافيًا ليحطم هذا الأملَ — إذ كان قد تنامى حتى صار أملًا — حتى إنني وجدتُ نفسي بلا وعيٍ مني أُقلِّل من الوقت الذي أقضيه مع السيد هارويل في المكتبة، وأُطيل من زياراتي المنفردة مع ماري في غرفة الاستقبال، حتى وجد هذا السكرتير الهادئُ نفسه مُجبرًا على التذمُّر من أنه كثيرًا ما يُترَك ساعاتٍ من دون عمل.

لكن، كما أقول، مرَّت الأيام، وحلَّت أُمسيَّة يومِ إثنين ثانية من دون أن أرى نفسي أُحرز أي تقدمٍ إضافي بشأن المعضلة التي كنتُ قد أخذت على عاتقي أن أحلَّها أكثر مما كان عليه الحال عندما بدأت فيها منذ أسبوعَين. لم يكن موضوع جريمة القتل قد طُرِح حتى؛ ولا سُمِعت أي أخبارٍ عن هانا، رغم أنني لاحظتُ أنه لم يُسمَح بأن تُترَك الصحف

مهمَلةً للحظةٍ على عتبة مدخل المنزل؛ إذ أظهرَت سيدة المنزل والخدمُ الدرجةَ نفسَها من الاهتمام بمحتوياتها. كل هذا كان غريبًا في نظري. كان الأمر أشبهَ بأن ترى مجموعةً من البشر يأكلون، ويشربون، وينامون على حواف بركانٍ مُتَّقدٍ ثار مؤخرًا، وأخذ يضطرب معلنًا تَوَلد ثَورانٍ جديد. كنت أشتاق إلى أن نُحطم هذا الصمت مثلما نُحطم الزجاج: بالصراخ باسم إلينور عبر تلك الغرف المذهبة والأروقة المدثَّرة بستائر حريرية. لكن عشية هذا الإثنين كنتُ في حالٍ أهدأ. كنتُ عازمًا على ألَّا أتوقَّع شيئًا من زياراتي إلى منزل ماري ليفنوورث؛ ودخلته عشيةَ ذلك اليومِ في هدوءٍ لم أعهدْهُ في نفسي منذ أولِ يومٍ مررتُ فيه تحت مداخل أبوابِه التعسة.

لكن عندما رأيت ماري، لدى اقترابي من غرفة الاستقبال، تذرعُ الغرفة جَيئةً وذَهابًا في مظهرِ مَن ينتظر في قلقٍ شيئًا ما أو شخصًا ما، اتخذتُ قرارًا مفاجئًا، وسِرت نحوها، قائلًا: «هل أنتِ بمفردكِ، يا آنسة ليفنوورث؟»

توقَّفَت عن حركتها السريعة، وتورَّدَت وجنتاها وانحنَت، ولكن، على غير عادتها، لم تطلب مني الدخول.

سألتُ: «إذا تجرأتُ بالدخول، فهل سيصبح هذا تطفلًا مفرطًا من جانبي؟»

ألقَت نظرةً سريعةً مضطربةً نحو الساعة، وبدَت أنها على وشك أن تعتذر، لكن من دون مقدمات أذعنَت، وبعدما سحبَت كرسيًّا أمام المدفأة، أشارت إليَّ ناحيته. على الرغم من أنها بذلت جهدًا لكي تبدوَ هادئةً، شعرت على نحوٍ مبهمٍ أنني كنت قد صادفتها في واحدةٍ من أكثر حالاتها المزاجية اضطرابًا، وأنه كان عليَّ فقط أن أتطرَّقَ إلى الموضوع الذي شغل ذهني حتى أرى عجرفتها تتلاشى أمامي كذوبان الثلج. شعرت كذلك أنه لم يكن أمامي سِوى دقائقَ قليلةٍ أفعل فيها ذلك. ولذلك خضتُ في الموضوع على الفور.

قلت: «آنسة ليفنوورث، لديَّ هدفٌ من تطفُّلي عليكِ الليلةَ غير منحِ نفسي هذا الشرف. لقد جئت بالتماس.»

على الفور رأيت أنني كنت قد بدأت بدايةً خاطئة. سألَتْني، وكل ملامح وجهها تشعُّ برودةً: «التماس مني؟»

تابعتُ، باندفاعٍ حماسيٍّ: «أجل، بعدما أخفقت في كل مسعًى لمعرفة الحقيقة، جئت إليكِ، إلى مَن أُومِن بجوهرها النبيل، من أجل تلك المساعدة التي يبدو من المرجَّح أن يَخيب طلبُنا لها من أي اتجاهٍ آخر: من أجل الكلمة التي، إن لم تُنقذ ابنة عمِّكِ قطعًا، ستضعنا على الأقل على المسار إلى ما سيُؤدِّي إلى إنقاذها.»

احتجَّت، وهي تنكص قليلًا: «لا أفهم ما تقصده.»

واصلت حديثي: «آنسة ليفنوورث، لست بحاجةٍ إلى أن أخبركِ بالوضع الذي تقف فيه ابنة عمِّك. أنت تتذكَّرين نمط ومغزى الأسئلة التي وُجِّهت إليها في التحقيق، وتفهمينها كلَّها دون أي توضيحٍ مني. لكن الأمر الذي لعلكِ لا تعرفينه هو أنها إن لم تُعفَ سريعًا من الشبهة التي أُلصقتْ باسمها، بحقٍّ أم لا، فالعواقب التي قد تترتب على هذه الشبهة لا بد أن تنهال عليها، و...»

صاحت: «يا إلهي الرحيم! أنت لا تقصد أنها سوف تكون ...»

«مُعرَّضة لأن يُلقى القبض عليها؟ بلى.»

نزل ردِّي عليها كالصفعة. كانت كل ملامح وجهها الأبيض تشي بالخزي، والذعر، والحسرة. تمتمت: «وكل هذا بسبب ذلك المفتاح!»

«مفتاح؟ كيف علمتِ أيَّ شيءٍ عن مفتاح؟»

صاحت، ووجهها يتورَّد ألَمًا: «عجبًا؛ لست متأكدة؛ ألم تُخبرني بشأنه؟»

أجبتُها: «نعم.»

«مِن الصحف، إذن؟»

«الصحف لم تذكره مطلقًا.»

تفاقمَ اضطرابها أكثرَ فأكثر. فأقرَّت في فورة مفاجئة من الخجل والندم: «ظننت أن الجميع عرَفوا بشأنه. لا، ولا أنا حتى. كنت أعرف أنه كان سرًّا؛ لكن ... يا إلهي، سيد ريموند، كانت إلينور نفسها هي من أخبرتني.»

«إلينور؟»

«أجل، في آخر ليلة كانت هنا؛ كنَّا معًا في غرفة الجلوس.»

«ماذا أخبرتكِ؟»

«أن مِفتاح المكتبة شوهد في حوزتها.»

لم أستطع أن أُخفي ارتيابي. إلينور، مع إدراكها للشك الذي كانت ابنة عمها تنظر إليها به، تخبر ابنةَ عمها تلك بحقيقةٍ يُفترض أنها ستزيد من ذلك الشك؟ لم أستطع أن أُصدق هذا.

تابعت ماري قائلةً: «لكنك كنت تعرف بالأمر؟ لم أبُح بشيءٍ كان عليَّ أن أُبقيه سرًّا؟»

قلت: «لا، وهذا، يا آنسة ليفنوورث، ما يجعل موقف ابنة عمِّكِ في غاية الخطورة. إنها الحقيقة التي، إذا ما تُرِكَت من دون تفسير، لا بد أن تربط اسمها إلى الأبد بالخزي؛ دليل

ظرفي بسيط، لا يمكن لأي مغالطةٍ أن تُخمده، ولا لأي إنكارٍ أن يطمسه. لا شيء يُجنِّبها حتى هذه اللحظةِ قبضة ضباط العدالة سوى سمعتِها النقية حتى الآن، ومحاولات شخص يؤمن ببراءتها، رغم الدلائل الظاهرية. ذلك المفتاح، والتزامها الصمت بشأنه، يهوي بها ببطء إلى حفرةٍ عما قريب لن تكون قصارى جهود أصدقائها المقربين كافيةً لانتشالها منها.»

«وأنت تُخبرني بهذا ...»

«لعلكِ ترأفين بهذه الفتاة المسكينة، التي لن تأخذَها رأفةٌ بنفسها، وبتوضيح بعض الملابسات، التي لا يمكن أن تكون ألغازًا لكِ، تُساعدين في تخليصها من الهاجس المخيف الذي يُهدِّد بالقضاء عليها.»

صاحَت، مستديرةً نحوي بنظرةٍ تتَّقد بغضبٍ عارم: «وهل أنتَ يا سيدي تُلمِّح بأني أعرف أكثر مما تعرف أنت عن هذه القضية؟ وأن لديَّ أيَّ معلوماتٍ لم أُفصِحْ عنها بخصوص هذه الكارثةِ المفجعةِ التي حوَّلت بيتنا إلى قَفْر، وحوَّلت حياتنا إلى رعبٍ دائم؟ هل حلَّت نكبة الارتياب عليَّ أنا، أيضًا، وجئتَ لتتهمَني في منزلي ...»

ناشدتُها قائلًا: «آنسة ماري، هدِّئي من روعكِ. أنا لا أتهمكِ بشيء. لا أريد منكِ إلا أن تُبصِّريني بدافع ابنة عمِّكِ المحتمل إلى هذا الصمت الذي يُدينها. من غير الممكن أنكِ تجهلينه. أنت ابنة عمها، في منزلة أختها، وكنتِ في كل الأحوال رفيقتَها لسنوات، ولا بد أنكِ تعرفين مِن أجل مَن أو ماذا تُطْبِق شفتَيْها، وتُخفي حقائقَ، إن عُرِفَت، قد توجِّه الاشتباهَ إلى المجرم الحقيقي، هذا إن كنتِ تؤمنين بما شهدتِ به حتى هذه اللحظة، وهو أن ابنة عمكِ امرأةٌ بريئة.»

لم تنطقْ بأي إجابةٍ على هذا، فنهضتُ وواجهتها. «آنسة ليفنوورث، هل تُصدِّقين أن ابنة عمكِ بريئةٌ من هذه الجريمة، أم لا؟»

«بريئة؟ إلينور؟ أوه! يا إلهي؛ ليت العالمَ كلَّه في مثلِ براءتها!»

قلت: «إذن، لا بد أنكِ تؤمنين بالمِثل أنها إذا كانت تمتنعُ عن التحدُّث فيما يتعلَّق بأمورٍ تبدو للمراقبين العاديِّين أمورًا يجب تفسيرُها، فهي لا تفعل ذلك إلا بدافع الشفقة تجاه شخصٍ ليس بريئًا مثلها.»

«ماذا؟ لا، لا؛ أنا لا أقول ذلك. ما الذي حمَلكَ على التفكير في مثل هذا التفسير؟»

«التصرف نفسُه. مع إنسانٍ بشخصية إلينور، تصرفٌ كتصرفها هذا لا يقبل أيَّ تأويل آخر. إما أنها مجنونة، أو أنها تتستَّر على شخصٍ آخر على حساب نفسها.»

أخذت شفتا ماري، اللتانِ كانتا ترتجفانِ من قبل، تسكنان في بطءٍ. «وعلى مَن استقر فِكرُك أنه الشخص الذي تُضحي إلينور بنفسها من أجله؟»

قلت: «حسنًا، تلك هي النقطة التي ألتمسُ مساعدتكِ فيها. بِناءً على معرفتكِ ماضيَها ...»

لكن ماري ليفنوورث، متراجعةً بعجرفةٍ في كرسيها، أوقفتني بإيماءة صامتة. قالت: «عذرًا؛ ولكنك ترتكب خطأً. أنا لا أعرف إلا أقلَّ القليل أو لا أكاد أعرف شيئًا عن مشاعر إلينور الشخصية. لا بد أن يحل اللغزَ شخصٌ آخر غيري.»

غيرتُ خطتي.

«عندما اعترفَت إلينور لكِ أن المفتاح المفقود شُوهِد في حوزتها، هل أخبرَتكِ كذلك من أين حصلت عليه، ولأي سببٍ كانت تُخفيه؟»

«لا.»

«اكتفت بإخباركِ بالأمر، دون أي توضيح؟»

«أجل.»

«ألم يكن من الغريب أن تُقدم معلومةً لا داعي لها لمن كانت، قبل ساعاتٍ قليلةٍ فحسب، قد اتهمَتْها صراحةً بارتكاب جريمةِ قتل؟»

فسألَت، وقد أخذ صوتُها في الانخفاض فجأةً: «ماذا تقصد؟»

«لن تُنكري أنكِ كنتِ آنفًا، لم يكن لديكِ استعدادٌ لأن تُصدقي أنها مذنبة فحسب، بل وجَّهتِ بالفعل اتهامًا لها بارتكاب هذه الجريمة.»

صاحت: «وضِّح كلامك!»

«آنسة ماري، ألَا تتذكرين ما قلتِه في تلك الغرفة بالطابق العلوي، حين كنتِ على انفرادٍ مع ابنة عمكِ صبيحةَ يوم التحقيق، مباشرةً قبل أن أدخل أنا والسيد جرايس إليكما؟»

لم تُخفِض عينَيها، لكنهما امتلأتا بذعرٍ مفاجئ.

همست: «أسمعت؟»

«رغمًا عني. كنتُ خلف الباب مباشرةً، و...»

«ماذا سمعت؟»

فأخبرتها بما سمعته.

«والسيد جرايس؟»

«كان بجانبي.»

بدا وكأنَّ عينَيها ستفترسان وجهي. فقالت: «لكن، لم يُقل شيء عند دخولكما؟»

«لا.»

«وأنتما، مع ذلك، لم تنسيا أبدًا ما قيل؟»

«كيف يمكننا ذلك، يا آنسة ليفنوورث؟»

سقط رأسُها إلى الأمام بين يدَيها، وللحظةٍ جامحة بدا أنها قد استسلمت لليأس. ثم انتصبت، وصاحت بقنوط:

«ولهذا السبب أتيت إلى هنا الليلة. بذلك الحُكم المكتوب في قلبك، تقتحم خصوصيتي، وتُعذِّبُني بأسئلة ...»

قاطعتُها قائلًا: «عذرًا؛ ولكن هل ينبغي لشخصٍ مثلكِ، بما لديكِ من مراعاةٍ متَّزنة لشرف مَن ألفتِ عشرتَها، أن يتردَّد في الإجابة عن أسئلتي؟ هل أنتقص من رجولتي عندما أسألكِ عن كيفية توصلكِ إلى اتهامٍ بهذه الخطورة والسبب وراء توصلكِ إليه، في وقتٍ كانت جميعُ ملابسات القضية ماثلةً حديثًا أمامكِ، فلم تزدادي إلا إصرارًا بتلك القوة على براءة ابنة عمِّكِ عندما وجدتِ أنَّ ثمة أسبابًا أخرى لاتهامكِ لها أكثرَ مما كنتِ قد افترضتِ؟»

بدا أنها لم تسمعني. تمتَمَت: «يا إلهي! يا لقدَري القاسي. يا لقدري القاسي!»

قلت، وأنا أنهض وأقف أمامها: «آنسة ليفنوورث؛ مع وجود جفاءٍ عارض بينكِ وبين ابنة عمكِ، لا يمكن أن تكون لديكِ رغبةٌ في أن تَبْدي عدوةً لها. تحدَّثي، إذن؛ دعيني أعرفْ على الأقل اسمَ مَن تُضحي بنفسها هكذا من أجله. بتلميحٍ منكِ ...»

لكنها وقفت، بنظرةٍ غريبةٍ تعتلي وجهها، وقاطعتني بتعليقٍ حازم: «إن لم تكن تعرف، فلا يمكنني أن أخبرك؛ لا تسألني، يا سيد ريموند.» ثم ألقَتْ نظرةً على الساعة للمرة الثانية.

سلكتُ منحًى آخر.

«آنسة ليفنوورث، سألتِني ذات مرة إن كان يجب بالضرورة على شخصٍ اقترف خطأً أن يعترف به؛ وأجبتُكِ بالنفي، ما لم يكن يمكن باعترافه أن يُصلح ما فعله. هل تتذكرين؟»

تحرَّكَت شفتاها، ولكن من دون أن تنبس بأي كلمة.

واصلتُ بنبرة جادة، مسترشدًا بمشاعرها: «بدأت أظن أن الاعتراف هو السبيل الوحيد للخروج من هذه المحنة؛ إنه بالكلمات التي يمكنكِ أن تنطقي بها يمكن إنقاذ إلينور من القدر المشئوم الذي ينتظرها. ألن تُثبتي إذن أنكِ امرأةٌ صالحةٌ بالاستجابة لمناشداتي المخلصة؟»

بدا أنني قد أصَبتُ الوتر الصحيح؛ لأنها ارتجفت، وامتلأت عيناها بنظرة أسًى. وتَمتَمَت: «آهٍ، لو كان بيدي!»

«ولماذا ليس بيدكِ؟ لن تَنعَمي بسعادةٍ مطلقًا حتى تفعلي. إلينور تُصرُّ على الصمت؛ ولكن ذلك ليس سببًا لأن تَحذي حَذْوَها. إنكِ بهذا تجعلين موقفَها أكثرَ مَدعاةً للشكِّ فحسب.»

«أعرف ذلك؛ ولكن ليس بوسعي أن أفعل. فالقدر يُكبلني بقوةٍ كبيرةٍ؛ فلا يمكنني الإفلات منه.»

«هذا غير صحيح. بإمكان أي شخصٍ أن يُفلت من قيودٍ وهمية كقيودك.»

اعترضَت: «لا، لا؛ أنت لا تفهم.»

«ما أفهمه هو أن الطريق المستقيم هو الطريق الصحيح، وأن من يجنح إلى طرق ملتوية سيضِلُّ.»

مرَّت ومضةُ نورٍ خاطفة، لمحة شجية تفوق الوصف، لوهلة عبر وجهها؛ ارتفعَت حنجرتها وكأنها على وشك أن تهمَّ بنشيجٍ عنيف؛ وانفتحت شفتاها؛ بدا أنها سترضخ، عندما ... دق صوتُ جرس حادٌّ من الباب الأمامي!

صرخت، وهي تستدير بعنفٍ: «يا إلهي، أخبره بأنني لا يمكنني مقابلته؛ أخبره ...»

قلت، وأنا أُمسكها من كلتا يدَيها: «آنسة ليفنوورث، دعكِ من الباب؛ لا تُلقي بالًا لأي شيءٍ سوى هذا الأمر. سألتكِ سؤالًا يتعلَّق بسرِّ هذه القضية بأكملها؛ أجيبيني إذن، لأجل نفسكِ؛ أخبريني، ماذا كانت الظروف المشئومة التي يمكن أن تدفعكِ إلى ...»

لكنها أفلتت يديها من يديَّ. وصاحت: «الباب! سينفتح، و...»

مندفعًا إلى الممر، قابلت توماس صاعدًا من سلالم القبو. قلت: «ارجع؛ سأناديك عند الحاجة إليك.»

وبانحناءةٍ اختفى.

صاحت، عندما عاودت الدخول: «تتوقَّع مني أن أجيب. الآن، في تلك اللحظة؟ لا يمكنني.»

«ولكن ...»

شاخصةً ببصرها إلى الباب الأمامي: «مستحيل!»

«آنسة ليفنوورث.»

ارتعدَت أوصالها.

«يؤسفني أن أقول إن الوقت لن يأتيَ أبدًا، إن لم تتكلَّمي الآن.»

كرَّرَتْ: «مستحيل.»

دق الجرس مرةً أخرى.

قالت: «أتسمع؟!»

مضيتُ إلى الردهة وناديتُ توماس. قلت: «يمكنك أن تفتح الباب الآن»، وتحركت عائدًا إلى جانبها.

لكن، بحركةٍ آمِرة، أشارت للطابق العلوي. «اتركني!» وانتقلت نظرتها إلى توماس، الذي توقف حيثما كان.

قلت: «سأراكِ ثانيةً قبل أن أغادر»، وأسرعت الخطى إلى الطابق العلوي.

فتح توماس الباب. سمعت صوتًا فخيمًا، مرتجفًا يستفسر: «هل الآنسة ليفنوورث بالداخل؟»

أتى صوت رئيس الخدم بلهجته البالغةِ الوقار والرزانة: «أجل، يا سيدي»، ومستندًا إلى الدرابزين، أذهلني أن أرى السيد كلافرينج يدخل الردهة الأمامية ويتحرك ناحيةَ غرفة الاستقبال.

الفصل الثامن عشر

على درجات السلَّم

ليس لك أن تزعم أنني أنا الذي فعَل هذه الفعلة.

مسرحية «مكبث» [ترجمة خليل مطران]

مضطربًا، ومرتعدًا، ومفعمًا بالذهول من هذا الموقف غير المتوقع، توقفتُ لبرهةٍ حتى أستجمع شتات صوابي، عندما اخترق أذني صوتٌ خافت، رتيب، قادمٌ من اتجاه المكتبة، فاقتربت ووجدت السيد هارويل يقرأ بصوتٍ عالٍ من مخطوط سيده المتوفَّى. قد يصعب عليَّ أن أصفَ وَقْع هذا الاكتشاف البسيط على نفسي في هذا الوقت. هناك، في غرفة المتوفَّى تلك، منزويًا بعيدًا عن جلَبة العالم من حوله، مثل ناسك في صومعته التي اتخذت من أضلاع هيكله العظميِّ مكانًا لها، وهب هذا الرجلُ نفسه لقراءة ما كتبه المتوفَّى ثم إعادة قراءته، باهتمامٍ خفي، بينما في الأعلى والأسفل، أناس معذَّبون بألم الشك والعار. أرهفت السمع، وسمعتُ هذه الكلمات:

«بهذه الطريقة، لن يفقد حكامهم المحليُّون رعبهم الغيورَ من مؤسساتنا فحسب، بل سيكتسبون فضولًا فعليًّا تجاهها.»

فتحت الباب ودخلت.

«آه! تأخر بك الوقت، يا سيدي»، كانت تلك هي التحيةَ التي استقبلني بها وهو ينهض من مكانه ويدفع كرسيًّا إلى الأمام.

كان ردي غيرَ مسموع على الأرجح؛ لأنه أضاف، وهو يتجه إلى مقعده:

«أخشى أنك لست بخير.»

استجمعت شتات نفسي.

قلت: «لست متوعكًا.» وبعدما سحبت الأوراق تجاهي، بدأت ألقي نظرةً عليها. لكن الكلمات كانت تتراقص أمام عينيَّ، ووجدت نفسي مضطرًّا إلى العدول عن أي محاولة للعمل في تلك الليلة.

وقلت: «أخشى أنني غير قادر على مساعدتك هذا المساء، يا سيد هارويل. في واقع الأمر، أجد أنه من الصعب أن أُولِيَ الانتباهَ الواجب لهذا العمل بينما الرجل الذي جعل هذا العملَ ضروريًّا بارتكابه جريمة قتل خسيسة يُفلت من العقاب.»

دفع السكرتير بدوره الأوراق جانبًا، كأنما كان مدفوعًا باشمئزاز مفاجئ تجاهها، لكنه لم ينطق بأي رد.

«أخبرتني، عندما قدِمت إليَّ أول مرة حاملًا خبرَ هذه المصيبةِ المفجعة، أن الأمر كان لغزًا؛ لكنه لغز لا بد أن تُحَل خيوطه، يا سيد هارويل؛ فهذا اللغز يُضني أرواحَ كثيرين ممن نحبهم ونحترمهم.»

رمقني السكرتير بنظرةٍ. وتمتم: «الآنسة إلينور؟»

فأردفت: «والآنسة ماري، وأنا، وأنت، وكثيرين آخرين.»

قال، وهو يغمس قلمه بشكلٍ منظمٍ في الحبر: «لقد أظهرتَ اهتمامًا كبيرًا بالقضية منذ البداية.»

حدقت فيه في ذهول.

قلت: «وأنت، ألَا يُثير اهتمامَك ما لا يمسُّ فقط سلامة العائلة التي تقيم معها منذ مدةٍ طويلة، بل وسعادتها وشرفها؟»

نظر إليَّ ببرودٍ بالغ. وقال: «ليس لديَّ رغبةٌ في مناقشة هذا الموضوع. أعتقد أنني رجوتك من قبلُ أن تُعفيني من فَتْح الحديث فيه.» ثم نهض.

قلت بإصرار: «ولكن ليس بوسعي أن آخذَ رغباتك في الاعتبار في هذا الشأن.» وتابعت: «إن كنت تعرف أي حقائق، لها صلةٌ بهذه القضية، لم يُكشَف عنها حتى الآن، فمن واجبك بلا شكٍّ أن تُفصح عنها. الموقف الذي تشغله الآنسة إلينور حاليًّا هو موقفٌ لا بد أن يوقظ حسَّ العدالة داخل كل ضمير حي؛ ولو كنتَ ...»

قاطعني قائلًا: «لو كنت أعرف أي شيءٍ قد يُجدي في تَخْليصها من هذا الوضع البائس، يا سيد ريموند، لَأفصحتُ عنه منذ مدةٍ طويلة.»

عضَضتُ شفتي، وقد سئمت من هذه الحيرة المستمرة، ونهضت أنا أيضًا.

تابع قائلًا: «إذا لم يكن لديك شيء آخر تقوله، وتشعر بنفورٍ شديدٍ من العمل، فسيسعدني أن أستأذن في الانصراف؛ إذ لديَّ موعدٌ في الخارج.»

قلت بمرارةٍ: «لا تدَعْني أؤخرك. يمكنني أن أهتم بأمر نفسي.»

التفتَ ناحيتي مسددًا نظرة سريعة، وكأن المشاعر التي أبديتُها كانت غيرَ مفهومةٍ له تقريبًا؛ ثم، بانحناءةٍ هادئة، تكاد تكون مشفقةً غادرَ الغرفة. سمعته يصعد لأعلى، وشعرت برجَّةٍ عندما أُغْلِق باب غرفته، وجلستُ لأستمتعَ بعزلتي. لكن العزلة في تلك الغرفة كانت لا تُطاق. بحلول وقت نزول السيد هارويل مرة أخرى، شعرت أنه ليس بوسعي البقاءُ أكثرَ من ذلك، وخارجًا إلى الردهة، قلت له إن لم يكن يمانع فإنني أود أن أرافقه في تمشيةٍ قصيرة.

انحنى معربًا عن موافقةٍ متوترة، وأسرع أمامي نازلًا على درجات السُّلم. وعندما كنت أغلق باب المكتبة، كان قد قطع نصف المسافة إلى أسفل درجات السلم، وكنت أُحدِّث نفسي حينها معلقًا على تيبُّس هيئته وغرابةِ مِشيته، كما رأيتها من النقطة التي كنت أقف عندها، عندما رأيته يتوقَّف فجأة، ممسكًا بدرابزين السلم بجانبه، ويقف هناك وقد اعتلى وجهَه، الذي كان قد استدار نصف استدارة، تعبيرٌ مشدوهٌ وفَزِع، جعلني أتجمَّد في مكاني للحظةٍ كنتُ فيها ذاهلًا مبهورَ الأنفاس، ثم دفعني إلى أن أسرع إلى الأسفل بجانبه، وأُمسِكه من ذراعه، وأصيح:

«ماذا؟ ما الأمر؟»

لكنه انتزع يده، ودفعني إلى الأعلى. وهمس، بصوتٍ يرتجف من فرط الانفعال: «ارجع! ارجع.» وممسكًا بذراعي، سحبَني حرفيًّا لأعلى درجات السلم. بعدما وصلنا لأعلى، أرخى قبضتَه، ومائلًا على الدرابزين، وهو يرتجف من رأسه لأخمص قدمَيه، حملق ببصره إلى أسفل.

صاح: «مَن ذاك؟ من ذاك الرجل؟ ما اسمه؟»

مشدوهًا بدوري، مِلتُ بجانبه، ورأيت هنري كلافرينج يخرج من غرفة الاستقبال ويمر عبر الردهة.

همستُ، بكل ما أوتيت من رِباطة جأش: «هذا السيد كلافرينج؛ هل تعرفه؟»

تراجع السيد هارويل ليستند إلى الحائط المقابل. تمتم بشفَتَين مرتعشتَين: «كلافرينج، كلافرينج»؛ ثم مرتدًّا إلى الأمام فجأة، أحكم قبضته بالدرابزين أمامه، مُحملقًا نحوي بعينَيه، اللتين كان قد تبدد منهما إلى الأبد كلُّ ذلك الهدوء الحالم في لهيب الثورة والجنون، قائلًا بصوتٍ مثلِ الغرغرة في أذني: «أتريد أن تعرف قاتل السيد ليفنوورث، أتريد ذلك؟

إذن انظر هناك: ذاك هو الرجل، كلافرينج!» وبوثبةٍ، ارتدَّ من جانبي، ومتمايلًا مثل رجلٍ مخمور، اختفى عن ناظريَّ في الردهة بالأعلى.

كان تصرفي العفوي الأول أن أتبعه. بعدما صعدت درجات السلم مسرعًا، طرقت باب غرفته، لكن لم يستجب لطرقاتي. ثم ناديته في الردهة، لكن دون جدوى؛ كان مُصرًّا على ألا يُظهر نفسه. عزمتُ على أنه يجب ألَّا يهرب مني، فرجعت إلى المكتبة، وكتبت له رسالة قصيرة، طلبت منه فيها توضيحًا لاتهامه المريع، قائلًا إنني سأكون في منزلي في المساء التالي عند الساعة السادسة، وإنني أتوقع أن أراه حينها. بعدما انتهيت من هذا، نزلت لأجتمع ثانيةً بماري.

لكن هذا المساء كان مقدرًا له أن يكون مليئًا بالإحباطات. كانت قد أوَت إلى غرفتها بينما كنتُ في المكتبة، وأضعت فرصة المقابلة التي كنت أتوقع منها الكثير. ناجيتُ نفسي، وأنا أمشي عبر الردهة في استياء: «هذه المرأة مُراوِغةٌ كثعبان الأنقليس. بكل ما يُحيطها من غموض، تتوقع مني أن أشعر ناحيتَها بالاحترام والتقدير الواجب لامرأة ذات طبيعة صريحة ومنفتحة.»

كنت على وشك أن أغادر المنزل، عندما رأيت توماس ينزل على درجات السلم ممسكًا بخطابٍ في يده.

«الآنسة ماري تبعث بتحياتها، يا سيدي، وتقول إنها منهكة للغاية، ولا تستطيع أن تبقى في الطابق السفلي هذا المساء.»

تنحيتُ جانبًا حتى أقرأ الرسالة التي سلَّمني إياها، شاعرًا بقليل من وخز الضمير بينما كنت أقرأ بصعوبة الكلماتِ التاليةَ التي كُتِبَت بخط ينمُّ عن تعجل واضطراب:

> أنت تطلب مني أكثرَ مما في وسعي أن أعطيك. يجب أن تؤخَذ الأمور على عِلَّاتها دون توضيحٍ من جانبي. يُحزنني للغاية أن أرفض طلبك؛ لكن ليس أمامي خيارٌ آخر. فليغفر لنا الرب جميعًا ويَقِ أنفسنا من اليأس.
>
> إم

وأدناه:

> إذ إننا لا يمكن أن نلتقيَ الآن من دون حرج، فمن الأفضل أن نتحمَّل أعباءنا في صمتٍ وبمَعزِل عن بعضنا البعض. السيد هارويل سيزورك. وداعًا!

بينما كنت أعبر شارع ثيرتي ساكند، سمعت وقع أقدامٍ سريعة خلفي، فالتفتُّ، ورأيت السيد توماس إلى جانبي. قال: «معذرةً، يا سيدي، لكني أحمل معلومةً خاصة صغيرة أودُّ أن أُفضي إليك بها. عندما سألتني منذ بِضع ليالٍ عن هيئة السيد الذي جاء في زيارة الآنسة إلينور عشيةَ وقوع الجريمة، لم أُجِبك كما ينبغي لي. واقع الأمر أن المحقِّقين كانوا يتحدثون إليَّ عن ذلك الأمر نفسِه، وشعرتُ بالحرج؛ لكن أعرف، يا سيدي، أنك صديقٌ للعائلة، وأريد أن أخبرك الآن بأن ذاك الرجلَ نفسَه، أيًّا كان اسمه — السيد روبنز، كما أطلق على نفسه حينها — كان في المنزل مرةً أخرى الليلة، يا سيدي، والاسم الذي قاله لي هذه المرةَ لأبلغه للآنسة ماري كان كلافرينج.» وتابَع، وقد رآني أنتفض: «أجل، يا سيدي، وكما قلتُ لمولي، كان يتصرَّف بأسلوبٍ لا يتناسب مع شخصٍ غريب. عندما جاء المرة السابقة، تردَّد طويلًا قبل أن يطلب مقابلة الآنسة إلينور، وعندما سألته عن اسمه، أخرجَ بطاقةً وكتب عليها الاسمَ الذي أخبرتُك به، يا سيدي، بنظرةٍ غريبةٍ قليلًا على زائر؛ علاوة على ذلك ...»

«ماذا؟»

تابعَ رئيس الخدم، بصوتٍ خافت، ومضطربٍ، وهو يدنو قريبًا جدًّا مني في العتمة: «سيد ريموند، ثَمة أمرٌ لم أخبر به أيَّ مخلوقٍ مطلقًا عدا مولي، يا سيدي، وربما يكون ذا نفعٍ لِمَن يسعَوْن إلى معرفة مرتكِب جريمة القتل هذه.»

استفسرتُ منه: «أهو حقيقة مؤكدة أم شك؟»

«حقيقة مؤكدة، يا سيدي؛ وهو ما ألتمسُ منك العفو عن إزعاجك به في هذا الوقت؛ لكن مولي لن تسمح بأن يهنأَ لي بالٌ إلا إذا حدَّثتُك أنت أو السيد جرايس عنه؛ فمشاعرها ثائرةٌ بشأن هانا، التي نعلم جميعًا أنها بريئة، رغم أن الناس يجرءون على القول بحتميَّة كونها مذنبةً لمجرد عدم العثور عليها في اللحظة التي أرادوها فيها.»

ألححت قائلًا: «لكن ما هي هذه الحقيقة المؤكدة؟»

واصل كلامه، غيرَ مدركٍ لمدى تلهُّفي: «حسنًا، الحقيقة المؤكدة هي ما يلي. كما ترى، بإمكاني أن أُخبر السيد جرايس، لكن لديَّ مخاوفي من المحقِّقين، يا سيدي؛ فكثيرًا ما يعترضون طريقك؛ ظنًّا منهم أنك تعرف أكثر بكثيرٍ مما تعرف بالفعل.»

قاطَعْتُه مرةً أخرى: «لكن أخبرني بأمر هذه الحقيقة المؤكدة.»

«آه أجل، يا سيدي؛ الحقيقة هي أني، في تلك الليلة، الليلة التي وقعَت فيها جريمة القتل التي تعرفها، رأيت السيد كلافرينج، أو روبنز، أو أيًّا كان اسمه، يدخل المنزل، لكن لا أنا ولا أي أحد آخَر رآه يخرج منه؛ ولا أعرف حتى إن كان قد فعل.»

«ماذا تقصد؟»

«حسنًا، سيدي، ما أعنيه هو الآتي. عندما نزلت من عند الآنسة إلينور وأخبرت السيد روبنز، كما سمَّى نفسه في ذلك الوقت، بأن سيدتي متعبة ولن تقدر على مقابلته (هذا ما قالته لي، يا سيدي، لأبلغه إياه)، بدلًا من أن ينحنيَ السيد روبنز ويغادر المنزل كأي رجلٍ محترم، دخل إلى غرفة الاستقبال وجلس. ربما كان يشعر بإعياء؛ إذ بدا حينها شاحبًا للغاية؛ على أي حال، طلب مني أن أُحضر له كوبَ ماء. ولأني لم أعرف حينها أيَّ سببٍ يدفعُني إلى الشك في تصرُّفات أي شخصٍ، نزلت إلى المطبخ في الحال لأُحضره له، وتركته هناك في غرفة الاستقبال بمفردِه. لكن قبل أن أتمكنَ من إحضاره، سمعت صوت إغلاق الباب الأمامي. فقالت مولي، التي كانت تساعدني حينئذٍ، يا سيدي: «ما هذا؟» فأجبتها: «لا أعرف، إلا إذا كان ذلك السيد قد سئم الانتظارَ وانصرف.» فقالت: «إن كان قد انصرف، فلن يحتاج إلى الماء.» ومن ثَمَّ وضعت إبريق الماء، وصعدت إلى الأعلى؛ واثقًا تمامًا من أنه ذهب، أو هكذا خُيِّل إليَّ حينها. لكن من يدري، يا سيدي، إنه لم يكن في تلك الغرفة أو في غرفة الجلوس، التي كانت مظلمةً تلك الليلة، طوال الوقت الذي كنت أغلق فيه أبواب المنزل؟»

لم أردَّ بشيءٍ على ما قيل هذا؛ إذ كان ذهولي يفوق ما كنت حريصًا على أن أُعرِب عنه.

«كما ترى، يا سيدي، لم أكن لأتحدَّث عن شيءٍ كهذا بخصوص أي شخصٍ يأتي لمقابلة السيدتَين الشابتَين؛ لكننا جميعًا نعلم أنَّ شخصًا ما كان في المنزل في تلك الليلة قتل سيدي، وإذ لم يكن ذلك الشخص هو هانا ...»

قلت، مقاطعًا إياه: «تقول إن الآنسة إلينور رفضَت أن تُقابله»، على أمل أن يكون هذا التلميحُ البسيط كافيًا لاستخلاص تفاصيل أخرى من حواره مع إلينور.

«أجل، يا سيدي. عندما نَظَرَت إلى البطاقة لأول مرة، أظهَرَت قليلًا من التردد؛ لكن لوهلةٍ تورد وجهها بشدة، وأمرَتْني أن أقول ما أخبرتك به. ما كنت سأفكر في هذا الأمر مرة أخرى لو لم أرَه آتيًا إلى المنزل متأنقًا ومتبجحًا هذا المساء، باسم جديد على لسانه. صدقًا، لا أود أن أُسيء الظن به الآن؛ لكن مولي رأت أنه من الضروري أن أتحدث إليك، يا سيدي، وأُريح بالي، وهذا كل ما في الأمر، يا سيدي.»

عندما وصلت إلى البيت في تلك الليلة، كتبت في مفكرتي قائمةً جديدةً من الملابسات المثيرة للشك، لكن هذه المرة كانت تحت العنوان الفرعي «م» بدلًا من «ن».

الفصل التاسع عشر

في مكتبي

شيءٌ بين المانع والمعين.

ووردزوورث

في اليوم التالي، بينما كنت أدخل مكتبي، بأعصاب متوترة وعقلٍ مستنزَف، استُقبِلتُ بالإعلان التالي:

«سيِّدٌ محترم، في غرفتك الخاصة يا سيدي، ينتظرك منذ مدة، بنفاد صبر كبير.»

منهكًا، وفي حالة مزاجية لم تكن تسمح بإجراء أي استشارة مع موكلين جددٍ أو قدامى، توجهت بخطوات غير متلهفة لدخول غرفتي، وعندما فتحت الباب، رأيتُ … السيد كلافرينج.

كنت مبهوتًا للغاية لدرجةٍ أعجزَتني عن الكلام في تلك اللحظة، فانحنيت له في صمت، وعندئذٍ اقتربَ مني بهيئة ووقار سيدٍ نبيل ذي أدبٍ جمٍّ، وقدَّم بطاقته، التي رأيت مكتوبًا عليها، بحروفٍ غيرِ متصلة ومنمقة، اسمُه بالكامل، هنري ريتشي كلافرينج. بعد هذا التعريف بنفسه، اعتذر عن قدومه في زيارة مفاجئة، قائلًا، متذرعًا، إنه غريبٌ عن المدينة؛ وإن المسألة التي قَدِم من أجلها كانت ذاتَ ضرورة مُلحَّة؛ وإنه كان قد سمع بطريقة عابرةٍ ذكرًا مشرِّفًا عنِّي بصفتي محاميًا وسيدًا نبيلًا؛ ولهذا تجرَّأ في طلب هذه المقابلة بالنيابة عن صديقٍ كان في وضعٍ مؤسف يتطلب رأي ومشورة محامٍ بخصوص مسألةٍ لا تنطوي فحسبُ على وقائع غريبة، ولكنها أيضًا كانت ذاتَ طبيعة محرجة له بصفةٍ خاصة؛ نظرًا إلى جهله بالقوانين الأمريكية، وبالأثر القانوني لهذه الوقائع على المسألة نفسها.

بعدما نال بهذا اهتمامي، وأثار فضولي، سألني إن كنتُ أسمح له بسرد قصته. متعافيًا إلى حدٍّ ما من ذهولي، ومهدِّئًا من حدة ما كنتُ أشعر به تجاه الرجل من نفور شديد، وما يقارب الرعب، أبديت موافقتي؛ وعندئذٍ أخرج من جيبه مفكرةً قرأ منها ما كان مضمونُه ما يلي:

«رجلٌ إنجليزي أثناء سفره في هذا البلد قابل، في منتجع عصري، فتاةً أمريكيةً، وأُغرمَ بحبها، وبعد أيامٍ قليلة، رغب في الزواج منها. مدركًا مكانته الجيدة، وثروته الوفيرة، وشرفَ نواياه، عرض الزواج منها، ووافقت الفتاة على عرضه. لكن نظرًا إلى ظهور اعتراض قاطعٍ من العائلة على الزيجة، وجد نفسه مجبرًا على إخفاء مشاعره، رغم أن ارتباطه بها لم ينقطع. بينما كانت الأمور في هذا الوضع الملتبس، تلقى إخطاراتٍ من إنجلترا تطلب عودته على الفور، ولقلقه من احتمال غيابه مدةً طويلةً عمَّن استحوذَت على عواطفه، كتب إليها، يخبرها بالملابسات، مقترحًا أن يتزوَّجا سرًّا. فوافقت بشروطٍ؛ أولها، أن عليه أن يتركها في الحال عند الانتهاء من مراسم الزواج؛ والثاني، أنه يتعيَّن عليه أن يعهد إليها بالإشعار الرسمي بالزواج. لم يكن ذلك تحديدًا ما كان يتمنَّاه، لكن أي شيءٍ كان من شأنه أن يؤدي إلى أن تُصبح زوجةً له كان مقبولًا في ظل هذه الأزمة. استعدَّ على الفور لتنفيذ الخطط المقترحة. قابل الفتاة بشخصها، في مكانٍ يبعد نحو عشرين ميلًا عن المنتجع الذي كانت تُقيم فيه، ووقف معها أمام قسٍّ ميثودي، وأُجرِيَت مراسم الزواج. كان يوجد شاهدان؛ أجير لدى القس، استُدعي لهذا الغرض، وصديقة جاءت مع العروس؛ لكن لم يكن ثمة تصريح، ولم تكن العروس قد أتمَّت عامها الحاديَ والعشرين. والآن، هل كان ذلك الزواج قانونيًّا؟ إذا آثرَت الفتاة، التي تزوَّجها صديقي بنيةٍ سليمة في ذلك اليوم، أن تُنكر أنها زوجته الشرعية، فهل بإمكانه أن يحملها على الالتزام بعقدٍ مُبْرَمٍ بهذه الطريقة غير الرسمية؟ باختصارٍ، يا سيد ريموند، هل يُعد صديقي زوجًا قانونيًّا لهذه الفتاة أم لا؟»

بينما كنت أستمع لقصته، وجدتُ نفسي مُستسلمًا لمشاعر متناقضةٍ تناقضًا كبيرًا مع تلك التي استقبلت بها الراويَ منذ وقتٍ قصير. صِرت منجذبًا لحالة «صديقه» حتى نسيت تمامًا، وقتها، أني كنتُ قد رأيت أو سمعت عن هنري كلافرينج قبل ذلك؛ وبعد أن علمتُ أن مراسم الزواج جرت في ولاية نيويورك، أجبته، بقدرِ ما أتذكر، بالكلمات التالية:

«في هذه الولاية، التي أعتقد أنها خاضعةٌ للقانون الأمريكي، الزواج عقدٌ مدَني، لا يتطلَّب تصريحًا، ولا قسًّا، ولا مراسم، ولا شهادة؛ وفي بعض الحالات لا يتعيَّن حتى وجود

شهود كي يكون الزواج صحيحًا. قديمًا، كانت طرق الحصول على زوجةٍ هي نفس طرق حيازة أي نوعٍ آخر من الممتلكات، ولم تتغيَّر تغيُّرًا جوهريًّا في الوقت الراهن. فيكفي أن يقول الرجل والمرأة أحدُهما للآخر: «من هذه اللحظة، نحن متزوجان»، أو «أنتِ الآن زوجتي»، أو «أنتَ الآن زوجي»، حسب ما تقتضي الحالة. رضا الطرفَين هو كل ما يلزم. في الواقع، يمكنك عقد زواجٍ مثلما تتعاقد من أجل إقراضِ مبلغٍ من المال، أو شراء أبسط الأشياء.»

«إذن رأيك أن ...»

«بناءً على إفادتك، صديقك زوجٌ قانوني للسيدة المعنيَّة؛ بافتراض، طبعًا، أنه لا توجد أي موانع قانونية لدى أيٍّ من الطرفَين تمنع هذا الارتباط. فيما يختص بعمر السيدة الشابة، سأقول ببساطة إن أي فتاة في الرابعة عشرة من عمرها يمكن أن تكون طرَفًا في عقد زواج.»

انحنى السيد كلافرينج، وبدت على وجهه نظرةُ ارتياح شديد. وقال: «أنا سعيد للغاية لسماع هذا؛ فسعادة صديقي ترتبط ارتباطًا تامًّا بإرساء زواجه.»

بدا عليه الارتياح الشديد، مما زاد من فضولي. لذلك قلت: «لقد أعطيتك رأيي فيما يخص مشروعية هذا الزواج؛ لكن إثباته قد يكون شيئًا مختلفًا تمامًا، إذا ما طُعِن فيه.»

انتفض، ورمَقني بنظرةٍ متسائلة، ثم تمتم:

«صحيح.»

«اسمح لي أن أوجه إليك بعض الأسئلة. هل تزوجَت السيدة مستخدمةً اسمها الحقيقي؟»

«نعم، فعلَت.»

«والسيد المحترم؟»

«أجل، يا سيدي.»

«هل تسلَّمَت السيدة شهادةَ زواج؟»

«أجل، تسلَّمَتْها.»

«موقَّعٌ عليها بتوقيعاتٍ صحيحةٍ من القس والشاهدين؟»

أومأ برأسه إيجابًا.

«هل احتَفَظَت بها؟»

«ليس بوسعي أن أجزم بذلك؛ لكن أفترض أنها فعلت.»

«والشاهدان كانا ...»

«أجيرًا تابعًا للقس ...»

«أيمكن العثور عليهما؟»

«لا يمكن العثور عليهما.»

«ماتا أم اختفيا؟»

«القسيس متوفًّى، والرجل اختفى.»

«القسيس متوفًّى!»

«منذ ثلاثة أشهر.»

«ومتى عُقد الزواج؟»

«في يوليو الماضي.»

«والشاهدة الأخرى، السيدة صديقتها، أين هي؟»

«يمكن العثور عليها؛ لكن موقفها لا يُعوَّل عليه.»

«ألا يملك هذا الرجل المحترم أيَّ إثباتاتٍ على هذا الزواج؟»

هز السيد كلافرينج رأسه نفيًا. وقال: «لا يمكنه حتى أن يُثبت أنه كان في البلدة التي عُقِد فيها الزواج في ذاك اليوم.»

قلت: «ومع ذلك، هل سُجِّلَت شهادة الزواج لدى كاتب البلدة؟»

«لا، يا سيدي.»

«كيف حدث ذلك؟»

«ليس بوسعي أن أجزم. كل ما أعرفه أن صديقي تقدم بطلبٍ، ولم يُعثَر على هذا المستند.»

أمَلتُ ظهري إلى الخلف ببطءٍ. وقلت: «لا أتعجب من قلق صديقك حيالَ موقفه، إذا كان ما تُلمِح إليه صحيحًا، ويبدو أن السيدة تميل إلى إنكار عقد أي مراسم على الإطلاق. ومع ذلك، إذا رَغِب في اللجوء إلى القضاء، فقد تحكم المحكمة لصالحه، رغم أنني أشكُّ في ذلك. فقَسَمُه هو كل ما يُمكنه الاعتمادُ عليه، وإذا أنكَرَتْ شهادتَه وهي تحت القَسَم، فعندئذٍ يكون تعاطفُ هيئة المحلَّفين، عادةً، مع المرأة.»

نهض السيد كلافرينج، ونظر إليَّ بشيءٍ من الجدية، وأخيرًا طلب مني، بنبرةٍ، على الرغم من تغيُّرها إلى حدٍّ ما، لم تخلُ من دماثتها السابقة؛ أن أتكرمَ بأن أُعطيَه كتابةً هذا الجانبَ من رأيي المتصل مباشرةً بمشروعية الزواج؛ فمن شأن تلك الورقة أن تُساعد

كثيرًا في إقناع صديقه بأن مسألته قد أُحسِن عرضها؛ والعلة في ذلك أنه كان يُدرك أن لن يُضيف محامٍ محترمٌ اسمَه إلى رأيٍ قانونيٍّ دون أن يكون أولًا قد توصَّل بدقةٍ إلى استنتاجاته عن طريق مراجعةٍ متأنيةٍ للأثر القانوني على الحقائق المقدَّمة.

وإذ بدا طلبه منطقيًّا جدًّا، امتثلت له من دون تردُّد، وسلَّمته الرأيَ القانوني. أخذه، وبعد أن قرأه بتأنٍّ، نسخه بتروٍّ في مفكرته. بعد أن انتهى من هذا، التفت نحوي، وعلى وجهه تأثرٌ قويٌّ، لكنه كان مكبوتًا حتى ذلك الحين.

قال، وهو ينهض أمامي منتصبًا بكامل هيئته المهيبة: «والآن، يا سيدي، ليس لديَّ سوى طلبٍ واحد آخَر؛ وهو، أن هذا الرأي سيعود في حوزتك مرةً أخرى، وفي اليوم الذي تُفكر فيه أن تذهب بامرأةٍ جميلة إلى مذبح الكنيسة، تمهَّل واسأل نفسك: «هل أنا متأكد من أن اليدَ التي أضمها بهذه الحرارة المتقدةِ هي يد حرة؟ هل أنا متأكد من معرفة إن كانت لم تتزوج بالفعل، مثل تلك السيدة، في هذا الرأي الذي بين يدَي، التي أعلَنتُ أنها زوجة وفقًا لقوانين بلدي؟»»

«سيد كلافرينج!»

لكنه، بانحناءةٍ مهذبة، وضع يده على مقبض الباب. وقال: «أشكرك على لطفك، يا سيد ريموند، وأتمنى لك يومًا طيبًا. آمُل ألَّا تحتاج إلى الرجوع إلى تلك الورقة قبل أن أراك مجددًا.» وبانحناءةٍ أخرى، خرج من المكتب.

كانت أكثرَ صدمةٍ قاتلة تلقَّيتُها حتى الآن؛ ولوهلة وقفت عاجزًا عن الحركة. أنا! أنا! لماذا يُقحمني في هذه المسألة إلا إذا ... لكني لن أفكر في ذلك الاحتمال. إلينور متزوجة، ومِن هذا الرجل؟ لا، لا؛ أي احتمال آخر إلا ذلك! ومع ذلك وجدتُ نفسي أُقَلِّب هذه الفرضية في ذهني دون توقفٍ حتى، لكي أهربَ من عذاب تكهناتي، أمسكت بقبعتي، واندفعت مسرعًا إلى الشارع على أملِ أن أجده مرةً أخرى وأنتزعَ منه تفسيرًا لتصرفه الغامض. لكن عندما وصلت إلى رصيف المشاة، لم أرَه في أي مكان. كان ألفٌ من الرجال المنشغلين، بمصالحهم وهمومهم التي كانت على كل شاكلة، قد زجُّوا بأنفسهم بيننا، فوجدت نفسي مضطرًّا إلى العودة إلى مكتبي من دون أن تتبدد شكوكي.

أظن أنني لم أمرَّ مطلقًا بيومٍ أطولَ من هذا اليوم؛ لكنه مر، وفي الساعة الخامسة وصلتُ إلى استحسانِ الاستفسار عن السيد كلافرينج في فندق هوفمان. كم كانت مفاجأتي عندما علمت أن زيارته إلى مكتبي كانت آخرَ شيء فعله قبل أن يصعد على متن الباخرة المغادرة في ذلك اليوم إلى ليفربول؛ وأنه كان في تلك اللحظة في أعالي البحار، وأنه لم تعد

ثَمة أيُّ فرصة لمقابلته مرةً أخرى. عجزت عن تصديق هذه الحقيقة في البداية؛ لكن بعد حوارٍ مع سائق عربة الأجرة الذي كان قد جاء به إلى مكتبي ثم إلى الباخرة، أصبحتُ مقتنعًا. كان أول شعور خالجني هو الخزي. كنت قد التقيتُ وجهًا لوجهٍ مع المتهم، وتلقيتُ تلميحًا منه بأنه لا يتوقع أن يراني مرة أخرى لفترةٍ، ثم واصلت في وهنٍ الانشغالَ بأموري الشخصية وسمحتُ له بالهرب، مثل غِرٍّ ساذَجٍ كما كان حالي. خطوتي التالية، هي ضرورة إبلاغ السيد جرايس برحيل هذا الرجل. لكن الساعة الآن كانت السادسة، الساعة المخصَّصة للقائي بالسيد هارويل. لم يكن بوسعي أن أفوته؛ لذا مكتفيًا بالتوقُّف لأبعث برسالةٍ قصيرةٍ إلى السيد جرايس، وعدتُه فيها بزيارته ذلك المساء؛ توجَّهتُ صوب البيت. ووجدت السيد هارويل هناك قبلي.

الفصل العشرون

«ترومان! ترومان! ترومان!»

كثيرًا ما تُقْبِل خيالات الأحداث العظيمة قبل وقوع الأحداث،
فتجد دلائل الغد ماثلةً اليوم.

كولريدج

على الفور تملكني ذعرٌ شديد. ما الأسرار التي قد لا يبوح بها هذا الرجل؟! لكنني كظمتُ هذا الإحساس؛ ومرحبًا به بكل ما أوتيتُ من مودة، هيأتُ نفسي لأن أستمع إلى تفسيراته.

لكن ترومان هارويل لم يكن لديه أيُّ تفسيرات يُعطيها، أو هكذا بدا الأمر؛ على النقيض، كان قد جاء ليعتذر عن كلماته القاسية التي تلفَّظ بها الليلةَ الماضية؛ كلمات، بصرف النظر عن وقعها عليَّ، شعر بأنه ملزَمٌ بأن يوضح بأنه تلفَّظ بها في الحقيقة من دون أساسٍ كافٍ يجعلها ذات أدنى أهمية.

«لكنك لا بد أنك ظننت أن لديك أسبابًا لمثل هذا الاتهام الجسيم، أو أنك رجل مجنون.»

قطَّب جبينه بشدةٍ، وظهر في عينيه تعبيرُ وجومٍ شديد. وأجاب: «ليس بالضرورة. تحت ضغط المفاجأة، عرَفت رجالًا نطقوا بإدانات ليست ذاتَ أساس أفضلَ مما كان لديَّ، دون أن يتعرضوا لأن يُطلق عليهم مجانين.»

«مفاجأة؟ لا بد، إذن، أن وجه السيد كلافرينج أو هيئته كان معروفًا لك. فمجرد رؤية رجلٍ غريب في الردهة لم تكن ستكفي لأن يُصيبك الذهول، يا سيد هارويل.»

لمس باضطرابٍ ظهرَ الكرسي الذي كان يقف أمامه، لكنه لم يُجِب بشيء.

ألححت مرة أخرى، ولكن هذه المرة بنبرةٍ آمِرة في صوتي: «اجلس.» وأردفت: «هذا شأن خطير، وأعتزم أن أتعامل معه كما يستحق. قلت ذات مرةٍ إنك إذا عرَفت أي شيء

قد يساعد على تبرئة إلينور ليفنوورث من الشبهة التي تحوم حولها، فستكون مستعدًّا لأن تُفصح عنها.»

صحَّح لي بنبرةٍ باردة: «معذرةً. قلت إنني لو كنت أعرف أي شيء يُتَوَقَّع أن يخلصها من وضعها التعيس، كنت سأتكلم.»

قلت: «كُفَّ عن المراوغة. أنت تعرف، وأنا أعرف، أنك تُخفي شيئًا؛ وأطلب منك، نيابةً عنها، ولخدمة العدالة، أن تُطلعني عليه.»

فكان ردُّه العنيد: «أنت مخطئ. لديَّ أسباب ربما لاستنتاجات معينة قد أكون قد توصلتُ إليها؛ لكن ضميري لن يسمح لي أن أنطق في قسوةٍ باشتباه قد لا يُضِر بسمعة رجل نزيهٍ فحسب، بل يضعُني في وضع بغيض كمدَّعٍ لاتهامٍ من دون أي أساس حقيقي.»

فأجبته، ببرود مماثل: «أنت بالفعل في ذلك الوضع. لا شيء يمكن أن يُنسيني أنك في وجودي اتهمتَ هنري كلافرينج بأنه قاتل السيد ليفنوورث. من الأفضل أن توضح موقفك، يا سيد هارويل.»

نظر إليَّ نظرةً قصيرة، لكنه تحرك وجلس على الكرسي. وقال بنبرة أخف: «أنت تضعني في موقفٍ سيئ. إذا اخترت أن تستغلَّ موقفي، وتضغط عليَّ لأبوح بالقليل الذي أعرفه، فلا يسعُني سوى أن أتحسر على موقفي الاضطراري، وأن أتكلم.»

«إذن فلا يثنيك سوى ضميرِك الحي؟»

«نعم، وضآلة الحقائق التي بين يدَي.»

«سأحكم على الحقائق بعدما أسمعها.»

رفع عينَيه ناظرًا إلى عينيَّ، وأدهشني أن ألاحظ حماسةً غير مألوفة في أعماقه؛ فمن الواضح أن قناعاته كانت أقوى من تورُّعه. بدأ حديثه قائلًا: «سيد ريموند، أنت محامٍ، ورجلٌ عملي بلا شك؛ لكن هل تعرف ماذا يعني أن تستشعر الخطر قبل أن تراه، أن تشعر بقُوًى خفيةٍ تحوم في الهواء من فوقك وحولك، ومع ذلك تجهل ماهية ما يؤثِّر عليك بكل هذه القوة، حتى تكشف الصدفةُ عن أن عدوًّا كان يقف إلى جانبك، أو أن صديقًا مر بنافذتك، أو أن شبح الموت طاف بكتابك وأنت تقرأ، أو اختلط بأنفاسك وأنت نائم؟»

هززتُ رأسي نفيًا، مفتونًا بحدة نظرته التي تتطلَّع إلى رد فعلٍ بعينه.

«إذن ليس بوسعك أن تفهمني، أو تفهم ما عانيته طوال الثلاثة أسابيع الماضية.»

ثم رجع إلى الوراء بتحفظٍ فاتر بدا أنه لا يُبشر بأن يُشبِع فضولي المحموم تمامًا الآن إلا بالقليل.

سارعت إلى القول: «أستميحك عذرًا، لكن حقيقة أني لم أشعر من قبلُ بمثل هذه الأحاسيس لا يعوقني عن فهم مشاعر الآخرين الذين يتأثَّرون بالقُوى الروحانية الخفية أكثر مني.»

حرك نفسه إلى الأمام على مهلٍ. وقال: «لن تسخر مني إذن إذا قلت لك إنني عشية مقتل السيد ليفنوورث رأيت حلمًا شاهدت فيه كلَّ ما حدث بعد ذلك؛ رأيته مقتولًا، ورأيت ...»، وأطبق قبضتَيه أمامه، بأسلوبٍ قاطعٍ لدرجة لا توصف، بينما أخذ يخفت صوته حتى أصبح همسًا مرتعبًا: «رأيت وجه قاتله!»

انتفضت، ونظرت إليه في ذهول، وسرَت رجفة وكأنَّ شبحًا يخترقني.

فبادرته قائلًا: «وكان ذلك ...»

«السبب في إدانتي للرجل الذي رأيته أمامي في ردهة منزل الآنسة ليفنوورث الليلة الماضية؟ نعم كان ذلك هو السبب.» ثم، أخرج منديلًا، ومسح جبينه، الذي كانت تعلوه قطراتٌ كبيرة من العرق.

«أتُلمِّحُ إذن أن الوجه الذي رأيته في حلمك والوجه الذي رأيته في الردهة الليلة الماضية كانا هما الوجهَ نفسَه؟»

أومأ برأسه في انفعالٍ شديد.

سحبت مقعدي واقتربت به أكثر إليه. قلت: «قُص عليَّ حلمك.»

«كانت الليلة السابقة لمقتل السيد ليفنوورث. كنت قد ذهبتُ إلى السرير يغمرني شعورٌ بسعادةٍ استثنائيةٍ من نفسي والعالم بصفةٍ عامة؛ وذلك لأنه، رغم أن حياتي لم تكن حياةً سعيدة على الإطلاق» وتنهد تنهيدةً قصيرةً «فقد قيل لي في ذلك اليوم بعض الكلمات التي بعثت السرور في نفسي، فكنتُ أتقلَّب في السعادة التي وهبتني إياها تلك الكلمات، وفجأةً أصابَت قلبي رجفةٌ، ورَوَّع الظلامَ الذي كان قد بدا لي قبل لحظة بمثابة ملاذٍ للسكينة والأمان صوتُ صيحةٍ خارقةٍ للطبيعة، وسمعت اسمي: «ترومان، ترومان، ترومان» يتكرَّر ثلاثَ مرات بصوتٍ لم أُميِّزه، ومنتفضًا من على وسادتي رأيت امرأةً إلى جانبي.» واصل حديثه بنبرةٍ جادة: «كان وجهها غريبًا عني، لكن بإمكاني أن أعطيَك كل تفاصيله، إذ بينما، كانت تنحني أعلى جسدي، حدقت في عينيَّ في رعب ازداد لحظة بعد لحظة وبدا أنه يلتمس المساعدة، رغم أنَّ شفتَيها كانتا ساكنتَين، وتردد صدى ذكرى ذاك الصوت فقط في أذنَيَّ.»

قاطعته: «صف وجهها.»

«كان وجهًا دائريًّا، لسيدة حسناء. تقاسيمه جذابة للغاية، لكنها تفتقر إلى أي لون؛ لم يكن جميلًا، لكنه كان فاتنًا بسبب نظرته الطفولية الواثقة. أما الشعر، المعقود على الجبهة المنخفضة العريضة، فكان بنيًّا؛ والعينان، اللتان كانتا متباعدتَين جدًّا، كانتا رماديَّتَين؛ والفم، الذي كان أكثر ملامحها جاذبية، كان رقيقًا ومعبرًا جدًّا. كان ثمة غمازة في الذقن، لكن لم تكن توجد غمازاتٌ في الخدَّين. كان وجهًا لا يُنسى.»

قلت: «تابِع حديثك.»

فأردف قائلًا: «عندما واجهَتْني نظرة هاتَين العينَين المتوسلتَين، انتَفَضتُ معتدلًا. وفي الحال اختفى الوجهُ وكل شيء، وأصبحت مدركًا، كما نفعل أحيانًا في الأحلام، لحركة معينة في الردهة بالأسفل، وفي اللحظة التالية دخلَ منسلًّا إلى المكتبة جسدُ رجل عظيم الحجم. أتذكَّر أني شعرتُ عند هذا برجفةٍ، نابعة من جانب من الذعر، ومن الجانب الآخر من الفضول، رغم أنه بدا أنني كنتُ أعرف ما كان سيفعله، كما لو كان بديهيًّا. من الغريب القولُ إنه في تلك اللحظة بدا أن شخصيتي قد تبدَّلت، ولم أعُد طرفًا ثالثًا يُشاهد هذه الوقائع، وإنما صرتُ السيد ليفنوورث نفسه، جالسًا إلى منضدة مكتبته ومستشعرًا أن مصيره المشئوم يغشاه من دون أن يمتلك القدرة على الكلام أو الحركة ليدرأه. ورغم أن ظهري كان ناحية الرجل، كان بإمكاني أن أشعر بجسده المتسلل يجتاز الممر، ويدخل الغرفة التي في آخره، ثم يمر إلى الخزانة التي كان المسدس فيها، ويحاول فتح الدُّرج، فيجده مغلقًا، ويُدير المفتاح، ويأخذ المسدس، ويحمله في يدِه المتمرسة على القتل، ثم يتقدَّم مرةً أخرى. كان بإمكاني أن أشعر بكل خطوة يخطوها كما لو أن قدمَيه كانتا في الحقيقة تطآن على قلبي، وأتذكر أنني أخذت أُحملق في المنضدة أمامي وكأنني كنت أتوقع في كل لحظة أن أرى دمي أنا يسيل عليها. بوسعي الآن أن أرى أنَّ الحروف التي كنت قد كتبتها كانت تتراقص على الورقة أمامي، وكان يُخيَّل إلى عينيَّ أنها تتخذ أشكالًا شبحية لأشخاصٍ وأشياءَ اندثرت منذ زمن طويل؛ واحتشدَت في لحظاتي الأخيرة مشاعرُ ندمٍ وخزيٍ مُميت، وأشواق جارفة، وعذابات لا توصف، امتزج بها كلِّها ذلك الوجه، الوجه الذي كنت قد رأيته في حلمي السابق، شاحبًا، وحلوًا، وحادًّا، بينما تتسلل خلفي تلك القدم بلا صوت، مقتربةً شيئًا فشيئًا، حتى كان بإمكاني أن أشعر بتوهج عين القاتل عبر العتبة الضيقة التي تفصل بيني وبين الموت، وأسمع صوت صرير أسنانه وهو يُهيئ شفتَيه للخاتمة. آه!» وظهرَت على وجه السكرتير الشاحب مسحةُ رعب مريع، وأردف: «بأي كلمات يمكن أن تُوصف تجرِبة كهذه؟ في لحظة، كانت كل عذابات الجحيم في قلبي

وعقلي، ثم بدا أني كنت أُراقب من بعيد من خلال مسافة، ثم وكأنما انفصلتُ فجأةً عن كل هذا، أخذ جسدٌ جاثم ينظر إلى فعلته بعينٍ فزعة وشفتَين شاحبتين ومرفوعتين؛ وبينما كنت أرى هذا، لم أتبيَّنْ وجهًا عرَفتُه من قبل، وإنما وجه في غاية الوسامة والتميز والتفرد في شكله وطابَعه، حتى إنه كان من السهل عليَّ أن أتصور بالخطأ أن هيئة والدي هي مظهر وجسد الرجل الذي تكشف لي في حلمي.»

قلتُ، بصوت عجزتُ عن أن أتبينَ أنه صوتي: «وهذا الوجه؟»

«كان وجهَ ذاك الذي رأيناه يترك ماري ليفنوورث الليلةَ الماضيةَ ويمضي عبر الردهة إلى الباب الأمامي.»

الفصل الحادي والعشرون

تحامل

هذا صحيحٌ إذ أنا أحكي عن الأحلام،
وهنَّ من بناتِ كل ذهن عاطل،
أما أبوهن فوهمٌ باطل.

مسرحية «روميو وجوليت» [ترجمة د. محمد عناني]

لوهلةٍ وَقَعتُ فريسةَ رعبٍ متَّسم بالإيمان بالخرافات؛ ثم، إذ أخذ شكي الفطريُّ يفرض نفسه، رفعتُ ناظرَيَّ وعلَّقت:

«تقول إن كل هذا حدث في الليلة التي سبَقَت الواقعةَ الفعلية، صحيح؟»

أحنى رأسه. وأوضح: «كان بمثابة تحذير.»

«لكن لم يبدُ أنك أخذته على هذا المحمل، صحيح؟»

«لا؛ أنا أعاني من رؤية أحلامٍ مفزعة. فكرت قليلًا في الأمر بطريقة تنطوي على أنه خرافة حتى نظرتُ في اليوم التالي إلى جثمان السيد ليفنوورث.»

«لا أتعجب من أنك تصرفت بغرابة أثناء التحقيق.»

أجاب، بابتسامة متأنية، وحزينة: «صحيح، يا سيدي؛ لا أحد يعرف ما عانيته في محاولاتي لئلَّا أُدليَ بأكثرَ مما عرَفته في الحقيقة، عن هذه الجريمة وطريقة ارتكابها، بصرف النظر عن حلمي.»

«أتعتقد، إذن، أن حلمك تنبَّأ بطريقة ارتكاب الجريمة كما حدثَت في الحقيقة؟»

«نعم، أعتقد ذلك.»

«إذن فمن المؤسف أنه لم يمضِ أبعدَ من ذلك ليخبرنا كيف هرب القاتل من المنزل، أو ربما كيف دخل منزلًا أُقفلت منافذه بإحكام.»

احمرَّ وجهه غضبًا. وقال: «كان ذلك سيغدو نافعًا. وأيضًا، لو كنتُ قد أُطلِعتُ على مكان هانا، والسبب الذي قد يدفع هذا السيدَ الغريب والنبيل إلى الانحطاط بمنزلته ليرتكب مثل هذه الجريمة.»

لما رأيته حانقًا، تخليتُ عن حسِّ الفكاهة الذي بدر مني. فسألته: «ولماذا تقول إنه غريب؟ هل أنت على اطلاع بجميع مَن يأتون لزيارة ذلك المنزل حتى تقول مَن غريب ومن ليس بغريب عن العائلة؟»

«أنا على اطلاعٍ جيد بوجوه أصدقائهم، وهنري كلافرينج لم يكن من بين هذه الوجوه؛ ولكن ...»

قاطعته: «هل سبق لك أن كنت برفقة السيد ليفنوورث عندما كان يغيب عن المنزل؛ في الريف، على سبيل المثال، أو في أسفاره؟»

«لا.» لكن النفي جاء مشوبًا ببعض الارتباك.

«ومع ذلك أظن أنه كان معتادًا على الغياب عن المنزل، أليس كذلك؟»

«بالتأكيد.»

«هل لك أن تخبرني أين كان في شهر يوليو الماضي، هو والسيدتان؟»

«أجل، يا سيدي، ذهبوا إلى «ر...»، المنتجع المشهور، كما تعرف.» وصاح، لما رأى تغيُّرًا قد طرأ على وجهي: «آه، أتظن أنه يمكن أن يكون قد قابلهم هناك؟»

نظرت إليه لوهلة، ثم، نهضت بدوري، ووقفت في مواجهته، وقلت:

«أنت تُخفي شيئًا، يا سيد هارويل؛ لديك معلومات عن هذا الرجل أكثر مما أوضحتَ لي. ما هي؟»

بدا مذهولًا من نفاذ بصيرتي، لكنه أجاب: «لا أعرف عن هذا الرجل أكثرَ مما أخبرتُك به بالفعل؛ ولكن» وسرَتْ في وجهه حُمرة متَّقدة «إذا كنت مُصرًّا على متابعة هذا الأمر ...» ثم توقَّف، وعلى وجهه نظرةٌ فاحصة.

فكانَت إجابتي الحاسمة: «أنا عازمٌ على أن أعرف كل ما في وسعي أن أصل إليه عن هنري كلافرينج.»

فقال: «إذن، يمكنني أن أخبرك هذا القَدْر. قبل أيامٍ قليلة من جريمة القتل كتب هنري كلافرينج إلى السيد ليفنوورث خطابًا، ولديَّ قناعة أنه لسببٍ ما أحدث تأثيرًا واضحًا على أفراد المنزل.» ثم، عاقدًا ذراعيه، وقف السكرتير منتظرًا في هدوءٍ سؤالي التالي.

فسألت: «كيف عرَفت؟»

«فتحتُه بالخطأ. كنت معتادًا على قراءة خطابات العمل الموجَّهة إلى السيد ليفنوورث، ولأن هذا الخطاب كان مُرسلًا من شخصٍ لم يعتدْ على مراسلته، لم يكن عليه العلامة التي تميِّز غالبًا الخطاباتِ التي تحمل طبيعةً خاصة.»

«وهل رأيت اسم كلافرينج؟»

«نعم، هنري ريتشي كلافرينج.»

«وهل قرأتَ الخطاب؟» كنتُ أرتجف في تلك اللحظة.

لم يتفوَّه السكرتير بردٍّ.

فأعدتُ عليه كلامي: «سيد هارويل، ليس هذا الوقت وقتَ حرجٍ مفتعَل. هل قرأتَ ذلك الخطاب؟»

«أجل؛ لكن في عجالة، وبضمير مضطرب.»

«هل بإمكانك، مع ذلك، أن تتذكر سياقه العام؟»

«كان بخصوص شكوى من المعاملة التي تلقَّاها من إحدى ابنتَي أخوَي السيد ليفنوورث. لا أتذكر أكثر من ذلك.»

«أي واحدة منهما؟»

«لم تكن ثمة إشارةٌ إلى أي أسماء.»

«لكنك استنتجت ...»

«لا، يا سيدي؛ ذلك تحديدًا ما لم أفعله. أجبرت نفسي على أن أنسى الأمر برمته.»

«ومع ذلك تقول إن هذا الخطاب كان له وقعٌ على العائلة، صحيح؟»

«بإمكاني الآن أن ألاحظ وقعه عليهم. لم يَبدُ أيٌّ منهم على حاله مثلما كانوا من قبل.»

واصلتُ بحدةٍ: «سيد هارويل، عند استجوابك بخصوص تسلُّم السيد ليفنوورث أي خطابٍ، ربما يبدو بأي حالٍ ذا صلة بهذه الفاجعة، أنكرتَ أنك رأيت أي شيء من هذا القبيل؛ كيف كان ذلك؟»

«سيد ريموند، أنت سيد نبيل؛ وتهتم بأمر السيدتين بدافع المروءة؛ هل تعتقد أنه كان بإمكانك أن تحمِل نفسك (حتى لو رأيت في أعماق قلبك أن نتيجةً كهذه ممكنةٌ، وهو ما لستُ مستعدًّا أن أجزم أنني فعلته) على أن تذكر، في مثل ذلك التوقيت، تسلُّمَ خطابٍ فيه شكوى من المعاملة التي بدرت من إحدى ابنتي شقيقَيه، بوصفه تفصيلةً مريبة جديرة بأن تؤخَذ في حسبان هيئة المحلَّفين التابعة لمحقق الوفَيَات؟»

هزَزتُ رأسي نفيًا. لم يكن بوسعي سوى أن أُقرَّ باستحالة ذلك.

«ما السبب الذي كان لديَّ ليحملني على أن أظن أن الخطاب مهم؟ لم أعرف أيَّ شيء عن هنري ريتشي كلافرينج.»

«ومع ذلك بدا أنك كنت تراه كذلك. أتَذَكَّر أنك ترددتَ قبل أن تُجيب.»

«هذا صحيح؛ لكن ليس كما ينبغي أن أتردد الآن، لو وُجِّه إليَّ السؤال مرة أخرى.»

أعقب هذه الكلماتِ صمتٌ، ذرَعتُ في أثنائه الغرفةَ جيئةً وذهابًا مرتين أو ثلاثًا.

علقت، ضاحكًا في محاولةٍ عبثية للتخلُّص من الذعر المتطير الذي أثارته كلماته في نفسي: «هذا كلُّه من نسج الخيال.»

أحنى برأسه موافقًا. وقال: «أعرف هذا. أنا نفسي رجلٌ عمليٌّ في وضَح النهار، وأدرك، بوضوحٍ تامٍّ مثلك، مدى ضعفِ اتهامٍ مبنيٍّ على حلمٍ رآه سكرتير فقير، ومكافح. ولهذا السبب كنت أرغب في أن أتحاشى الحديثَ عنه تمامًا؛ لكن، يا سيد ريموند» ووقعَت يده الطويلة النحيلة على ذراعي بانفعالٍ شديدٍ لدرجةٍ أوحَتْ لي تقريبًا بإحساس صعقة كهربائية «إذا أُمسِك بقاتل السيد ليفنوورث في أي وقتٍ للاعتراف بجريمته، تذكَّر كلامي، سيَثبُت أنه الرجل الذي رأيته في حلمي.»

أخذتُ نفَسًا طويلًا. فلِوَهْلةٍ كان اعتقاده هو اعتقادي نفسَه؛ واجتاحني شعورٌ مختلِطٌ بالراحة وبألمٍ موجع إذ فكرتُ في احتمالية أن تُبرَّأ إلينور من هذه الجريمة وبعدها على الفور يُزجُّ بها في خزيٍ جديد وهوةٍ أعمق من المعاناة والألم.

أكمل السكرتير، وكأنه يتحدث إلى نفسه: «إنه يجول طليقًا في الشوارع الآن؛ بل يجرؤ أيضًا على دخول المنزل الذي انتهكَ حُرمته بكل بشاعة؛ لكن العدل هو العدل، وعاجلًا أم آجلًا، سيتضح شيءٌ سيُثبت لك أن حَدْسًا غريبًا للغاية مثلَ الذي تلقيته كان له مغزاه؛ وأن الصوت الذي كان ينادي «ترومان، ترومان، ترومان» كان شيئًا يفوق مجردَ كلماتٍ فارغةٍ نابعةٍ من عقلٍ مستثار؛ كان ذلك صوت العدل نفسه، يَلفت الانتباهَ إلى المجرم.»

نظرتُ إليه في تعجُّب. هل كان يدري أن ضباط العدالة كانوا بالفعل قد بدَءوا في تعقب كلافرينج نفسه؟ خمَّنت أنه لم يفعل استنتاجًا من مظهره، ولكنني شعرت برغبةٍ في أن أبذل جهدًا وأرى النتيجة.

قلت: «تتحدث باقتناعٍ غريب؛ ولكن على الأرجح أنت سيكون مصيرك أن يخيب أملُك. فبقدر ما نعرف، السيد كلافرينج رجلٌ محترم.»

رفع قبعته من فوق المنضدة. وقال: «لا أنوي أن أتهمه؛ ولا أنوي حتى أن أنطقَ اسمه مرةً أخرى. لستُ أحمقَ، يا سيد ريموند. لم أتحدث معك بهذه الصراحة إلا لأُوضِّح أكثرَ سرٍّ مؤسف أفشيتُه الليلة الماضية؛ وبينما أثق في أنك ستعتبر ما أخبرتك به سرًّا، أتمنى أيضًا أن تُقدِّر تصرفي، إجمالًا، الذي كان متوقعًا في ظل هذه الظروف.» ثم مدَّ يده نحوي ليُصافحني.

أجبتُه وأنا أصافحه: «بالطبع.» ثم، برغبةٍ مفاجئةٍ في أن أختبرَ مدى صحة قصته، سألتُ إن كان لديه أي وسيلة لإثبات إفادته عن رؤية هذا الحلم في المدة المشار إليها: أي قبل وقوع جريمة القتل وليس بعدها.

«لا، سيدي؛ أعرف أنني رأيته في الليلة السابقة لمقتل السيد ليفنوورث؛ لكن ليس بإمكاني أن أُثبت هذه الحقيقة.»

«ألم تتحدَّث عنه مع أي شخص في صباح اليوم التالي؟»

«لا، يا سيدي؛ لم أكن في حالةٍ تسمح بفعل ذلك.»

«ومع ذلك لا بد أنه أثَّر عليك بشدة، حتى أصبحتَ غيرَ مؤهلٍ لإنجاز عملك ...»

فكان رده الحاد: «لا شيءَ يجعلني غير مؤهَّلٍ للعمل.»

أجبتُه، متذكرًا حرصه على المواظبة على العمل في الأيام القليلة الماضية: «أصدقك. لكن لا بد على الأقل أنه بدر منك بعضُ الدلائل التي تعكس أنك أمضيت ليلةً غير مريحة. ألا تتذكر أي شخصٍ تحدث إليك عن مظهرك في صباح اليوم التالي؟»

«ربما يكون السيد ليفنوورث قد فعل ذلك؛ لا أحد سواه كان من المحتمل أن يُلاحظ.» كان ثمة مسحةٌ من الحزن في نبرة صوته، ولانت نبرةُ صوتي وأنا أقول:

«لن أحضر إلى المنزل الليلة، يا سيد هارويل؛ ولا أعرف متى سأعود إلى هناك. تمنعني اعتباراتٌ شخصية من الحضور في وجود الآنسة ماري ليفنوورث لفترةٍ، وأتطلَّع إلى أن تستمرَّ في العمل الذي اضطلعنا به دون مساعدتي، إلا إذا كان بإمكانك أن تُحضره إلى هنا ...»

«بإمكاني أن أفعل ذلك.»

«سأنتظرك، إذن، غدًا في المساء.»

«حسنًا، يا سيدي»؛ وبينما كان يهمُّ بالانصراف، بدا أن فكرةً مفاجئة باغتَتْه. فقال: «سيدي، حيث إننا لا نرغب في العودة إلى هذا الموضوع مجددًا، ولأنَّ بداخلي فضولًا طبيعيًّا بخصوص هذا الرجل، هل تُمانع أن تُخبرني بما تعرفه عنه؟ هل تعتقد أنه رجل محترم؛ هل تعرفه، يا سيد ريموند؟»

«أعرف اسمه، ومكان إقامته.»

«وأين يُقيم؟»

«في لندن؛ فهو إنجليزي.»

تمتم، بنبرةٍ غريبة: «حقًّا!»

«لماذا تقول ذلك؟»

عضَّ شفته، ونظر لأسفل، ثم لأعلى، وأخيرًا ثبَّت عينَيه فيَّ، وأجاب، بتشديدٍ واضح: «قلت ذلك من قبيل التعجُّب، يا سيدي، لأنني دَهِشت.»

«دَهِشت؟»

«أجل؛ تقول إنه إنجليزيٌّ. والسيد ليفنوورث لم يكن ينفر من أحدٍ أكثر من الإنجليز. كانت هذه إحدى خصاله المميزة. لم يكن من الممكن أن يُقدِم على التعرف على أحدٍ منهم إن أمكن له ذلك.»

جاء دوري لأن أبدوَ متمعنًا في التفكير.

أردف السكرتير قائلًا: «تعرف أن السيد ليفنوورث كان رجلًا يُبالغ في آرائه المتحاملة على الأشخاص. كان يحمل كرهًا تجاه العِرق الإنجليزي يصل إلى حد الهوس. إذا كان يعلم أن الخطاب الذي أشرتُ إليه كان من رجلٍ إنجليزي، أشك في أنه كان سيقرؤه. كان يقول إنه أهون عليه أن يرى ابنته جثةً هامدةً أمامه عن أن تتزوج من رجل إنجليزي.»

أسرعت بالالتفات جانبًا حتى أُخفي أثر ما قاله عليَّ.

قال: «تظن أنني أبالغ. اسأل السيد فيلي.»

أجبتُه: «لا، ليس لديَّ سببٌ لأظنَّ ذلك.»

أكمل السكرتير حديثه: «بلا شكٍّ كان لديه سببٌ لا نعرفه لكراهيته للإنجليز. لقد أمضى فترةً من شبابه في ليفربول، وبالطبع، توفرت أمامه فرصٌ كثيرة لدراسة سلوكياتهم وطباعهم.» ثم صدر من السكرتير حركةٌ أخرى، وكأنه سينصرف.

لكن جاء دوري الآن لأَستبقيَه. فقلت: «سيد هارويل، لا بد أن تعذرني. كنتَ على صلةٍ وَدُودةٍ بالسيد ليفنوورث مدةً طويلة. هل تظن أنه، في حالة أن إحدى ابنتَي أخوَيه، فرضًا، كانت ترغب في الزواج من سيدٍ نبيلٍ يحمل هذه الجنسية، هل كان تحامله كافيًا لأن يجعله يمنعُ هذه الزيجة منعًا قاطعًا؟»

«أجل، أظن ذلك.»

تراجعت. كنت قد عرَفتُ ما رغبت في معرفته، ولم أرَ مبررًا لإطالة الحديث.

الفصل الثاني والعشرون

تجميع الحقائق والربط بينها

وهلمَّ الآن فقدِّموا لنا خطبةً نتبين منها براعتكم.

مسرحية «هملت»

بدءًا بفرضية أن السيد كلافرينج أثناء حديثه في الصباح، بدرجةٍ من الدقة تزيد أو تنقص، قدَّم لي رواية مفصلة عن تجرِبته الشخصية وموقفه من إلينور ليفنوورث، سألتُ نفسي عن الحقائق المهمة التي من الضروري أن أتأكد منها حتى أُثبت صحة هذه الفرضية، فتبيَّن لي أنها ما يلي:

(١) أن السيد كلافرينج لم يكن فحسب في هذا البلد أثناء المدة المحددة، بل أقام مدةً وجيزة في منتجعٍ بولاية نيويورك.

(٢) أن هذا المنتجع يجب أن يكون هو نفسُه الذي كانت الآنسة إلينور ليفنوورث تُقيم فيه خلال المدةِ نفسِها.

(٣) أنه شوهد أثناء وجودهما أنه كان ثَمة تواصلٌ بينهما بشكلٍ أو بآخر.

(٤) أن كِلَيهما كان غائبًا عن المدينة، في الوقت نفسِه، مدةً طويلة بما يكفي لإتمام مراسم الزواج عند نقطة تبعد مسافة عشرين ميلًا أو نحو ذلك.

(٥) أن قسًّا ميثوديًّا، تُوفِّي بعد ذلك الحين، عاش في تلك المدة على مسافة عشرين ميلًا من ذلك الفندق.

كان السؤال التالي الذي طرحته على نفسي هو: كيف يتسنَّى لي أن أتأكد من هذه الحقائق؟ فلم أعرف عن حياة السيد كلافرينج حتى هذه اللحظة إلا القليلَ الذي قد

يُساعدني؛ ولهذا، تركت هذا الأمر جانبًا في الوقت الحالي، وبدأتُ أتتبع خيط الأحداث الماضية لإلينور، فوجدت أن في المدة التي وُضِّحت لي كانت في منتجع «ر...» وهو منتجع عصري في هذه الولاية. والآن، إذا كان ما وضَّحه هارويل حقيقيًّا، وكانت فرضيتي صحيحة، فلا بد أنه كان هناك أيضًا. وحتى أُثبت هذه الحقيقة، أصبحَتْ، بالتبعية، تلك هي مهمتي الأولى. فعزمت على التوجه إلى منتجع «ر...» يوم غدٍ.

لكن قبل الشروع في مهمة بهذا القدر من الأهمية، رأيت أنَّ من المفيد أن أُجريَ مثلَ هذه التحريات وأجمعَ حقائق بقدرِ ما تسمح لي الساعاتُ القليلة المتبقية لي لأعمل فيها. فذهبت أولًا إلى منزل السيد جرايس.

وجدته مستلقيًا على أريكةٍ صلبة، في غرفة الجلوس الخالية من الأثاث التي أشرتُ إليها من قبل، ويُعاني من نوبةٍ حادَّةٍ من الروماتيزم. كانت يداه معصوبتَين بضمادات، وكانت قدماه مغطَّاتَين بعدة لفاتٍ من وشاحٍ أحمر رثٍّ بدا من مظهره كأنه كان يُخاضُ به حروب. حيَّاني بإيماءةٍ قصيرةٍ كانَتْ تحمل ترحيبًا واعتذارًا، وبكلماتٍ قليلةٍ فسَّر وَضْعه غير المعتاد؛ وبعد ذلك، ومن دون أي تمهيداتٍ أخرى، أسرع في الدخول إلى الموضوع الذي كان أكثر ما يَشغل ذِهنَينا سائلًا، بأسلوبٍ ساخرٍ قليلًا، إن كنتُ تفاجأت كثيرًا بمعرفة أن عصفوري قد طار عندما رجعت إلى فندق هوفمان في عصر ذلك اليوم.

فأجبته: «أذهلني أنك سمحت له بالهروب. من منطلق الأسلوب الذي طلبتَ به مني أن أتعرف عليه، ظننتُك تعدُّه شخصيةً مهمةً في الفاجعة التي وقعت.»

«وما الذي يحملك على أن تظن أنني لا أعدُّه كذلك؟ آه، لأنني سمحتُ له بالفرار بهذه السهولة؟ هذا ليس إثباتًا. أنا لا أعبث بالمكابح مطلقًا حتى تبدأ العربة في الانحدار إلى أسفل التل. لكن دعنا نتجاوز هذا الأمر الآن؛ ألم يوضِّح السيد كلافرينج الأمورَ، حينها، قبل أن يرحل؟»

«ذلك سؤالٌ أرى أنه من الصعب للغاية الإجابةُ عنه. ولأن الظروف تُقيدني، يصعب عليَّ الآن أن أتحدث بالصراحة التي هي حقك عليَّ، لكن ما يمكنني أن أبوح به، سأقوله. لعلمك، إذن، أن السيد كلافرينج في رأيي قد أوضح أمورًا في مقابلةٍ جرَتْ معي صباح هذا اليوم. لكنه فعل هذا بطريقةٍ مستترةٍ جدًّا، وسيكون من الضروري أن أُجريَ تحرياتٍ قليلةً قبل أن أشعر بالثقة الكافية فيما أستندُ إليه حتى أُطلعك على ما في جعبتي من معلومات. لقد منحني طرفَ خيطٍ محتملًا ...»

قال السيد جرايس: «مهلًا؛ أهو يدرك هذا؟ هل فعل هذا بقصدٍ وبدافعٍ خبيث، أم دون وعيٍ منه وبنيَّةٍ حسنةٍ تمامًا؟»

«بنيَّةٍ حسنة، حسب ظني.»

ظل السيد جرايس صامتًا لبرهةٍ. ثم قال أخيرًا: «من المؤسف للغاية أنك لا تستطيع أن تُوضِّح بطريقةٍ أكثرَ تحديدًا. أشد ما أخشى أن أتَّكِل عليك في إجراء التحريات، كما تُسميها، بنفسك. أنت لم تعتدْ على هذا العمل، وستضيع وقتًا، فضلًا عن الانجرار وراء طرقٍ غير سديدة، مستنفدًا بذلك قوَّتَك على تفاصيل لا يُرجى منها نفع.»

«كان عليك أن تفكِّر في ذلك عندما قبلت بي لأُصبح شريكًا لك.»

«أتُصر إصرارًا تامًّا على أن تعمل في مهمة البحث هذه بمفردك؟»

«سيد جرايس، المسألة هي ما يلي. السيد كلافرينج، رغم كل ما أعرفه، رجلٌ محترمٌ يتمتَّع بسمعةٍ لا تشوبها شائبة. أنا حتى لا أدري لأي غرضٍ جعلتَني أتتبَّع أثره. كل ما أعرفه أنه بتتبُّع هذا الطريق توصلتُ إلى حقائق معينةٍ يبدو أنها تستحق التوسُّع في التحري عنها.»

«حسنًا، حسنًا؛ أنت أدرى. لكن الأيام تمر سريعًا. لا بد من إنجاز شيء، وفي أسرع وقت. الناس ضجُّوا من الحديث.»

«أعرف ذلك، ولهذا السبب جئت إليك طلبًا لمساعدةٍ بوسعك أن تمنحَني إياها في هذه المرحلة من سير المهمة. لديك بعض الحقائق بخصوص هذا الرجل التي يُهمني أن أعرفها، وإلا فإن توجهك تجاه هذا الرجل كان عشوائيًّا. والآن بصراحة، هلَّا أطلعتَني على تلك الحقائق: خلاصة القول، هلَّا أخبرتني بكل ما تعرفه عن السيد كلافرينج، من دون أن تطلب أن أُطلعك على ما لديَّ من أسرارٍ في الحال؟»

«هذا بمثابة طلب معروف جلَلٍ من محقق محترف.»

«أعي ذلك؛ وتحت ظروفٍ أخرى كنت سأتردَّد طويلًا قبل أن أتقدمَ بمثل هذا الطلب؛ لكن بالوضع الذي عليه الأمور، لا أعرف كيف لي أن أمضيَ في الأمر من دون امتيازٍ كهذا من جانبك. وفي جميع الأحوال ...»

«انتظر لحظة! أليس السيد كلافرينج عشيقًا لإحدى السيدتَين الشابَّتَين؟»

مع حرصي على أن أتكتم على السر الذي يُثير اهتمامي بشأن ذلك الرجل، لم أستطع أن أمنع تفشيًا لاحمرارٍ على وجهي من أثر المفاجأة التي أَحْدَثها هذا السؤال.

أكمل حديثه: «هذا ما ظننته. لأنه لم يكن واحدًا من الأقارب أو صديقًا معروفًا، اعتبرت أنه من المفروغ منه أنه حتمًا يَشغَل مكانةً مثل تلك في العائلة.»

قلتُ، حريصًا على أن أحدِّد مقدارَ ما يعرف من معلوماتٍ عنه: «لا أرى سببًا يدعوك إلى أن تتوصَّل لمثلِ هذا الاستنتاج. فالسيد كلافرينج غريبٌ في المدينة؛ ولم يُقِم في هذا البلد مدةً طويلة؛ ولم يكن لديه بالتأكيد وقتٌ لتكوين أي علاقةٍ من قبيل ما تشير إليه.»

«هذه ليست المرة الأولى التي يأتي فيها السيد كلافرينج إلى نيويورك. كان هنا منذ عامٍ على حد معلوماتي.»

«أتعرف ذلك؟»

«أجل.»

«ما قدرُ ما تعرفه من معلوماتٍ أخرى عنه؟ هل من المحتمل أنني أتلمَّس بطريقةٍ عشوائيةٍ بحثًا عن الحقائق التي في جعبتك بالفعل؟ أرجوك أن تستجيبَ لالتماسي، يا سيد جرايس، وتُطلعني في الحال على ما أريد أن أعرفه. لن تندم على ذلك. لا أحمل في نفسي أي دافعٍ شخصيٍّ في هذه القضية. إذا نجحتُ، فالنصر كله سيكون لك؛ وإن فشلت، فعار الهزيمة سيكون لي وحدي.»

تمتم: «هذا منصف. وماذا عن المكافأة؟»

«مكافأتي ستكون أن أُحرر هذه السيدة البريئة من عار الجريمة الذي يتربَّص بها.»

بدا أن هذا التعهُّد أرضاه. فتبدَّلَت نبرةُ صوته وهيئته؛ ولوهلةٍ بدا هادئًا تمامًا. فقال: «حسنًا، حسنًا، وما الذي تريد أن تعرفه؟»

«أود أولًا أن أعرف كيف توصَّلت إلى الاشتباه فيه أصلًا. ما السبب الذي حملك على أن تظنَّ أن رجلًا محترمًا بمكانته ومنزلته له علاقةٌ بأي شكلٍ من الأشكال بهذه القضية؟»

أجاب: «ذلك سؤال كان يجب ألَّا تُضطرَّ إلى طَرْحه.»

«وكيف ذلك؟»

«ببساطة لأن فرصة الإجابة عنه كانَتْ بين يدَيك قبل أن تُصبح بين يدَيَّ.»

«ماذا تقصد؟»

«ألَا تتذكَّر الخطابَ الذي أرسلَتْه الآنسة ماري ليفنوورث في حضورك أثناء اصطحابك لها من منزلها إلى منزل صديقتها في شارع ثيرتي سيفنث؟»

«عصر يوم التحقيق؟»

«أجل.»

«بالطبع، ولكن ...»

«لم يخطر ببالك مطلقًا أن تُلقيَ نظرةً على العنوان المكتوب خارجه قبل أن تضعَه في صندوق البريد.»

«لم تسنح لي الفرصةُ ولم يكن يحقُّ لي أن أفعل ذلك.»

«ألم يُكتب في حضورك؟»

«بلى.»

«ولم تنظر للأمر مطلقًا على أنه يستحق انتباهَك؟»

«أيًّا كانَت الطريقة التي نظرت بها إلى الأمر، لم أعرف كيف لي أن أمنعَ الآنسة ليفنوورث من وَضْع خطابٍ في صندوقٍ إنِ اختارَت أن تفعل ذلك.»

تمتم باندهاش: «ذلك لأنك سيدٌ نبيل. حسنًا، هذا أمرٌ له مَساويه.»

قلت: «لكن، كيف لك أن تعرفَ أي شيءٍ عن هذا الخطاب؟ آه، فهمت»، متذكِّرًا أن العربة التي كنَّا نستقلُّها حينها كان هو مَن أحضرها إلينا. «الرجل عند صندوق البريد كان يعمل لحسابك، وأبلغك بالأمر، كما تطلق عليه.»

غمز السيد جرايس لأصابع قدميه المعصوبة بطريقةٍ غامضةٍ. ثم قال: «ذلك ليس بيتَ القصيد. يكفي أنني سمعتُ أن خطابًا، ربما تتبيَّن منطقيًّا أهميتُه لي، قد أُلقي في مثل هذه الساعة داخلَ صندوق البريد عند ناصية شارعٍ بعينه. ولذلك، توافقًا مع رأي المخبر التابع لي، بعثت برقيةً إلى المركز التابع له هذا الصندوق لأدوِّن عنوان الخطاب المشتبه في أمره الذي كان على وشك أن يخرجَ من بين أيديهم في طريقِه إلى مكتب البريد العمومي، ومتابعًا البرقيةَ شخصيًّا، وجدتُ أن رسالةً غامضة مكتوبة بقلم رصاص وعليها طابع بريدي، كانت قد وصلت للتو، وسُمِح لي أن أطَّلِع على العنوان ...»

«وماذا كان؟»

«هنري آر كلافرينج، فندق هوفمان، نيويورك.»

أخذتُ نفسًا عميقًا. وقلت: «وبهذه الطريقة لفت هذا الرجل انتباهك لأول مرة؟»

«أجل.»

«غريب. لكن أكمل، ماذا بعد؟»

«عجبًا، بعد ذلك تتبعتُ طرف الخيط، فذهبتُ إلى فندق هوفمان وأجريت تحرياتٍ. علمت أن السيد كلافرينج كان نزيلًا معتادًا في الفندق. وأنه كان قد أتى إلى هناك،

مباشرة من باخرة ليفربول، منذ قرابة ثلاثة أشهر، ومسجلًا اسمه السيد الموقَّر هنري آر كلافرينج، لندن، كان يُقيم في غرفةٍ من الدرجة الأولى وظل نزيلًا فيها منذ ذلك الحين. وأنه، على الرغم من عدم معرفة معلوماتٍ مؤكدة بخصوصه، كان يُرى مع مختلف الشخصيات المرموقة، من بلده ومن بلدنا، وكان يُعامَل من قِبَلِهم جميعًا بتقديرٍ واحترام. وأخيرًا، أنه على الرغم من أنه غيرُ مِعطاءٍ، قد أظهر أدلةً كثيرة تدل على أنه رجلٌ موسر. وبعد أن علمت هذا القدر، دخلت المكتب، وانتظرت مجيئه، آملًا أن تسنح لي فرصة ملاحظة تصرفه عندما يُسلمه الموظف تلك الرسالة الغريبةَ الشكل المرسَلة من ماري ليفنوورث.»

«وهل وُفِّقت في ذلك؟»

«لا؛ حال بيننا رجلٌ غريب أبلهُ في تلك اللحظة الحرجة تحديدًا، وحجب الرؤيةَ عني. لكنني سمعت ما يكفي ذلك المساء من الموظف والخدم، عن الاضطراب الذي بدا عليه عند تسلُّم الرسالة؛ لأن يُقنعني بأنني أقتفي أثرًا جديرًا باقتفائه. بناءً على ذلك كلَّفت رجالي بمراقبته، ولمدة يومَين كان السيد كلافرينج تحت أقصى رقابةٍ مشددةٍ قد يتحرك رجلٌ تحتها. لكن هذا لم يُجدِ نفعًا؛ إذ إن اهتمامه بجريمة القتل، إن وُجد من الأساس، كان اهتمامًا خفيًّا؛ ورغم سيرِه في الشوارع، ومطالعتِه للصحف، وتردُّدِه ناحية المنزل في شارع فيفث أفنيو، لم يكتفِ بأن يمتنعَ في الواقع عن الاقتراب منه، بل لم يُجر أي محاولةٍ للتواصل مع أيٍّ من أفراد العائلة. في أثناء ذلك، ظهرت أنت أمامي، وإصرارك حفَّزني على المحاولة من جديد. من منطلق اقتناعي بموقف السيد كلافرينج، ومن القيل والقال الذي توارد إليَّ عندما كنت أجمع معلومات بخصوصه، وأنْ لا أحد باستثناء سيدٍ محترم أو صديق يمكن أن ينجح في معرفة صلته بهذه العائلة، أوكلتُ أمره إليك، و...»

«وجدتَني زميلًا صعب المراس.»

ابتسم السيد جرايس ابتسامة عريضة وكأن ثمرةَ برقوق لاذعة قد وُضِعَت في فمه، لكنه لم يُجِب؛ وتلا ذلك صمتٌ مؤقَّت.

سألته أخيرًا: «هل فكرت في أن تسأل إن كان أي أحد على علمٍ بالمكان الذي قضى فيه السيد كلافرينج ليلة واقعة القتل؟»

«أجل، لكن لم أتحصَّل على أي نتيجةٍ مفيدة. لكن كان ثَمة إجماعٌ على أنه كان بالخارج أثناء تلك الليلة؛ وكذلك أنه كان في فراشه في الصباح عندما دخل الخادم ليُشعل له نار المدفأة؛ لكن لم يبدُ أن أحدًا كان على اطلاعٍ على أكثر من ذلك.»

«وهكذا، في حقيقة الأمر، لم يتضح لك أي شيء قد يربط هذا الرجلَ بشكلٍ أو بآخر بالجريمة عدا اهتمامه الواضح والمحيِّر بها، وكذلك حقيقة أن ابنة أخي القتيل كانت قد كتبت إليه خطابًا، أليس كذلك؟»

«هذا كل شيء.»

«سؤالٌ آخر؛ هل نما إلى علمك الطريقة التي أحضر بها الجريدة في ذلك المساء وتوقيت ذلك؟»

«لا، لم أعلم سوى أنه شوهد، من أكثرَ من شخص، يُسرع إلى خارج غرفة الطعام حاملًا صحيفة «ذا بوست» في يده، وعلى الفور توجَّه إلى غرفته دون أن يَمَس عشاءه.»

«همم! ذلك لا يبدو ...»

«إن كان السيد كلافرينج على علمٍ آثم بالجريمة، كان سيطلب العَشاء قبل أن يفتح الجريدة، أو، بعدما طلبه، كان سيتناوله.»

«ومن ثَمَّ أنت لا تعتقد، من منطلق ما علمته، أن السيد كلافرينج هو الجاني؟»

تزحزح السيد جرايس بصعوبة، ورمق الأوراق البارزة من جيب مِعطفي وصاح: «أنا مستعد لأن تُقنعني أنه كذلك.»

تلك الجملة ذكرتني بالمهمة قيد التحضير. ومن دون أن يبدوَ أنني لاحظتُ نظرته، رجعت إلى أسئلتي.

«كيف نما إلى علمك أن السيد كلافرينج كان في هذه المدينة الصيفَ الماضي؟ هل علمت ذلك، أيضًا، في فندق هوفمان؟»

«لا؛ تأكدت من ذلك بطريقة أخرى تمامًا. باختصار، تلقَّيت إشعارًا من لندن بخصوص هذا الأمر.»

«من لندن؟»

«أجل؛ لديَّ صديق هناك يعمل في نفس مجالي، ويساعدني أحيانًا ببعض المعلومات، عند طلبها.»

«لكن كيف؟ لم يكن لديك وقت لتكتب إلى لندن، وتتسلَّم ردًّا منذ وقوع الجريمة.»

«ليس من الضروري أن أكتب رسالةً. يكفي أن أرسل إليه برقيةً باسم شخص، ليفهم أني أريد معرفة كل شيءٍ يمكن أن يجمعه عن ذلك الشخص في مدةٍ زمنية معقولة.»

«وأرسلت إليه اسم السيد كلافرينج؟»

«أجل، مشفرًا.»

«وتلقيتَ ردًّا منه؟»

«صباح اليوم.»

نظرتُ نحو مكتبه.

فقال: «ليس هنا؛ إذا تكرمت وتحسست جيبي الأمامي، فستجد خطابًا ...»

كان في يدي قبل أن يكمل جملته. فقلت: «اعذرني على حماسي. فهذا النوع من المهام جديدٌ عليَّ، كما تعرف.»

ابتسم بتساهلٍ إلى صورة قديمة جدًّا وباهتة كانت معلَّقةً على الحائط أمامه. وقال: «الحماس ليس رذيلة؛ وإنما إظهاره. لكن اقرأ بصوتٍ عالٍ المكتوبَ لديك في الورقة. دعنا نسمعْ ما يُخبرنا به صديقي براون عن السيد هنري ريتشي كلافرينج، من بورتلاند بليس، لندن.»

أخذتُ الورقة ناحية الضوء وقرأت ما يلي:

> هنري ريتشي كلافرينج، سيد نبيل، يبلغ من العمر ٤٣ عامًا. وُلِد في ....، هيرتفوردشير، إنجلترا. والده تشارلز كلافرينج، عمل مدةً قصيرة في الجيش. والدته هيلين ريتشي، من دامفريشير، اسكتلندا؛ ولا تزال على قيد الحياة. وتسكن مع هنري، في بورتلاند بليس، لندن. هنري أعزب، طوله ٦ أقدام، ذو بِنْية مربعة، وزنه حوالي ١٢ ستونًا. له بشَرةٌ داكنة، وملامح عادية. لون عينَيه بنيٌّ داكن؛ وأنفه مستقيم. يُعتبَر رجلًا وسيمًا؛ يسير معتدلًا وبخُطًى سريعة. في المجتمع يُعتبَر شخصًا صالحًا؛ وبالأحرى محبوبًا، لا سيما مع السيدات. مِعطاء، غير مبذر؛ ورد أن دخله ٥٠٠٠ جنيهٍ في السنة، ومظهره خير دليلٍ على هذه الإفادة. ممتلكاته تتألَّف من ضَيعةٍ صغيرة في هيرتفوردشير، وبعض الأموال السائلة، التي غير معلوم قيمتها. بعد كتابة هذا القدر، بعث مندوب ما يلي عن تاريخه. في عام ١٨٤٦ انتقل من منزل عمه إلى إيتون. ثم من إيتون إلى أكسفورد، وتخرج عام ١٨٥٦. تحصيله الدراسي جيد. في عام ١٨٥٥ تُوفِّيَ عمه، وآلت ممتلكاتُه إلى والده. تُوفِّي الوالد في عام ١٨٥٧ إثر سقوطه من فوق حصانه أو في حادثٍ مشابه. في غضون مدةٍ قصيرة جدًّا أخذ هنري والدتَه إلى لندن، إلى مقرِّ الإقامة المشار إليه، حيث عاشا فيه حتى الوقت الحاضر.

سافر كثيرًا في عام ١٨٦٠؛ بعض الوقت كان مع … من ميونخ؛ وأيضًا برفقة عائلة فاندرفورت من نيويورك؛ ومضى شرقًا إلى القاهرة. ذهب إلى أمريكا بمفرده عام ١٨٧٥، لكن بعد مُضي ثلاثة شهور عاد بسبب مرض والدته. لا يُعرف شيءٌ عن تحرُّكاته أثناء وجوده في أمريكا.

علمتُ من الخدم أنه كان محبوبًا دومًا منذ كان صبيًّا. ومؤخرًا صار قليلَ الكلام إلى حدٍّ ما. قُرب نهاية إقامته كان يترقب المراسلات البريدية في حرصٍ، على الأخص القادمة من الخارج. نادرًا ما كان يتلقى أي شيء عدا الصحف. كتب رسائل موجهة إلى ميونخ. لوحظ، من سلَّة نُفايات الورق، ظرفٌ ممزق موجَّه إلى إيمي بيلدن، بدون عنوان. مراسلات أمريكية أغلبها إلى بوسطن؛ واثنتان في نيويورك. الأسماء غير معروفة، لكن يُفترض أن أغلبها إلى مصرفيِّين. جلب إلى المنزل حقائب ضخمة، وجهَّز قسمًا من المنزل، لاستقبال سيدة. أغلق هذا القِسم بعدها بمدةٍ قصيرة. غادر إلى أمريكا منذ شهرين. كان، حسَب فهمي، مسافرًا إلى الجنوب. أرسل برقيَّتَين إلى بورتلاند بليس. لا يتلقَّى أصدقاؤه أخبارًا منه إلا فيما ندر. الخطابات المستلمة مؤخرًا، كانت مرسَلَة من نيويورك. أحدها من الباخرة الأخيرة في «ف…»، … نيويورك.

أعماله هنا يتولاها …. في البلد، … من … هو المسئول عن ممتلكاته.

براون

سقطَت الوثيقة من بين يَدَيَّ.

«ف…»، نيويورك، هي بلدة صغيرة بالقرب من منتجع «ر…»

أفصحتُ قائلًا: «صديقك ورقة رابحة. أخبرني بما أردت معرفته أكثرَ من أي شيءٍ آخر.» ومخرجًا مفكرتي، دوَّنت مذكرات بأكثرِ الحقائق التي أذهلتني أثناء قراءة المراسلة الماثلة أمامي. وأردفتُ: «بمساعدة ما أخبرَني به، سأتوصل إلى لغز هنري كلافرينج خلال أسبوع؛ ولتكن شاهدًا إن لم أفعل ذلك.»

سأل السيد جرايس: «ومتى أتوقع أن يُسمح لي بالمشاركة في هذه اللعبة؟»

«بمجرد أن أتأكد بدرجة مقبولة من أنني على المسار الصحيح.»

«وكم ستستغرق حتى تتأكد من ذلك؟»

«ليس كثيرًا؛ ما إن تُحسَم نقطة معينة، ثم …»

قال: «مهلًا؛ من يدري ما بوسعي أن أفعل من أجلك في ذلك الشأن؟» ثم، نظر السيد جرايس ناحية المكتب الذي كان في الزاوية، وطلب مني أن أفتح الدرج العلوي وأُحضر له ما سأجده هناك من قصاصات ورق محترقة جزئيًّا.

أذعنتُ لطلبه مسرعًا، وأحضرتُ ثلاث أو أربع قصاصات من ورقٍ ممزقٍ، ووضعتها على المنضدة بجانبه.

أوضح السيد جرايس فجأةً: «نتيجة أخرى أثمرَت عنها عمليات البحث تحت الفحم التي أجراها فابز في اليوم الأول من التحقيق.» وأردف: «أظننت أن المفتاح هو كل ما عثر عليه؟ حسنًا، لم يكن المفتاح وحده. بعد أن قلَّب الفحم للمرة الثانية أخرجَ هذه القصاصات، وهي تبدو مثيرةً للاهتمام، أيضًا.»

على الفور انحنيتُ بتلهُّفٍ شديدٍ على قصاصات الورق الممزَّق الذي تغيَّر لونه. كان عددها أربع قصاصات، وبدا لأول وهلةٍ أنها مجرد بقايا صفحةٍ من ورقة كتابةٍ عادية، مُزقت بالطول إلى شرائح، وبُرِمَت ليُلقى بها في النار؛ لكن، عندما تفحصتها عن كثب، ظهر عليها آثارُ كتابةٍ على جانبٍ واحد، ولكن كان الأهمُّ من ذلك وجودَ نقطة دمٍ واحدة أو أكثر. هذا الاكتشاف الأخير كان مرعبًا لي، وسيطر عليَّ للغاية لوهلة أن أترك تلك القصاصات، وملتفتًا ناحيةَ السيد جرايس، سألته:

«ما الذي تستنتجه منها؟»

«ذلك تحديدًا هو السؤال الذي كنت سأوجهه لك.»

كاظمًا تأفُّفي، أمسكتها مرةً أخرى. وقلت: «تبدو مثل بقايا خطابٍ قديم.»

وافق السيد جرايس متجهمًا: «تبدو كذلك.»

«خطاب، يتبيَّن من نقطة الدمِ الواضحة على الجانب المكتوب فيه، أنه لا بد أنه كان موضوعًا على منضدة السيد ليفنوورث وقتَ وقوع جريمة القتل ...»

«بالضبط.»

«ويتَّضح من عدم اتساق عرض كلِّ قطعة من هذا الورق، وكذلك ميلها إلى الالتواء لأعلى عند تركها، أنه لا بد أنها مُزِّقت أولًا إلى شرائحَ متساوية، ثم طُويَت عدة مرات، قبل أن تُلقى في موقد المدفأة حيث عُثر عليها فيما بعد.»

قال السيد جرايس: «كل ذلك جيد؛ أكمل.»

«الخط، الذي يمكن تبيُّنه إلى حدٍّ كبير، هو خط رجل مثقف. إنه ليس خطَّ السيد ليفنوورث؛ فقد اطلعت على خطِّه كثيرًا في الآونة الأخيرة ولكن ليس بما يكفي لأن أتعرفَ

عليه بنظرةٍ واحدة؛ لكن ربما يكون … انتظر!» صحت فجأةً قائلًا: «ألديك أيُّ صمغٍ هنا؟ أظن، إن تمكنت من لصق هذه الشرائح على قطعة ورق، بحيث تظل مستوية، سيكون في مقدوري أن أُخبرك برأيي فيها بسهولةٍ أكبر كثيرًا.»

أشار السيد جرايس: «يوجد صمغ على المكتب.»

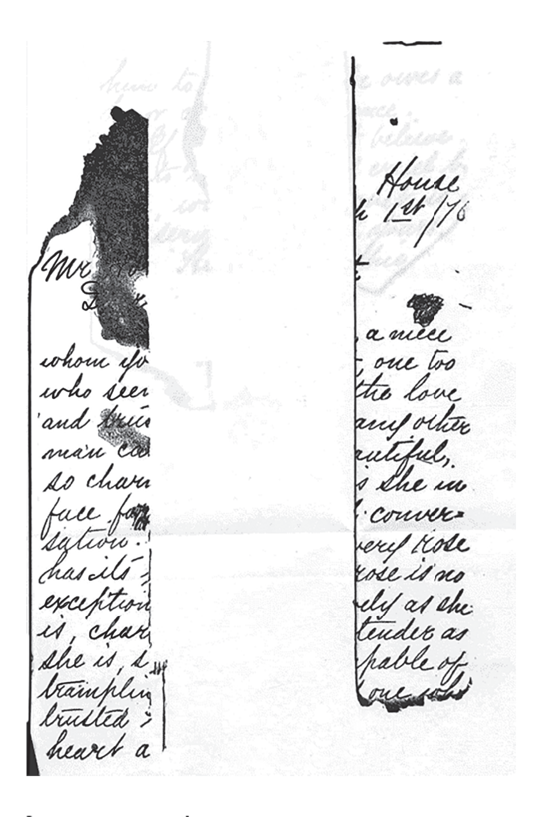
بعدما أحضرته، بدأت أنظر بتمعُّن إلى القصاصات مرةً أخرى بحثًا عن دليلٍ يُرشدني إلى ترتيبها. فكانت تلك القصاصات أوضحَ مما توقعت؛ فالشريحة الأطول والأكثر احتفاظًا بحالتها، والمكتوب أعلاها «السيد هور …»، كانت تدلُّ من الوهلة الأولى على أنها على الهامش الأيسر من الخطاب، بينما الحافة التالية من حيث الطولُ المقطوعةُ بالماكينة كانت تعرض رموزًا تدل قطْعًا على أنها الهامش الأيمن من الخطاب نفسه. بعدما انتقيتُ هاتَين الشريحتَين، لصقتهما على قطعة ورق مُراعيًا المسافةَ نفسَها التي قد تشغلها إذا كانت الورقة التي مزقت منها بحجم المفكرة العادية المتداولة تِجاريًّا. في الحال بدا واضحًا أن أولًا، ثَمة حاجة إلى شريحتَين أُخريَين بالعرض نفسِه لشغلِ المساحة الفارغة بينهما؛ وثانيًا، أن الكتابة لم تنتهِ عند آخر الصفحة، وإنما أُكملت في صفحةٍ أخرى.

بعدما أخذتُ الشريحة الثالثة، نظرت إلى حافتها؛ كانت مقطوعةً بالماكينة من الأعلى، واتضح من ترتيب كلماتها أنها كانت شريحة هامش الورقة الثانية. لصقتها على حدة، ثم تفحَّصتُ الرابعة، فوجدت أنها مقطوعةٌ أيضًا بالماكينة من الأعلى ولكن ليس من الجانب، وحاولتُ جاهدًا مواءمتَها مع القطعة التي أُلصقت بالفعل، لكن الكلمات لم تبدُ متوافقة. فحرَّكتها إلى الموضع الذي قد تشغله إن كانت هي الشريحة الثالثة، وثبتُّها؛ فظهرت الورقة مكتملة، بعد الانتهاء من لصق الشريحة الأخيرة.

صاح السيد جرايس قائلًا: «أحسنت! هذا هو العمل كما ينبغي.» ثم، وأنا أحمل الورقة لأعلى أمام عينَيه، قال: «ولكن لا تُريني إياها. ادرسها بنفسك، ثم أخبرني بما تظنُّ بشأنها.»

قلت: «حسنًا، الأمر المؤكَّد حتى الآن هو أن هذا الخطاب موجَّهٌ إلى السيد ليفنوورث من فندقٍ ما، ومؤرَّخ … دعنا نرَ؛ هذا حرف «س»، أليس كذلك؟» وأشرت إلى الحرف الوحيد الذي يُمكن تبيُّنُه على السطر الذي يلي كلمة فندق.

«أظن ذلك؛ لكن لا تسألني.»



Mr
whom yo
who see
and tru
man ca
so char
face fa
sation.
has its
exception
is, char
she is,
trampling
trusted
heart a

House
h 1st /76

a niece
, one too
the love
any other
autiful,
s she in
conver-
very rose
rose is no
ly as she
tender as
pable of
love

him to
honor a
If
her to
face, wo
ble serv
He

he owes a
ance.
t believe.
s cruel b
what. is a
yours
thee

«لا بد أنه «س». العام هو ١٨٧٥، وهذا الحرف ليس نهايةَ كلمتَي يناير أو فبراير. فهو مؤرخ، إذن، في الأول من مارس، ١٨٧٦، وموقع ...»

أخذ السيد جرايس يُقلب عينَيه في نشوةٍ استباقيَّةٍ ناحية السقف.

أعلنتُ دون تردُّد: «من هنري كلافرينج.»

عادت عينا السيد جرايس إلى أطراف أصابعه المعصوبة. وقال: «همم! كيف عرَفتَ ذلك؟»

«انتظر لحظةً، وسأُريك»؛ وأخرجت من جيبي البطاقة التي أعطاني إياها السيد كلافرينج ليُقدم نفسه في مقابلتنا الأخيرة، ووضعتها أسفل السطر الأخير للكتابة في الصفحة الثانية. نظرة واحدة كانت كافية. هنري ريتشي كلافرينج على البطاقة؛ هـ... تشي ... بنفس خط اليد الموجود في الخطاب.

قال: «هو كلافرينج.» لكني لاحظت أنه غير متفاجئ.

واصلت: «والآن، لنتبيَّن فحواه والمغزى العامَّ منه.» ثم، بدأت من بداية الخطاب، وقرأت الكلمات كما كانت بصوتٍ عالٍ، متخللًا إياها بلحظات توقُّف عند الكلمات المتقطِّعة، فكانت شيئًا كالآتي: «السيد هور... المحترم ... ابنة أخٍ ... وتب... أيضًا الحب والثق... أي رجل آخر؛ فوجهها ... حديثها ... الجما... والجاذبية والرق... لكل وردةٍ ...ها...و...رد ... ليست استثناءً ... ما هي عليه من جمال ... رقة، هـ ... ادرة ... أن تط... من أودع ... قلب ... تد... الولاء ...

إن ... تصدقني ... وجه ... القاسي من هو خاد... وخادمك ...مطي...

هـ...تشي ...»

قلت: «تبدو وكأنها شكوى من واحدةٍ من ابنتَي شقيقَي السيد ليفنوورث»، وارتجفت من وقع كلماتي.

صاح السيد جرايس: «ماذا؟ ما الأمر؟»

قلت: «عجبًا، الحقيقة أنني سمعت كلامًا عن هذا الخطاب تحديدًا. إنه شكوى من واحدةٍ من ابنتَي شقيقَي السيد ليفنوورث، وكتبه كلافرينج.» ثم أخبرته عن تواصلي مع السيد هارويل بشأن هذا الأمر.

«آه! إذن فالسيد هارويل كان يتحدَّث، صحيح؟ أظن أنه قد أدلى تحت القسَم بأخبار كاذبة.»

أجبت: «كنتُ أنا والسيد هارويل نتقابل يوميًّا تقريبًا على مدار الأسبوعَين الماضيَين. وكان سيبدو من الغريب إن لم يكن لديه أي شيءٍ ليُخبرني به.»

«ويقول إنه قرأ خطابًا موجهًا إلى السيد ليفنوورث من كلافرينج؟»

«أجل؛ لكن غاب عن ذهنه حاليًّا فحوى الخطاب تحديدًا.»

«هذه الكلمات هنا قد تساعده في تذكر البقية.»

«أُفضل ألا أُفصح له عن علمي بوجود هذا الدليل. لا أعتقد أنه ينبغي أن نأتمنَ أيَّ شخص، ممن يمكن أن نقصيهم عمدًا، على سر.»

رد السيد جرايس بنبرة جافة: «أرى أنك لا تفعل.»

دون أن يبدوَ أنني انتبهت إلى السخرية التي حملَتها هذه الكلمات، أمسكت بالخطاب مرة أخرى، وبدأت أشير إلى أنصاف الكلمات في الخطاب التي ظننت أنه يمكننا أن نُقْدِم على إكمالها، مثل هور... تب... الجم... الرق ... تط... ...ادرة، خاد...

بعد أن انتهيتُ من هذا، اقترحت بعد ذلك إدخال كلماتٍ أخرى بدَت ضروريةً لاكتمال السياق، مثل «ليفنوورث» بعد كلمة «هوراشيو»؛ «السيد» قبل كلمة «المحترم»؛ «لديك» قبل كلمتي «ابنة أخٍ»؛ كلمة «شوكة» قبل الضمير «ها» في عبارة «كل وردة لها»؛ «على» بعد الفعل «تطأ»؛ «ين» بعد «تد»؛ «لم» بعد «إن»؛ «اسأل» بعد «تصدقني»؛ «الجميل» قبل «القاسي».

بين أعمدة الكلمات المكتملة أدخلتُ عبارةً أو عبارتين، هنا وهناك، فأصبح محتوى الخطاب عند اكتماله كالآتي:

«فندق ...» الأول من مارس، ١٨٧٦.

السيد هوراشيو ليفنوورث؛ السيد المحترم:

لديك ابنةُ أخٍ تحبها وتثق فيها، وتبدو أيضًا جديرة بالحب والثقة ... أي رجلٍ آخر؛ فوجهُها وحديثها آيةٌ في الجمال، والجاذبية، والرقة. لكن ... لكل وردةٍ شوكتها، و(هذه) الوردة ليست استثناءً ... فمع ما هي عليه من جمال، ... ورقة، هي قادرة ليس فقط على أن تطأ على من أودعَ ثقته قلب ... تدين له بالولاء ...

إن كنتَ لا تُصدقني، فاسأل وجهها الجميل القاسيَ من هو خادمها وخادمك المطيع.

هنري ريتشي كلافرينج

قال السيد جرايس: «أظن أن هذا يفي بالغرض. فمغزاه العامُّ واضح، وذلك كل ما نحتاج إليه في هذا الوقت.»

علَّقت قائلًا: «إن لهجة الخطاب بأكمله تحتمل أي شيء غيرَ أن يكون إطراءً للفتاة التي أشار إليها. فلا بد أنه كان لديه، أو تخيل أنه كان لديه، ضيم بعث في نفسه يأسًا، حتى يستفزَّه لاستخدام لهجةٍ بهذا الوضوح بشأن امرأةٍ لا يزال بإمكانه أن يصفها بأوصافٍ مثل رقيقة، وجذابة، وجميلة.»

«الضيم قد يكون السرَّ الكامنَ وراء ارتكاب جرائمَ غامضة.»

قلت: «أظن أنني أعرف هذا السر؛ ولكن» ووجدتُه ينظر لأعلى «لا بد أن أرفض إخبارَك بشكوكي في الوقت الحالي. فرضيتي لا تزال ثابتة، وبدرجةٍ ما مؤكَّدة؛ وذلك كل ما يمكنني قوله.»

«إذن هذا الخطاب لا يمنحك حلقة الوصل التي أردتها؟»

«لا؛ إنه دليلٌ مفيد؛ لكنه ليس حلقة الوصل التي أبحث عنها الآن.»

«ومع ذلك لا بد أنه طرفُ خيطٍ مهم، وإلا فما كانت إلينور ليفنوورث لتكلِّفَ نفسها هذا العناء؛ أولًا بأن تأخذه بالطريقة التي أخذَته بها من منضدة عمها، وثانيًا ...»

«مهلًا! ما الذي يحملك على أن تظن أن هذه هي الورقة التي أخذَتْها، أو التي اعتُقِد أنها أخذتها، من منضدة السيد ليفنوورث في ذلك الصباح المشئوم؟»

«عجيب! لأنها عُثِر عليها مع المفتاح، الذي نعرف أنها ألقَتْه في موقد المدفأة، ولوجود قطرات دماء عليها.»

هززتُ رأسي تعبيرًا عن رفضي.

سأل السيد جرايس: «لمَ تهز رأسك؟»

«لأنني غير مقتنعٍ بالسبب الذي تسوقه للاعتقاد بأن هذه هي الورقة التي أخذتها من منضدة السيد ليفنوورث.»

«ولماذا؟»

«حسنًا، أولًا، لأن فابز لم يقُل إنه رأى أيَّ ورقةٍ في يدها، عندما مالت على المدفأة؛ مما يدفعُنا إلى استنتاج أنَّ قطع الورق هذه كانت في سَطْل الفحم الذي ألقته في المدفأة؛ وهو بالتأكيد لا بد أن تُقرَّ بأنه مكان غريب حتى تضع فيه ورقةً كلَّفَت نفسها عناءَ أن تستحوذ عليها؛ وثانيًا، لأن هذه القصاصات كانت ملتوية وكأنها كانت تُستخدم كورق لتجعيد الشعر، أو شيء من هذا القبيل؛ وهي حقيقة من الصعب أن يُفسرها افتراضك.»

اختلسَت عينُ المحقق نظرةً ناحية رابطة عنقي، التي كانت أقربَ نقطة اقترب فيها نظره على الإطلاق من أي وجه. قال: «أنت ذكي؛ ذكي جدًّا. أنا معجب بك جدًّا، يا سيد ريموند.»

فوجئتُ قليلًا، ولم يُسعدني بتاتًا هذا الإطراء غيرُ المتوقَّع، ونظرت إليه في ريبةٍ لبرهة ثم سألته:

«ما رأيك في الأمر؟»

«حسنًا، كما تعرف لا رأي لديَّ. تنازلت عن كل شيءٍ من ذلك القبيل عندما وضعت القضية بين يدَيك.»

«ومع ذلك ...»

«ومع ذلك فكون الخطاب الذي تبقَّت منه هذه القصاصات كان على منضدة السيد ليفنوورث وقتَ وقوع جريمة القتل هو أمر ممكنٌ تصديقُه. وأنه عندما نُقل الجثمان، أخذَت السيدة إلينور ليفنوورث الورقةَ من المنضدة، هو أيضًا أمرٌ ممكنٌ تصديقُه. وأنها، عندما وجدت أن تصرفها أصبح ملحوظًا، وأن الاهتمام أصبح موجَّهًا إلى هذه الورقة والمفتاح، لجأت إلى هذه الحيلة حتى تُفلت من الرقابة التي فُرِضَت عليها، ونجحَتْ جزئيًّا في مسعاها، وألْقَت بالمفتاح في المدفأة التي استُعيدَت منها نفس هذه القصاصات فيما بعد، هذا أيضًا أمرٌ معروف. سأترك الاستنتاج لحُكمك.»

قلت، وأنا أنهض: «عظيم، إذن؛ سندعُ الاستنتاجات جانبًا الآن. لا بد أن يقتنعَ عقلي بصحة أو بطلان فرضيةٍ معينة لديَّ، حتى يُصبح حكمي ذا حيثيةٍ بخصوص هذه المسألة أو أي مسألةٍ أخرى متعلقة بالقضية.»

ثم، بعدما انتظرت فقط لأحصل على عنوان مرءوسه بي في حالة احتياجي إلى مساعدةٍ في تحرِّياتي، غادرت منزل السيد جرايس، وتوجَّهت فورًا إلى منزل السيد فيلي.

الفصل الثالث والعشرون

قصة امرأة فاتنة

في، فو، فام، أَشَمُّ رائحةَ دمِ رجلٍ إنجليزي.

أغنية قديمة

أنت بالنسبة لي شيء مقامه في السماء، مقدس.

مسرحية «الصاع بالصاع»

«ألم تسمع مطلقًا، إذن، عن تفاصيل زواج السيد ليفنوورث؟»

كان مَن تحدث هو شريكي. كنت قد طلبت منه أن يُوضح لي سببَ كراهية السيد ليفنوورث المعروفة تجاه العرق الإنجليزي.

«نعم.»

«لو كنت تعرف، لَمَا أتيت إليَّ لتسألني عن تفسير ذلك. لكن ليس غريبًا أنك تجهلُ هذا الموضوع. أشك في أنه يوجد ستة أشخاص في العالم يمكنهم أن يُخبروك أين التقى هوراشيو ليفنوورث بالمرأة الفاتنة التي أصبحت زوجته فيما بعد، فما بالك بأن يُعطيَك أحدٌ أي تفاصيل عن الظروف التي قادت إلى هذه الزيجة.»

«أنا محظوظٌ جدًّا، إذن، لأني في حضرة شخصٍ بوُسعه ذلك. ماذا كانت تلك الظروف، يا سيد فيلي؟»

«سأُساعدُك قليلًا كي تعرف. كان هوراشيو ليفنوورث، في شبابه، طَموحًا للغاية؛ لدرجة أنه في إحدى المرات كان يطمح إلى أن يتزوجَ امرأةً ثَريةً من مدينة بروفيدنس. لكن، شاءَت الظروف أن يذهب إلى إنجلترا، وهناك التقى بشابة كان لحُسنها وسحرها

وقعٌ كبير على نفسه حتى إنه أعرض عن أي تفكير في فتاة بروفيدنس، مع أن ذلك كان قبل مدةٍ من أن يظهر أمامه أي احتمالٍ للزواج من الشابة التي استهوَته كثيرًا؛ وإذ لم تكن تعيش في ظروف متواضعة فحسب، بل كانت مُثقَلة بمسئولية طفلٍ صرَّح الجيران بأنهم لا يعرفون نسَبه، ولم يكن لديها ما تقوله. لكن، كما هو محتمل كثيرًا في علاقة مثل هذه، سرعان ما تغلَّب الحب والإعجاب على حِكمة الحياة. حاملًا مستقبلَه بين يدَيه، عرض عليها الزواج، وفورًا أثبتَت أنها جديرةٌ باحترامِه بأن بادرَت إلى الحديث عن التفسيرات التي تعفَّف عن الاستفسار عنها لكونه رجلًا نبيلًا.

كانت القصة التي روَتها مثيرةً للشفقة. تبيَّن أنها وُلدت في أمريكا، وأن والدها كان تاجرًا ذائعَ الصيت من شيكاجو. في حياته، كان بيتها مرفَّهًا، لكن في الوقت الذي كانت تنضج فيه لتُصبح شابةً مكتملة الأنوثة رحل والدها عن الدنيا. في مراسم جنازته قابلت الرجلَ الذي كان مقدَّرًا أن يكون سببَ تدمير حياتها. لم تعرف مطلقًا كيف جاء إلى هناك؛ فلم يكن صديقًا لوالدها. يكفي أنه كان هناك، ورآها، وفي غضون ثلاثة أسابيع — لا ترتعد، فقد كانت طفلة — كانا قد تزوَّجا. بعد أربعٍ وعشرين ساعةً أدركَت ماذا كانت تعني تلك الكلمة لها؛ كانت تعني وابلًا من الصفعات. إيفرت، أنا لا أحكي قصةً خيالية. بعد أربعٍ وعشرين ساعةً من زواج تلك الفتاة، جاء زوجها إلى المنزل ثملًا، ووجدها في طريقه، فطرحها أرضًا. لم يكن ما حدث سوى البداية. عند تسوية ثروة والدها، تبيَّن أنها أقلُّ من المتوقع، فأخذها إلى إنجلترا، حيث لم ينتظر لأن يصبح ثملًا حتى يعتديَ عليها ويُسيء معاملتها. لم تُرحَم من وحشيته ليلًا أو نهارًا. قبل أن تبلغ السادسة عشرة من عمرها، كانت قد ذاقَت جميعَ صنوف العذاب؛ ولم يكن هذا على يد همجيٍّ قاسٍ فاجر، بل على يد سيدٍ نبيلٍ أنيقٍ، وسيم، محبٍّ للترف، وذوقه في الثياب جيدٌ للغاية حتى إنه كان أهونَ عليه أن يُلقي بملابسها في النار على أن يراها تمضي بصحبته مرتديةً ثوبًا لا يراه جذَّابًا. تحمَّلَت هذا الوَضْع حتى أنجبَت طفلها، ثم هربت. بعد أن أبصر هذا الصغيرُ النور بيومَين، نهضت من فراشها، ثم ضمَّت رضيعَها بين ذراعَيها، وفرَّت هاربة من المنزل. المجوهرات القليلة التي كانت قد وضعتها في جيبها كانت سندًا لها حتى تمكنت من تأسيس متجرٍ صغير. أما زوجها، فلم ترَه، ولم تسمع أخباره، من اليوم الذي تركته فيه وحتى نحو أُسبوعَين قبل أن تُقابل هوراشيو ليفنوورث لأول مرة، حين علمت من الصحف أنه مات. ومن ثَمَّ أصبحت حرة؛ ولكن مع أنها أحبت هوراشيو ليفنوورث حبًّا جمًّا، لم ترغب في الزواج منه. شعرت بأنها ستظل إلى الأبد ملطَّخة وملوثة بتلك السنة

البغيضة التي قضتها في ذلٍّ وإهانة. ولم ينجح في إقناعها. ولم تُوافق على أن تتزوج منه وتهبَه ما تبقى من حياتها التعيسة إلا بعد وفاة طفلها، بعد شهر أو نحو ذلك من طلبِه يدَها. جاء بها إلى نيويورك، وأحاطها بمظاهر الترف وكل الرعاية والحنان، لكن السهم كان قد نفذ عميقًا؛ فبعد سنتين من اليوم الذي لفظ فيه صغيرها أنفاسه الأخيرة، فارقت هي أيضًا الحياة. كانت تلك أكبر صدمة في حياة هوراشيو ليفنوورث؛ ولم يَعُد الرجلَ نفسَه مرةً ثانية أبدًا. ورغم دخول ماري وإلينور في كنفه بعد مدةٍ قصيرة، لم يتعافَ أبدًا من الانكسار القديم الذي أصاب قلبه. أصبح المال معبودَه، وغَيَّر طموحه أن يصنع ثروة عظيمة ويتركها من بعده جميع وجهات نظره في الحياة. لكنَّ دليلًا واحدًا ظل يُثبت أنه لم ينسَ زوجة شبابِه أبدًا، وهو أنه لم يكن يحتملُ أن تُنطق كلمة «رجل إنجليزي» على مسامعه.»

توقَّف فيلي، ونهضتُ لأنصرف. سألته: «هل تتذكَّر كيف كانت تبدو زوجة السيد ليفنوورث؟ أيمكنك أن تصفَها لي؟»

بدا مندهشًا قليلًا من طلبي، لكنه أجاب على الفور: «كانت سيدةً شقراءَ للغاية؛ ولم تكن مفرطةَ الجمال، ولكن كان لقسماتِ وجهها وتعبيرِه سحرٌ آسر. كان شعرها بُنيًّا، وعيناها رماديتَين ...»

«ومتباعدتَين كثيرًا؟»

أومأ برأسه إيجابًا، لكنه بدا أكثرَ اندهاشًا. وقال: «كيف عرَفت؟ هل رأيت صورتها؟»

لم أُجب عن ذلك السؤال.

وفي طريقي إلى الأسفل، ذكَّرتُ نفسي بخطابٍ كنت أحمله في جيبي إلى فِريد ابن السيد فيلي، ولأني، لم أعرف طريقةً أكثرَ ضمانًا لإيصاله إليه في تلك الليلة من أن أتركه له على منضدة المكتبة، اتجهتُ إلى باب تلك الغرفة، التي كان موقعها في هذا المنزل في الجهة الخلفية من غُرَف الاستقبال، وإذ لم أتلقَّ جوابًا لَمَّا طرقتُ الباب، فتحتُه ونظرت إلى الداخل.

كانت الغرفة غيرَ مضاءة، لكن كانت ثَمة نارٌ مبهجة مشتعلة في موقد المدفأة، وعلى وهجها لمحتُ سيدةً تميل بجسدها على المدفأة، ولأول وهلةٍ ظننتها السيدة فيلي. لكن، ما إن تقدمتُ إلى الأمام وخاطبتها بذلك الاسم، حتى تبيَّن لي خطئي؛ لأن المرأة التي كانت أمامي لم تمتنع عن الرد فحسب، ولكن، إذ نهضت على إثر صوتي، تكشَّفَ جسدٌ له أبعاد رائعة بدَّدَت أي إمكانية أن يكون الجسدَ الصغيرَ الرقيق لزوجة شريكي.

قلت: «يتبيَّن لي أنني أخطأت. أستميحكِ عذرًا»؛ وكنت سأغادر الغرفة، لكنَّ شيئًا في المسلك العام لتلك السيدة أمامي منعَني، ثم، معتقدًا أنها ماري ليفنوورث، سألت:

«هل مَن تقف أمامي هي الآنسة ليفنوورث؟»

بدا أن الجسد الرائع يتراخى، والرأس المرفوع بلطفٍ يسقط، ولوهلةٍ تشكَّكت في كوني محقًّا في ظني. ثم اعتدل الجسم والرأس على مهلٍ، وتحدَّث صوتٌ ناعم، وسمعتُ صوتًا ناعمًا يهمس «أجل»، فتقدمتُ مسرعًا، وأصبحت مواجهًا لها ... ليست ماري، بنظرتها المحدقة، المتوترة، وشفتَيها القرمزيتَين، المرتجفتَين ... بل إلينور، المرأة التي كانت أوهن نظرة منها قد استحوذت على نفسي منذ أول لحظة، المرأة التي كنتُ مقتنعًا بأنني، حتى تلك اللحظة، أسعى إلى هلاك زوجها!

كانت المفاجأة عظيمةً للغاية؛ فلم أقوَ أن أتحملَها أو أُخفيَها. متعثرًا ببطءٍ إلى الوراء، تمتمت بشيء عن أنني كنتُ أعتقد أنها ابنةُ عمها؛ ثم لم أشعر إلا بالرغبة في الهروب من حضرة مَن لم أجرؤ على مقابلتها في حالتي المزاجية الحاليَّة، فالتفت، وعندئذٍ صدر صوتها البهي، والحَنون مرةً أخرى وسمعت:

«لن تُغادرني من دون أن تقول شيئًا، يا سيد ريموند، فالصدفة الآن هي التي جمعتنا، أليس كذلك؟» ثم، بينما كنت أتقدَّم بخطواتٍ متمهلة، قالت: «هل أذهلك كثيرًا وجودي هنا؟»

كان ردي المتقطع: «لا أعرف ... لم أتوقَّع ... سمعت أنكِ مريضة؛ وأنكِ لم تُبارحي مكانكِ؛ وأنه لم يكن لديكِ رغبةٌ في رؤية أصدقائك.»

قالت: «كنتُ مريضة؛ لكني أصبحت أفضلَ الآن، وجئتُ لأقضيَ الليلة مع السيدة فيلي؛ لأني لم أعُد أطيق التحديقَ في جدران غرفتي الأربعة أكثر من ذلك.»

قيل هذا دون أيِّ محاولةٍ لإبداء الحزن، ولكن بالأحرى وكأنها تظنُّ أنه من الضروري أن تجد لنفسها عذرًا يُبرِّر وجودها في المكان الذي كانت فيه.

قلت: «أنا سعيدٌ لأنكِ فعلتِ ذلك. يجب أن تظَلِّي هنا طوال الوقت. فذلك المنزل الموحش والمنعزل، يا آنسة إلينور، ليس مكانًا لائقًا بكِ. يُحزننا جميعًا أن نشعر أنكِ منعزلةٌ في هذا الوقت.»

ردَّت: «لا أود أن يشعر أيُّ أحدٍ بالحزن. المكان الذي أنا فيه هو أفضلُ مكانٍ لي. ولست وحدي تمامًا. ثَمة طفلةٌ هناك لا ترى عيناها البريئتان سِوى البراءةِ في عيني. سوف تحفظني من القنوط. لا تدَع أصدقائي يقلقون بشأني؛ فبإمكاني أن أتحمَّلَ الوضع.» ثم

قالت، بنبرةٍ أخفض: «ثمة شيءٌ واحدٌ فقط يُثير أعصابي حقًّا؛ وهو أني أجهل ما يجري في البيت. بوسعي أن أتحمل الحزن، لكن الترقُّب يقتلني. ألن تُخبرني بشيءٍ عن ماري والبيت؟ لا يمكنني أن أسأل السيدة فيلي؛ فهي سيدة طيبة، ولكنها ليست على معرفةٍ حقيقيةٍ بماري أو بي، ولا تعرف شيئًا عن الجفوة بيننا. وهي تظنُّني متعنِّتة، وتلومني لأني تركتُ ابنة عمي في محنتها. لكنك تعرف أن الأمر ليس بيدي. أنت تعرف ...» ارتجف صوتها، ولم تُكمل.

أسرعتُ بالرد: «لا يمكنني أن أخبركِ بالكثير؛ لكن إن يَنْمُ إلى علمي أيُّ شيء فسأُطلعُكِ عليه بالتأكيد. هل ثمة أمرٌ بعينه ترغبين في معرفته؟»

«أجل، حال ماري؛ إن كانت بخير، و... ومتماسكة.»

أجبتها: «ابنة عمكِ بصحة جيدة؛ لكن يؤسفني أن أقول إنه ليس بوسعي أن أقول إنها متماسكة. فهي قلقةٌ بشأنكِ كثيرًا.»

«أتراها كثيرًا، إذن؟»

«إنني أساعد السيد هارويل في إعداد كتاب عمكِ للطباعة، وبالضرورة أكون هناك معظم الوقت.»

«كتاب عمي!» أَتَت الكلمات بنبرة ذعرٍ طفيفة.

«أجل، يا آنسة ليفنوورث. رُئِيَ أنه من الأفضل أن يخرج للعالم، و...»

«وماري هي التي كلَّفَتك بالمهمة؟»

«أجل.»

بدا وكأنها لم تقوَ على التملُّص من الذعر الذي سبَّبه هذا الأمر. قالت: «كيف لها أن تفعل هذا؟ يا إلهي، كيف لها أن تفعل هذا؟!»

«هي تعتبر أنها بذلك تُلبِّي رغبات عمها. كان حريصًا جدًّا، كما تعلمين، على أن ينشرَ الكتاب بحلول شهر يوليو.»

قاطعَتني قائلةً: «لا تأتِ على ذكره! لا أحتمل هذا.» ثم، وكأنها خشيَتْ من أن تكون قد جرحت مشاعري بمقاطعتها المفاجئة، فأخفضَت صوتها وقالت: «ومع ذلك، لا أعرف أي شخصٍ آخر يُسعدني تولِّيه هذه المهمة أكثر منك. فمعك سيصبح عملًا جديرًا بالاحترام والتقدير؛ لكنْ رجل غريب ... يا إلهي، لم يكن بوسعي أن أُطيق أن يلمسه رجلٌ غريب.»

كانت تَهوي سريعًا إلى ذعرها القديم؛ لكنها استعادَت زِمامَ نفسها، وتمتمت: «أردتُ أن أسألك عن شيء؛ آه، أعرف»، ثم تحركَت حتى تُصبح في مواجهتي. وتابعت: «أودُّ أن أستفسر إن كان كل شيء في المنزل على حاله كما كان من قبل؛ الخدم هم أنفسُهم و... والأمور الأخرى؟»

«السيدة داريل هناك؛ ليس لديَّ علمٌ بأي تغيير آخر.»

«ألا تتحدث ماري عن مغادرة المنزل؟»

«لا أظن ذلك.»

«لكن أيأتيها زائرون؟ شخصٌ آخر بخلاف السيدة داريل ليُعينَها على تحمُّل وحدتها؟»

كنت أعرف ماذا سيستتبع ذلك، وجاهدتُ نفسي حتى أحافظ على ثباتي.

أجبت: «أجل، قليلون.»

«أتُمانع أن تذكر مَن هم؟» كم كانت نبرة صوتها منخفضة، وكم كانت مختلفة!

«بالطبع لا. السيدة فيلي، السيدة جيلبرت، الآنسة مارتن، و... و...»

قالَت بصوتٍ هامس: «أكمل.»

«سيدٌ اسمه كلافرينج.»

قالَت، بعد لحظةٍ من التوتر العصيب من جانبي: «نطقتَ الاسمَ في حرجٍ واضح. هل بإمكاني أن أعرف السبب؟»

مذهولًا، رفعتُ عينيَّ إلى وجهها. كان شاحبًا جدًّا، وتعتليه النظرةُ القديمة التي تذكَّرتها جيدًا والتي كانَت تعكس هدوءًا مكظومًا. وفي الحال غضضتُ بصري.

قلت: «لماذا؟ لأن ثمة بعضَ الملابسات المحيطة به التي صدمَتني أنا خاصةً.»

سألَت: «كيف ذلك؟»

«يبدو أنه ينتحلُ اسمَين. اليوم كان باسم كلافرينج؛ ومنذ مدة قصيرة كان ...»

«أكمل.»

«روبنز.»

احتكَّ فستانها بالأرضية المحيطة بالمدفأة مُصدِرًا صوتَ حفيفٍ، كان ينطوي على صوت وحشة؛ لكن صوتها عندما تحدثَت كان يفتقر إلى أي تعبيرٍ كما لو كانت إنسانًا آليًّا.

«كم مرةً جاء هذا الشخص، الذي يبدو أنك غير متأكد من اسمه، لزيارة ماري؟»

«مرةً واحدة.»

«متى كان ذلك؟»

«الليلةَ الماضية.»

«هل بقي مدةً طويلة؟»

«نحو عشرين دقيقة، حسب تقديري.»

«وهل تظن أنه سيأتي مرة أخرى؟»

«لا.»

«لماذا؟»

«لقد غادر البلاد.»

أعقبَ ذلك لحظةُ صمت، وشعرتُ أن عينَيها تتفحصان وجهي، ولكني أشك في أنني، حتى لو كنت عرَفت أنها تحمل مسدسًا محشوًّا برصاصات، كنت سأرفع بصري لأعلى في تلك اللحظة.

علَّقَت أخيرًا، بنبرة صوت متغيرة: «سيد ريموند، المرة الأخيرة التي رأيتك فيها، أخبرتَني أنك ستبذل جهدًا حتى أستعيدَ مكانتي السابقة أمام العالم. لم أكن أرغب في أن تفعل ذلك حينَها؛ ولا أرغب في أن تفعل ذلك الآن. ألَا يمكنك أن تُسعدني قليلًا، إذن، بأن تُؤكد لي أنك قد تخلَّيتَ أو ستتخلَّى عن مهمةٍ ميئوسٍ منها؟»

أجبتُ بتوكيد: «هذا مستحيل. لا يمكنني أن أتخلَّى عنها. بقدر ما يحزنني أن أصبح مصدرَ ألمٍ لكِ، من الأفضل أن تعرفي أنني لا يمكن أبدًا أن أتخلَّى عن أملِ إنصافكِ ما دمتُ حيًّا.»

مدَّت يدَها كنوعٍ من استعطافٍ يائس كان مؤثرًا بشكلٍ يفوق الوصف أن أراه في وهج النار الآخذ في التضاؤل سريعًا. لكني كنتُ مُصرًّا على موقفي.

قلت: «لن يكون بمقدوري أبدًا أن أواجه العالم أو أواجه ضميري إذا، بأي تخاذلٍ مني، ضيعتُ الشرف الرفيع بأن أُقوِّم الخطأ، وأنقذ امرأةً من موقفٍ مخزٍ لا تستحقه.» ثم، لمَّا رأيت أن من غير المحتمل أن تردَّ على ما قيل، خطوتُ خطوةً أقربَ إليها وقلت: «ألا يمكنني أن أُريَك من نفسي القليل من الرأفة بكِ، يا آنسة ليفنوورث؟ ألا توجد رسالةٌ ترغبين في إيصالها، أو تصرُّفٌ قد يُسعدكِ أن ترَيْه يتحقق؟»

توقفت حتى تفكر. قالت: «لا، ليس لديَّ سوى طلبٍ واحد، وأنت رفضتَ أن تُلبيَه.»

اندفعت قائلًا: «لدوافع غير شخصية على الإطلاق.»

هزت رأسها ببطءٍ. وقالت: «أنت تظن ذلك»، ثم، قبل أن أستطيع الرد، أردفَت: «ومع ذلك، أودُّ أن تُسديَ إليَّ معروفًا صغيرًا تذكرته.»

«ما ذلك المعروف؟»

«أنه إذا ظهر أي شيء؛ إن عُثر على هانا، أو ... أو كان وجودي ضروريًّا بأي حالٍ من الأحوال، فلن تُخفيَ ذلك عني. أنك ستُطلعني لا محالة على الأسوأ عندما يَحلُّ.»

«سأفعل ذلك.»

«والآن، أتمنى لك ليلة سعيدة. السيدة فيلي ستعود، ولن تتمنى أن تجدك هنا.»

قلت: «أجل.»

ومع ذلك لم أنصرف، بل وقفت أراقب وميض اللهب على ثوبها الأسود حتى صدمَتني ببرودٍ في قلبي فكرةُ كلافرينج والمهمة التي كان عليَّ أن أُنجزها غدًا، فاستدرتُ متجهًا ناحية الباب. لكنني توقفت مجددًا عند عتبة الباب، وألقيت نظرةً ورائي. عجبًا، وميض اللهب الآخذ في التضاؤل! يا إلهي، الظلال المتجمعة والمحتشدة! يا للعجب، ذلك الجسد المتخاذل يتوسَّطها، بيده المقبوضة ووجهه المختفي! أرى كلَّ ذلك مرةً أخرى؛ أراه كما لو كان في حلمٍ؛ ثم يهبط الظلام، وفي وهج الشوارع المضاءة بالغاز، أُسرع في مشيتي على الطريق، وحيدًا وحزينًا، إلى بيتي الموحش.

الفصل الرابع والعشرون

تقرير يتبعه شك

وكثيرًا ما يخيب الذي كان متوقعًا، وأكثر ما يكون ذلك حيث يصبح الأمل أعظمَ ما يكون قوةً، وغالبًا ما يتحقق ما كان الأمل فيه واهيًا واليأس منه قويًّا.

مسرحية «العبرة بالخواتيم» [ترجمة عباس حافظ]

عندما أخبرت السيد جرايس أنني لا أنتظر سوى التثبُّتِ من حقيقةٍ واحدة، حتى أجد مُسوِّغًا لأن أضعَ القضية بين يدَيْه بلا تحفُّظ، كنت أُلْمِح إلى إثبات أو دَحْض فرضية أن هنري كلافرينج كان نزيلًا في المنتجع نفسِه مع إلينور ليفنوورث الصيفَ الماضي.

لذلك، عندما وجدتُ نفسي في صباح اليوم التالي وبين يَدَيَّ سجل الزائرين لفندق يونيون في منتجع «ر…» استطعتُ بأقصى جهدٍ من إرادتي أن أكبَح نفاد صبري. لكن التشويق لم يَدُم طويلًا. فعلى الفور تقريبًا وجدتُ اسمه، مكتوبًا بعد أقلَّ من نصف صفحة من اسم السيد ليفنوورث وابنتَي أخَويه، وأيًّا ما كانت مشاعري عندما تأكدَت بذلك ظنوني، تبيَّنَت لي حقيقةُ أنه كان بحوزتي طرَفُ خيطٍ قد يؤدي إلى حل المعضلة المفزعة التي كانت قد فُرضت عليَّ.

أسرعت إلى مكتب البرقيات، وبعثتُ برسالةٍ إلى الرجل الذي وعَدني به السيد جرايس، وتلقيتُ ردًّا يُفيد بأنه لن يستطيع أن يكون معي قبل الساعة الثالثة، فقصدت منزل السيد مونيل، أحد الموكلين لدينا، الذي كان يقطن في «ر…» وجدتُه بالمنزل، وأثناء حوارٍ دام ساعتَين، عانيتُ من عذاب التظاهُر بأنني مرتاحُ البال ومهتمٌّ بما يقوله، بينما كان قلبي مثقلًا بخيبةِ أمله الأولى وكان عقلي مضطرمًا بإثارة العمل الذي كان بين يدَيَّ حينئذٍ.

وصلت إلى المحطة بمجرد أن دخل القطار.

لم ينزل سوى راكبٍ واحد في محطة «ر...» وكان شابًّا نَشِطًا، هيئته بأكملها تختلف عن الوصف الذي أُعطي لي عن العميل «كيو» لدرجة أنه استقرَّ في ذهني في الحال أن لا يمكن أن يكون هو الرجلَ الذي كنتُ أبحث عنه، وكنت أستدير محبطًا، عندما اقتربَ مني، وسلَّمني بطاقةً مكتوبًا عليها رمزٌ واحد هو «؟» وحتى حينئذٍ لم أستطع أن أحمل نفسي على تصديق أن الذي كان أمامي هو أكثرُ العملاء، الذين كانوا يعملون تحت إمرة السيد جرايس، دَهاءً وتفوقًا، حتى لمحتُ عينَيْه، ورأيت حماسًا، ولمعانًا مبهجًا يتلألأُ في أعماقهما فتبدَّدَت شكوكي كلُّها، ورددتُ على انحناءته بإيماءةِ رضًا، وقلت:

«أنت ملتزمٌ جدًّا بموعدك. يعجبني ذلك.»

أجابني بإيماءةٍ قصيرة، وسريعة أخرى. وقال: «يُسعدني، يا سيدي، إرضاؤك. فالدقة في المواعيد هي فضيلةٌ يسهل على رجلٍ يتطلَّع إلى الارتقاء أن يُمارسها. لكن ما أوامرك، يا سيدي؟ سيتحرَّك القطار المتجه جنوبًا في غضون عشر دقائق؛ ولا وقتَ لدينا لنُضيِّعه.»

«القطار المتجه جنوبًا؟ وما شأننا به؟»

«ظننت أنك قد ترغب في أن تستقلَّه، يا سيدي. السيد براون» غامزًا بطريقةٍ معبِّرةٍ عند نطقه للاسم «يُرسل دائمًا حقيبة سفره للبيت عندما يراني قادمًا. لكن الأمر يرجع إليك؛ لست متشبثًا بشيء.»

«أرغب أن أفعل أنسبَ شيءٍ في ظل هذه الظروف.»

«إذن عُد إلى البيت، بأسرع ما يمكن.» ثم أومأ إيماءةً ماكرةً ثالثة كانت جادةً وحاسمة بشكلٍ مبالَغ فيه.

قلت: «إذا تركتك، فعليك أن تفهم أنك ستأتي بما لديك من معلوماتٍ إليَّ أولًا؛ وأنك تعمل لحسابي، وليس لحساب أي شخصٍ آخر في الوقت الحالي؛ وأن تُبقي الأمر سرًّا حتى أمنحَك حرية الكلام.»

«معلوم، سيدي. عندما أعمل لحساب براون وشركاه لا أعمل لحساب سميث آند جونز. بإمكانك أن تثقَ في ذلك.»

«عظيم إذن، إليك تعليماتي.»

نظر إلى الورقة التي سلمتُها له بقدرٍ من الاهتمام، ثم أسرع إلى قاعة الانتظار وألقى بها في المدفأة، قائلًا بصوتٍ منخفض: «حتى في حالة تعرضت لحادثٍ: أُصبت بنزيف داخلي، أو أي شيء من هذا القبيل.»

«لكن ...»

«أوه، لا تقلق؛ لن أنسى. لديَّ ذاكرة، يا سيدي. لا يحتاج أي شخص إلى أن يستخدم قلمًا وورقة معي.»

انطلقَت منه ضحكةٌ خاطفة وسريعة، قد يتوقَّعها المرء من شخصٍ بهيئته تلك ونمط حديثه، وأضاف: «على الأرجح ستسمع أخبارًا مني خلال يومٍ أو أكثر»، ثم انحنى، وسار بنشاطٍ وخفةٍ في الشارع في نفس وقت دخول القطار إلى المحطة قادمًا مسرعًا من الغرب.

كانت تعليماتي إلى العميل «كيو» ما يلي:

(١) أن يعرف في أيِّ يوم، وفي صحبةِ مَن، وصلَت الآنستان إلى «ر...» العام الماضي. وماهية تحركاتهما أثناء وجودهما هناك، وبرفقة مَن كانتا يُلاحظان غالبًا. وكذلك تاريخ مغادرتهما، وما يمكن جمعه من معلومات عن عاداتهما، وما إلى ذلك.

(٢) والأمر نفسُه فيما يتعلق بالسيد هنري كلافرينج، النزيل الآخر والصديق المحتمل للسيدتَين المذكورتَين.

(٣) اسم الشخص الذي تنطبق عليه المواصفاتُ التالية: قس، من الطائفة الميثودية، تُوفِّي في ديسمبر الماضي أو في مدةٍ مقاربة من ذلك، وفي يوليو من عام ١٨٧٥ كان يعيش في بلدةٍ لا تبعد أكثرَ من عشرين ميلًا عن «ر...»

(٤) كذلك اسم ومكان الإقامة الحاليُّ لشخصٍ كان في ذلك الوقت يعمل في خدمة الشخص المذكور أعلاه.

إن زعمت أنني أمضيتُ المدة الزمنية اللازمة لإجراء تَحرٍّ وافٍ عن تلك الأمور في حالة مِزاجية مقبولة، فإنني بذلك أمنح نفسي تقديرًا على اتزانٍ مِزاجيٍّ لا أملكه للأسف. لم تبدُ الأيام طويلةً مثلما كان اليومان اللذان تخلَّلا عودتي من «ر...» وتَسلُّمي الخطابَ التالي:

سيدي،

وصل الأشخاص المذكورون إلى «ر...» في ٣ يوليو ١٨٧٥. كانت المجموعة مكونةً من أربعة أشخاص؛ السيدتين، وعمهما، وفتاة تُدعى هانا. بقي عمُّهما ثلاثةَ أيام، ثم غادر في جولة قصيرة في ماساتشوستس. غاب أسبوعين، شوهدت خلالهما السيدتان بشكلٍ أو بآخرَ مع السيد المشار إليه بيننا، ولكن ليس إلى الحدِّ الذي قد يُثير القيل والقال أو يسترعي أيَّ تعليق، وغادر ذلك الرجل

«ر...» فجأةً، بعد يومين من عودة عمهما. ووافق ذلك يومَ ١٩ يوليو. أما عن عادات السيدتين، فكانتا اجتماعيتَين نوعًا ما. كانتا تُشاهَدان دائمًا في نزهات، وجولات، وما إلى ذلك، وفي قاعة الرقص. كانت إم محبوبة أكثر. أما إي فكانت تُعتبر جادَّة، وقرب الأيام الأخيرة من إقامتها، كانت متقلبةَ المِزاج. ويُذْكَر حتى الآن أن سلوكها كان غريبًا دائمًا، وأن ابنة عمها كانت تتجنَّبها بشكلٍ أو بآخر.

ومع ذلك، ترى فتاةٌ لا تزال موجودةً في الفندق أنها كانت أجملَ سيدةٍ على وجه الأرض. لا سبب واضح لهذا الرأي. غادر العم، والسيدتان، والخادمة «ر...» متوجِّهين إلى نيويورك، في ٧ أغسطس ١٨٧٥.

(٢) وصل إتش سي إلى الفندق في «ر...» يوم ٦ يوليو ١٨٧٥، في صحبة السيد فاندرفورت وحرَمه، صديقَي المذكورين أعلاه. وغادر في ١٩ يوليو، بعد أسبوعين من يوم الوصول. عُرِفَت عنه معلومات قليلة. بقي في الأذهان باعتباره الرجلَ الوسيم الذي كان برفقة فتاتي إل وهذا كل شيء.

(٣) «ف...» بلدة صغيرة، تبعد نحو ستة عشر أو سبعة عشر ميلًا عن «ر...» وفي يوليو من العام الماضي كان قسُّها الميثودي رجلًا تُوفِّي بعد ذلك الحين، اسمه صامويل ستيبنز. تاريخ الوفاة ٧ يناير من هذا العام.

(٤) اسم الرجل الذي كان يعمل لحساب سي سي في ذلك الوقت هو تيموثي كوك. كان متغيِّبًا، لكنه عاد إلى ف ... منذ يومين. ويمكن رؤيته إذا استدعى الأمر.

«آه، ها!» صِحتُ بصوتٍ عالٍ عند هذه النقطة، لشعوري بمفاجأةٍ مباغِتة وبرضًا؛ «الآن لدينا شيء نستند إليه في عملنا!» ثم جلست وكتبت الرد التالي:

تي سي مطلوب بالتأكيد. وكذلك أي دليل سيُثبتُ أن إتش سي وإي إل تزوجا في منزل السيد إس في أي يومٍ من شهر يوليو أو أغسطس الماضيَين.

في صباح اليوم التالي وصلت البرقية التالية:

تي سي في الطريق. يذكر مراسم الزواج. سيكون معك في الساعة الثانية بعد الظهر.

في الساعة الثالثة من اليوم نفسِه، وقفت أمام السيد جرايس. أخبرتُه: «أنا هنا لأقدم تقريري.»

بدا بريقُ ابتسامة عابرة على وجهه، ونظر لأول مرة إلى أطراف أصابعه المعصوبة بشيءٍ من اللطف لا بد أنه أفادها. وقال: «أنا جاهز.»

بدأتُ حديثي قائلًا: «سيد جرايس، هل تذكر الاستنتاج الذي توصَّلنا إليه في أول لقاء لنا في هذا المنزل؟»

«أتذكر الاستنتاج الذي توصلتَ أنت إليه.»

أقررتُ ذلك، بشيء من الحدَّة: «حسنًا، حسنًا، الاستنتاج الذي توصلتُ أنا إليه، إذن. كان ما يلي: أنه إذا استطعنا أن نكتشف الرجل الذي كانت إلينور ليفنوورث تُكِن له مشاعرَ حبٍّ واحترام، فسنكتشف الرجل الذي قتل عمها.»

«وهل تتصور أنك فعلتَ هذا؟»

«أجل.»

اختلسَت عيناه نظرةً أقرب إلى وجهي. وقال: «حسنًا! ذلك جيد؛ أكمل.»

تابعتُ قائلًا: «عندما اضطلعت بمهمة تبرئة ساحة إلينور ليفنوورث من الاشتباه، كان بداخلي حَدْسٌ مفاده أنه قد يتبين أن هذا الشخص حبيبها؛ لكن لم يكن لدي أيُّ فكرة أنه سيتبين أنه زوجها.»

التمعَت عينا السيد جرايس كالبرق وهو ينظر إلى السقف.

هتف بتجهُّم: «ماذا!»

كررتُ على مسامعه: «إن حبيب إلينور ليفنوورث هو نفسُه زوجها. فصِلةُ السيد كلافرينج بها لا تقلُّ عن ذلك.»

سأل السيد جرايس، بلهجةٍ فظَّة كانت تُظهر إما خيبةَ أمل أو استياء: «كيف اكتشفت ذلك؟»

«لن أستغرق وقتًا في ذكر ذلك. السؤال ليس كيف صرتُ مُلمًّا بأمر معين، ولكن ما أؤكد صحتَه بخصوصه. إذا ألقيتَ نظرة على موجز الأحداث التالي الذي جمعته عن حياة هذين الشخصين، أظن أنك ستتفق معي أنه كذلك.» ثم رفعتُ أمام عينيه ورقة وأخذت أقرأ محتوياتها كما يلي:

«خلال الأسبوعين اعتبارًا من يوم ٦ يوليو ١٨٧٥، وحتى ١٩ يوليو من العام نفسِه، كان هنري آر كلافرينج، من لندن، وإلينور ليفنوورث، من نيويورك، نزيلَين في الفندق نفسه. تلك حقيقة مثبَتة في سجلِّ الزائرين لفندق يونيون في «ر…» نيويورك.

لم يقتصر الأمر على أنهما كانا نزيلَين في الفندق نفسِه، بل من المعروف أنه كان ثمة تواصلٌ بينهما بشكلٍ أو بآخر. تلك حقيقة أثبتَها الخدم العاملون حتى الآن في «ر...» وكانوا في الفندق في ذلك الوقت.

١٩ يوليو. غادر السيد كلافرينج «ر...» فجأة، وهذا حدثٌ قد لا يُعد لافتًا للنظر لو لم يكن السيد ليفنوورث، الذي يعرف الجميعُ كراهيته الشديدة للإنجليز بصفتهم أزواجًا، قد عاد من رحلة.

٣٠ يوليو. شوهد السيد كلافرينج في صالة استقبال السيد ستيبنز، القس الميثودي في «ف...» وهي بلدة تبعد ستةَ عشر ميلًا عن «ر...» حيث تزوج بفتاةٍ رائعة الجمال. تلك حقيقة أثبتَها تيموثي كوك، رجل كان يعمل لحساب السيد ستيبنز، واستُدعِيَ من الحديقة ليشهد على مراسم الزواج ويُوقع على ورقة يُفترَض أنها عقد زواج.

٣١ يوليو. استقلَّ السيد كلافرينج باخرةً متجهة إلى ليفربول. تلك حقيقة أثبَتَتها الصحف الصادرة في ذلك اليوم.

سبتمبر. كانت إلينور ليفنوورث في منزل عمها في نيويورك، وكانت مسيطرةً على نفسها كالعادة، لكن وجهها كان شاحبًا وبدا عليها الانشغال. حقيقة أثبتها الخدمُ الذين كانوا في خدمتها. كان السيد كلافرينج في لندن، يترقب الرسائل البريدية من الولايات المتحدة بتلهُّف، لكنه لا يتلقَّى أي خطاب. هيأ غرفة على أكمل وجه، لقدوم سيدة. وهي حقيقة أثبتَتها المراسَلاتُ السرية من لندن.

نوفمبر. الآنسة إلينور كانت لا تزال في منزل عمها. لم يُذَعْ خبر زواجها مطلقًا. والسيد كلافرينج كان في لندن؛ تبدو عليه علامات الاضطراب؛ والغرفة التي هُيئت للسيدة مغلقة. وهي حقيقة أثبتَها المصدرُ أعلاه.

١٧ يناير ١٨٧٦. بعدما عاد السيد كلافرينج إلى أمريكا، أقام في غرفة بفندق هوفمان، نيويورك.

١ أو ٢ مارس. تلقى السيد ليفنوورث خطابًا موقَّعًا باسم هنري كلافرينج، يشتكي فيه من كونه ضحيةَ معاملةٍ سيئة من إحدى ابنتي شقيقَيه. وهو حدث ألقى بظلاله بوضوحٍ على العائلة في هذا الوقت.

٤ مارس. السيد كلافرينج منتحلًا اسمًا زائفًا سأل عند باب منزل السيد ليفنوورث عن الآنسة إلينور ليفنوورث. وهي حقيقة أثبت صحتَها توماس.»

صاح السيد جرايس عند تلك النقطة قائلًا: «الرابع من مارس؟ تلك كانت ليلةَ وقوع الجريمة.»

«أجل؛ السيد لي روي روبنز الذي قيل إنه أتى في زيارة ذلك المساء لم يكن سوى السيد كلافرينج.»

«١٩ مارس. أقرت الآنسة ماري ليفنوورث، في حوار معي، بأن ثمةَ سرًّا تُخفيه العائلة، وكانت على وشك أن تكشف عن طبيعته، لَمَّا دخل السيد كلافرينج المنزل. وعند انصرافه صرَّحَت بعدم رغبتها في فتح الموضوع مرة أخرى.»

نحَّى السيد جرايس الورقة جانبًا ببطء. ثم قال: «ومن تلك الحقائق تستخلصُ استنتاج أن الآنسة إلينور ليفنوورث هي زوجة السيد كلافرينج؟»

«أجل.»

«وكونها زوجته ...»

«سيكون من الطبيعي أن تخفي أي شيء عرفت أنه من المرجح أن يدينه.»

«تفترض دومًا أن كلافرينج نفسَه قد ارتكب جُرمًا!»

«بالطبع.»

«وتعتزم إثباتَ هذا الافتراضِ الأخير!»

«وهذا الافتراض الأخير هو ما تبقَّى «لنا» أن نُثبته.»

التمع بريقٌ غريب على ملامح السيد جرايس الذاهلة نوعًا ما. وقال: «إذن ليس لديك دليلٌ جديدٌ ضد السيد كلافرينج؟»

«أعتقد أن الحقيقة المذكورة للتو، عن موقفه فيما يتعلَّق بكونه زوجًا غير معترَفٍ به من الطرَف المشتبَه فيه كان شيئًا يؤخَذ به.»

«أقصد ألا يوجد دليلٌ قطعي على أنه هو من قتل السيد ليفنوورث؟»

كنتُ ملزمًا بأن أعترف بأنه لم يكن لديَّ ما يمكن أن يعتبره قطعيًّا. وقلت: «لكن بوسعي أن أُثبت وجود دافع؛ ويمكنني كذلك أن أُثبت أنه لم يكن من المحتمل فحسبُ، وإنما من المرجَّح، أنه كان في المنزل وقت وقوع الجريمة.»

صاح السيد جرايس، بعدما أفاق نوعًا ما من ذهوله: «آه، يمكنك!»

«الدافع كان دافعًا معتادًا وهو المصلحة الشخصية. وقف السيد ليفنوورث عقَبة في طريق اعتراف إلينور به زوجًا؛ ومن ثَمَّ كان يجب إزاحته من طريقه.»

«دافعٌ ضعيف!»

«أحيانًا تكون الدوافع وراء ارتكاب جرائم القتل ضعيفة.»

«إن الدافع وراء هذه الجريمة لم يكن كذلك. أثبت قدرٌ كبير جدًّا من الروية أن الذراع التي أطلقت النارَ لم تستفزَّها إلا نيةٌ متعمَّدة جدًّا، مَنشؤها حتميةٌ فتاكة للغاية نابعة من الحب أو الجشع.»

«الجشع؟»

«لا ينبغي أبدًا أن يُفرِط المرء في التفكير في الأسباب التي أدَّت إلى هلاك رجلٍ غني دون أن يأخذ في الاعتبار تلك الشهوةَ الأكثر شيوعًا لدى الجنس البشري.»

«ولكن ...»

«لنستمِع الآن إلى ما لديك عن وجود السيد كلافرينج في المنزل وقت وقوع جريمة القتل.»

قصصتُ عليه ما أخبرني به توماس رئيس الخدم فيما يخص زيارة السيد كلافرينج لمقابلة الآنسة إلينور في تلك الليلة، وعدم وجود دليلٍ على مغادرته للمنزل في الوقت الذي كان من المفترض فيه أن يفعل ذلك.

عقب ذلك قال جرايس: «ذلك أمر يجدر تذكره. مع كونه بلا قيمة كدليلٍ مباشر، قد يَثبت أنه ذو قيمةٍ عظيمة كدليل مُعضِّد.» ثم، بنبرةٍ أكثرَ جديةً، أردف قائلًا: «سيد ريموند، هل أنت مدركٌ أنك بكل هذا تدعم القضية ضد إلينور ليفنوورث بدلًا من إضعافها؟»

لم أستطع أن أتفوَّه بكلمة، في ظل اندهاشي وفزعي المفاجئ.

«لقد أظهرتَ أنها كَتومة، وخبيثة، ومجرَّدةٌ من المبادئ؛ وقادرة على الإساءة إلى هذَين اللذَين كانت مرتبطة بهما ارتباطًا شديدًا، عمها وزوجها.»

قلت: «أنت تعبر عن الأمر بلغةٍ قوية ومؤثرة»، مدركًا وجودَ تباينٍ صادم بين هذا الوصف لشخصية إلينور وكل ما تصورته سلفًا عنها.

«لا شيء يُسوغ لي فعلَ ذلك أكثر من استنتاجاتك أنت من هذه القصة.» ثم، بينما كنت جالسًا في صمت، تمتمَ بصوتٍ منخفض، وكأنه يقول لنفسه: «إن كانت القضية قاتمةً ضدها فيما مضى، فإنَّ قَتامتَها تضاعفَت مع هذا الافتراض المُثْبَت بأنها المرأة المتزوجة سرًّا من السيد كلافرينج.»

اعترضتُ، عاجزًا عن التخلِّي عن أملي دون مقاومة: «ومع ذلك، أنت لا تُصدق، ولا يمكنك أن تصدق، أن إلينور ذات الطلعة النبيلة مذنبةٌ بارتكاب هذه الجريمة البشعة، أليس كذلك؟»

قال بتأنٍّ: «نعم؛ يمكنك أيضًا أن تعرف حالًا ما أظنه حيال ذلك. أعتقد أن إلينور ليفنوورث امرأةٌ بريئة.»

صِحت متأرجحًا بين الفرح بإقراره والشكِّ في المغزى من كلامه السابق، فقلت: «أتعتقد ذلك؟ إذن، ماذا يتبقَّى لنا لنفعله؟»

أجاب السيد جرايس في هدوء: «عجبًا، لا شيء سوى أن نُثبت أن افتراضك غير صائب.»

الفصل الخامس والعشرون

تيموثي كوك

انظر إلى هذه الصورة وإلى هذه.

مسرحية «هملت» [ترجمة جبرا إبراهيم جبرا]

حدقت فيه بذهول. فقال: «أشك أن هذا سيكون صعبًا جدًّا.» ثم، في اندفاعٍ مفاجئ، قال: «أين ذلك الرجل المدعوُّ كوك؟»

«إنه في الأسفل مع العميل «كيو».»

«تلك كانت خطوةً حكيمة؛ دعنا نلتقِ بالرجلين؛ اطلب منهما أن يصعدا.»

توجهتُ إلى الباب وناديتُهما.

قلت، وأنا أعود: «توقعت، أنك، بالطبع، سترغب في سؤالهما.»

في غضون لحظةٍ أخرى دخل الغرفة العميل الأنيق «كيو» وكوك الأشعث.

قال السيد جرايس، موجِّهًا انتباهَه إلى الأخير بأسلوبه الغريب وغير المعبِّر: «آه، هذا هو الرجل الذي كان يعمل في خدمة السيد ستيبنز المتوفى، أليس كذلك؟ حسنًا، يبدو عليك أن بإمكانك أن تقول الحقيقة.»

«أعتمد على فعل ذلك عادةً، يا سيدي؛ على أي حال، لم أوصف بالكذاب مطلقًا حسبما أتذكر.»

أجاب المحقق اللطيف: «بالطبع لا، بالطبع لا.» ثم من دون المزيد من المقدمات، قال: «ماذا كان الاسم الأول للسيدة التي رأيتها تتزوَّج في منزل سيدك الصيف الماضي؟»

«فليَلْعنِّي الربُّ لو كنت أعرف! لا أظن أنني سمعته، يا سيدي.»

«لكنك تتذكر شكلها؟»

«كما لو كانت أمي. لا أقصد التقليلَ من شأن الفتاة، يا سيدي، لو كنتَ تعرفها» أسرعَ مضيفًا تلك الكلمات، وهو يرمقني بنظرة خاطفة. «ما أقصده هو أنها كانت جميلة جدًّا، ولا يمكنني أبدًا أن أنسى طلة وجهها الجميل حتى لو عشت مائة سنة.»

«هل يمكنك أن تصفها؟»

«لا أدري، أيها السادة؛ كانت طويلة ولها هيئة مَهيبة، وكان لها عينان لا مثيل لهما في بريقهما، ويدٌ لا مثيل لها في بياضها، وكانت تبتسم بطريقة تجعل حتى رجلًا عاديًّا مثلي يتمنى لو لم يكن قد رآها أبدًا.»

«هل يمكنك أن تتعرف عليها وسط حشد؟»

«يمكنني أن أتعرف عليها في أي مكان.»

«عظيم؛ والآن أخبرنا بكل ما بوسعك قوله عن هذه الزِّيجة.»

«حسنًا، أيها السادة، كان الأمر كالآتي. كنت أعمل في خدمة السيد ستيبنز منذ ما يُناهز العام، وفي صباح أحد الأيام بينما كنت أعزق في الحديقة، رأيت رجلًا يمشي مسرعًا في اتجاه الطريق المؤدي إلى بوابتنا ثم دخل. لاحظته هو تحديدًا؛ لأن مظهره كان أنيقًا جدًّا، على عكس أي شخصٍ في بلدة «ف...» وحقًّا، لم يكن، فيما يتعلق بذلك، يُشبه أي شخص كنت قد رأيته من قبل؛ لكن ما كنتُ سأفكر كثيرًا في ذلك لو لم تأتِ، بعد أقلَّ من خمس دقائق، عربة تستقلها سيدتان، توقفت عند بوابتنا، أيضًا. رأيت أنهما تريدان الخروج من العربة؛ لهذا ذهبت وأوقفت الحصان من أجلهما، فنزلتا ودخلتا المنزل.»

«هل رأيت وجهيهما؟»

«لا، سيدي؛ ليس في تلك اللحظة. كان يُغطيهما وشاحان.»

«حسنًا، أكمل.»

«لم أكن قد انهمكتُ في العمل مدةً طويلة، عندما سمعت شخصًا يُنادي اسمي، فرفعت بصري لأعلى، ورأيت السيد ستيبنز واقفًا في المدخل يشير إلي. ذهبتُ إليه، وقال: «أريدك، يا تيم؛ اغسل يديك وادخل غرفة الاستقبال.» لم يكن قد طُلِب مني أن أفعل ذلك من قبل مطلقًا، فغمرتني الدهشة؛ لكنني فعلتُ ما طلبه مني، ومأخوذًا بطلعة السيدة التي رأيتها تقف مع الرجل الأنيق، تعثرتُ بالمقعد وتسببت في جلَبة مزعجة، ولم أكن أعرف أين كنت أو ماذا كان يحدث، حتى سمعت السيد ستيبنز يقول: «زوج وزوجة»؛ فاتضح لي بطريقة مثيرة نوعًا ما أن ما كنتُ أراه كان مراسمَ زواج.»

توقف تيموثي حتى يمسح جبينه، وكأن التذكر قد أنهكه، فانتهز السيد جرايس الفرصة ليُعلق:

«قلت إنه كان يوجد سيدتان؛ إذن أين كانت الأخرى في هذا الوقت؟»

«كانت هناك، يا سيدي؛ لكنني لم أُبالِ كثيرًا بها، إذ كنت مأخوذًا بالسيدة الجميلة وبالطريقة التي كانت تبتسم بها عندما ينظر إليها أي أحد. لم أرَ لها مثيلًا.»

شعرت برجفةٍ سريعة تسري بداخلي.

«هل يمكنك أن تتذكر لون شعرها أو عينيها؟»

«لا، سيدي؛ كان لدي شعور أنه لم يكن داكنًا، وذلك كل ما أعرفه.»

«لكنك تتذكر وجهها، صحيح؟»

«أجل، سيدي!»

همس لي السيد جرايس طالبًا مني أن أُحضر صورتَين سأجدهما في درجٍ بعينه في مكتبه، وأضعهما في مكانين مختلفين في الغرفة دون علم الرجل.

واصل السيد جرايس حديثه: «قلت سابقًا إنك لا تتذكر اسمها. ولكن، كيف ذلك؟ ألم تُستدعَ لتُوقع على وثيقة الزواج؟»

«أجل، سيدي؛ ولكنني أشعر بخجلٍ شديدٍ من قول ذلك؛ كنت أشبهَ بالتائه، ولم أسمع الكثير، وأتذكر فقط أن السيد كلافرينج كان هو الشخصَ الذي كانت تتزوج منه، وأن شخصًا دعا شخصًا آخرَ إلنر، أو شيئًا من هذا القبيل. ليتني لم أكن غبيًّا هكذا، يا سيدي، لو أن الأمر كان سيُجدي لك أيَّ نفع.»

قال السيد جرايس: «أخبرنا عن التوقيع على الوثيقة.»

«حسنًا، سيدي، لا يوجد الكثير مما يمكنني أن أُخبرك به. طلب مني السيد ستيبنز أن أكتب اسمي في موضع بعينه في ورقة دفعها تجاهي، فكتبتُ اسمي في ذلك الموضع؛ وذلك كل ما في الأمر.»

«ألم يكن يوجد اسمٌ آخر في الورقة عندما كتبت اسمك؟»

«لا، سيدي. بعد أن وَقَّعْت التفتَ السيد ستيبنز تجاه الفتاة الأخرى، التي كانت قد تقدمَت في تلك اللحظة، وسألها إن لم تكن تمانع أن توقِّع، هي أيضًا؛ فقالت: «أجل»، وأتت بسرعة ووقَّعَت.»

«ولم ترَ وجهها حينها؟»

«لا، سيدي؛ كان ظهرها مقابلًا لي عندما أزاحت وشاحها، وفقط رأيت السيد ستيبنز يُحملق فيها وهي تنحني، بنوعٍ من الإعجاب على وجهه، وهو ما جعلني أظنُّ أنها ربما كانت تستحقُّ التطلُّع إليها أيضًا؛ لكنني لم أرَها بنفسي.»

«حسنًا، ماذا حدث بعد ذلك؟»

«لا أعرف يا سيدي. خرجَتْ من الغرفة بخطواتٍ متعثرةٍ، ولم أرَ أي شيء آخر.»

«أين كنت عندما غادرت السيدتان؟»

«في الحديقة، يا سيدي. كنت قد عدتُ إلى عملي.»

«رأيتهما، إذن. هل كان الرجل معهما؟»

«لا، سيدي؛ ذلك كان الجزء الغريب في الأمر كله. غادرتا مثلما أتيتا، وكذلك فعل هو؛ وخلال دقائق قليلةٍ خرج السيد ستيبنز إلى حيث كنتُ، وأخبرني ألَّا أتفوَّهَ بشيءٍ عمَّا قد رأيته؛ لأن الأمر كان سرًّا.»

«هل كنتَ أنت الشخصَ الوحيد في المنزل الذي علم بأي شيءٍ عن الأمر؟ ألم تكن توجد أي سيدة في المكان؟»

«لا، سيدي. فالآنسة ستيبنز كانت قد ذهبت إلى درس الحياكة.»

بحلول هذا الوقت كان لديَّ انطباعٌ غير واضحٍ عن شكوك السيد جرايس، وعند ترتيب الصورتَين وضعتُ واحدة، صورة إلينور، على الرف فوق المدفأة، والأخرى، التي كانت صورة فوتوغرافية جيدة بدرجة غير عاديةٍ لماري، في مكانٍ واضحٍ على المكتب. كان السيد كوك لا يزال موليًا ظهرَه لذلك الجزء من الغرفة، فاغتنمت الفرصة، وعدت وسألته إن كان ذلك كل ما يمكنه أن يُخبرنا به عن هذا الموضوع.

«أجل، سيدي.»

قال السيد جرايس، وهو ينظر إلى العميل «كيو»: «إذن، ألَا يوجد شيء يُمكنك أن تكافئ به السيد كوك على قصته؟ أيمكنك أن تنظر حولك؟»

أومأ العميل «كيو»، واتجه ناحية الخزانة المثبتة في الحائط إلى جانب رف المدفأة؛ وتبعه السيد كوك بعينَيْه، كردِّ فعلٍ طبيعي، حينها، انتفض فجأةً، وعبر الغرفة، ثم توقَّف أمام رفِّ المدفأة، ونظر إلى صورة إلينور التي كنت قد وضعتها هناك، ثم أصدر صوتًا خافتًا ينمُّ عن رضًا أو سعادة، ثم نظر إليها مرةً أخرى، وسار مبتعدًا. شعرت بقلبي يقفز إلى حلقي، ثم، مدفوعًا بدافعٍ من خوف أو أمل، ليس بوسعي أنا أجزم، أدرت ظهري، عندما سمعته فجأةً يُنفس عن شعوره بذهول مفاجئ، تبعته هذه الكلمات: «عجبًا! ها هي؛

هذه هي صورتها، يا سادة»، وعندما استدرتُ رأيته يُسرع تجاهنا حاملًا في يديه صورةَ ماري.

لا أعرف إن كنت قد فوجئت كثيرًا. كنت مضطربًا بشدة، وكذلك كنت شاعرًا بدوامةٍ معينةٍ من الأفكار، ومشوشًا في الاستنتاجات القديمة التي كانت مربكة للغاية؛ لكن هل فوجئت؟ لا. فأسلوب السيد جرايس كان قد هيَّأني جيدًا جدًّا.

صاح المحقِّق، بنبرةٍ متشككةٍ جدًّا: «أهذه هي السيدة التي تزوجَت من السيد كلافرينج، أيها الرجل الطيِّب؟ أظنُّك مخطئًا.»

أجاب: «مخطئ؟ ألم أقل إن بوسعي أن أتعرفَ عليها في أي مكان؟ هذه هي السيدة، حتى وإن كانت هي نفسها زوجةَ الرئيس.» ثم انكفأ عليها السيد كوك بنظرة نهمة لم تخلُ من الاحترام.

تابع السيد جرايس، وهو يغمز لي بطريقةٍ بطيئةٍ وخبيثةٍ كانت ستُثير في نفسي غضبًا جامحًا لو كنت في حالة مزاجية أخرى: «أنا في غاية الذهول. لو أنك كنت قلت إنها هي السيدة الأخرى» مشيرًا إلى الصورة على رف المدفأة «لَما كنت اندهشت.»

«هذه؟ لم أرَ تلك السيدة من قبل مطلقًا؛ أما هذه ... أتُمانعون أن تخبروني باسمها، يا سادة؟»

«إن كان ما تقوله صحيحًا، فاسمها السيدة كلافرينج.»

«كلافرينج؟ أجل، ذلك كان اسمه.»

قال جرايس: «وهي سيدةٌ رائعة الجمال. موريس، ألم تجد أيَّ شيءٍ بعد؟»

ردًّا على ذلك أحضر «كيو» كئوسًا وزجاجة.

لكن السيد كوك لم يكن في حالةٍ مزاجيةٍ تسمح له بأن يشرب. أظن أنه شعر بتأنيبِ ضمير؛ لأنه، منتقلًا بناظرَيْه من الصورة إلى «كيو»، ومن «كيو» إلى الصورة، قال:

«إن كنت قد أسأتُ إلى هذه السيدة بكلامي، فلن أُسامح نفسي أبدًا. قلتَ لي إنني سأُساعدها على أن تنال حقوقها؛ إن كنتَ خدعْتَني ...»

قاطعه «كيو»، بطريقته المقتضبة الحادة: «أوه، لم أخدعك. سَلْ ذلك السيد هناك عمَّا إذا لم نكن جميعًا مهتمين بأن تنال السيدة كلافرينج ما تستحقُّه.»

كان قد أشار نحوي؛ لكنني لم أكن مستعدًّا نفسيًّا لأن أُجيب. كنت أتوق بشدةٍ إلى أن يُسمَح للرجل بالانصراف، حتى يكون بوسعي أن أستفسر عن سبب الانشراح الذي رأيته في تلك اللحظة يغمر جسدَ السيد جرايس، حتى أطراف أصابعه.

علَّق السيد جرايس: «لا داعي لأن يقلق السيد كوك. إن أخذ كأسًا من الشراب الدافئ حتى يُقويَه على سيره، أظن أن بإمكانه الذَّهابَ إلى السكن الذي وفره له السيد موريس من دون خوفٍ. أعطِ العميل كأسًا، ودعه يمزج لك الشراب.»

لكنَّ عشرَ دقائق كاملةً مضت قبل أن نتخلَّص من الرجل ومن شعوره بالندم الذي لا طائل منه. كانت صورة ماري قد استحضرَت كلَّ شعورٍ كامنٍ في قلبه، ولم يسَعْني إلا أن أتعجَّب من جمالٍ يمتلك القدرة على استمالة الوضيع وكذلك النبيل. لكنه أخيرًا استسلم إلى استدراج «كيو» الماكر، وانصرف.

بعدما بقيتُ وحدي مع السيد جرايس، لا بد أني قد سمحتُ لبعض المشاعر المضطربة التي كان صدري مفعَمًا بها أن تظهر على وجهي؛ لأنه بعد دقائق قليلةٍ من صمتٍ منذرٍ بسوء، صاح في تجهُّمٍ شديد، ولكن مع لمسةٍ كامنةٍ من ذلك الانشراح الذي كنت قد لاحظته عليه من قبل:

«يُزعجك هذا الاكتشاف كثيرًا، أليس كذلك؟ حسنًا، لكنه لا يزعجني»، مغلقًا فمه كمصيدةٍ. وأضاف: «توقعتُ الأمر.»

أجبته: «لا بد أن استنتاجاتك تختلف اختلافًا جوهريًّا عن استنتاجاتي؛ وإلا كنتَ سترى أن هذا الاكتشاف يُغير ملامح القضية بأكملها.»

«لا يغير الحقيقة.»

«وما هي الحقيقة؟»

استغرق السيد جرايس في التفكير من رأسه حتى رجليه؛ وتردَّى صوته إلى أعمق نبرة له. وقال: «أتريد حقًّا أن تعرف؟»

«هل أريد أن أعرف الحقيقة؟ ما الذي نسعى إليه غيرها؟!»

قال: «إذن، انطباعي الشخصي يُنبئني أن ملامح القضية قد تبدلَت، ولكن للأفضل كثيرًا. عندما كان يوجد اعتقادٌ بأن إلينور هي زوجته، كان تصرفها في هذا الشأن مَبرَّرًا؛ لكن الفاجعة نفسها لم تكن كذلك. لماذا ترغب إلينور أو زوج إلينور في موت الرجل الذي كان يُعتَقد أن سخاءه سينتهي بانتهاء حياته؟ لكن في حالة ماري، الوريثة، التي اتضح أنها الزوجة! ... أقول لك، يا سيد ريموند، إن كل الأمور صارَت مترابطةً الآن. يجب عليك، عند التفكير في جريمة قتلٍ مثلِ هذه، ألا تغفل مطلقًا عن الرابح الأكبر من وفاة الرجل الراحل.»

«ولكن ماذا عن صمت إلينور؟ وإخفائها لأدلَّةٍ وبراهين بعينها في نفسها ... كيف يمكنك أن تفسِّر ذلك؟ يمكنني أن أتصوَّر أن تَنذر امرأةٌ نفسَها لحماية زوجها من عواقب جريمة؛ لكن أن تحميَ زوج ابنة عمها، لا يمكنني أن أتصوَّر ذلك مطلقًا.»

وضع السيد جرايس قدمَيه جنبًا إلى جنب، ثم نخر في هدوء. وقال: «إذن أنت ما زلتَ تظن أن السيد كلافرينج هو مَن قتل السيد ليفنوورث؟»

لم يسَعني إلا أن أُحدق نحوه بشكٍّ وتخوف انتاباني فجأة. فكررتُ: «ما زلتُ أظن؟»

أعاد السيد جرايس سؤاله: «أن السيد كلافرينج هو مَن قتل السيد ليفنوورث؟»

«عجبًا، ماذا بوُسعي أن أظن غير ذلك؟ أنت لا تشتبه — ولا يمكنك أن ترتاب — في أن إلينور أخذَت عمدًا على عاتقها أن تساعد في تخليص ابنة عمها من مشكلتها بأن تتخلَّص من حياة وليِّ نعمتهما؟»

قال السيد جرايس: «لا؛ لا، لا أظن أن إلينور كان لها أيُّ يدٍ في هذا الأمر.»

قلت: «مَن إذن ...» ثم توقفت، تائهًا في هذا الأفق المظلم الذي أخذ ينفتح أمامي.

«مَن؟ عجبًا، مَن غيرُ مَن استدعَت خدعتُها السالفة والضرورة الحاليَّة وفاتَه حتى تستريح؟ مَن غيرُ الإلهة الجميلة، المحبة للمال، خادعةِ الرجال ...»

وثبتُ واقفًا على قدميَّ لما أصابني من فزعٍ واشمئزازٍ مفاجئ. وقلت: «لا تذكر الاسم! أنت مخطئ؛ لكن لا تنطق بالاسم.»

قال: «عذرًا، ولكن سيتعيَّن أن يُنطَق مرات كثيرة، ويمكننا أن نبدأ هنا والآن ... مَن غير ماري ليفنوورث؛ أو، إن كنتَ تُفضل، السيدة كلافرينج؟ هل فوجئت كثيرًا؟ كان ذلك هو ظني من البداية.»

الفصل السادس والعشرون

السيد جرايس يوضح موقفه

هل تهبُّ الرياح في ذلك الاتجاه؟

مسرحية «جعجعة بلا طحن»

لا أنوي أن أخوضَ في وصف المشاعر المختَلطة التي ثارَت في داخلي بفعلِ هذا التصريح. مثلَما يُقال إن الغريق يعيش في لحظةٍ واحدةٍ مرعبةٍ أحداثَ حياته كلها، كذلك مرَّت كلُّ كلمةٍ ألقتها ماري على مسامعي، بدايةً من تقديم نفسها لي في غرفتها، صباح يوم التحقيق، وحتى الحوار الأخير بيننا ليلة زيارة السيد كلافرينج، في عقلي على هيئة مَشاهد جامحةٍ تتغير باستمرارٍ، تركَتْني مشدوهًا من المغزى الذي بدا أن مسلكها كلَّه قد اكتسبه نتيجةَ الضوء المتوهج الذي سُلِّط عليه الآن.

صاح رفيقي وهو في قمة هدوئه: «أرى أنني قد اجتَررتُ للتو إلى أذنَيك سيلًا من الشكوك. ألم تفكر بنفسك في هذا الاحتمال أبدًا؟»

«لا تسألْني فيمَ فكَّرت. أعرف فقط أنني لن أصدق أبدًا أن شكوكك صحيحة. وأنه، مع مقدار النفع الكبير الذي يمكن أن تكون ماري قد جنَتْه من وفاة عمها، لم يكن لها يدٌ أبدًا في الأمر؛ أقصد، مشاركة فعلية.»

«وما الذي يجعلك متأكدًا جدًّا من هذا؟»

«وما الذي يجعلك متأكدًا جدًّا من العكس؟ عليك أنت أن تُثبت إدانتها، وليس من شأني أنا أن أُثبت براءتها.»

قال السيد جرايس بأسلوبه المتأني، الساخر: «حسنًا، هل تتذكر هذا المبدأَ من القانون؟ إن كنت أتذكره على نحوٍ صحيح، فأنت لم تكن دقيقًا دومًا في مراعاته، أو لم تكن دومًا راغبًا في مراعاته، عندما كانت المسألة تتعلَّق بما إذا كان السيد كلافرينج هو القاتلَ أو لا.»

«لكنه رجل. لا يبدو أمرًا بشعًا أن تتهمَ رجلًا بارتكاب جريمة. لكن أن تتهم امرأة! وهذه المرأة بالذات! فهو ما لا أُطيق سماعه؛ إنه أمرٌ بشع. لا شيء سوى اعترافٍ صريح من جانبها سيجعلني أُصدق أن ماري ليفنوورث، أو أي امرأة أخرى، ارتكبت هذه الفعلة. لقد كانت الجريمة بالغةَ الوحشية، ومدروسةً بتأنٍّ شديد، و...»

قاطعني السيد جرايس قائلًا: «طالِع السجلات الجنائية.»

لكني كنتُ متعنتًا. فقلت: «لا تُهمني السجلات الجنائية. كل السجلات الجنائية في العالم لن تجعلَني أُصدق أن إلينور ارتكبت هذه الجريمة، ولن أكون أقلَّ سماحةً مع ابنة عمها. إن ماري امرأة بها عيوب، لكنها ليست مجرمة.»

«يبدو أن حكمك عليها أكثر تساهلًا مما كان عليه حكم ابنة عمها.»

تمتمتُ، مستشعرًا بضوء جديد يقتحمني لكنه أشدُّ تخويفًا: «لا أفهم ما تعنيه.»

«عجبًا! هل نسيت، وسط تسارع هذه الأحداث الأخيرة، جملةَ الاتهام التي استمعنا إليها مصادفةً وهي يُنطَق بها بين هاتَين السيدتَين صباح يوم التحقيق؟»

«لا، ولكن ...»

«هل اعتقدتَ أن من نطقت به كانت ماري مخاطِبةً إلينور؟»

«بالتأكيد، ألم يكن ذلك ما اعتقدتَه؟»

يا للابتسامة العابرة التي ارتسمت على وجه السيد جرايس! قال: «لا بالتأكيد. تركتُ لك هذا المسار السهل البسيط. ظننت أنه كان يكفي أن يتتبع شخصٌ واحد ذلك المسار.»

ها هو الضوء، الضوء الذي كان يقتحمني! قلت: «وهل تقصد أن تقول إن إلينور هي التي كانت تتحدث عندئذٍ؟ وأنني كنتُ أعمل كل تلك الأسابيع مستندًا إلى خطأ فادح، وأنه كان بوسعك أن تُصحح لي ذلك بكلمة واحدة، ولم تفعل؟»

«حسنًا، في ذلك الشأن، كان لديَّ هدفٌ من أن أدعَك تتبعُ الاتجاه الذي سلكتَه لمدةٍ. في المقام الأول، لم أكن متأكدًا من أيهما كانت تتحدث؛ مع أنه لم يُساورني إلا قليلٌ من الشك حول الأمر. فالصوتان، كما لا بد أنك لاحظتَ، كانا متشابهَين جدًّا، بينما كان المسلكان اللذان وجدناهما عليهما عند دخولنا كانا يقبلان التفسيرَ على الوجهَين، بافتراض أن ماري كانت في موقف توجيه اتهام، أو في دفع اتهام. ولذلك، بينما لم أتردَّد في تبيُّن التفسير الحقيقي للمشهد أمامي، سرَّني أنْ وجدتُك تَقبل تفسيرًا معاكسًا؛ لأنه بهذه الطريقة أُتيحت الفرصة لاختبار صحة الفرضيَّتَين؛ وهو ما كان تصرفًا صائبًا في قضية غامضة إلى هذا الحد. وبالتبعية، توليتَ أنت القضية بِناءً على فكرة اتخذتَها نقطةَ

انطلاقٍ لك، وفعلتُ أنا من منطلق فكرةٍ أخرى. رأيتَ أنت جميع الحقائق وهي تتطورُ من خلال اعتقاد ماري في أن إلينور مذنبة، وأنا من خلال العكس. وماذا كانت النتيجة؟ في حالتك، ظهر شك، وتناقض، وتشويشٌ دائم، واستعانة غير مبرَّرة بمصادر غريبةٍ من أجل التوفيق بين الظواهر وقناعاتك؛ أما في حالتي، فكان ثمة تيقنٌ متزايد، واعتقاد لم يَزِده تطورُ الأحداث إلا قوةً وجعله أرجح.»

ومن جديدٍ مرَّت أمامي تلك المشاهدُ الجامحة المعبرة عن الأحداث، والنظرات، والكلمات. تأكيدات ماري المتكررة ببراءة ابنة عمها، وموقف إلينور المتسم بصمتٍ نبيل بشأن أمور معينة ربما اعتبرتها بمثابة إشارةٍ إلى القاتل.

وأخيرًا أقررت: «لا بد أن فرضيَّتك هي الصحيحة؛ كانت إلينور هي مَن تحدثت بلا شك. فلديها قناعة بأن ماري مذنبة، وأنا كنتُ أعمى، حقًّا، إذ لم أرَ ذلك منذ البداية.»

«إذا كانت إلينور تعتقد أن ابنة عمها هي مَن ارتكبت هذه الجريمة، فلا بد أن لديها بعضَ الأسباب المقنعة لتفعل ذلك.»

لم أجد مَفرًّا من أن أُقر بصحة ذلك أيضًا. «إنها لم تخف في صدرها ذلك المفتاح الذي كان بمثابة دليل — والذي لا يعرف أحدٌ أين عُثِر عليه؟ — ثم تُتلفه، أو تسعى إلى إتلافه، هو والخطاب الذي قدَّم ابنة عمها إلى العامة باعتبارها بلا مبادئ ومعكرةً لصفو رجلٍ وثق بها، دون أسباب.»

«لا، لا.»

«ومع ذلك تأتي أنت، رجل غريب، وشاب لم يكن قد رأى ماري ليفنوورث مطلقًا في أي ضوء آخر إلا ذلك الضوء الذي سعت فيه طبيعتها المتدلِّلة إلى أن تظهر نفسها، تتجرَّأ على أن تقول إنها بريئة، في مواجهة المسلك الذي اعتصمَت به ابنة عمها من البداية!»

قلت، في إعراضٍ شديد عن أن أقبلَ استنتاجاته: «لكن، إلينور ليفنوورث ليست إلا بشرًا. ربما تكون قد أخطأَتْ في الاستدلالات التي توصلَت إليها. لم تُصرح مطلقًا إلى أي شيء يستند شكُّها؛ ولا يمكننا أن نعرف على أيِّ أساسٍ تتمسكُ بموقفها الذي تحدَّثتَ عنه. من المرجح أن يكون كلافرينج هو القاتلَ مثل ماري، مع كل ما نعرفه، وربما من أجل كل ما تعرفه هي.»

«يبدو أنك موهومٌ باعتقادك بأن كلافرينج هو القاتل.»

تراجعت إلى الوراء. أكنتُ كذلك؟ أمن الممكن أن تكون إدانةُ السيد هارويل المبنيةُ على خيالٍ بخصوص هذا الرجل قد أثرَت عليَّ بأي طريقة على حساب تقديري الجيد للأمور؟

أردفَ السيد جرايس قائلًا: «وقد تكون محقًّا. أنا لا أدَّعي أني متشبثٌ بأفكاري. فربما تنجح تحقيقاتٌ مستقبلية في أن تُثبت شيئًا عليه؛ رغم أني أستبعد ذلك الاحتمال. فسلوكه بصفته زوجًا في السر لسيدةٍ تمتلك من الدوافع ما يحثها على ارتكاب جريمة كان متوافقًا جدًّا من البداية إلى النهاية.»

«كله باستثناء تركه لها.»

«ليس استثناءً على الإطلاق؛ لأنه لم يتركها.»

«ماذا تعني؟»

«أعني أن السيد كلافرينج، بدلًا من أن يُغادر البلد، تظاهر بذلك فحسب. وأنه، بدلًا من أن ينسحب إلى أوروبا بِناءً على طلبها، اكتفى بأن يُغيِّر مكان إقامته، ويمكن الآن العثور عليه، ليس في المنزل المقابل لمنزلها فحسب، بل في نافذة ذلك المنزل، حيث يجلس يومًا بعد يوم يُراقب مَن يدخل ومن يخرج من الباب الأمامي لمنزلها.»

تذكَّرتُ نصيحته لي عند رحيله، في تلك المقابلة التي لا تُنسى التي جرت بيننا في مكتبي، ووجدت نفسي مرغمًا على أن أضع افتراضًا جديدًا على أساسها.

«لكني تأكدتُ في فندق هوفمان من أنه كان قد أبحر إلى أوروبا، ورأيتُ بنفسي الرجل الذي أقر بتوصيله إلى الباخرة.»

«بالضبط.»

«هل عاد السيد كلافرينج إلى المدينة بعد ذلك؟»

«في عرَبة أخرى، وإلى منزل آخر.»

«وتقول لي إن هذا الرجل لا غبار عليه؟»

«لا؛ أقول فحسبُ إنه لا يوجد أدنى دليل ضده على أنه الشخص الذي أردى السيد ليفنوورث قتيلًا.»

وقفت، وأخذتُ أجول في الغرفة جَيئةً وذَهابًا، ولدقائق قليلة ساد الصمتُ بيننا. لكن الساعة، بدقات عقاربها، ذكرتني بما يستلزم إنجازُه في ذلك الوقت؛ ولهذا، استدرتُ، وسألت السيد جرايس عما ينوي فعله الآن.

قال: «لا يوجد سوى أمرٍ واحد يمكنني فعله.»

«وما هو؟»

«أن أَمضي وفقًا لهذه الأدلة التي بحوزتي، وأطلب إلقاء القبض على الآنسة ليفنوورث.»

كنتُ في ذلك الوقت قد روَّضتُ نفسي على التحمُّل، وكان بمقدوري أن أسمع هذا من دون أن أُظهر أي تعجُّب. لكنني لم أستطع أن أدعَ تلك المسألة تمرُّ من دون أن أبذل أي جهد لأتصدَّى لما يعتزم فعله.

قلتُ: «لكن، لا أرى أيَّ دليل لديك، قاطع بما يكفي، ليسمحَ باتخاذ إجراءاتٍ صارمةٍ كهذه. أنت نفسُك أشرتَ إلى أن وجود دافعٍ ليس دليلًا كافيًا، حتى وإن اقترن بحقيقة أن الطرف المشتبه به كان في المنزل وقتَ وقوع جريمة القتل؛ فماذا تملك إلى جانب ذلك لديك لتُوصيَ بالقبض على الآنسة ليفنوورث؟»

«معذرة. قلت «الآنسة ليفنوورث»؛ كان لا بد أن أقول «إلينور ليفنوورث».»

«إلينور؟ ماذا! مع أنك أنت والجميع اجتمعتم على التفكير في أنها الوحيدة، من الأطراف المشتبَه في ارتكابها الجريمة، البريئة تمامًا من أي ذنب؟»

«ومع ذلك هي الوحيدة التي يمكن أن تُقَدَّم ضدها شهادةٌ قاطعة من أي نوع.»

لم يكن بوسعي سوى الإقرارِ بذلك.

علَّق بجدية شديدة: «سيد ريموند، لقد تعالَتْ أصواتُ الرأي العام؛ ولا بد من اتخاذ خطوةٍ ما لإرضائه، حتى ولو مؤقتًا. لقد جعلَت إلينور نفسها عُرضةً لاشتباه الشرطة فيها، ولا بد أن تتحمَّل عواقب تصرُّفها. أنا آسف؛ إنها إنسانة نبيلة، وأنا معجب بها، ولكن إقامة العدل أولى، ورغم أنني أظن أنها بريئة، سأكون مجبرًا على إلقاء القبض عليها، إلا إذا ...»

«ولكن لا يمكنني تقبُّل هذا. إنه يُلحِق ضررًا يتعذَّر إصلاحه بامرأةٍ ذنبُها الوحيد هو تفانيها المُغالى فيه وفي غير محله تجاه ابنة عمٍّ لا تستحق. إذا كانت ماري هي ...»

واصل السيد جرايس حديثه، وكأنني لم أقُل شيئًا: «إلا إذا حدث شيءٌ بين تلك اللحظة وصباحِ الغد.»

«صباح الغد؟»

«أجل.»

حاولتُ أن أستوعب كلامه؛ وحاولت أن أُواجه حقيقةَ أن كل جهودي قد ذهبت هباءً، وباءت بالفشل.

سألتُه في يأس: «ألَا يمكنك أن تمنحَني يومًا آخر؟»

«لتفعل ماذا؟»

للأسف، لم أكن أعرف. «لأواجه السيد كلافرينج، وأنتزع منه الحقيقة.»

تذمَّر السيد جرايس قائلًا: «لتفسد القضية بأكملها!» وتابع: «لا، يا سيدي؛ سبق السيفُ العذَل. إلينور ليفنوورث تعرف النقطة الوحيدة التي تُثبت هذه الجريمة على ابنة عمها، ولا بد أن تخبرنا بها أو تتحمَّلَ عواقب امتناعها عن الكلام.»

بذلتُ محاولةً أخرى.

«لكن لماذا غدًا؟ لقد استنزفنا بالفعل وقتًا كثيرًا في تحرياتنا، فلماذا لا نأخذ المزيدَ من الوقت؛ لا سيما وأن الأثر الذي نقتفيه يزداد إثارةً؟ المزيد من التتبع ...»

صاح السيد جرايس، فاقدًا السيطرةَ على أعصابه: «المزيد من الهراء الإضافي!» وأردف: «لا، سيدي؛ قد ولَّى وقتُ التتبع؛ ولا بد من اتخاذ إجراءٍ حاسم الآن؛ ومع ذلك، بالتأكيد، لو استطعت أن أعثر على الحَلْقة المفقودة التي أريدها ...»

«الحَلْقة المفقودة؟ ماذا تقصد؟»

صاح فجأةً: «الدافع المباشر لارتكاب الجريمة؛ فمِن شأن دليلٍ من قريبٍ أو من بعيدٍ على أن السيد ليفنوورث توعَّد ابنة أخيه بالغضب منها، أو السيد كلافرينج بالانتقام منه، أن يضعَني في زاويةٍ أرى منها القضية بوضوح في الحال؛ من دون القبض على إلينور عندئذٍ! لا، يا سيدتي! سأدخل إلى غرفة جلوسك المبهرة بلونها الذهبي، وعندما تسألينني إن كنتُ قد عثرت على القاتل حتى تلك اللحظة، سأقول «أجل»، وأُريكِ ورقةً ستُفاجئكِ! ولكن ليس من السهل العثورُ على الحلقات المفقودة. لقد وظفنا جواسيسَ — كما تحب أن تطلق على منظومة التحريات لدينا — لتحري الأمر مِرارًا وتَكرارًا، ولكن لم نصل إلى أي نتيجة على الإطلاق. لن نحصل على ما نريد إلا عن طريق اعترافٍ من أحد هذه الأطراف العديدة في الجريمة.» صاح فجأة: «سأخبرك بما سأفعله.» وتابع: «كانت الآنسة ماري قد أرادت أن أُوافيَها بالأحداث؛ فهي، كما تعرف، متلهفة إلى اكتشاف القاتل، وتعرض مكافأة سخية من أجل ذلك. حسنًا، سأُلبي رغبتها. إن ما لديَّ من شكوك، إلى جانب أسبابها، ستُفضي إلى كشفٍ مثير للاهتمام. ولن أتعجَّب كثيرًا إن أفْضَت إلى اعترافٍ مثيرٍ للاهتمام بالمثل.»

لم يسَعْني إلا أن أهبَّ واقفًا في فزع.

«في جميع الأحوال، أنوي المحاولة. إلينور تستحق تلك المجازفة الكبيرة على أي حال.»

قال: «لن يُجديَ هذا نفعًا.» وتابع: «إن كانت ماري مذنبة، فلن تعترف بذلك أبدًا. وإن لم تكن ...»

«فستُخبرنا بهُوية الجاني.»

«لن تفعل إن كان الجاني هو كلافرينج، زوجها.»

«بل ستفعل؛ حتى وإن كان الجاني هو كلافرينج، زوجها. فهي ليست متفانيةً مثل إلينور.»

لم يسَعْني سوى الإقرارِ بذلك. فهي لن تُخفي مفاتيح لكي تحميَ شخصًا آخر: لا، إذا وُجِّه اتهام لماري، فستتكلم. بدا المستقبل أمامنا قاتمًا بما يكفي. ومع ذلك عندما، بعد مدةٍ قصيرةٍ من ذلك، وجدتُ نفسي وحيدًا في الشارع المزدحم، طغَتْ فكرة أن إلينور كانت حرةً على جميع الأفكار الأخرى، وملأت كِياني ودفعتني حتى سرتُ عائدًا إلى بيتي تحت المطر، لدرجة أن ذلك اليوم صار ذكرى مميزةً في حياتي. فقط مع حلول الظلام بدأتُ أدرك الموقف البالغَ الحرجِ الذي كانت تقف فيه ماري لو أن فرضية السيد جرايس كانت صحيحة. لكن، عندما استولت عليَّ هذه الفكرة، لم يكن يمكن لأي شيءٍ أن يُبعدها عن ذهني. ومع أنني أجفلت منها، ظلت أمامي دومًا، تُطاردني بأكثر الهواجس المرعبة. ومع أنني أويتُ إلى السرير مبكرًا، لم أنجح في أن أنال قسطًا من النوم أو الراحة. ظللتُ أتقلَّب طَوالَ الليل على وسادتي، قائلًا لنفسي في تَكرارٍ كئيب: «يجب أن يحدث شيءٌ ما، سيحدث شيءٌ ما، ليمنع السيد جرايس من الإقدام على هذا الأمر المروِّع.» ثم كنت أنهض فجأة وأسأل عمَّا يمكن أن يحدث؛ ويقلب عقلي الاحتمالات المختلفة؛ مثل احتمال أن يعترف السيد كلافرينج، أو أن هانا قد تعود، أو أن ماري قد تنتبه إلى موقفها وتنطق بالكلمة التي كنتُ قد رأيتها أكثرَ من مرة تختلجُ على شفتَيْها. لكن بعد المزيد من التفكير اتضح لي كم هو مستبعدٌ أن يحدث أيٌّ من تلك الاحتمالات، ثم أصبح عقلي مستنزفًا بشدة حتى إني استغرقت في النوم في الساعات الأولى من الفجر، فحلمت بأنني أرى ماري واقفة فوق السيد جرايس ممسكةً بمسدس في يدها. استيقظتُ من هذه الرؤيا السارة على صوت طرقةٍ قوية على الباب. نهضت مسرعًا، وسألت من الطارق. جاء الردُّ في هيئة ظرفٍ دُفِع من تحت الباب. التقطته، فوجدتُ أنه رسالةٌ قصيرة. كانت من السيد جرايس، وكان نصها كما يلي:

«احضر فورًا؛ عُثر على هانا تشيستر.»

«عُثر على هانا؟»

«لدينا سببٌ يدعونا إلى أن نظن ذلك.»

«متى؟ أين؟ من وجدها؟»

«اجلس، وسأخبرك.»

سحبتُ كرسيًّا في فورةٍ من الخوف والرجاء، وجلست بجوار السيد جرايس.

«ليست مختبئةً في الخِزانة»، أكَّد لي ذلك الشخصُ بنبرةٍ جافة، ملاحظًا دون شكٍّ أن عينَيَّ أخذتا تجولان في الغرفة في توترٍ وانعدام صبر. «لسنا على يقينٍ تام من مكان وجودها. لكننا علمنا أن وجه فتاة يُعتقد بأنه وجه هانا قد شوهد في النافذة العلوية لمنزلٍ بعينه في ... لا تنتفض في «ر...» التي كانت منذ عامٍ مضى معتادةً على زيارتها بينما كانت مع الآنستَين ليفنوورث. والآن، بما أنه قد تقرَّر بالفعل مغادرتها نيويورك ليلة وقوع جريمة القتل، مستقلةً خط ... للسكك الحديدية، على الرغم من أننا لم نتمكَّن من التأكد من وجهتها، نرى أن المسألة تستحق التحريَ عنها.»

«لكن ...»

واصل السيد جرايس: «إذا كانَت هناك، فهي مُخبَّأةٌ؛ وأُبقيَتْ في تكتُّمٍ شديد. لم يرَها أحدٌ سوى المخبر، ولم تظهر أيُّ شكوكٍ بين الجيران عن وجودها في البلدة.»

«أخُبِّئت هانا في منزلٍ بعينه في «ر...»؟ منزل مَن؟»

تفضل عليَّ السيدُ جرايس بواحدةٍ من ابتساماته الأكثرِ تجهُّمًا. وقال: «اسم السيدة التي تُقيم معها موضحٌ في المراسلة وهو بيلدن؛ السيدة إيمي بيلدن.»

«إيمي بيلدن! الاسم الذي وجدته خادمة السيد كلافرينج في لندن مكتوبًا على ظرف ممزق؟»

«أجل.»

لم أُحاول أن أخفيَ سعادتي. وقلت: «إذن نحن على شفا اكتشافٍ ما؛ لقد تدخَّلَت العناية الإلهية، وستُنقذ إلينور! لكن متى وصَلَتْك هذه المعلومات؟»

«الليلة الماضية، أو بالأحرى صباح اليوم؛ أحضرها لي «كيو».»

«أكانت رسالة، إذن، إلى «كيو»؟»

«نعم؛ نتيجة تجسُّسه وهو في «ر...» حسب ظني.»

«من وَقَّعَها؟»

«سمكري محترم يقطن في المنزل المجاور للسيدة بيلدن»

«وهل هذه المرة الأولى التي تعلم فيها بشأن المدعوَّة إيمي بيلدن المقيمة في «ر...»؟»

«أجل.»

«أهي أرملةٌ أم متزوجة؟»

«لا أعرف؛ لا أعرف عنها أي شيء عدا اسمها.»

«لكنك أرسلت «كيو» بالفعل ليُجريَ تحرياتٍ عن الأمر؟»

«لا؛ المسألة أكثر تعقيدًا بقليلٍ من أن يتولَّاها بمفرده. فهو ليس على قدر المناسبات العظيمة، وربما يفشل لمجرد غياب عقلٍ مدبِّر يوجِّهه.»

«باختصار ...»

«أودُّ أن تذهب إلى هناك. نظرًا إلى أنني لا أستطيع أن أكون هناك بنفسي، لا أعرف أحدًا آخرَ على درايةٍ كافيةٍ بالقضية ليتعامل مع الموقف بنجاح. كما ترى، لا يكفي أن نعثر على الفتاة ونتعرَّف عليها. فالحالة الراهنة للأمور تتطلَّب إبقاء مسألة إلقاء القبض على شاهدةٍ بهذه الأهمية طيَّ الكتمان. والآن، لكي يتمكَّن رجلٌ من أن يدخل منزلًا غريبًا في قريةٍ بعيدة، ويعثر على فتاةٍ مختبئةٍ هناك، ويُخيفها، أو يُداهنها، أو يجبرها، حسب ما يقتضيه الموقف، ويأتي بها من مخبئها إلى مكتب محقِّقٍ في نيويورك، وكل هذا دون علم الجار الملاصق لها، إن أمكن، فهذا يتطلَّب تقديرًا سديدًا للموقف، وقدراتٍ ذهنية، وذكاءً شديدًا. ثم تأتي مسألة المرأة التي تُخفيها! فلا بد أنَّ لديها من الأسباب ما يحملها على فعلِ ذلك؛ ويجب معرفةُ تلك الأسباب. بالنظر إلى الأمور من جميع الوجوه، المسألة حسَّاسة. هل تظن أن بإمكانك أن تنجح فيها؟»

«أود أن أحاول على الأقل.»

جلس السيد جرايس على الأريكة. ثم قال بتذمر، وهو يحدق بتأنيبٍ إلى أطرافه التي لا حول لها ولا قوة: «ليتك تُدرك المتعة التي تضيع مني بسببك!» وأردف: «لكن للضرورة أحكام. متى يمكنك أن تبدأ؟»

«فورًا.»

«جيد! سيغادر قطار المحطة في الساعة ١٢:١٥. استقلَّ ذلك القطار. بمجرد أن تصل إلى «ر...» سيكون أمر تحديد وسيلة التعرف على السيدة إيمي بيلدن دون إثارةِ شكوكها راجعًا إليك. «كيو»، الذي سيتبعك، سيكون على أُهْبة الاستعداد ليُقدِّم لك أي مساعدةٍ قد تحتاج إليها. لكن عليك أن تفهمَ النقطةَ التالية: نظرًا إلى أنه سيكون بلا شكٍّ متنكرًا، فلن يكون بوسعك أن تتعرَّف عليه، فضلًا عن أن تتدخَّل فيما يفعله ومخططاتِه، إلى أن يُعطيَك الإذن بأن تفعل ذلك، بإشارةٍ متفَقٍ عليها مسبقًا. عليك أن تعمل بأسلوبك، وهو بأسلوبه، إلى أن تستدعيَ الظروف تبادُلَ الدعم والمساعدة. ليس باستطاعتي حتى أن أجزم إن كنت ستراه أم لا؛ فربما يجد أن من الضروري أن يبقى بعيدًا عن الأنظار، لكن يمكنك أن تثقَ في شيءٍ واحد، وهو أنه سيعرف مكانَك، وأن بإظهار، حسنًا، لنقل منديل أحمر من الحرير، ... هل لديك شيء من هذا القبيل؟»

«سأشتري واحدًا.»

«سيعتبره إشارةً إلى أنك ترغب في حضوره أو مساعدته، سواءٌ كان ذلك المنديل ظاهرًا عليك شخصيًّا أو على نافذة غرفتك.»

قلت، لَمَّا توقَّف عن الحديث: «أهذه كل التعليمات التي بإمكانك أن تُقدِّمها لي؟»

«أجل، لا أعرف أي تعليمات أخرى. يجب أن تعتمد بقدرٍ كبير على تقديرك الشخصي للأمور، ومقتضيات اللحظة. لا يُمكنني أن أخبرك الآن ما عليك فعله. فِطنتُك ستكون خيرَ مرشدٍ لك. فقط، إن أمكن، دعني أعرف الأخبار منك أو أرَك غدًا في نفس التوقيت.»

ثم سلَّمني نظام تشفيرٍ في حالة أنني رغبت في أن أبعث إليه ببرقية.

الجزء الثالث

هانا

الفصل السابع والعشرون

إيمي بيلدن

> لم أسعَدْ بساعةٍ من التحدُّث إلى رجلٍ أوفر منه مزاحًا ضمن حدود الدعابة اللائقة.
>
> مسرحية «عذاب الحب الضائع» [ترجمة أنطوان مشاطي]

كان لديَّ موكل في «ر…» اسمه مونيل؛ وكنت قد خططتُ أن أعرف منه أفضلَ وسيلةٍ للوصول إلى السيدة بيلدن. من ثَمَّ، عندما أسعدني الحظُّ بأن ألتقيَ به، تقريبًا بعد وصولي مباشرةً، إذ أخذني على طريقٍ طويلٍ في عربةٍ يقودها حصانه الشهير ألفريد، اعتبرت أن هذا اللقاء بدايةٌ مبشِّرة لمغامرةٍ مجهولة النتائج.

بعد أن تبادلنا التحياتِ الأولى، كان سؤاله ونحن نتجه سريعًا نحو البلدة: «حسنًا، كيف حال يومك؟»

أجبته: «دورك فيه يسير بسلاسةٍ كبيرةٍ»؛ وبينما كنت أفكِّر في أنه لا يمكنني أن آمُلَ مطلقًا في أن أحظى باهتمامه بشئوني إلا بعد أن أُوفِّيَه حقه فيما يخص شئونه هو، أخبرته بكل ما بوسعي إخباره به بخصوص الدعوى التي لم يُفصَل فيها بعد؛ وهو موضوع تتشعَّب منه أسئلة وإجابات لا حصر لها، لدرجة أننا كنا قد قطعنا البلدة مرتين قبل أن يتذكر أن لديه خطابًا يتعين إرساله. ولأنه كان مهمًّا، ولا يحتمل أيَّ تأخير، هُرِعْنا في الحال إلى مكتب البريد، حيث دخل، وتركني بالخارج أشاهد التدفق الضئيل إلى حدٍّ ما للغادين والرائحين الذين في ذلك الوقت من اليوم يتخذون من مكتب بريد بلدة ريفية مكان التقائهم. وسط هؤلاء، لاحظتُ بوجهٍ خاص، لسببٍ ما، سيدةً في منتصف العمر؛ ولا يمكنني أن أعرف السبب في ذلك؛ لم تكن هيئتها مميزةً بأي حالٍ من الأحوال. ومع

ذلك عندما خَرجَت، وهي تحمل خطابَين في يدها، أحدهما في ظرفٍ كبير والآخر في ظرفٍ صغير، واللذَين أخفَتهما تحت وشاحها بسرعةٍ عندما التقَت عيناها بعينيَّ، وجدتُ نفسي أتساءل عمَّا كان في خطابَيْها ومَن يمكن أن تكون، حتى إن نظرةً عابرةً من رجلٍ غريبٍ قد تدفعها لا إراديًّا إلى فعلِ هذا التصرُّف المريب. لكن ظهور السيد مونيل من جديدٍ في نفس اللحظة صرف انتباهي، وفي شغفي بالحوار الذي تبع ذلك، سرعان ما نسيتُ أمر السيدة وخطابَيْها. ولأنني عقدت العزم على ألَّا أدعَ له أي فرصةٍ للعودة إلى الحديث في موضوعِه الذي لا ينتهي، وهو القضية، صِحتُ مع أول فرقعةٍ للسوط: «تذكرت، كنت أعرف أمرًا أردتُ أن أسألك عنه. وهو: هل تعرف أي أحدٍ في هذه البلدة باسم بيلدن؟»

«هناك أرملة السيد بيلدن في البلدة؛ لا أعرف غيرها.»

«هل اسمها الأول إيمي؟»

«أجل، السيدة إيمي بيلدن.»

قلت: «تلك هي مَن أقصدها.» ثم سألته: «مَن هي، وما قصتها، وما حدود معرفتك بها؟»

قال: «حسنًا، لا أفهم ما الذي يجعلك مهتمًّا بمسنَّةٍ تشعر فيها بطيبةٍ مألوفة مثلها، لكن بما أنك تسأل عنها، لا مانع لديَّ من أن أخبرك أنها الأرملة المحترمة لنجار متوفًّى من هذه البلدة؛ وأنها تعيش في منزل صغير في آخر الشارع هناك، وأنه إن كان لديك أيُّ عجوز شريد بائس تريد أن تجد له مبيتًا في الليل، أو أي أسرة فقيرة تضم صغارًا في حاجةٍ إلى الرعاية، فهي من ينبغي أن تلجأ إليها. أما عن معرفتي بها، فأعرفها مثلما أعرف عشراتٍ آخرين من أفراد كنيستنا هناك أعلى التل. عندما أراها أتحدث إليها، وهذا كل ما في الأمر.»

«قلت إنها أرملة محترمة. هل لها عائلة؟»

«لا؛ تعيش وحدها، ودخلها محدود؛ على ما أعتقد؛ لا بد أن لديها دخلًا؛ إذ إنها تضع دائمًا نقودًا في طبق التبرعات، لكنها تُمضي وقتها في الحياكة وأعمالٍ خيريةٍ من هذا القبيل، مثلما بوسع امرأةٍ ذات موارد محدودة وقلبٍ مِعطاء أن تجد الفرصة لفعل ذلك في بلدة مثل هذه. ولكن، عجبًا، لماذا تسأل؟»

قلت: «عمل، مهمة عمل. فالسيدة بيلدن — بالمناسبة أبقِ هذا الأمر سرًّا — متورطة في قضية تخصُّني، وشعرت أنه يتعيَّن بدافع الفضول إن لم يكن بدافع المال، أن أعرف شيئًا عنها. لكني لم أصل لشيءٍ حتى الآن. واقع الأمر أنَّني على استعدادٍ لأن أقدِّم شيئًا،

يا مونيل، مقابل فرصة دراسة شخصية هذه السيدة. والآن ألا يُمكنك أن تجعلني أتعرَّف عليها لأدخل منزلها بطريقةٍ تجعل من الممكن والمناسب لي أن أتحدثَ معها عندما تُتاح لي الفرصة؟ سيُصبح المكتب ممتنًّا لك إن تمكنت من فعل ذلك.»

«حسنًا، لا أعرف؛ أظن أنه يمكنني فعل ذلك. إنها معتادةٌ على استقبال نزلاء في الصيف عندما يمتلئ الفندق بالنزلاء، وربما يمكنني أن أستحثَّها على أن توفِّر سريرًا لصديقٍ لي حريصٍ على أن يُقيم بالقرب من مكتب البريد لأنه ينتظر برقية عمل، حالما تصل ستتطلَّب اهتمامه في الحال.» ثم غمز لي السيد مونيل غمزةً خبيثة، متخيلًا قليلًا مدى قرب الملاحظة التي أشار إليها.

«لا يلزم أن تقول ذلك. قل لها إن لدي نفورًا غريبًا من النوم في فندقٍ عام، وإنك لا تعرف مَن هو أصلح منها لاستقبالي، خلال المدة القصيرة التي أرغب أن أُوجَد فيها في المدينة.»

«وماذا سيُقال عن حُسن ضيافتي عندما أدعك تبقى في هذه الظروف في أي منزلٍ آخر غير منزلي؟»

«لا أعرف؛ سيقال كلامٌ قاسٍ جدًّا، بلا شك؛ لكنني أظنُّ أن حسن ضيافتك يمكن أن يحتمل الأمر.»

«حسنًا، إذا كنتَ مُصرًّا، سنرى ما يمكن فعله.» ثم اتجه إلى بيتٍ أبيض متواضع وبسيط، لكنه كان ذا مظهر جذاب بما يكفي، وتوقف هناك.

قال، وهو يقفز إلى الأرض: «هذا هو منزلها؛ لندخل ونرَ ما في وُسعنا فعله.»

نظرت لأعلى إلى النوافذ، التي كانت جميعها مغلقةً عدا نافذتَي الشرفة المطلة على الشارع، وقلت لنفسي: «إن كان لديها أحدٌ مختبئ هنا، وترغب في أن تحتفظ بأمر وجوده في المنزل سرًّا، فمن الحماقة أن آمُل أنها ستستضيفني، مهما كانت جودة التوصية التي جئت بها.» لكن أُسوة بصديقي، نزلت بدوري وتبعته إلى الممشى القصير الذي تحدُّه الحشائش إلى الباب الأمامي.

أبدى ملاحظةً وهو يطرق الباب: «لا خادمة لديها؛ لذا ستأتي بنفسها لتفتح الباب؛ لذا استعد.»

بالكاد كان لديَّ وقت لِأُلاحظ أن ستائر النافذة على يساري أُسدِلَت فجأةً، عندما سُمع وقع أقدام مسرعة في الداخل، وجذبت يدٌ مسرعةٌ البابَ وفتحته؛ ورأيت أمامي السيدة التي كنت قد لاحظتها عند مكتب البريد، والتي كان تصرُّفها مع الخطابَين قد استوقفني

لغرابته. تعرفت عليها من أول نظرة، رغم أن ملابسها كانت مختلفة، وأصابها بالتأكيد بعضُ القلق أو الاضطراب الذي بدَّل التعبير على وجهها، فجعل أسلوبها مغايرًا عن ذلك الوقت، فبدا عليها التوتر وترددٌ بسيط. لكني لم أرَ أي سبب يدعوني إلى أن أظن أنها تذكرتني. على العكس، لم تكن النظرة التي وجهتها نحوي تحوي سوى التساؤل، وعندما دفعني السيد مونيل إلى الأمام قائلًا: «صديق لي؛ في الحقيقة هو المحامي الخاص بي من نيويورك»، انحنَتْ في مجاملةٍ سريعةٍ قديمة الطراز كان مدلولها الوحيد رغبةً واضحةً في الظهور بمظهر المدركة للشرف الممنوح لها، وسط غشاوة مشكلة معينة أربكَت كلَّ ما يتعلق بها.

قال موكلي بصوتٍ ناعم ودودٍ كان مقصودًا منه أن يُعيد أفكار شخصٍ إلى مجراها الصحيح: «جئنا لنسألَكِ معروفًا، يا سيدة بيلدن؛ لكن ألن تسمحي لنا بالدخول؟» وأردف: «لقد سمعت كثيرًا عن منزلِك المريح، وأنا سعيدٌ بهذه الفرصة التي ستسمح لي أن أرى ذلك بعيني.» وفي تجاهلٍ تامٍّ لنظرة الممانعة المتفاجئة التي قابلَت بها تقدُّمه، اتجه بجُرأةٍ إلى الغرفة الصغيرة التي ظهر على نحوٍ جذابٍ بِساطُها الأحمر المبهج وحوائطها الزاهية المعلقة عليها صور من خلال الباب الموارب على يسارنا.

بعدما وجدَت منزلها قد تعرَّض للغزو هكذا على يدِ انقلاب على الشاكلة الفرنسية، فعلَت السيدة بيلدن أفضل ما يمكن فعله في هذا الموقف، وألحَّت عليَّ أن أدخل أنا أيضًا، وأبدَت لي حفاوةً كبيرة. أما السيد مونيل، فبلغ الذروة في محاولاته أن يبدوَ لطيفًا؛ لدرجة أنني سرعان ما وجدت نفسي أضحك على تعليقاتِه الطريفة، مع أن قلبي كان مضطربًا تمامًا؛ مخافةَ ألا تُكلل محاولاتنا، بعد كل ذلك، بالنجاح الذي كانت قطعًا تستحقه. في الوقت نفسِه، أخذ أسلوب السيدة بيلدن يلين أكثر فأكثر، فاندمجَت في الحديث بسهولةٍ لم أكن أتوقعُها من امرأةٍ في مثل ظروفها المتواضعة. في الواقع، سرعان ما رأيت أنها لم تكن امرأةً عادية. كان ثمة لطفٌ في حديثها، وأسلوبها كان، جنبًا إلى جنب مع روحها التي تشعُّ بالأمومة وهيئتها العامة، يبعث في النفس سرورًا كبيرًا. كانت آخرَ امرأة في العالم يمكن للمرء أن يشكَّ في أن لها أيَّ يدٍ في أي عملٍ خفي، لو لم تُظهِر تردُّدًا مُريبًا عندما فتح السيد مونيل موضوع استضافتي هناك.

قالت: «لا أدري، يا سيدي؛ يسعدني هذا، ولكن»، ورمقَتْني بنظرةٍ متفحصة، وأردفَت: «في الحقيقة، لم أستقبل أيَّ نزلاء مؤخرًا؛ فقد ابتعدت عن الأمر برمته، وأخشى ألَّا أستطيع أن أوفر له سبل الراحة. خلاصة القول، عليك أن تُعفيني من ذلك.»

رد السيد مونيل: «ولكن لا يمكننا ذلك.» وأضاف: «هل يُعقل أن تُغري شخصًا بأن يدخل غرفة مثل هذه»، وألقى نظرةَ إعجاب شديدٍ على أرجاء الغرفة التي، مع كل بساطتها، كانت ألوانها الدافئة والشعور العامُّ الذي تبعثه بالراحة جديرَين بالإعجاب الوافر، وتابع: «ثم تُعرضي عنه عندما يلتمسُ منكِ بتواضعٍ أن ينال شرف المبيت لليلة واحدة في رحاب المغريات التي بداخلها؟ لا، لا يا سيدة بيلدن؛ إنني أعرفكِ جيدًا وأعرف أنكِ لستِ أهلًا لذلك. لو أن لعازر نفسه كان قد أتى إلى بابك لَما كنتِ ستردينه؛ فضلًا عن رجلٍ طيبٍ ذكيٍّ مثلِ صديقي هذا.»

بدأَتْ حديثها، وبدا للحظةٍ في عينَيْها ما يُشبه ميلًا خفيفًا لتقبُّل الثناء: «أنت بارعٌ جدًّا»؛ وأردفت: «ولكن ليس لديَّ أي غرفة مُعَدَّة. كنت قد بدأت للتو في تنظيف المنزل، والفوضى تعمُّ المكان والآن السيدة رايت، في الجهة المقابلة من الشارع ...»

قاطعها السيد مونيل بطريقةٍ قاطعةٍ صريحة: «صديقي سينزل هنا.» وأردف: «إذا لم يكن باستطاعتي أن أستضيفه في منزلي — وهو أمرٌ غير مستحسنٍ لأسبابٍ معينة — فعلى الأقل سأشعر بالرضا لعِلمي بأنه في عهدة أفضل ربة منزل في «ر...»»

تدخلتُ في الحديث، ولكن من دون أن أُظهر اهتمامًا مبالغًا فيه، فقلت: «أجل، سأشعر بالأسف، منذ أن قدِمت إلى هنا، لاضطراري إلى أن أذهب إلى أي مكان آخر.»

أشاحَت بناظرَيْها المضطربَين عنَّا ناظرةً تجاه الباب.

بدأتْ حديثها قائلةً: «لم يسبق أن دعاني أحدٌ مطلقًا غيرَ مضيافة؛ لكن كل شيء في حالةٍ من الفوضى. في أي وقتٍ تريد أن تأتي؟»

أجبت: «كنت آمُل أن أبقى الآن؛ فلديَّ بعض الخطابات التي يتعيَّن أن أكتبها، ولا أطلب أكثر من أن تأذني لي بالجلوس هنا لأكتبها.»

ما إن نطقتُ كلمةَ خطابات حتى رأيت يدها تندسُّ في جيبها في حركةٍ لا بد أنها كانت تلقائية، لأن تعبير وجهها لم يتغيَّر، وأسرعت بالرد قائلةً:

«حسنًا، بإمكانك ذلك. إذا كان بوسعك أن تحتمل ظروف الإقامة البائسة هذه التي بإمكاني أن أوفِّرها لك، فلن يقال إنني رفضتُ ما يسرُّ السيد مونيل أن يطلق عليه معروفًا.»

ومثلما كانت ممانعتُها كاملة، كذلك كان استقبالها، فمنحَتنا ابتسامةً لطيفة، ومتجاهلةً شكري لها، أسرعَت إلى الخارج مع السيد مونيل نحو العربة، حيث تلقَّت

حقيبتي وكذلك، وهو ما راقها أكثر، بلا شك، عبارات المجاملة التي كان الآن أكثر إقبالًا من أي وقتٍ مضى على أن يمنحها إياها.

قالت حالما دخلَتْ من جديد: «سأعمل على تجهيز غرفةٍ لك في غضون وقتٍ قصيرٍ جدًّا.» وأردفت: «في تلك الأثناء، خُذ راحتَك هنا؛ وإذا كنت تريد أن تكتب، أظن أنك ستجد كلَّ ما تحتاج إليه للكتابة في هذه الأدراج.» وجرَّت منضدةً إلى الكرسيِّ المريح الذي كنت أجلس عليه، ثم أشارَت إلى الأدراج الصغيرة في الأسفل، بمظهرٍ يدل على رغبةٍ واضحةٍ في أن تجعلَني أستفيد بأي شيءٍ وكل شيءٍ كان لديها، حتى إنني وجدتُ نفسي أتساءل عن موقفي مستشعرًا شيئًا من الحرج الذي لم يكن بعيدًا كلَّ البعد عن أن يكون خزيًا.

قلتُ: «شكرًا لكِ؛ معي أدواتي»، وأسرعتُ بفتح حقيبتي وإخراج حافظة أدوات الكتابة، التي كنت أحملها معي دائمًا.

قالت: «سأتركُك إذن»؛ وبانحناءةٍ سريعةٍ، ونظرةٍ قصيرةٍ وخاطفةٍ من النافذة، أسرعتْ بمغادرة الغرفة.

كان بوسعي أن أسمع خطواتها تعبر الممر، ثم تصعد درجتَين أو ثلاثَ درجاتٍ على السلم، ثم تتوقَّف، وتصعد بقيةَ درجات السلَّم، ثم تتوقَّف مرةً أخرى، ثم تُواصل سيرها. وعندئذٍ كنت في الطابق الأول وحدي.

الفصل الثامن والعشرون

تجربة غريبة

هذه أكبر عملية سلب يمكن أن تتم.

مسرحية «جعجعة بلا طحن» [ترجمة جورج يونس]

كان أول شيء فعلته هو أن أتفقدَ في حرصٍ شديد الغرفةَ التي كنت أجلس فيها.

كانت غرفة مبهجة، كما سبق أن أشرت؛ كانت مربَّعة، ومشمسة، ومؤثَّثة بأثاثٍ جيد. على الأرض كانت توجد سجادة قرمزية، وعلى الجدران العديد من الصور، وعلى النوافذ، ستائر مبهجة بيضاء اللون، منقوشة نقشًا أنيقًا بالسراخس وأوراق الشجر الخريفية؛ وفي إحدى الزوايا ميلوديون عتيق، وفي وسط الغرفة منضدة مغطَّاة بمفرش بلونٍ زاهٍ، وعليها تحف متنوعة صغيرة، لم تكن فخمة أو غالية الثمن، إلا أنها كانت جميلة وأَضْفَت طابَعًا تجميليًّا بدرجةٍ ما. لكن لم تكن هذه الأشياء، التي كنت قد رأيتها مِرارًا في الكثير من المنازل الأخرى، هي ما لفت انتباهي بوجهٍ خاص، أو جذبني لأخطوَ الخطواتِ المتمهلةَ التي كنت أخطوها الآن في أرجاء الغرفة. لقد كان الشيء الكامن في كل هذه الأشياء؛ الأدلة التي عثرت عليها، أو التي سعيت للعثور عليها، ليس فقط في الغرفة بوجهٍ عام، بل في كل غرض تافهٍ وجدته، على شخصية وميول وماضي المرأة التي كان عليَّ أن أتعامل معها في ذلك الحين. ولهذا السبب تفحصتُ الصور الداجيريَّة على رفِّ المدفأة، والكتب على الرف، والأسطوانات الموسيقية على الحامل؛ لهذا الغرض ولغرضٍ آخر هو ملاحظة إن كان ثمة أيُّ دلائل يمكن العثور عليها على وجود أي شخص في المنزل مثل هانا.

لذلك اتجهتُ أولًا إلى المكتبة الصغيرة، التي سرَّني أن أراها تشغل إحدى زوايا الغرفة. كانت تتألف من بضعة كتب مختارةٍ بعناية، في الشعر، والتاريخ، والأدب، وكانت في حد ذاتها كفيلةً بأن تُبرر دلائلَ حسِّ الثقافة الخفي الذي يمكن ملاحظتُه في حديث

السيدة بيلدن. أخرجت نسخة مهترئة من كتاب لبايرون، وفتحتها. كانت فيه فِقرات كثيرة مؤثِّرة، وبعد أن أرجعت الكتاب معلقًا في ذهني على تأثرها الواضح بالمشاعر الرقيقة المرهَفة، اتجهت ناحية الميلوديون المواجه لي في الحائط الآخر. كان مغلقًا، لكنه فوق الجزء العلوي منه المغطَّى بأناقة كان يوجد كتابٌ أو اثنان من كتب التراتيل، وسلة من التفاح الخمري اللون، وقطعة أشغال حياكة أُنجز نصفها.

التقطتُ تلك القطعة، لكني اضطُررت إلى إعادتها إلى مكانها مرةً أخرى دون أي فكرةٍ عن الهدف الذي حِيكَت لأجله. واصلت السير، وتوقفت بعد ذلك أمام نافذة تُطل على باحة صغيرة كانت تُحيط بالمنزل، وتفصله عن المنزل المجاور له. لم يجذب المشهدُ بالخارج اهتمامي، لكن النافذة نفسَها استرعت انتباهي؛ وذلك لأنني رأيتُ مكتوبًا بشيء ذي رأسٍ ماسي على أحد الألواح الزجاجية صفًّا من الحروف التي، بقدر ما استطعت أن أتبيَّن، كان المراد بها كلمةً أو كلمات، لكنها لم تُجْدِ بتاتًا في إيصال معنًى أو صلةٍ واضحة. وبعدما اعتبرتها من فعل فتاة في مدرسة، نظرت لأسفل إلى سلَّة أشغال الحياكة الموضوعة على المنضدة بجانبي. كانت مليئةً بشتى أنواع أشغال الحياكة، التي لمحت بينها زوجَين من الجوارب كانا أصغر بكثيرٍ من أن يخصَّا السيدة بيلدن، كما كانا في حالة سيئة للغاية بحيث لا يمكن أن يخصَّاها؛ فأخرجتُهما بحذرٍ، وتفحصتهما لأتبين أي اسم عليهما. لا تفزع عندما أقول إنني رأيتُ حرف «ه» بارزًا بوضوح عليهما. بعدما ألقيتهما معيدًا إياهما إلى مكانهما، وأخذت نفَسَ ارتياحٍ عميقًا، محدقًا، وأنا أفعل ذلك، عبر النافذة، عاودَت هذه الحروفُ اجتذاب انتباهي.

Gnirevale Yram

ما الذي يمكن أن تعنيَه هذه الحروف؟ أخذت أقرؤها على مهلٍ بالمقلوب، وعندئذٍ ... ولكن حاول بنفسك، أيها القارئ، واحكم أنت على دهشتي! منتشيًا بالاكتشاف الذي توصلتُ إليه، جلست لأكتب خطاباتي. كنت بالكاد قد انتهيت منها، عندما دخلَت السيدة بيلدن لتخبرني بأن العشاء جاهز. قالت: «أما عن غرفتك، فقد أعددتُ غرفتي حتى تستخدمها، ظنًّا مني أنك تُفضِّل البقاء في الطابق الأول.» وفتحَت بابًا بجانبي على مصراعيه، وأرتني غرفةً صغيرة، ولكن مريحة، بالكاد رأيت فيها سريرًا، ومكتبًا ضخمًا، ومِرآةً غَبْشاء ذات إطارٍ قاتمٍ عتيق الطراز.

واصلَت كلامها، وهي تقودني إلى غرفة الطعام: «إنني أعيش بطريقةٍ بدائيةٍ للغاية؛ لكنني أهدف إلى أن أشعرَ بالراحة وأُشعِرَ الآخَرين بها أيضًا.»

أجبتُ، بنظرة إعجاب إلى المائدة التي أحسنَت إعدادها: «ينبغي أن أقول إنكِ نجحتِ بجدارةٍ في ذلك.»

ابتسمَتْ، فشعرتُ أنني قد مهَّدت الطريق لألقى قَبولًا عندها بطريقةٍ تصب في صالحي.

لن أنسى ذلك العشاء ما حييت! مَذاقه الشهي، ورفع الكُلفة المبهج، وأجواؤه الخيالية الساحرة والطاغية، والشعور المستمرُّ بالخزي، مع كل طبق شهي تُلح عليَّ بتناوله، من التهام طعام هذه المرأة وفي قلبي مثلُ هذا الإحساس بالشك! لن أنسى ما حييتُ الإحساسَ الذي شعرت به عندما أدركتُ لأول مرة أن ثمة شيئًا يجول في عقلها، وترغب بشدةٍ في أن تبوح به لكنها كانت لا تزال مترددة! أو كيف جفلَت عندما قفزت قطةٌ من سطح المطبخ المائل على الرقعة المزروعة بالعشب خلف المنزل؛ أو كيف خفق قلبي عندما سمعت، أو ظننتُ أني سمعت، طقطقةَ ألواحٍ فوق رأسي! كنَّا في غرفة طويلة وضيقة، من المستغرب أنه بدا أنها تقطع المنزل بالعرض، ويُفضي أحد جانبيها إلى غرفة الجلوس، والآخرُ إلى غرفة نوم صغيرة، كانت تلك هي الغرفة التي خُصِّصَت لي.

سألتُ، بينما كانت السيدة بيلدن تضع على عكس رغبتي قطعةً أخرى من الدجاج البارد في طبقي: «أتعيشين في هذا المنزل وحدَكِ، ولا تخافين؟» وتابعت: «أليس لديكم لصوصٌ في هذه البلدة؛ ألا يوجد متشردون من المنطقي أن تخشاهم امرأةٌ وحيدة مثلك؟»

قالت: «لن يؤذيني أحد؛ ولم يأتِ إلى هنا أحدٌ أبدًا طلبًا لطعام أو مأوًى إلا ونال ما يبغي.»

«من الأحرى أن أتصوَّر، إذن، أنه، في حياتكِ التي تعيشينها، على طريق سكة حديدية، قد يتردَّد عليكِ بصفةٍ مستمرة أشخاصٌ وَضيعون شغلهم الشاغل أن يأخذوا كلَّ ما في وسعهم الحصولُ عليه دون أن يُقدموا شيئًا في المقابل.»

«لا يمكنني أن أردَّهم خائبين. إنها الرفاهية الوحيدة التي أملكها: أن أُطعم الفقراء.»

«لكنَّ الأشخاص العاطلين، المضطربين، الذين لا يعملون، ولا يتركون الآخرين ليعملوا ...»

«لا يزالون فقراء.»

عَلَّقتُ في ذهني قائلًا إنه تجلس ها هنا سيدة تتستَّر على فتاة بائسة أصبحت بطريقة أو بأخرى عالقةً في شِباك جريمة شنيعة، ثم انسحبت من المائدة. وبينما كنت أفعل ذلك،

خطر ببالي أنها، في حال وجود أي شخص في المنزل كهانا مثلًا، ستنتهز الفرصة لتصعد لأعلى ومعها شيء لتقدمه له كطعام؛ وحتى لا تشعر بأنَّ وجودي يعوقها، خرجت إلى الشرفة ومعي سيجاري.

بينما كنت أُدخن، نظرت حولي بحثًا عن «كيو». شعرت بأن أقلَّ دلالة على وجوده في البلدة قد تشجعني في هذا الوقت. لكن يبدو أنه لم يكن من الممكن أن أتحصَّل على ذلك الرضا البسيط. إذا كان «كيو» في أي مكان قريب، فإنه كان متواريًا تمامًا عن الأنظار.

حالما عدتُ لأجلس مع السيدة بيلدن (التي أعرف أنها نزلت ومعها طبق فارغ؛ إذ عندما دخلت إلى المطبخ كي أشرب، أدركتها في اللحظة التي كانت تضعه فيها على المائدة)، وقرَّرت أن أنتظر مدةً معقولة من الوقت حتى تُدلي بما لديها؛ ثم إذا لم تتكلَّم، فسأحاول من جانبي أن أباغتها بكشف سرها.

لكن اعترافها كان هو أسرعَ وكان ذا طبيعةٍ مغايرةٍ لما كنتُ أتوقَّعه، واجتر معه سلسلة من النتائج.

بدأَت حديثها، وقد أمسكت بقطعة الحياكة، متصنِّعةً المثابرة: «أعتقد أنك محامٍ.»

قلت: «أجل؛ تلك هي مهنتي.»

ظلَّت صامتةً لبرهةٍ، مُحْدِثةً فوضى عارمة في عملها في الحياكة وأنا واثقٌ من ذلك، من نظرة الاندهاش والاستياء التي أبدَتْها. ثم، بنبرةٍ مترددة، علقت قائلةً:

«لعلك توافق، إذن، أن تُسدِيَ لي بعض النصائح. ففي حقيقة الأمر، أنا واقعةٌ في ورطةٍ غريبةٍ؛ لا أعرف كيف أهرب منها، وفي الوقت نفسِه تتطلَّب اتخاذ إجراء فوري. أود أن أخبرك عنها، هل تسمح لي بذلك؟»

«بالتأكيد؛ سيُسعدني كثيرًا أن أسدي لكِ أي نصيحة في استطاعتي.»

تنفَّسَت الصعداء بنوعٍ من الارتياح المبهم، مع أن جبينها ظل مقطبًا.

«الأمر كله يمكن أن يقال بكلماتٍ قليلة. بحوزتي مجموعة أوراقٍ ائتمنَتني عليها سيدتان، على أساس أنني يجب ألا أُعيد هذه الأوراق ولا أتخلَّص منها دون معرفة تامة ورغبةٍ صريحة من الطرفين، سواءٌ بشخصهما أو بالكتابة. ويجب أن تظلَّ تلك الأوراق في حيازتي حتى ذلك الحين، وأنه لا ينبغي لأي شيءٍ أو أي شخصٍ أن يسلبها مني.»

قلت؛ إذ توقفَت عن الحديث: «ذلك أمر يسهل فَهمُه.»

«لكن، أتاني خبرٌ من واحدةٍ من السيدتَين، تلك المعنية أكثر بهذه المسألة، مفاده أنه، لأسبابٍ معينة، يجب التخلُّص فورًا من تلك الأوراق من أجل أَمْنها وسلامتها.»

«وتريدين أن تعرفي ما يجب عليكِ فعلُه في هذه الحالة؟»

أجابت مرتجفةً: «أجل.»

نَهَضتُ واقفًا. لم أستطع أن أتمالك نفسي: انهال عليَّ وابلٌ من الافتراضات.

«نصيحتي هي أن تتمسَّكي بالأوراق بكل ما أُوتيتِ من قوةٍ حتى تخرجَ من عُهدتكِ برغبةٍ مشتركة من كلا الطرفين.»

«هل هذا هو رأيك بصفتك محاميًا؟»

«أجل، وبصفتي رجلًا. ما دمتِ قد تعهدتِ بهذا، فليس أمامكِ خيارٌ آخر. ستُعدُّ خيانة للأمانة إذا انصعتِ لطلب أحد الطرفين دون الآخر. إن الحزن أو الخسارة التي قد يستتبعها احتفاظكِ بهذه الأوراق لا يُعفيكِ من تعهدك. أنتِ لا تملكين أن تفعلي أي شيءٍ في هذا الشأن؛ علاوةً على أنكِ لستِ واثقةً على الإطلاق من أن مزاعم ذلك الطرف المهتمِّ بالأمر حقيقية. ربما ترتكبين جُرمًا أعظم، بأن تُتلفي بهذه الطريقة، ما يبدو جليًّا أنه ذو قيمةٍ كبيرةٍ للطرفَين، من إبقائكِ على هذه الأوراق سليمة، حسب الاتفاق.»

«ولكن ماذا عن الظروف؟ فالظروف تُغير الحال؛ وباختصار، يبدو لي أن رغبة الطرف المعني أكثر بالأمر يجب أن تُؤخذ بعين الاعتبار، لا سيما وأن ثَمة جفوةً بين السيدتَين قد تحول دون الحصول على موافقة الطرف الآخر بأي شكلٍ من الأشكال.»

قلت: «لا؛ فالخطأ لا يمكن أبدًا أن يُعالَج بخطأٍ آخر؛ ولا نملك حرية إقامة العدل بارتكاب ظلم. لا بد من الاحتفاظ بالأوراق، يا سيدة بيلدن.»

أخفضَت رأسَها في خيبة أملٍ شديدة؛ كان واضحًا أنها كانت ترغب في إرضاء الطرف المهتم بالأمر. قالت: «القانون قاسٍ جدًّا. قاسٍ جدًّا.»

قلت: «هذا ليس ما يُمليه القانون وحده، بل محض الواجب.» وأردفتُ: «فلتنظري إلى المسألة من زاويةٍ مختلفة؛ لنفترض أن شرف وسعادة الطرف الآخر كانت تعتمد على الاحتفاظ بالأوراق؛ فماذا سيكون واجبكِ حينها؟»

«ولكن ...»

قلت: «العقد شريعةُ المتعاقدين، ولا يمكن التلاعب به. ما دمتِ قد قبلتِ الأمانة وأعطيتِ كلمتكِ، فأنتِ ملزمةٌ بالوفاء به، بحذافيره، وبكل شروطه. وستكون خيانة للأمانة إن أعدتِ أو أتلفتِ الأوراق من دون موافقةٍ مشتركةٍ من الطرفَين.»

استقرَّ ببطءٍ شعورٌ بحزنٍ شديدٍ على ملامح وجهها. وقالَت: «أظنك على حق»، ثم صمتَتْ.

بينما كنت أُراقبها، قلت لنفسي: «لو أنني كنتُ مكان السيد جرايس، أو حتى «كيو»، ما كنت سأبرح هذا المقعد حتى أسبُرَ غورَ هذا الأمر، وأعرفَ اسمَيِ الطرفَين المعنيَّين بالأمر، والمكان الذي أُخفِيَتْ فيه تلك الأوراق الثمينة، التي أقرَّت بأنها في غاية الأهمية.» ولكن إذ لم أكن أيًّا منهما، لم يسَعني إلا أن أجعلها تتحدَّث عن الموضوع حتى تُفلت منها كلمةٌ ما ربما تنفع كدليلٍ لتوضيح المسألة أمامي؛ ولذلك استدرت، وفي نيتي أن أسألَها بعض الأسئلة، فلفت انتباهي هيئةُ امرأةٍ خارجةٍ من الباب الخلفي للمنزل المجاور؛ إذ كان مظهرُها العام الواهن ووقفتها الخرقاء نموذجًا حرفيًّا لهيئة المتشردين الذين كنَّا نتحدَّث عنهم على مائدة العشاء. قَضَمَتْ جزءًا من كِسرة خبز ورمتها بعيدًا عند بلوغها الشارع، ومشت بتثاقلٍ على الطريق، وثوبها الرث، المثير للشفقة كونه كان باليًا ومتسخًا، يُرفرف في رياح فصل الربيع الشديدة، ليكشف عن حذاءٍ أحمر بالٍ متَّسخ بوحل الطريق.

قلت: «ثمة زَبونة قد تثير اهتمامكِ.»

بدا أن السيدة بيلدن قد أفاقت من شرودها. فوقفت على مهل، وألقت نظرة إلى الخارج، وبنظرة سرعان ما ازدادت لينًا تفحصَت هذه المرأة البائسة أمامها.

تمتمت قائلة: «يا لها من مسكينة! ولكن ليس بيدي أن أُقدم لها الكثير الليلة. كل ما بوسعي أن أقدمه لها هو عشاء جيد.»

ثم، تَوَجَّهَت إلى الباب الأمامي، وطلبَت منها أن تدور حول المنزل إلى المطبخ، وهناك، بعد لحظة أخرى، سمعت صوت المرأة الخشن في نغمة طويلة يقول: «فليُباركِكِ الرب!» والذي لم يكن ليخرج بهذه النبرة إلا نتيجةً لما وُضِع أمامها من أشياء طيبة بدا أن خِزانة مؤن السيدة بيلدن كانت تزخر بها.

لكن العشاء لم يكن هو كلَّ ما كانت تحتاج إليه. بعد مدةٍ طويلة، قضتها في المضغ حسب ظني، سمعت صوتها مرةً أخرى يعلو بالتوسل طلبًا لمأوًى.

«الحظيرة يا سيدتي، أو مخزن الحطب. أي مكان يمكنني أن أحتميَ فيه من الرياح.» ثم بدأت في سرد قصة طويلة عن العَوَز والمرض، كانت مثيرةً للشفقة لدرجة أني لم أُفاجَأ مطلقًا عندما أخبرتني السيدة بيلدن، عند عودتها، أنها قد وافقت — رغم عزمها السابق — على أن تسمح لهذه المرأة بأن تضطجع أمام مِدفأة المطبخ هذه الليلة.

قالت: «إن لها عينَين صادقتَين؛ وعمل الخير هو الرفاهية الوحيدة التي أمتلكها.»

كانت المقاطعة التي تسببَ فيها هذا الموقف قد قطعت حديثنا تمامًا. صعدت السيدة بيلدن لأعلى، وبقيتُ وحدي بعض الوقت لأتمعنَ فيما قد سمعته، ولِأُقرر الإجراء الذي

سأتخذه مستقبلًا. كنت قد توصَّلت للتو إلى استنتاجٍ مفاده أنه قد يستوي لديها احتمالُ أن تنجرف وراء مشاعرها لتُتلف الورق الذي في عُهدتها، وأن تتحكَّم فيها مبادئُ الإنصاف التي كنت قد أوضحتها لها، حين سمعتُها تنزل السلم خلسةً وتخرج من الباب الأمامي. مرتابًا في نواياها، أخذتُ قبعتي وأسرعت بملاحقتها. كانت تسير في طريقها في الشارع الرئيسي، وكانت أول فكرة راودتني أنها كانت تقصد منزل أحد الجيران أو ربما الفندق نفسه؛ لكنَّ التمايل المستقرَّ الذي سرعان ما تحول إليه إيقاعُ خطواتها المضطربة أقنعني بأنه كان لديها مقصدٌ بعيد مزمَع؛ ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى وجدتُ نفسي أجتاز الفندق والأبنية الملحقة به، وحتى مبنى المدرسة الصغير، الذي كان آخر مبنًى في هذا الطرف من القرية، وأدخل إلى قرية أخرى بعدها. ما الذي يمكن أن يعنيَه هذا؟

ولكن ظل جسدها المضطرب المسرع في مشيته، والهيئة الخارجية لجسمها، بوشاحها الذي تتدثر فيه وقبعتها الأنيقة، يختفي أكثرَ فأكثر في الظلمة التي كانت قد حلَّت في ذلك الوقت من إحدى ليالي شهر أبريل؛ وظللت أقتفي خطواتها، سائرًا على منطقةٍ عشبيةٍ على جانب الطريق خشية أن تسمع وَقْع أقدامي فتتلفتَ حولها. وأخيرًا وصلنا إلى جسر. كان بوسعي أن أسمعها تمر فوقه، ثم سكنَت جميع الأصوات. كانت قد توقَّفَت، ومن الواضح أنها كانت تُنصت. لم يكن من المناسب أن أتوقَّف أنا أيضًا؛ لذا استجمعتُ نفسي في شكلٍ غريبٍ قدر الإمكان، ومشيت على مهل مارًّا بها، لكن ما إن وصلتُ عند نقطة معينة، توقفتُ، وبدأت أعود أدراجي في ترقب شديد لجسدها الآخذِ في التقدم، حتى وصلتُ مرة أخرى عند الجسر. ولم تكن هناك.

ترسَّخَت لديَّ قناعةٌ حينها أنها قد اكتشفت الدافع وراء إقامتي في منزلها، وباقتيادي إلى خارجه، كانت قد أخذت على عاتقها أن تمنحَ هانا فرصةً للهرب، وكنت على وشك أن أسرع بالعودة إلى المهمَّة التي تركتها في غفلةٍ مني، عندما سمعت صوتًا غريبًا على يساري استوقفني. جاء هذا الصوت من ضفاف جدولٍ مائي متواضع يجري أسفل الجسر، وكان يُشبه صرير بابٍ قديم له مفصلات متهالكة.

قفزتُ من السور، وشققتُ طريقي بأقصى ما في وسعي إلى أسفل الحقل المنحدر في الاتجاه الذي أتى الصوت منه. كان الظلام حالكًا، وكانت خطواتي بطيئة؛ لدرجة أنني بدأت أخشى من أنني أُجازف بإضاعة الوقت في مطاردة لا طائل منها، لولا أن سطع شعاعُ ضوء غير متوقع في السماء، وعلى وهجه رأيت أمامي ما تراءى لي، في اللحظة الخاطفة التي أتيحت لي، أنه حظيرة قديمة. ومن اندفاع المياه بالقرب مني، قدَّرت أنه

في مكانٍ ما على حافة الجدول المائي؛ ولهذا تردَّدتُ في المضي قدمًا، عندما سمعت صوتَ أنفاسٍ متثاقلة بالقرب مني، أعقبها حركةٌ وكأنَّ شخصًا كان يتحسَّس طريقه فوق كومةٍ من ألواحٍ سائبة؛ وبعد قليل، بينما كنت واقفًا هناك، سطع وميضُ ضوءٍ أزرق خافت من داخل الحظيرة، فرأيت، من خلال الباب المتهالك المقابل لي، السيدة بيلدن واقفة وفي يدها عود ثقاب مشتعل، تحدِّق حولها في الجدران الأربعة التي تحيط بها. لم أجرؤ على التنفس، خشيةَ أن ألفت انتباهها، وأخذت أراقبها وهي تستدير وتُدقِّق النظر في السقف أعلاها، الذي كان قديمًا لدرجة أن أكثر مِن نصفه كان مفتوحًا إلى السماء، ثم إلى الأرض من تحتها، التي كانت متداعيةً بالقدر نفسِه، وأخيرًا إلى صندوقٍ صغيرٍ من القصدير أخرجَتْه من تحت وشاحها ووضعَته على الأرض عند قدمَيْها. أوصلني مَرْأى ذلك الصندوق في الحال إلى قناعةٍ فيما يتعلَّق بطبيعة مهمتِها. كانت ستُخفي ما لم تجرؤ على إتلافه؛ وإذ شعرت بالارتياح لهذه النقطة، كنت على وشك أن أخطوَ خطوةً إلى الأمام عندما انطفأ عود الثقاب الذي كان في يدها. بينما كانت منشغلةً بإشعال عود ثقاب آخر، ظننت أنه ربما من الأفضل لي ألَّا أُثير ذعرها بأن أقترب منها في هذا التوقيت، وأعرِّض نجاح مخطَّطي الرئيسي للخطر؛ وأن عليَّ أن أنتظر حتى تنصرف، قبل أن أحاول الحصول على الصندوق. وهكذا تقدمتُ خطوةً خطوة حتى وصلت إلى جانب الحظيرة وانتظرت حتى تُغادرها، مدركًا أنني إن حاولت أن أحدِّق عبر الباب، سأصبح عرضةً لأن تراني، بسبب خطوط البرق المتكررة، التي كانت تومض حولنا من كل جانب. مرَّت دقيقةٌ تلو أخرى، شهدَت تقلباتٍ غريبة بين ظلامٍ حالك وبريقٍ مفاجئ؛ وكانت ما زالت لم تخرج بعد. وأخيرًا، في اللحظة التي أوشكتُ فيها على أن أتحرَّك من مَخبئي وقد نَفِد صبري، عاودَت الظهور، وبَدَأَتْ في التراجع بخطواتٍ متعثرةٍ ناحية الجسر. لمَّا ظننت أنها بعيدةٌ تمامًا عن أن تسمَعني، تسللتُ من مخبئي ودخلت الحظيرة. كانت مظلمةً جدًّا بالطبع، لكن لأنني مدخِّن كنت أنا أيضًا أحملُ أعواد ثقاب مثلها، فأشعلت واحدًا، ورفعته لأعلى؛ لكنَّ ضوءَه كان واهنًا جدًّا، وإذ لم أكن أعرف تحديدًا أين أبحث، انطفأ دون أن أقتنص سوى لمحةٍ خاطفةٍ عن البقعة التي كنت أقف فيها. ومن ثَمَّ أشعلتُ عودًا آخر؛ ولكن رغم أني حصرت تركيزي في موضعٍ واحد، وتحديدًا، الأرض تحت قدَمَيَّ، انطفأ أيضًا قبل أن أتمكَّن من التخمين مستدلًّا بأي علامةٍ على المكان الذي كانت قد أخفَت فيه الصندوق. وحينئذٍ ولأول مرة أدركتُ الصعوبة التي كنت أُجابهها. ربما كانت قد قرَّرَت، قبل أن

تُغادر المنزل، في أي جزءٍ تحديدًا من تلك الحظيرة ستُخفي كنزها؛ لكن لم يكن يوجد أي شيء يدلني عليه: لم يكن بوسعي إلا أن أُهدر أعواد الثقاب. وقد أهدرتها بالفعل. أشعلت عشرات الأعواد وانطفأت قبل أن أتأكدَ من أن الصندوق لم يكن تحت كومة ركام متجمعة في أحد الأركان، وكنت قد أمسكت بآخر عودٍ في يدي قبل أن أُلاحظ أن أحد الألواح المكسورة في الأرضية كان قد زُحْزِحَ قليلًا بعيدًا عن مكانِه الصحيح. لقد تبقَّى لدي عود ثقاب واحد! وكان يجب أن أرفع ذلك اللوحَ، وأفتِّش تحته، وأُخرج الصندوق سليمًا، إن وُجد هناك. توصلتُ إلى أن عليَّ ألا أُهدر ما تبقَّى لي من موارد؛ لهذا جثوتُ على ركبتي في الظلام، وتحسست اللوح، وفحصته، فوجدته مفكوكًا. انتزعته بكل ما أُوتيتُ من قوة، فكسرته وألقيته جانبًا؛ ثم ما إن أشعلت عود الثقاب حتى نظرتُ في الفجوة التي صنعتها. وقعت عيناي على شيء، لم أستطع أن أعرف إن كان حجرًا أم صندوقًا، لكن لمَّا مددتُ يدي نحوه، طار عود الثقاب من يدي. كنت مستاءً من إهمالي، لكنني عزمتُ على أحصل على ما رأيته مهما كانت المخاطر، فأدخلت يدي عميقًا داخل الحفرة، وفي غضون لحظةٍ أخرى أصبح في يدي الشيء الذي أثار فضولي. كان الصندوق!

راضيًا بهذه النتيجة التي أثمرَت عنها محاولاتي، هممتُ بالانصراف، وكانت أمنيتي الوحيدة في تلك اللحظة هي أن أصل إلى المنزل قبل السيدة بيلدن. هل كان هذا ممكنًا؟ فقد سبقتني بدقائق عدة؛ وكان عليَّ أن أمرَّ بها في الطريق، وبذلك ربما تتعرف عليَّ. فهل كانت الغاية تستحق المخاطرة؟ قرَّرت أنها تستحق.

عدتُ إلى الطريق الرئيسي، وأخذت أسير بخطواتٍ مسرعة. ولمسافة قليلة نوعًا ما التزمتُ السير بالسرعة نفسِها، ولم أكن قد تخطيت أو قابلت أيَّ شخص. لكن على حينِ غِرة، عند منعطف الطريق، صادفتُ السيدة بيلدن على نحوٍ غير متوقَّع، واقفة في منتصف الطريق، تنظر خلفها. مرتبكًا إلى حدٍّ ما، أسرعتُ الخطى مارًّا بها بسرعة كبيرة، متوقعًا أن تبذل بعض الجهد لإيقافي. لكنها تركَتني أمرُّ من دون أن تتفوه بكلمة. في الواقع، أشك الآن في أنها رأتني أو سمعتني. تعجبت من تصرفها، وازداد اندهاشي من أنها لم تحاول أن تتبعني، ونظرت إلى الوراء، وعندئذٍ رأيت ما جعلها مكبَّلة في مكانها، وغافلة تمامًا عن وجودي. كانت الحظيرة وراءنا تحترق!

على الفور أدركتُ ما صنعَته يداي؛ كنت قد أوقعتُ عودَ ثقاب لم يكن قد انطفأ كليًّا، فسقط على مادة قابلة للاشتعال.

مشدوهًا لما أرى، توقفتُ بدوري، ووقفت أحدق. تصاعدت ألسنةُ اللهب أعلى فأعلى، واحتدمَت أكثر فأكثر حتى أضاءت السحب من فوقها، والجدول أسفل منها؛ ومن فرط ذهولي مما أرى، نسيت السيدة بيلدن. لكن بعد مدةٍ وجيزة، سرعان ما كانت الأنفاس اللاهثة بالقرب مني سببًا في أن يستحضرَ ذهني وجودها، فاقتربتُ أكثر منها، وسمعتها تصيح مثل شخص يتكلم وهو يحلم: «حسنًا، لم أكن أقصد أن أفعل هذا»؛ ثم أضافت بصوتٍ أكثر انخفاضًا، وفي نبرة صوتها شيءٌ من الرضا، «لكن لا بأس، على أي حال؛ سيصبح هذا الشيء مفقودًا إلى الأبد، وستكون ماري راضيةً دون أن يُلْقَى باللوم على أي شخص.»

لم أتباطأ لأسمع المزيد؛ إن كانت هذه هي النتيجة التي توصَّلَت إليها، فلن تنتظر هناك مدةً طويلة، لا سيما أن صوت الصيحات القادمة من بعيد والأقدام الراكضة أظهرَ أن حشدًا من صِبْية القرية كان في طريقه إلى مكان الحريق.

أول ما فعلته، عند وصولي المنزل، كان أن أطمئنَّ على أنه لم يكن ثمة أيُّ عواقب شريرة استتبعَت تَركي للمنزل بتهور تحت رحمة المتشردة التي كانت قد استضافتها؛ أما الأمر التالي فكان أن أعود إلى غرفتي، وأُلقي نظرة سريعة على الصندوق. وجدتُ أنه صندوق أنيق من القصدير، مغلقٌ بقُفل. مقتنعًا من وزنه أنه لم يكن بداخله شيء أثقلُ من الأوراق التي تحدثَت عنها السيدة بيلدن، أخفيتُه تحت السرير وعدتُ إلى غرفة الجلوس. كنت بالكاد قد جلست وأخذت كتابًا عندما دخلت السيدة بيلدن.

صاحت، وهي تخلع قبعتها وتكشف عن وجهٍ متورد من أثر الحركة، لكن تعبيراته كانت تشي بارتياحٍ كبير: «حسنًا! يا لها من ليلة! البرق يُنير سماءها، وثمة حريقٌ في مكانٍ ما في آخر الشارع، والمنظر في الخارج يَشيب له الوِلدَان. آمُل أنك لم تشعر بالوحدة»، وواصلت حديثها، حريصةً على تفحص وجهي الذي جعلتُه يبدو مضجرًا قدرَ استطاعتي. أردفت: «كانت لديَّ مهمة لا بد من تأديتها، ولكني لم أتوقَّع أنها ستستغرقُ وقتًا طويلًا هكذا.»

أجبتُها بردٍّ لا مُبالٍ، وأسرَعَتْ بالخروج من الغرفة لتُغلق المنزل.

انتظرتُ، لكنها لم تعد؛ خوفًا، ربما، من أن تفضحَ نفسها، كانت قد أوَت إلى غرفتها، وتركتني لأتولَّى أموري بنفسي بأفضلِ ما بوسعي. أُقر بأنني شعرتُ بارتياحٍ نوعًا ما لهذا. حقيقة الأمر أنني لم أكن أَقْوى على مواجهة أيِّ حدث مثير أكثرَ من ذلك في تلك الليلة، وكنتُ سعيدًا بإرجاء أي إجراء آخر حتى اليوم التالي. ولذلك، بمجرد انقضاء العاصفة، ذهبتُ إلى السرير، وبعد عدة محاولات فاشلة، تمكنتُ من النوم.

الفصل التاسع والعشرون

الشاهدة المفقودة

هربتُ، وصرخت صرخة الموت.

ميلتون

«سيد ريموند!»

كان الصوت هامسًا ونافذًا؛ جاءني في حُلمي، فأيقظني، وجعَلني أتطلَّع في المكان. كان الصباح قد بدأ ينبلج، وعلى ضوئه رأيت، واقفةً على عتبة الباب المفتوح المؤدي إلى غرفة الطعام، تلك المتشردةَ البائسة التي كان قد سُمِحَ باستقبالها في المنزل الليلة الماضية. لغضبي وارتباكي، كنت على وشك أن آمرها بالانصراف، لولا أنها، على حينِ غِرة، أخرجَت منديلًا أحمرَ من جيبها، فتبيَّن لي أنها المخبر «كيو».

قال، وهو يتقدم في عجالة ويضع ورقةً صغيرة في يدي: «اقرأ هذه.» ثم، من دون كلمة أو نظرة أخرى، غادر الغرفة، مغلقًا الباب وراءه.

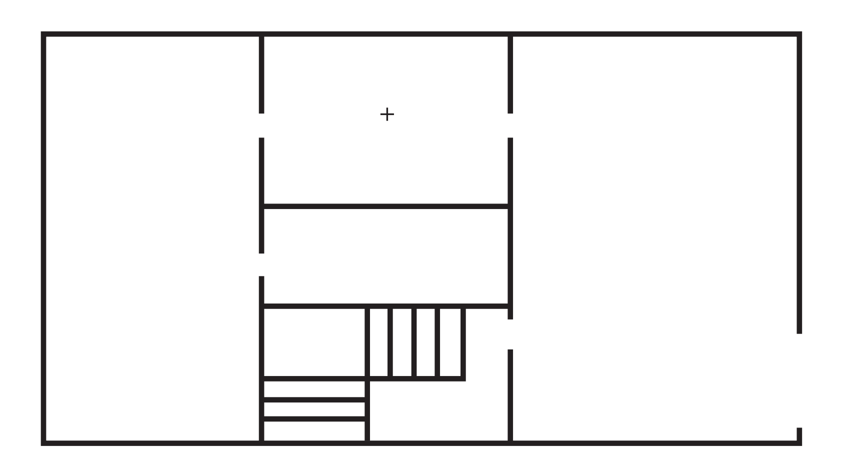
نهضتُ في اضطراب شديد، ودنوتُ بالورقة من النافذة، وعلى الضوء الذي ازدادت شدته بوتيرةٍ سريعة، تمكنت من قراءة السطور التالية المكتوبة في عجالة:

«إنها هنا؛ لقد رأيتها؛ في الغرفة المميزة بعلامة صليب في المخطَّط المرفق. انتظر حتى الساعة الثامنة، ثم اصعد لأعلى. سأختلقُ حيلةً ما لإخراج السيدة بيلدن من المنزل.»

كان مرسومًا في الأسفل المخططُ التالي للطابق العلوي:

إذن كانت هانا في الغرفة الصغيرة الخلفية فوق غرفة الطعام، ولم أكن واهمًا عندما ظننتُ أنني سمعت وقع أقدام بالأعلى، في الليلة الماضية. غمَرني شعورٌ بالارتياح، ومع ذلك في الوقت نفسِه أثارني كثيرًا احتمالُ أن ألتقيَ وجهًا لوجهٍ بمن كان لدينا كلُّ الأسباب

للاعتقاد بأنها على علمٍ بالسر المرعب المتعلق بمقتل ليفنوورث، فاستلقيتُ مرةً أخرى، وحاولت أن أحظى بساعةٍ أخرى من الراحة. لكن سرعان ما تخليتُ عن محاولتي في يأسٍ، واكتفيتُ بالسماع إلى أصوات الحياة وهي تُفيق من سُباتها وقد بدأت في الإعلان عن نفسها في المنزل والحي.



نظرًا إلى أن «كيو» قد أغلق الباب وراءه، لم يكن بوُسعي إلا أن أسمع صوت نزول السيدة بيلدن خافتًا على درجات السلم. لكن سمعتُ بوضوحٍ كافٍ الصيحةَ القصيرة النابعة من المفاجأة التي أطلقتها السيدة بيلدن عند بلوغها المطبخَ واكتشافها أن الفتاة المشرَّدة قد انصرفت وأن الباب الخلفيَّ مفتوحٌ على مِصراعيه، ولوهلةٍ كنت واثقًا من أن «كيو» قد أخطأ بمغادرته من دون تمهيد. لكنه لم يكن قد درس شخصية السيدة بيلدن عبثًا. عندما دخلت، أثناء تحضيرها للإفطار، إلى الغرفة المجاورة لغرفتي، تمكنتُ من سماع غمغمتها إلى نفسها:

«يا لها من مسكينة! لقد عاشت طويلًا في الحقول وعلى جانب الطريق، وتجد أنه من غير الطبيعي أن تُحبَس في المنزل طوال الليل.»

فِقرة الإفطار! الجهد المبذول لتناول الطعام وأن أبدوَ غيرَ مبالٍ، وأن أُجاريَها في الحديث دون ارتكاب أخطاء؛ آمُل ألَّا أُواجِه مثل هذا الموقف ثانية أبدًا! ولكنه انتهى أخيرًا، وتُركتُ حرًّا أترقَّب في غرفتي وقتَ هذه المقابلة المهيبة والمأمولة رغم ذلك. مرَّت الدقائق

ببطء؛ دقَّت الساعة معلنةً الثامنة، وفي اللحظة التي سكنَت فيها الاهتزازة الأخيرة، أتى صوتُ طرقٍ عالٍ على الباب الخلفي، واندفع صبيٌّ إلى المطبخ، يصرخ بأعلى صوته: «والدي أصيب بنوبة! أنجِديني يا سيدة بيلدن! والدي أُصيب بنوبة؛ تعالي!»

نَهَضتُ، على نحوٍ طبيعي، وأسرعتُ ناحية المطبخ، وقابلني وجهُ السيدة بيلدن المضطربُ عند المدخل.

قالت: «حطَّاب مسكين في آخر الشارع أصابته نوبة. هل تتكرَّم بأن تحرس المنزل بينما أرى ما يمكنني فعله من أجله؟ لن أغيبَ طويلًا قدر المستطاع.»

وتقريبًا دون أن تنتظر ردِّي، تلقَّفَت وشاحها، وألقَتْه على رأسها، وتبعَت الصبي، الذي كان في حالةٍ من الاضطراب الشديد، إلى الشارع.

في الحال عمَّ المنزلَ صمتٌ مطبق، وسيطر عليَّ أعظمُ خوفٍ عشتُه في حياتي. بدا لي أن ترك المطبخ، وصعود تلك الدرجات، ومواجهة تلك الفتاة كانت كلُّها أمورًا فوق طاقتي؛ لكن حالما وضعتُ رجلي على درج السلم، وجدتُ نفسي متحرِّرًا من ذلك الخوف الاستثنائي الذي تلبَّسني وتملَّك مني، وبدلًا من ذلك، قادني نوعٌ من الفضول الشديد إلى فَتْح الباب الذي رأيته في الأعلى بعنفٍ جديدٍ على طبيعتي، وهو عنفٌ، ربما، لم يكن مناسبًا للموقف على الإطلاق.

وجدتُ نفسي في غرفة نومٍ واسعة، كان من الواضح أنها الغرفة التي أقامت بها السيدة بيلدن الليلة الماضية. بالكاد توقفت لأُلاحظ بعض الدلائل التي تعكس أنها قضَت ليلةً قلقةً، ثم اتجهتُ إلى الباب المؤدي إلى الغرفة المميزة بعلامة الصليب في المخطَّط الذي رسمه لي «كيو». كان الباب في حالته الأولية، مصنوعًا من ألواح خشب الصَّنَوْبَر المطليِّ بشكلٍ عشوائي. توقفتُ أمامه، وأنصتُّ. كان كل شيء ساكنًا. رفعت المزلاج، وحاولتُ الدخول. كان الباب موصدًا. توقفت مرةً أخرى، ووضعتُ أذني على ثقب المفتاح. لم يأتِ أي صوتٍ من الداخل؛ القبر نفسُه لم يكن من الممكن أن يكون أكثرَ سكونًا. في ذهولٍ وحيرة، نظرت حولي وسألتُ نفسي عن أفضل ما بوسعي فعله. وفجأةً تذكرت أنني، في المخطط الذي كان «كيو» قد أعطاني إياه، كنت قد رأيت إشارةً إلى بابٍ آخر يُفضي إلى الغرفة نفسِها من الغرفة التي في الجهة المقابلة في الممر. أسرعت ناحيته، وحاولت أن أفتحَه بيدي. لكنه كان موصدًا مثل الباب الآخر. اقتنعتُ أخيرًا أنه لم يبقَ أمامي سوى

استعمال القوة، فتحدثتُ لأول مرة، وناديتُ الفتاة باسمها، وأمرتُها أن تفتح الباب. لم أتلقَّ أي رد، فصحتُ بصوت عالٍ وبنبرةٍ حادة:

«هانا تشيستر، لقد كُشِف أمركِ؛ وإن لم تفتحي الباب، سنُضطرُّ إلى فتحه بالقوة؛ لا تحملينا على هذا، وافتحي الباب فورًا.»

لم يأتِ ردٌّ بعد.

تراجعتُ خطوةً إلى الوراء، وألقيت بكامل ثقلي على الباب. فصدر صوتُ طقطقة منذر بسوء، ولكن الباب ظلَّ مقاومًا.

توقفتُ مدةً طويلة بما يكفي لأن أستيقنَ من أنه لم تحدث أي حركة في الداخل، ثم دفعته مرة أخرى، وهذه المرة دفعتُه بكل ما أوتيتُ من قوة، فانخلع من مفصلاته، وسقطتُ إلى الأمام داخل غرفةٍ خانقة، باردة، مظلمة حتى إني توقَّفت لوهلةٍ لأستجمعَ حواسي المشتتةَ قبل أن أجترئَ على النظر حولي. كان حسنًا أنني فعلتُ ذلك. بعد لحظة أخرى، أصابني شحوبُ وثباتُ الوجهِ الأيرلندي الجميل الذي أخذ يُحدق فيَّ من بين الأغطية المتدلية لفراش، المكومة إلى الحائط بجانبي، بقُشَعْريرةٍ مميتة، لدرجة أنه، لولا لحظةُ الاستعداد تلك، لأصابني هلع شديد. وإذ كان الأمر كذلك، لم أستطع أن أمنع شعورًا بخوف مريع من أن يتملَّكني لَمَّا استدرتُ ناحية هذا الجسد الساكن الممدد قريبًا مني، وراقبتُ ذلك الجسد الجامد الراقد تحت الغطاء المرقَّع الذي كان مسحوبًا فوقه، متسائلًا في نفسي إن كانت هيئة النائم تُشبه الميت إلى هذا الحد. وذلك لأنني رأيت أمام عيني امرأةً نائمةً، ولم يُساورني شكٌّ في ذلك. كان ثمة أدلةٌ كثيرةٌ جدًّا على الحياة بإهمالٍ في الغرفة بحيث لم تترك مجالًا لأي استنتاج آخر. فالملابس، تُركت تمامًا على حالها بعد أن خلعَتها وسطَ الغرفة؛ والطبق الممتلئ بالطعام موضوع في انتظارها على كرسيٍّ بجانب الباب — من بين الطعام الذي لاحظته، حتى من هذه النظرة العابرة، نفس صنف الطعام الذي كنا قد تناولناه في الإفطار — كان كل شيء في الغرفة يَشي بحياةٍ شاقة وقناعة غيرِ مبالية بقدوم الغد.

ومع ذلك كان الجبين، المتجه نحو العوارض العارية للجدار غيرِ المكتمل فوقها، شديدَ البياض، ونظرةُ عينَيْها نصف المفتوحتَين خاليةً من التعبير، وذراعها، الذي كان نصفه كامنًا تحت الغطاء، ونصفه الآخر فوقه، هامدًا على حافة غطاء السرير، حتى إنه كان من المستحيل ألَّا أجفل من التواصل مع مخلوقةٍ غائبةٍ عن الوعي للغاية. لكن بدا أن ذلك التواصل كان ضروريًّا؛ فأي صيحةٍ يُمكنني أن أُطلقها في تلك اللحظة ستكون غيرَ فعالةٍ

بما يكفي لاختراق هاتَين الأذنَين الكليلتَين. لذا شجعت نفسي، وانحنيتُ ورفَعْت يدها التي كانت مستقرةً وفيها ندبة لا تُخطئها العين، محاولًا أن أتكلم، أو أن أنادي، أو أن أفعل شيئًا، أي شيء، حتى أجعلها تستفيق. لكن مع أول لمسةٍ من يدها ليدي رُوِّعتُ بذعرٍ أعجز عن وصفه. لم تكن باردةً كالثلج فحسب، بل متيبسة. فأسقطتُها في غمرة اضطرابي، وتراجعت إلى الوراء وتفحصت وجهها من جديد. يا إلهي! متى كانت الحياة تبدو هكذا؟ أيُّ نوم يكتسي بتلك الألوان الشاحبة، وبمثل هذا الجمود المثير للشك؟ انحنيتُ مرة أخرى لأنصت إلى شفتَيْها. لا نفَس، ولا حركة. صُدِمتُ إلى أقصى حدٍّ، وحاولتُ محاولةً أخيرة. شققتُ ملابسها، ووضعت يدي على قلبها. كان بلا نبض كالحجر.

الفصل الثلاثون

ورق محترق

ما أصعب فراقك عليَّ.

مسرحية «هنري الرابع» [ترجمة أنطوان مشاطي]

لا أظن أنني استغثتُ على الفور. فالصدمة المريعة لهذا الاكتشاف التي جاءت في اللحظة نفسِها التي كانت فيها الحياةُ والأمل أقوى ما يكون بداخلي؛ والانهيار المفاجئ الذي تسبَّب فيه لجميع الخطط المعتمِدة على الشهادة المرتقبة لهذه السيدة؛ والأسوأ على الإطلاق، التصادف المخيف بين هذا الموت المفاجئ والمأزق الذي من المفترض أن الطرف الجانيَ — أيًّا كان — كان واقعًا فيه في تلك الساعة، كان كل ذلك مريعًا جدًّا بالنسبة لي لدرجةٍ جعلتني لم أتخذ إجراءً فوريًّا. لم أقوَ إلا على أن أقف وأُحدق في هذا الوجه الساكن أمامي، المبتسم في رقدته المطمئنَّة كما لو أن الموت كان ألطفَ مما نظن، وأتعجب من التدبير الإلهي الذي كان قد ابتلانا بخوفٍ متجدد بدلًا من السكينة، وبالتعقيد بدلًا من الاستنارة، وبخيبة الأمل بدلًا من الفهم. لأنه مع بلاغة الموت، حتى على وجوه مَن لا نعرفهم ولا نحبهم، كانت الأسباب والعواقب لهذا الموت أهمَّ بكثير من أن تُتيح للعقل أن يُسهب في التفكير في المشاعر الشجيَّة التي كان يُثيرها المشهد نفسُه. هانا الفتاة فُقِدَت في غمار التفكير في هانا الشاهدة.

لكن تدريجيًّا، وأنا أُحدق فيها، جذبتني نظرةُ التوقُّع التي آنستُها تحوم حول الفمِ الحزين والجفنَين نصف المفتوحَين، فانكفأتُ عليها باهتمامٍ شخصيٍّ أكثر، سائلًا نفسي عمَّا إن كانَت قد انقطعَت صلتُها بالحياة تمامًا، وإن كان للتدخل الطبي أيُّ جدوى. لكن كلما أمعنتُ النظر أكثر، ازداد يقيني بأنها قد فارقت الحياة منذ بضع ساعات؛

وروعني الفزعُ الناجم عن هذه الفكرة، الذي صاحبه الندم الذي لا بد أنني سأشعرُ به ما حييت، والنابع من أنني لم أَتَّبِع المسارَ الجريء الليلة الماضية، وباقتحام مخبأ هذه الفتاة المسكينة، أعطل، إن لم أمنع، ملاقاتها لمصيرها، وجعلني أُدرك موقفي الحاليَّ؛ وبعدما انصرفتُ من جانبها، ذهبت إلى الغرفة المجاورة، وفتحت النافذة، وربطتُ في شيشها منديلًا أحمرَ كنت قد جلبتُه معي على سبيل الاحتياط.

في الحال ظهر من منزل السمكري شابٌّ، سرَّني اعتقادي أنه «كيو»، رغم أنه لم يكن يحمل أدنى شبه، سواءٌ في ملبسه أو تعابير وجهه، يدلُّ على أنه ذلك الشاب الذي قد رأيته، ثم قصد المنزل التي كنت فيه.

لاحظته يُلقي نظرة خاطفة في اتجاهي، فخرجتُ من الغرفة، ووقفت في انتظاره عند مقدمة السلم.

همس، عند دخوله المنزل وملاقاة نظرتي من الأسفل: «حسنًا؟ هل رأيتَها؟»

أجبتُ بمرارة: «أجل، لقد رأيتها.»

صعد في عُجالة إلى جانبي. قال: «وهل اعترفت؟»

«لا؛ لم أتحدَّث معها.» ثم، إذ أحسست أنه يزداد قلقًا بسبب نبرة صوتي وأسلوبي، جذبته إلى غرفة السيدة بيلدن وسألته في عجالة: «ما الذي كنت تقصده صباح اليوم عندما أخبرتني بأنك قد رأيتَ هذه الفتاة؟ وأنها في غرفة بعينها قد أجدها فيها؟»

«ما قلتُه.»

«أذَهبتَ إلى غرفتها إذن؟»

«لا؛ لم أكن إلا خارج الغرفة. ما إن رأيت ضوءًا، حتى تسلَّلتُ إلى حافة السطح المائل في الليلة الماضية أثناء وجودك أنتَ والسيدة بيلدن في الخارج، ناظرًا عبر النافذة، ورأيتها تجول في الغرفة جيئةً وذهابًا.» لا بد أنه لاحظ تغيرًا في وجهي؛ لأنه توقَّف عن الحديث. وصاح: «فيمَ يُفيد ذلك؟»

لم يعد بإمكاني كبحُ جماح نفسي أكثر من ذلك. فقلت: «تعال، وانظر بنفسك!» ثم، بعد أن قُدته إلى الغرفة الصغيرة التي كنت قد غادرتها للتو، أشرتُ إلى الجسد الساكن الراقد بالداخل. وقلت: «قلتَ لي إنني سأجد هانا هنا؛ لكنك لم تقل لي إنني سأجدها في هذه الحالة.»

صاح منتفضًا: «يا إلهي! هل ماتَت؟»

قلت: «أجل، ماتت.»

بدا وكأنه لم يستوعب الأمر. أجاب: «لكن هذا مستحيل!» وأردف: «لا بد أنها في سُباتٍ عميق، أو أنها تناولت مخدرًا …»

قلت: «هذا ليس نومًا، أو إن كان نومًا، فلن تُفيق منه أبدًا. انظر!» ثم أمسكتُ بيدها مرة أخرى، وتركتها تسقط بكامل ثقلها على السرير.

بدا أن المشهد أقنعه. بعد أن هدأ، ظل يُحدِّق فيها وعلى وجهه تعبيرٌ شديدُ الغرابة. فجأةً تحرَّك وبدأ يُقَلِّب في الملابس التي كانت على الأرض.

سألته: «ماذا تفعل؟ عمَّ تبحث؟»

«أبحث عن قطعة الورق التي رأيتها تأخذ منها ما ظننتُه جرعةَ دواء الليلة الماضية. يا إلهي، ها هي!» صاح، وهو يرفع قصاصة ورق، كانت على الأرض أسفل حافة السرير، فلم يكن قد انتبهَ إليها إلا الآن.

قلت مضطربًا: «أرني إياها.»

أعطاني الورقة، وعلى سطحها الداخلي لاحظتُ بصعوبة آثارًا لمسحوق أبيض غير محسوس.

قلت، وأنا أطوي هذه الورقة بحذر: «هذا مهم.» وأردفت: «إن كانت توجد كميةٌ كافيةٌ متبقيةٌ من هذا المسحوق تؤكد أن ما بداخل هذه الورقة كان مادةً سامة، فهذا قد يُفسِّر الأسلوب والطريقة التي ماتَتْ بها الفتاة، وسيتضح أنه حالة انتحار متعمَّد.»

ردَّ قائلًا: «لست واثقًا من ذلك.» وتابع: «إن كان لديَّ أيُّ قدرةٍ على الحكم على الوجوه، وأزعم أنني كذلك، فإن هذه الفتاةَ لم تكن تُدرك أنها كانت تتناول سمًّا أكثرَ مني. لم تكن تبدو سعيدةً فقط، بل كانت أساريرها متهللة؛ وعندما رَفَعَت الورقة لأعلى، ارتسمت على وجهها ابتسامةٌ تنمُّ عن انتصارٍ ساذجٍ في الأغلب. إن كانت السيدة بيلدن قد أعطتها تلك الجرعة لتتناولها، وأخبرتها بأنها دواء …»

«ذلك أمرٌ ما زال يتعين التأكُّد منه؛ وكذلك ما إذا كانت الجرعة، كما تدعوها، سامةً أم لا. فربما تكون قد ماتت بمرضٍ في القلب.»

اكتفى بهزِّ كتفيه، وأشار أولًا إلى صحن الفطور الذي تُرِك على الكرسي، ثم أشار ثانيًا إلى الباب المكسور.

قلت، ردًّا على نظرته: «أجل، السيدة بيلدن كانت هنا صباحَ اليوم، والسيدة بيلدن هي من أغلقت الباب لَمَّا خرجت؛ لكن ذلك لا يُثبت شيئًا سوى اعتقادها بأن الفتاة كانت تعاني من مرضٍ في قلبها.»

«اعتقاد لم يبدُ أن هذا الوجه الأبيض الشاحب على وسادته المتداعية قد زعزعه؟»

«ربما لكونها في عجَلة من أمرها لم تنظر إلى الفتاة، وإنما وضعَت الأطباق دون أن تلقي أكثر من نظرة عابرة نحوها؟»

«لا أريد أن أرتاب في وقوع أي خطب، ولكن يا لها من مصادفة!»

لمس ردُّه هذا نقطةً حساسة لديَّ، فتراجعتُ إلى الخلف. وقلت: «حسنًا، لا جدوى من أن نقف هنا ونشغل أنفسنا بافتراضات. ثَمة الكثير الذي يتعيَّن علينا فعله. هيَّا!» واتجهت مسرعًا نحو الباب.

سألني: «ماذا ستفعل؟» وأردف: «أنسيت أن هذه ليست إلا حلْقةً من هذا اللغز الكبير الذي أُرْسِلنا لفك طلاسمه؟ إن كانت هذه الفتاة قد لقيت حتفها جراء حادثٍ مدبَّر، فمن واجبنا أن نكتشفه.»

«ذلك يجب أن يُترَك لمحقق الوفيات. لقد خرج الأمر الآن من أيدينا.»

«أعرف؛ ولكن يمكننا على الأقل أن نُحيط علمًا على نحو وافٍ بالغرفة وبكل ما فيها قبل أن نلقي بالمسألة إلى أيدٍ غريبة عنَّا. فالسيد جرايس سيتوقع منَّا ذلك القدر، وأنا واثق من ذلك.»

«لقد ألقيتُ نظرةً على الغرفة. وقد انطبع في ذهني كل شيء. ما أخشاه هو ألا أستطيع أن أنساها أبدًا.»

«والجثة؟ هل لاحظت وضعها؟ ووضع أغطية السرير حولها؟ وغياب أي علامات على المقاومة أو الخوف؟ وسكون وجهها؟ وسقوط يدَيها بارتخاء؟»

«أجل، أجل؛ لا تجعلني أنظر إليها مرةً أخرى.»

«ثم ماذا عن الملابس المعلَّقة على الحائط؟» وهو يُشير سريعًا إلى كل شيء وهو يتحدث. «أترى؟ فستان مصنوع من قماش الكاليكو؛ وشاح، ليس ذاك الذي يُعتَقَد أنها هرَبَت به، بل وشاح أسود قديم، على الأرجح يخص السيدة بيلدن. ثم هذا الصندوق» فاتحًا إياه «الذي يحتوي على بعض الملابس الداخلية المميزة، ... لنرَ ... عليها اسم سيدة المنزل، لكن أصغر من أي شيءٍ ارتدَتْه قبل ذلك؛ صُنِعَت من أجل هانا، كما تلاحظ، وموسومة باسم سيدة المنزل درءًا للشبهات. ثم هذه الملابس الملقاة على الأرض، كلها جديدة، وكلها موسومة بالطريقة نفسها.» ثم صاح فجأة: «ثم هذا ... هلم! انظر هنا!»

اتجهتُ حيثما كان يقف وانحنيت، وعندئذٍ وقعت عيناىَ على طَستِ اغتسالٍ مملوء حتى نصفه بورقٍ محترق.

«رأيتها تنحني على شيءٍ في هذا الركن، لكني لم أستطع أن أفكِّر في ماهيته. هل من الممكن أن تكون قد انتحرَتْ في نهاية الأمر؟ من الواضح أنها تخلصَت هنا من شيء ما هنا لم ترغب أن يراه أي أحد.»

قلتُ: «لا أدري.» وأردفت: «ولكني أكاد آمُل ذلك.»

«لم تتبقَّ قطعة ورق صغيرة، ولا قصاصة تدل على ماهيته؛ يا للحظِّ السيئ!»

صِحت قائلًا: «لا بد أن تحل السيدة بيلدن خيوط هذا اللغز.»

ردَّ: «لا بد أن تحل السيدة بيلدن خيوط اللغز بأكمله؛ فسرُّ مقتل السيد ليفنوورث متوقفٌ عليه.» ثم، مطيلًا النظرَ ناحية ذلك الورق المحترق، أضاف: «من يدري؛ لعله كان اعترافًا؟»

بدا التخمين محتملًا للغاية.

قلت: «أيًّا كانَت ماهيته، فقد صار رمادًا الآن، وعلينا أن نتقبَّل الواقع ونستفيدَ منه على أحسن وجه.»

قال بتنهيدةٍ عميقةٍ: «نعم؛ هذا صحيح؛ لكن السيد جرايس لن يُسامحَني أبدًا على ذلك، أبدًا. سوف يقول إنه كان يجب عليَّ أن أُدرك أن تناوُلَها لجرعة دواء كان ظرفًا مُريبًا في نفس لحظة اكتشافي لذلك وأنا واقفٌ خلفها.»

«لكنَّها لم تكن تعرف ذلك؛ ولم ترَك.»

«لا نعرف ماذا رَأَت، ولا ما رَأَته السيدة بيلدن. النساء لُغز؛ ورغم إشادتي بنفسي بأن ذكائي عادةً يُضاهي أكثرَ النساء ذكاءً على وجه الأرض، لا بد أن أقرَّ أنه في هذه القضية أشعر أنني هُزمتُ هزيمةً ساحقةً ومخزية.»

قلت: «حسنًا، حسنًا، النهاية لم تأتِ بعد؛ مَن يدري ما الذي سيكشفه حديثٌ مع السيدة بيلدن؟ وعلى أي حال، ستعود إلى المنزل عمَّا قليل، وعليَّ أن أتأهَّب لمقابلتها. فكل شيءٍ سيعتمد على أن أكتشف، إن استطعت، إن كانت على درايةٍ بهذه الكارثة أم لا. فمن الممكن أنها لا تعرف أي شيءٍ عنها.»

ومستعجلًا إياه للخروج من الغرفة، أغلقتُ الباب ورائي، وتقدَّمته إلى الأسفل.

قلت: «والآن، ثمة أمرٌ واحدٌ عليك أن تتولَّى تنفيذه في الحال. لا بد من إرسال برقيةٍ إلى السيد جرايس لإطلاعِه على هذا الحدث غير المتوقَّع.»

«وهو كذلك، يا سيدي»، وتوجَّه «كيو» نحو الباب.

قلت: «انتظر لحظة.» وأردفت: «ربما لن تسنحَ لي فرصةٌ أخرى لأذكر هذا. تسلَّمَت السيدة بيلدن خِطابَين من مدير مكتب البريد أمس؛ أحدهما في ظرفٍ كبير، والآخر في ظرفٍ صغير، إن كان بإمكانك أن تعرف الخَتْم البريديَّ الذي خُتِما به ...»

وضع «كيو» يده في جيبه. وقال: «أظن أني لن أكون مضطرًّا إلى أن أذهب بعيدًا لأكتشف من أين أتى أحدهما. يا إلهي، لقد فَقَدتُه!» وقبل أن ألاحظ، كان قد عاود صعود درجات السلم.

وفي تلك اللحظة سمعت صوت طقطقة البوابة.

الفصل الحادي والثلاثون

«كيو»

ولهذا حكاية.

مسرحية «ترويض النمرة»

«الأمر برمَّته كان خدعة؛ لم يكن أحدٌ مريضًا؛ لقد استُغْلِلت، بكل حقارة، استُغْلِلت!» ودخلت السيدة بيلدن الغرفة التي كنتُ فيها، بوجهٍ متوهجٍ وأنفاسٍ لاهثة، وشرَعَتْ في خلع قبعتها؛ لكن بينما كانت تفعل ذلك توقفت، وصاحت فجأة: «ما الأمر؟ يا لها من نظرةٍ تلك التي تحدجني بها! هل حدث شيء؟»

أجبتُها: «شيء جِدُّ خطير قد حدث؛ لم تغيبي إلا مدةً قليلة، ولكن في تلك المدة اكتُشِف أمرٌ ما ...» توقفتُ هنا عن قصدٍ على أملِ أن يُظْهِر الترقُّب ما يُفتَضَح به أمرها؛ لكن، على الرغم من الشحوب الذي استحال إليه وجهها، أظهرَت انفعالًا أقلَّ مما توقَّعت، فتابَعْت: «من المرجح أن يترتبَ عليه عواقبُ بالغة الأهمية.»

فوجئتُ أنها انفجرت في البكاء بحرقةٍ. فتمتمَت: «كنت أعرف، كنت أعرف!» وأردفَت: «قلتُ دومًا إنه سيكون من المستحيل أن يبقى الأمرُ سرًّا إذا سمحتُ لأحدٍ بدخول المنزل؛ إنها في غاية القلق.» ثم قالت فجأةً، وعلى وجهها نظرةٌ فزعة: «لكنك لم تُخبرني بماهية الاكتشاف. ربما ليس ما ظننت؛ ربما ...»

لم أتردَّد في مقاطعتها. فقلت: «سيدة بيلدن، لن أحاول أن أخفِّف الصدمة. إن امرأةً، إزاء النداء الأكثر إلحاحًا من القانون والعدالة، بوُسعها أن تستقبل وتُئوي في بيتها شاهدةً بهذا القدر من الأهمية مثل هانا، لا يمكن أن تظلَّ في حاجةٍ إلى أي تمهيد لسماع أن جهودها قد حققت ناجحًا باهرًا، وأنها حققت غايتها المتمثلة في حَجْب شهادةٍ مهمة، وأنها أثارت غضبَ القانون والعدالة، وأن المرأة البريئة التي كان من الممكن أن تُنقذها

شهادةُ هذه الفتاة تقف ملوثةَ السمعة إلى الأبد في أعين العالم، إن لم يكن في أعين رجال القانون.»

بفزعٍ ومَضَت عيناها اللتان ظلَّتا مسلطتَين على وجهي طوال هذا الحديث.

صاحت: «ماذا تقصد؟» وأردفت: «لم أقصد أن أرتكبَ أي جُرم؛ لم أكن أسعى إلا لإنقاذ الناس. أنا ... أنا ... لكن مَن أنت؟ ما شأنك بكل هذا؟ ماذا يعني لك ما أفعله أو ما لا أفعله؟ قلتَ إنك محامٍ. هل يمكن أن تكون قد أتيت من طرف ماري ليفنوورث لترى كيف أفي بأوامرها، و...»

قلت: «سيدة بيلدن، إن هُويتي والغرض من وجودي هنا أمرٌ قليلُ الأهمية الآن. لكن حتى يكون لكلماتي وقعٌ أكبر، سأقول، إنني على الرغم من أني لم أخدَعْكِ، سواءٌ فيما يتعلَّق باسمي أو منصبي، فصحيحٌ أنني صديق للآنستَين ليفنوورث، وأن أيَّ شيءٍ من المحتمل أن يؤثر عليهما ذو أهميةٍ لي. ومن ثَمَّ، عندما أقول إن إلينور ليفنوورث تضرَّرَت ضررًا غيرَ قابلٍ للإصلاح بموت هذه الفتاة ...»

«موت؟ ماذا تقصد؟ موت!»

كان انفعالها تلقائيًّا للغاية، وكانت نبرةُ صوتها مذعورةً إلى أقصى درجة، فلم أشكَّ ولو للحظةٍ أخرى في جهل هذه المرأة بالوَضْع الحقيقي للأمور.

أعدتُ على مسامعها: «أجل، إن الفتاة التي كنتِ تتستَّرين عليها مدةً طويلة جدًّا وبطريقةٍ جيدةٍ جدًّا لم تعد الآن تحتَ سيطرتك. لم يبق سوى جثتها، يا سيدة بيلدن.»

لن تنسى أذناي ما حييتُ الصرخة التي أطلقتها، ولا انفعالَها الجامحَ وهي تقول: «لا أصدق! لا أصدق!» وهي تندفع خارجةً من الغرفة وتُهرَع صعودًا على درجات السلم.

ولن أنسى ذلك المشهد التالي، عندما وقفَت، في حضرة المتوفَّاة، تعتصرُ يديها وتُنكر، وسط نشيج يعكس حزنًا وذعرًا لا يوجد ما هو أصدقُ منه، إنها كانت تعرف شيئًا عما حدث؛ وتقول إنها كانت قد تركَت الفتاة بمعنويات مرتفعة الليلةَ الماضية؛ وإنه صحيح أنها كانت قد أوصدت عليها الباب، لكنَّها كانت تفعل هذا دومًا عندما يكون أي شخصٍ في المنزل؛ وإنها إن ماتت إثر أيِّ نوبةٍ مفاجئة، فلا بد أن هذا حدث في هدوءٍ؛ لأنها لم تسمع أي حركةٍ طوال الليل، رغم أنها كانت قد أخذت تُنصت أكثر، كونها كانت بطبيعة الحال قلقة خوفًا من أن تُحدث الفتاة أي إزعاجٍ من شأنه أن يوقظني.

قلت: «لكنكِ كنتِ هنا صباح اليوم؟»

«أجل، لكني لم أنتبه لذلك. كنت في عجلةٍ من أمري، وظننتها نائمة؛ لهذا وضعتُ الصحون في مكان يسهل عليها أخذها منه وخرجتُ على الفور، وأوصدت الباب كالمعتاد.»

«من الغريب أنها ماتت هذه الليلة وليس في أي ليلة أخرى. هل كانت متوعكةً أمس؟»

«لا، سيدي؛ بل كانت أكثر تألقًا عن المعتاد؛ وأكثر حيوية. لم أظنَّ مطلقًا أنها كانت مريضة حينها أو قبل ذلك. لو كنت ...»

عندئذٍ قاطعها صوتٌ: «لم تظني أبدًا أنها كانت مريضة؟» وأردف: «لماذا، إذن، كلفتِ نفسكِ عناء إعطائها جرعةَ دواء الليلة الماضية؟» ودخل «كيو» من الغرفة في الخلف.

أنكرَت، إذ من الواضح أنها افترضت أنني أنا مَن تحدث، قائلة: «لم أفعل! أفعلت أنا ذلك يا هانا، أفعلتُ أنا ذلك، أيتها الفتاة المسكينة؟» وهي تربت على اليد التي كانت بين يديها بحزنٍ وأسفٍ بدا أنهما صادقان.

«كيف تحصَّلَت عليها إذن؟ من أين حصلتْ عليها إن لم تكوني أنتِ مَن أعطيتِها إياها؟»

هذه المرةَ بدا أنها أدركت أن شخصًا ما بجانبي هو مَن كان يُخاطبها؛ وذلك لأنها أسرعَت بالوقوف، ونظرت إلى الرجل نظرةً متسائلة، قبل أن ترد.

«لا أدري من أنت يا سيدي؛ لكن ما بوسعي أن أخبرك به هو أن الفتاة لم يكن معها دواء، ولم تأخذ أي جرعة؛ لم تكن مريضة الليلة الماضية حسب علمي.»

«لكنني رأيتها تبتلعُ مسحوقًا.»

«رأيتها! ... العالم أصابه الجنون، أو أنا من ... رأيتَها وهي تبتلعُ مسحوقًا! كيف استطعت أن تراها تفعل ذلك أو أي شيء آخر؟ ألم تكن محبوسة في هذه الغرفة طوال الأربع والعشرين ساعةً؟»

«بلى، لكن ومع وجود نافذةٍ كتلك التي في السطح، لا يصعب كثيرًا أن أتطلَّع من خلالها إلى الغرفة، يا سيدتي.»

صاحت، وهي تتراجع خوفًا: «يا إلهي، في بيتي جاسوس، أصحيحٌ هذا؟ لكني أستحق ذلك؛ أبقيتها حبيسة بين أربعة جدران، ولم آتِ لأُلقي عليها نظرةً ولو لمرة واحدة طوال الليل. لا أقصد الشكوى، لكن ما الذي قلتَ إنك رأيتَها تتناوله؟ دواءً؟ سمًّا؟»

«لم أقل سمًّا.»

«لكنك كنتَ تقصد ذلك. تظن أنها سمَّمَت نفسها، وأنني ضالعةٌ في الأمر!»

أسرعتُ معلقًا: «لا، هو لا يظن أنكِ ضالعةٌ في الأمر. يقول إنه رأى الفتاة نفسها تبتلع شيئًا يعتقد أنه كان السببَ في وفاتها، وسؤاله لكِ الآن فحسب هو: من أين حصلَتْ عليه؟»

«كيف يمكنني أن أعرف؟ لم أعطها أي شيء؛ ولم أعرف أنه كان لديها أي شيء.»

بطريقةٍ ما، كنت أُصدِّقها، ولهذا شعرت بعدم رغبةٍ في إطالة الحوار الدائر أكثرَ من ذلك، لا سيما وأن كل لحظةٍ كانت تُعطِّل الإجراء الذي شعرتُ بأنَّ لِزامًا علينا أن نتخذه. ولهذا، أشرتُ إلى «كيو» أن ينصرف ليُباشر مهمته، وأخذت السيدة بيلدن من يديها وحاولت إخراجَها من الغرفة. لكنها قاومت، وجلست بجانب السرير وعلى وجهِها تعبيرٌ مفاده «لن أتركها وحدها مرة أخرى؛ لا تطلب مني ذلك؛ مكاني هنا، وسأظل هنا»، بينما وقف «كيو»، بعنادٍ لأول مرة، يحدِّق بتجهُّمٍ في كِلَينا، ولم يتزحزح، رغم إلحاحي عليه مرةً أخرى أن يُسرع، موضحًا له أن الصباح كان آخذًا في الانقضاء، وأنه لا بد من إرسال البرقية إلى السيد جرايس.

«لن أغادر الغرفة حتى تُغادرها تلك المرأة؛ ولن أترك المنزل إلا إذا وعدتَني بأن تحلَّ مكاني في حراستها.»

تركتُها مذهولًا، وذهبت إليه.

فهمستُ له قائلًا: «إنك تُفرط في شكوكك، وأرى أن تصرُّفك شديدُ الوقاحة. أنا واثقٌ من أننا لم نرَ شيئًا يُبرِّر أن نتخذ أي إجراءٍ من هذا القبيل؛ إلى جانب أنها لن تتسبَّب في أي ضررٍ هنا؛ ومع ذلك، فيما يتعلَّق بمراقبتها، أعدك أن أفعل ذلك إن كان هذا سيُريح بالك.»

«لا أريد أن تظلَّ تحت المراقبة هنا؛ خُذْها لأسفل. لا يمكنني أن أنصرفَ وهي هنا.»

«ألَا تُباشر قليلًا دورَ الرئيس؟»

«ربما؛ لا أدري. إن كنت أفعل، فلأن بحوزتي شيئًا يُبرِّر تصرُّفي.»

«ما ذلك الشيء؟ الخطاب؟»

«نعم.»

انفعلتُ بدوري الآن، ومددتُ يدي. وقلت: «دعني أطَّلعْ عليه.»

«كلا، ما دامت تلك المرأة موجودةً في الغرفة.»

رأيتُه عنيدًا لا يَلين، فرجعت إلى السيدة بيلدن.

قلت: «لا مفرَّ من أن ألتمس منكِ أن تأتي معي.» وأردفتُ: «هذه ليست وفاةً عادية؛ وسنُضطرُّ إلى استدعاء محقق الوفَيات وأشخاصٍ آخَرين إلى هنا. من الأفضل لكِ مغادرة الغرفة والنزول لأسفل.»

«لا أُبالي إن جاء محقق الوفيات؛ فهو جاري؛ ومجيئه إلى هنا لن يمنعَني عن حراسة هذه الفتاة المسكينة حتى يصل.»

قلت: «سيدة بيلدن، إن وَضْعكِ بصفتكِ الشخص الوحيد الذي يعرف بوجود هذه الفتاة في المنزل يفرض عليكِ ألَّا تُثيري الشكوك حولكِ بالبقاء أكثرَ ممَّا ينبغي في الغرفة المسجَّى فيها جثة المتوفاة.»

«الأمر يبدو كما لو أن تجاهلي لها الآن هو أفضل إثباتٍ لنواياي الحسَنة تجاهها في السابق!»

«لن يكون تجاهلًا منكِ أن تنزلي معي بناءً على التماسٍ جادٍّ إلى أقصى حدٍّ مني. بقاؤكِ هنا لن يُجديَ أي نفع؛ بل، في الحقيقة، سيُؤدِّي إلى ضرر. لهذا اسمعي ما أقوله وإلا فسأضطر إلى أن أتركَكِ في عُهدةِ هذا الرجل وأذهب بنفسي إلى السلطات المختصَّة.»

بدا واضحًا أن هذه الحجة الأخيرة أثَّرَت فيها؛ لأنها بنظرة اشمئزازٍ مرتعدٍ واحدةٍ إلى «كيو» نهضَت، قائلةً: «أنا تحت تصرُّفك»، ثم، دون أن تنطق بكلمةٍ أخرى، ألقَتْ منديلَها على وجه الفتاة وغادرَت الغرفة. وفي غضون دقيقتَين أُخريَين كان في يدي الخطابُ الذي تحدَّث عنه «كيو».

قال: «هذا هو الخطاب الوحيد الذي تمكَّنتُ من العثور عليه، يا سيدي. كان في جيب ثوب السيدة بيلدن الذي كانت ترتديه الليلةَ الماضية. لا بد أن الآخر موضوعٌ في مكانٍ ما حولنا، ولكن لم يُتَح لي وقتٌ للعثور عليه. ومع ذلك، أظن أن هذا سيفي بالغرض. لن تطلب الآخر.»

دون أن أُلاحظ عندئذٍ المغزى العميق في حديثه، فتحتُ الخطاب. كان الخطاب الأصغر من الخطابَين اللذَين كنت قد رأيتُها تُخفيهما تحت وشاحها في اليوم السابق عند مكتب البريد، وكان نصه كالتالي:

صديقتي العزيزة للغاية،

أنا في ورطةٍ مريعة. وأنتِ يا من تحبينني لا بد أنكِ تعرفينها. يستعصي عليَّ أن أوضِّحها، لكن ليس لديَّ سوى رجاءٍ واحد. تخلَّصي مما لديك، اليوم، في

الحال، دون سؤالٍ أو تردُّد. موافقة أي شخص آخر لا علاقة لها بالأمر. لا بد
أن تُذعِني. سأضيع إن رفَضتِ. نفِّذي ما أطلبه، وأنقذي

«شخصًا يحبكِ».

كان موجَّهًا إلى السيدة بيلدن؛ ولم يكن يوجد أيُّ توقيعٍ أو تاريخ، فقط طابَعُ بريد من نيويورك؛ لكني عرَفتُ الخط. كان خط ماري ليفنوورث.

«خطاب لعين!» جاء هذا القول بنبرات حادة بدا أن «كيو» ظن أن من المناسب استخدامَها في هذا الموقف. وأضاف: «ويا له من دليل ضد من كتبته، وضد من تسلَّمته!»

قلت: «دليل مريع حقًّا، لو لم يتصادف أنني أعرف أن هذا الخطابَ يُشير إلى التخلص من شيء يختلف كليًّا عما تشكُّ فيه. فهو يشير إلى بعض الأوراق في عهدة السيد بيلدن؛ ولا شيء آخر.»

«هل أنت واثق، يا سيدي؟»

«تمامَ الثقة؛ ولكن سنتحدث عن هذا الأمر فيما بعد. حان الوقت لأن تبعثَ برقيتك، وتذهب إلى محقق الوفيات.»

«وهو كذلك، يا سيدي.» وعندئذٍ تفرقنا؛ هو ليؤديَ دوره، وأنا لأؤدِّي دوري.

وجدتُ السيدة بيلدن تجول جيئةً وذَهابًا في الأسفل، وهي تندب حالها، وتنطق بعبارات غريبة تتعلق بما سيقوله الجيرانُ عنها؛ وبما سيظنُّه القس؛ وما ستفعله كلارا، أيًّا كانت من هي، وكم كانت تتمنى أن تُفارق الحياة قبل أن تتدخَّل في هذا الأمر.

نجحتُ في تهدئتها بعد مدة، وأقنعتُها بالجلوس والإنصات لما سأقوله. قلتُ معلقًا: «إن إظهاركِ لمشاعركِ هكذا لن يضرَّ أحدًا سواكِ، إلى جانب أنه سيجعلكِ غيرَ مؤهلةٍ لما سيُطلب منكِ أن تخضعي له عمَّا قريب.» ومفسِّرًا كلامي حتى أهوِّن على هذه السيدة التعيسة، أوضحتُ أولًا ما تقتضيه الحالة، ثم سألتها إن كان لها أيُّ صديقةٍ يمكنُها استدعاؤها في مثل هذا الظرف الطارئ.

أذهلني أنها أجابَت بالنفي؛ وأنه رغم أن لها جيرانًا أفاضلَ وأصدقاءَ أوفياء، لم يكن ثمة أحدٌ يمكنها أن تطلب منه الحضورَ في موقفٍ كهذا، سواءٌ للمساعدة أو المواساة، وأنها، إن لم أرْأفْ بحالها، سيتعيَّن عليها أن تُواجه هذا الموقف بمفردها، قائلةً: «مثلما واجهتُ كل شيء، من موت السيد بيلدن وحتى خَسارة أغلب مدَّخراتي الزهيدة في الحريق الذي نشب في البلدة العام الماضي.»

تأثرتُ بهذا، بأن تشعر هذه المرأة بأي افتقارٍ إلى الأصدقاء، وهي التي، بغضِّ النظر عن ضعفها وشخصيتها المتناقضة، كانت تمتلك على الأقل ميزةً واحدة؛ هي التعاطف مع أقرانها. دون تردُّد، عرضتُ عليها أن أفعل ما في وسعي من أجلها، بشرط أن تتحدثَ معي بالصراحة التامَّة التي كان يقتضيها الوضع. وما بعث راحةً في نفسي أنها لم تُعرِب عن استعدادها فحسبُ، بل عن رغبتها القوية في أن تُدليَ بكل ما كانَت تعرفه. قالَت: «لقد كان لديَّ ما يكفي من الأسرار طيلة حياتي.» ولديَّ حقًّا قناعةٌ بأن فَرائصها كانت ترتعد خوفًا، وأنه لو أتى ضابط شرطة إلى المنزل وطلب منها أن تكشفَ أسرارًا قد تُضِر بسمعةِ ابنها، كانت ستفعل ذلك دون اعتراض أو جدال. همسَت قائلةً: «أشعر وكأني أريد أن أقفَ في الحديقة العامة، وأمام العالم بأسره، وأُعلن ما فعلتُه من أجل ماري ليفنوورث. لكن أولًا، أخبرني، بحق الرب، بوضعِ هاتَين الفتاتَين. لم أجرؤ أن أسأل عنهما أو أن أكتب إليهما. فالصحف تقول الكثير عن إلينور، لكن لا شيء عن ماري؛ ومع ذلك فإن ماري لا تكتب إلا عمَّا ترتقبه هي وحدها من مَصائب، وعن الأخطار التي ستتعرَّض لها إن عُرفت حقائقُ بعينها. ما الحقيقة؟ لا أرغب في أن أضرَّهما، وإنما فقط في أن أهتم بحالي.»

قلت: «يا سيدة بيلدن، إلينور تورَّطَت في أزمتها الحاليَّة بامتناعها عن الإدلاء بما طُلب منها. أما ماري ليفنوورث ... ولكن لا يمكنني أن أتحدَّث عنها حتى أعرف ما ستكشفين عنه. فوضعُها، وكذلك وضع ابنة عمها، غريب للغاية حتى إنه يصعب عليكِ وعليَّ أن نُناقشه. ما نريد أن نعرفَه منكِ هو: كيف أصبح لكِ صلةٌ بهذه القضية، وما الذي كانت هانا تعرفه وجعلها تترك نيويورك وتلتجئُ إلى هنا؟»

ولكن السيدة بيلدن، التي أخذت تشبِّك يدَيْها وتحلهما، قابلَت نظرتي لها بنظرةٍ مفعمةٍ بالريبة والتخوُّف. صاحَت: «لن تُصدِّقني مطلقًا؛ لكني لا أعرف ما الذي كانت هانا تعرفه. أجهلُ تمامًا ما رأَتْه أو سمعَتْه في تلك الليلة المشئومة؛ لم تُخبرني مطلقًا، ولم أسألها قطُّ. لقد قالَت فقط إن الآنسة ليفنوورث تُريد مني أن أُخفيَها مدةً قصيرة؛ وأنا، لأنني أحببتُ ماري وأُعجبت بها أكثرَ من أي شخصٍ رأيته في حياتي، وافقتُ بضعف، و...»

قاطعتُ حديثها: «هل تقصدين أنه بعد معرفتكِ بواقعة القتل، لمجرد النزول على رغبةِ الآنسة ليفنوورث، استمرَرتِ في إخفاء هذه الفتاة دون أن تُوجِّهي إليها أي أسئلةٍ أو تطلبي أي توضيحات؟»

أجابت: «أجل، سيدي؛ لن تصدقني أبدًا، لكن هذه هي الحقيقة. ظننت أنه، بما أنَّ ماري أرسلتها إلى هنا، فلا بد أن لديها أسبابَها التي دَعَتْها إلى ذلك؛ و… و… لا يُمكنني أن أوضِّح ذلك الآن؛ كل شيءٍ يبدو مختلفًا اختلافًا كبيرًا، لكنني فعلت ما قلتُه.»

قلت: «لكن ذلك كان تصرفًا غريبًا جدًّا. لا بد أنه كان لديكِ سببٌ قوي دفعَكِ للانصياع إلى طلب ماري بطاعةٍ عمياء.»

قالت بأنفاسٍ لاهثة: «آهٍ، يا سيدي، ظننتُ أني فهمت الأمر كله؛ وأن ماري، تلك الإنسانة الشابَّة البهيَّة التي نزلَت من مكانتها الرفيعة لتلجأ إليَّ وتُحبني، كانت لها صلةٌ بشكلٍ أو بآخَر بالجاني، وأنه كان من الأفضل لي أن أظلَّ جاهلةً بالحقيقة، وأن أُنفِّذ ما طُلِب مني، وأن أثقَ في أن كل شيءٍ سيئول إلى خير. لم أُفكِّر في الأمر بعقلانية، اكتفيتُ بأن اتبعت إحساسي الداخلي. لم يكن بوُسعي أن أفعل غير ذلك؛ هذه ليسَت طبيعتي. فعندما يُطلَب مني أن أفعل أيَّ شيءٍ من أجل شخصٍ أُحبه، لا يمكنني أن أرفض.»

«أتُحبِّين ماري ليفنوورث؛ وهي امرأة يبدو أنكِ أنتِ نفسكِ تعتبرينها قادرةً على ارتكاب جريمةٍ بشعة؟»

«يا إلهي، لم أقل ذلك؛ لا أعرف لماذا كنت أظن ذلك. ربما يكون لها علاقةٌ بطريقةٍ أو بأخرى بالجريمة، ولكن دون أن تكون هي المرتكبَ الفعلي لها. لا يمكن أن تكون هكذا أبدًا؛ إنها إنسانة في منتهى اللطف.»

قلت: «سيدة بيلدن، ما الذي تعرفينه عن ماري ليفنوورث ويجعلُ حتى ذلك الافتراضَ ممكنًا؟»

تورد الوجهُ الأبيض للمرأة الواقفة أمامي. وصاحت: «لا أعرف بماذا أُجيب.» وأردفت: «إنها قصة طويلة، و…»

قاطعتها: «لا داعي للقصة الطويلة.» وتابعت: «دعيني أسمع السبب الجوهري الوحيد.»

قالت: «حسنًا، سأخبرك به؛ إن ماري كانت في ظرف استثنائي لم يكن سيُخلصها منه سوى موتِ عمها.»

«أه، وكيف ذلك؟»

لكن عند تلك النقطة قاطعَنا صوتُ وقعِ أقدام عند مدخل المنزل، فتطلَّعت إلى الخارج، ورأيت «كيو» يدخل المنزل وحده. تركت السيدة بيلدن حيثما كانت، ودخلت الردهة.

قلت: «حسنًا، ما الأمر؟ ألم تجد محقق الوفَيَات؟ أليس في المنزل؟»

«نعم، فقد غادر؛ استقل عربةً ليتولى أمرَ رجلٍ عُثِر عليه على مسافة نحو عشَرة أميال من هنا، مطروحًا في مصرفٍ بجانب نير ثيران.» ثم، إذ لاحظ نظرةَ ارتياحٍ على وجهي؛ لأنني كنتُ سعيدًا بهذا التأخير المؤقت، قال، بغمزةٍ معبِّرة: «قد يستغرق الرجلُ وقتًا طويلًا حتى يصل إليه ... وإن لم يكن في عجَلةٍ من أمره ... قد يستغرق ساعات، حسب ظني.»

أجبتُه، مبتهجًا بطريقته: «فعلًا!» وأردفت: «طريق وعر، أليس كذلك؟»

«جدًّا؛ ولا يوجد حِصان يمكن أن يقطع هذه المسافة أسرعَ من السير.»

قلت: «حسنًا، هذا أفضلُ بكثيرٍ لنا؛ فالسيدة بيلدن لديها قصة طويلة لتحكيَها، و...»

«لا ترغب في أن يُقاطعها أحدٌ. أتفهَّم هذا.»

أومأتُ برأسي واتجه هو ناحية الباب.

سألته: «هل أرسلت برقية إلى السيد جرايس؟»

«نعم، يا سيدي.»

«أتظن أنه سيأتي؟»

«أجل، سيدي؛ حتى ولو اضطُر إلى أن يتَّكئ على عكازَيه.»

«متى تنتظر قدومه؟»

««أنت» الذي ستنتظره مبكرًا في الساعة الثالثة. سأكون بين الجبال، أتطلَّع بحزن إلى فريقي المفكك.» ثم ارتدى قبعته في سعادةٍ وسار بعيدًا في الشارع كمن كان أمامه اليوم بطوله ولا يعرف فيمَ يستغلُّه.

ومِن ثمَّ، أُتيحت الفرصة لكي تقصَّ السيدة بيلدن حكايتها، وفي الحال تمالكَت نفسها استعدادًا للمهمة، لتُثمر عن النتيجة التالية.

الفصل الثاني والثلاثون

رواية السيدة بيلدن

أيها الجشعُ الملعون والمدمِّر،
أنت العدو الأبدي للحب والشرف.

مسرحية تَراب «أبرا-ميول»

الشر لا يتفشى مطلقًا،
دون عون امرأة.

المصدر السابق

في يوليو القادم سيكون قد مرَّ عامٌ على أول مرة رأيتُ فيها ماري ليفنوورث. كنت أعيش حياة مملَّة رتيبة إلى أبعدِ حدٍّ في تلك الآونة. كنت أحبُّ ما هو جميل، وأكره ما هو دنيء، وأنجذب بالفطرة نحوَ كلِّ ما هو عاطفي وغير مألوف، لكن كتبَ عليَّ وضعي العسر ووحدتي كأرملةٍ أن أقضيَ أيامي في حلقة مضنية من الحياكة فقط ولا شيء سواها، وكنت قد بدأت أظن أن شبح الشيخوخة الرتيبة قد خيَّم عليَّ، حتى جاء صباحُ أحد الأيام، في ظل شعوري العارم بانعدام الرضا، وعبرت ماري ليفنوورث عتبة بابي، وبابتسامة واحدة، غيرت مضمون حياتي كله.

قد يبدو هذا مبالغةً في نظرك، لا سيما عندما أقول إن مجيئها كان لمهمة عمل لا أكثر؛ إذ كانت قد سمعَتْ أنني ماهرة في أشغال الإبرة؛ لكنك لو كنت رأيتها وهي تطل عليَّ في ذلك اليوم، ولاحظت النظرة التي اقتربت بها مني، والابتسامة التي تركتني بها، ستلتمسُ العذر لحماقة امرأةٍ عجوزٍ عاطفية، أبصرت في هذه الشابة الحسناء ملكةً

ساحرة. فالحقيقة أن جمالها وسحرها بهَراني. وعندما جاءت إليَّ، بعد أيامٍ قليلة، وجلست القُرْفُصاءَ على الكرسي الصغير عند قدميَّ، قالت إنها متعبة جدًّا من النميمة والصخب في الفندق، وسيُريحها أن تهرب بعيدًا وتختبئ مع شخصٍ يسمح لها أن تتصرَّف كطفلةٍ كما كانت، أعتقد أنني شعرت لوهلةٍ بأكثرِ شعورٍ صادقٍ بالسعادة في حياتي. فلمَّا قابلتُ إقبالها عليَّ بكل الحماس الذي أثارَتْه طريقتها في نفسي، سرعان ما وجدتها تستمتعُ بشغف وأنا أحكي لها، دون وعي مني، قصة حياتي الماضية في صورة قصة رمزية ممتعة.

في اليوم التالي رأيتها في المكان نفسِه؛ وفي اليوم الذي يليه؛ دائمًا بهاتَين العينَين الشغوفتَين المسرورتَين، واليدَين المتحركتَين، اللتَين لا تسكنان، واللتَين كانتا تُمسكان بكل ما تلمسان، وتكسِران كل ما تُمسكان.

لكنها لم تأتِ في اليوم الرابع، ولا الخامس، ولا السادس، وبدأت أشعر أن الشبح القديم عاد ليُخيِّم عليَّ، وفي إحدى الليالي، بالضبط في الوقت الذي كانت حمرة الشفق تندمج فيه بعتمة الليل، تَسَلَّلَت خلسةً من الباب الأمامي، وتحركت ببطءٍ حتى صارت بجانبي، ووضعت يديها على عينيَّ بضحكة منخفضة رنانة، حتى إنني جفلت.

صاحت، وهي تُلقي عباءتها جانبًا، وتكشف عن البهاء المتجلي لثوبها المسائي: «أنت لا تعرفين ماذا تصنعين معي!» وأردَفَت: «ولا أنا أعرف ماذا أصنع مع نفسي. رغم أن الأمر يبدو حماقة، شعرتُ أنني لا بد أن أهرب بعيدًا وأخبر أحدًا ما بأنَّ ثمة عينَين كانتا تتطلعان إليَّ، وأنه لأول مرة في حياتي أشعر أنني امرأة وأيضًا ملكة.» وبنظرةٍ استحياء يغلب عليها الكبرياء، تدثرَت بعباءتها، وصاحت ضاحكةً:

«هل أتى لزيارتكِ من قبلُ طيفٌ هائم؟ هل شق الطريق إليكِ في محبسكِ شعاعٌ طفيفٌ لضوء القمر ولو للحظة خاطفة؟ قولي!» ثم ربتت على وجنتي، وابتسمت ابتسامة مذهلة إلى أبعد حد، حتى إنني في هذه اللحظة، رغم الفزع الكئيب الذي تكالب عليَّ من الأحداث التي وقعت فيما بعد، لا يمكنني أن أشعر إلا بشيءٍ أشبهَ بالدموع تنهمر من عيني كلما تذكرتها.

فقلت لها بصوتٍ هامس: «وهل أتى الأمير إليك؟» وأنا أُلمِّح إلى قصة كنت قد أخبرتها بها في زيارتها الأخيرة لي؛ قصة فتاة كانت قد انتظرت طيلةَ حياتها في ذلٍّ وهوانٍ الفارسَ الهُمام الذي سيأتي لينتشلها من كوخٍ حقير إلى العرش، وفارقَت الحياة في اللحظة التي

جاء فيها عاشقُها الوحيد، ذلك الشاب القروي المخلص الذي تجاهلَتْه في كبرياء، إلى بابها بالثروة التي أمضى أيامه كلها يجمعها من أجلها.

لكن عندئذٍ احمرَّ وجهها خجلًا، وتراجعت نحو الباب. وتمتَمَتْ قائلة: «لا أدري؛ أخشى أنه لم يأتِ. أنا ... أنا لا أفكر في أي شيء بخصوص ذلك. إن الفوز بقلوب الأمراء ليس أمرًا سهلًا.»

قلت: «ماذا! هل أنتِ ذاهبة؟ ووحدكِ؟ دعيني أرافقكِ.»

لكنها اكتفت بهزِّ رأسها الجميل، وأجابت: «لا، لا؛ هذا، صدقًا، قد يُعكر صفو هذه الحالة الشاعرية. جئت إليك كطيف، وسأنصرف كطيف.» ثم، منطلقة كشعاع قمرٍ، تحركت بخفَّةٍ إلى الظلمة، وسارت وكأنها تُحَلِّق مبتعدةً في الشارع.

عندما أتت في المرة التالية، لاحظت حماسة متقدةً في أسلوبها، مما أكد لي، على نحو أوضح من حلاوة الحياء التي بدَت في لقائنا الأخير، أن قلبها قد تأثر باهتمام عاشقها. وبالفعل، ألمحتْ بهذا قبل أن تنصرف، قائلة بنبرة حزينة، عندما كنت قد أنهيت قصتي بالنهاية السعيدة المعتادة، بالقبلات والزواج: «لن أتزوج أبدًا!» منهيةً عبارتها بتنهيدة طويلة من الأعماق، شجعتني نوعًا ما على أن أقول، ربما لأنني كنت أعرف أن لا أمَّ لها:

«ولمَ ذلك؟ ما السبب الذي يمكن أن يجعل هاتَين الشفتَين الورديتَين أن تقولا إن صاحبتهما لن تتزوَّج أبدًا؟»

رمقَتني بنظرةٍ خاطفة، ثم غضَّت بصرها. خشيتُ أن أكون قد أغضبتها، وكنت أشعر بوضاعتي، عندما أجابت فجأة، بنبرةٍ ثابتة لكنها خفيضة: «قلت إنني لن أتزوج أبدًا؛ لأن الرجل الذي يُعجبني لا يمكن أبدًا أن يكون زوجًا لي.»

انطلقَت كل العواطف الدفينة في داخلي دفعة واحدة. قلت: «لِمَ لا؟ ماذا تقصدين؟ أخبريني.»

قالت: «ليس ثمة ما أخبرِكِ به سوى أنني أضعف من أن ...» لم تكن لتقول إنها مغرمة، فقد كانت امرأةً معتزَّة بنفسها، «أُعجَب برجلٍ لن يسمح عمي لي أبدًا أن أتزوجه.»

ونَهَضَتْ كما لو كانت ستنصرف، لكنني أعدتها. كررتُ سؤالي: «مَن ذاك الذي لن يسمح لكِ عمُّكِ بأن تتزوجيه! لماذا؟ هل لأنه فقير؟»

«لا؛ عمي مغرمٌ بالمال، ولكن ليس إلى ذلك الحد. علاوةً على ذلك، السيد كلافرينج ليس فقيرًا. فهو يمتلك مكانًا جميلًا في بلده ...»

فقاطعتُها: «بلده؟ أليس أمريكيًّا؟»

أجابت: «لا؛ إنه إنجليزي.»

لم يتبيَّن لي لماذا تعيَّن عليها أن تقول ما قالَتْه بهذه الطريقة، ولكني افترضتُ أن ذكرى خفيةً ما قد أزعجَتْها، فمضيتُ أسأل: «ما العقبة في ذلك إذن؟ أليس ...» كنت سأقول مستعدًّا، لكنني امتنعت.

أكدَت بنبرة المرارة نفسِها التي تحدَّثَتْ بها من قبل: «إنه إنجليزي.» وأردَفت: «بقولي ذلك، قلت كل شيء. عمي لن يسمح لي أبدًا بأن أتزوج رجلًا إنجليزيًّا.»

نظرتُ إليها في استغراب. فعقلي لم يستوعب مثل هذا السبب التافه مطلقًا.

فواصلَت كلامها: «إن لديه هوسًا تامًّا تجاه هذا الموضوع.» وأردفَت: «إن طلبي الزواج من هذا الرجل يُماثل أن أطلب منه أن أُغرق نفسي.»

كان من شأن امرأةٍ أرجحَ عقلًا مني أن تقول: «إذن، إن كان الأمر هكذا، فلِمَ لا تتخلَّصين من أي تفكيرٍ فيه؟ لماذا ترقصين معه، وتتحدثين إليه، وتسمحين لإعجابكِ به بأن يتطوَّر ليصير حبًّا؟» لكنني كنت حالمةً تمامًا حينها، وغاضبةً من تحاملٍ عجزت عن فهمه أو إدراكه، فقلت:

«لكن هذا استبداد محض! لماذا يكره الإنجليزَ هكذا؟ ولماذا، إن كان يكرههم، تشعرين بأنكِ مجبرةٌ على إرضائه في رغبةٍ غير منطقية؟»

قالت، وقد احمرَّ وجهها وأشاحَتْ بناظرَيْها: «لماذا؟ أتودين أن أُخبرك، يا خالة؟»

أجبتُها: «أجل؛ أخبريني بكل شيء.»

«حسنًا، إذن، إن كنت ترغبين في معرفة الجانب الأسوأ في شخصيتي، كما تعرفين بالفعل الجانب الأفضل، فإنني أكرهُ أن أُغضب عمي؛ لأني ... لأني ... تربَّيْتُ طوال الوقت على أنني وريثتُه الشرعية، وأعلم أنني إن تزوجت بخلاف رغبته، فسيُغير رأيَه في الحال، ويتركني مُفلِسة.»

صِحت، وقد أخمد هذا الاعترافُ الحالةَ الشاعريَّةَ التي كنت فيها: «لكنكِ، أخبرتِني بأن السيد كلافرينج يمتلك من المال ما يكفيه للعيش، وبذلك لن يصيبكِ العوز؛ وإن كنتِ تُحبين ...»

برقَت عيناها البنفسَجيَّتان في ذهول.

وقالت: «أنتِ لا تفهمين، السيد كلافرينج ليس فقيرًا؛ لكن عمي غني. سوف أصبح ملكة ...» وعندئذٍ تَوَقَّفَت عن الكلام، وهي ترتجف، وهوى رأسها على صدري. تابعَت قائلةً: «آه، قد يبدو هذا جشعًا، أعرف ذلك، لكنه العيب في تنشئتي. لقد تَعَلَّمتُ أن أقدِّس

المال. سأضيع تمامًا من دونه.» ثم لانَ وجهُها بأكملِه من أثر شعورٍ آخر وأضافَت: «ومع ذلك، يصعب عليَّ أن أقول لهنري كلافرينج: «اتركني! فمستقبلي أعزُّ عليَّ منك!» لا يمكنني ذلك، يا إلهي، لا يمكنني!»

قلت لها، عازمة على أن أستوضح حقيقة الأمر إن أمكن: «أنتِ تُحبِّينه، إذن، أليس كذلك؟»

نهضَت مضطربةً. وقالت: «أليس ذلك دليلًا على الحب؟ إن كنتِ عرَفتِني من قبل، قلتِ إنه كذلك.» ثم، استدارت، ووقفَت أمام صورةٍ معلقةٍ على حائط غرفة الجلوس.

قالت: «تلك تُشبهني.»

كانَت واحدةً من أفضل صورتَين فوتوغرافيتَين لديَّ.

علَّقتُ قائلةً: «أجل، ولذلك أُقدِّرها.»

بدا أنها لم تسمعني؛ كانت مُستغرِقةً في التحديق في الوجه البديع أمامها. سمعتها تقول: «ذلك وجهٌ فاتن.» وأردفَت: «أجمل مني. أتساءل عمَّا إذا كانت ستتردَّد يومًا ما بين الحب والمال. لا أعتقد أنها ستفعل»؛ ازداد وجهُها كآبةً وحزنًا وهي تنطق بما قالته؛ وأضافَت: «إنها لن تفكِّر إلا في السعادة التي ستنعم بها؛ فهي ليسَت قاسيةً مثلي. ستُحب إلينور هذه الفتاة.»

أعتقد أنَّ وجودي قد غاب عن ذهنها؛ لأنها ما إن ذَكرَت اسم ابنةِ عمها حتى التفتَتْ سريعًا حولها بنظرةٍ يغلب عليها الشك، قائلةً برفق:

«الأم هوبارد العجوز تبدو خائفة. ألم تكن تعرف أن مَن كانَت تستمع إليها صغيرة بائسة غير حالمة، عندما كانَت تحكي كلَّ هذه القصص الرائعة عن الحب الذي يفتكُ بالتنانين، وعن الحياة في الكهوف، والسير على نِصال المحاريث الحارقة وكأنها رُقع من حشائش الربيع؟»

قلت، وأنا أجذبها بين ذراعَي بدافعٍ لا يُقاوَم من الشفقة: «نعم؛ ولكن لو كنت أعرف، لما كان ذلك سيُشكل أي اختلاف. كنتُ سأظلُّ أتحدَّث عن الحب، وكل ما يمكن أن يصنعَه ليجعلَ هذا العالم المملَّ والكئيبَ ساحرًا ومبهجًا.»

«أكنتِ ستفعلين؟ ألَا تظنين إذن أني بائسة؟»

ماذا كان يمكنني أن أقول؟ ظننتُ أنْ ليس في العالم مخلوقٌ بمثل سحرها، وأخبرتها بذلك صراحةً. وعلى الفور تهلَّلَت أساريرها لتُصبح في قمة البهجة والمرح. لم أظنَّ حينها،

ولا أظنُّ الآن، أنها كانت مهتمة إلى حدٍّ ما برأيي؛ لكن طبيعة شخصيتها كانت تتطلَّب الإعجاب، ومن دون وعيٍ منها كانت تتفتح في ظله، كوردة تتفتح تحت ضوء الشمس.

قالت: «وهل ما زلتِ ستسمحين لي بأن آتيَ وأُخبرَكِ بمدى السوء الذي أنا عليه؛ أي إذا استمررْتُ في أن أكون سيئة، مثلما سأظلُّ بلا شكٍّ حتى نهاية المطاف؟ ألن تُعرِضي عني؟»

«لن أُعْرِض عنكِ أبدًا.»

«ولا حتى إن فعلتُ شيئًا مريعًا؟ ولا حتى إن هرَبت مع حبيبي في ليلة جميلة، وتركت عمي يكتشف كيف كُوفِئ على مُحاباته الحنونة؟»

قيل ذلك هَزْلًا، وكان المراد منه الهزل، إذ لم تنتظر حتى ردي. لكن بَذْرة تلك الفكرة انغرسَت بعمقٍ في قلبَينا مع ذلك. وطيلة الأيام القليلة التالية أمضيتُ وقتي في تخطيط الكيفية التي سأتدبر بها الأمر، إن وقع على عاتقي تولِّي مسألةِ إنجاح أمرٍ مثير كالهرب. لذا فلكَ أن تتخيَّل، مدى سعادتي، عندما ذات مساء جاءت إليَّ هانا، هذه الفتاة التعيسة التي ترقد الآن جثة هامدة تحت سقف منزلي، والتي كانت تعمل وصيفةً للآنسة ماري ليفنوورث في تلك الفترة، وهي تحمل رسالةً من سيدتها، كان نصها كالآتي:

> جهِّزي لي غدًا أمتعَ قصة لهذا الموسم؛ واجعلي الأمير وسيمًا تمامًا مثل … مثل الأمير الذي سمعتِ به، واجعَلي الأميرة مرتبكةً كصغيرتك المدللة المستكينة.
>
> ماري

لم تَعنِ لي هذه الرسالة القصيرة سوى أنها خُطِبَت. لكن اليوم التالي أتى دون أن تأتيَ عزيزتي ماري، ولم تأتِ في اليوم الذي يليه، ولا الذي يليه؛ ولم أتلقَّ أي خبر أو إشارة أكثر من أن السيد ليفنوورث قد عاد من رحلته. مضى يومان آخران، وعندئذٍ أتت، تحديدًا مع بداية الشفق. كان قد مر أسبوع منذ أن رأيتُها، لكن ربما كان ما مرَّ عامًا من أثر التغيير الذي لاحظتُه على وجهها وطلعتِها. بالكاد استطعت أن أرحب بها بإظهار أيِّ دلالة على السعادة؛ إذ كانت على النقيض مما كانت عليه في السابق.

قالت، وهي تنظر إليَّ: «خاب أملُكِ، أليس كذلك؟» وأضافت: «كنتِ تتوقَّعين أن أبوحَ إليكِ بأسرار، وأن أهمسَ لكِ بآمال، وأن أظهر في هيئةٍ تنمُّ عن ثقةٍ ساحرة؛ وبدلًا من ذلك، ترَين امرأةً باردة، قاسية، تشعر لأول مرةٍ في وجودكِ بميلٍ إلى التحفُّظ والتزام الصمت.»

أجبت، وأنا أشعر بانقباض، كان السبب فيه هيئتها أكثرَ من كلامها: «ذلك لأنكِ واجهتِ في حبِّكِ ما يُكدركِ أكثر مما يُشجعكِ.»

لم تردَّ على ما قلته، لكنها نهضت وظلت تجول في الغرفة، ببرودٍ في البداية، ولكن بعد ذلك بدرجة معينة من الاضطراب الذي تبيَّن أنه كان تمهيدًا لتغيرٍ في مسلكها؛ لأنها توقفت فجأة، واستدارت نحوي، وقالت: «السيد كلافرينج رحل عن «ر...» يا سيدة بيلدن.»

«رحل!»

«أجل، أمرني عمِّي أن أُخرجه من حياتي، وأطعته.»

سقطت القطعةُ التي كنت أحيكها من يدي، في غمرة إحباطي الشديد. قلت: «آه! إذن هو يعلم بارتباطكِ بالسيد كلافرينج؟»

«أجل؛ لم يكن قد مضى عليه في المنزل خمس دقائق عندما أخبرَته إلينور.»

«أعرَفَت إذن؟»

قالَت بتنهيدةٍ غير مكتملة: «نعم، ولم تستطع أن تمنع نفسها. كنتُ حمقاء بما يكفي أن أُعطيَها الإشارة لمَّا أظهرت اللحظات الأولى لسعادتي وضعفي. لم أفكِّر في العواقب، لكني ربما كنتُ أعرفها. فضميرها يقظ للغاية.»

أجبتها: «لا أسمِّي إفشاء أسرار الآخرين بالضمير اليقظ.»

«ذلك لأنكِ لست إلينور.»

ولأنه لم تكن لديَّ إجابةٌ على هذا، قلت: «ومن ثَمَّ لم يلْقَ هذا الارتباط قبولًا لدى عمكِ؟»

«قبول! ألم أخبركِ بأنه لن يسمح لي بتاتًا بأن أتزوَّج من رجلٍ إنجليزي؟ قال إنه أهونُ عليه أن أُدفَن أمام عينَيْه.»

«وهل استسلمتِ؟ ألم تُقاومي؟ أسمحتِ لهذا الرجل القاسي والفظِّ بأن ينال ما يريده؟»

كانت تبتعد لتنظر مرةً أخرى إلى الصورة التي كانَت قد جذبَت انتباهها المرة السابقة، لكن عندما قلت هذا أولَتْني نظرةً جانبيةً بسيطةً كانت موحيةً بدرجةٍ تفوق الوصف.

«أطعتُه عندما أمرني، إن كان ذلك ما تعنين.»

«وأخرجتِ السيد كلافرينج من حياتكِ بعدما أعطاكِ وعد شرفٍ منه بأن تُصبحي زوجته؟»

«ولِمَ لا، وقد وجدت أنه استحال عليَّ أن أفيَ بوعدي.»

«إذن فقد قررتِ ألَّا تتزوجي منه؟»

لم تُجب على الفور، وإنما رفعت وجهها من غير تفكيرٍ إلى الصورة.

أجابت في النهاية بما شَعَرتُ أنه مرارة الاستهزاء بنفسها: «سيُخبركِ عمي أنني قد قررت أن أنصاع كليًّا لرغباته!»

ولإحباطي الشديد، انفجرتُ بالبكاء. صحت: «آهٍ، يا ماري، آهٍ، يا ماري!» وفي التو شعرت بالخجل، وانتفضت لأنني كنتُ قد ناديتها باسمها الأول.

لكن يبدو أنها لم تنتبه لهذا.

سألتني: «هل لديكِ أي شكوى؟» وأضافت: «أليس واجبي الواضح أن أخضع لرغبات عمي؟ ألم يُربِّني منذ الطفولة؟ ويُغدقْ عليَّ بالنعم؟ وهو من جعلني كل ما أنا عليه، حتى حب الثروة الذي غرسه في روحي مع كل هديةٍ كان يرمي بها في حجري، ومع كل كلمةٍ ألقاها على مسامعي، منذ أن كنت كبيرةً بما يكفي لأعيَ ما تعنيه الثروة؟ أيحقُّ لي الآن أن أتجاهل هذه الرعاية الأبوية الحكيمة، والكريمة، والحرة، لمجرد أن رجلًا عرَفتُه منذ أسبوعَين فقط يُجازف بأن يعرض عليَّ الزواجَ مقابل أن يمنحني حبه كما يدَّعي؟»

«لكن» حاولت بضعفٍ، مقتنعةً بأنها ربما بنبرة السخرية التي قيل بها الكلام لم تبتعد كثيرًا عن طريقة تفكيري رغم ذلك «إن كنتِ في أسبوعَين قد تعلمتِ أن تُحبِّي هذا الرجل أكثر من أي شيءٍ آخر، حتى الثروة التي جعلت صنيع عمِّك شيئًا في مثل هذه اللحظة ...»

فقالت: «حسنًا، ماذا إذن؟»

«عجبًا، كنت سأقول، عليكِ أن تضمني سعادتكِ مع الرجل الذي اخترتِه، إن كان عليكِ أن تتزوجيه سرًّا، واثقةً في تأثيركِ على عمكِ للفوز بعفوه الذي لا يمكنه مطلقًا أن يصرَّ على أن يحرمكِ منه.»

كان يجب أن ترى التعبير الماكر الذي تسلَّل إلى وجهها عندئذٍ. سألت وهي تتسلَّل إلى ذراعي، وتضع رأسها على كتفي: «أليس من الأفضل، أليس من الأفضل أن أتأكد من موافقة عمي أولًا، قبل أن أشرعَ في تجربةٍ خطيرةٍ وأهرب مع حبيبٍ شديد اللهفة؟»

صدمَني أسلوبها، فرفعت وجهها ونظرتُ إليه. كانت تعتليه ابتسامةٌ بَشوشة.

قلت: «أوه، يا عزيزتي، ألم تُخرجي السيد كلافرينج من حياتكِ بعد؟»

فهمسَت بأسلوبٍ رزين: «لقد أبعدتُه.»

«ولكن ليس من دون أمل؟»

انطلقَت منها ضحكة رنانة.

«يا أيتها الأم العزيزة هوبارد، يا لكِ من خاطبة، صدقًا! يبدو عليكِ الشغف بالأمر كما لو كنتِ أنتِ نفسكِ الحبيب.»

ألححت في طلبي: «لكن أخبريني.»

وفي لحظةٍ استعادت حالتها المزاجية الجادة. وقالت: «سينتظرني.»

في اليوم التالي أرسلتُ إليها الخطة التي كنت قد وضعتها لتتواصلَ سرًّا مع السيد كلافرينج. كان عليهما أن ينتحلا اسمَين، بأن تنتحل هي اسمي؛ لأنه أقلُّ عُرضة لأن يثير الظنون حوله من اسم غريب، وأن ينتحل هو اسم لي روي روبنز. راقت لها الخطة، وطُبِّقت في الحال، مع تعديلٍ طفيف هو استخدام توقيع سري على الظرف، لتمييز خطاباتها عن خطاباتي.

وهكذا اتخذتُ الخطوة المميتة التي ورطتني في كل هذه المصائب. بمنحي اسمي لهذه الفتاة الشابَّة لتستخدمه كما تشاء وتوقِّع به على ما تشاء، بدا أنني تخليت عما كان يُبقيني ذاتَ قدرة على التمييز والتقدير الصائب للأمور. منذ ذلك اليوم فصاعدًا، كنت مجرد عبدة مخلصة لها للتدبير، والتخطيط؛ فكنت أنسخُ الخطابات التي تُحضرها لي، وأُرفقها بالاسم المستعار الذي اتفقنا عليه، وأَشغَل نفسي في ابتكار طرقٍ لأُحيل إليها الخطابات التي وصلَتني منه، دون المخاطرة باكتشافها. كانت هانا الوسيطَ الذي استخدمناه؛ لأن ماري شعرت أنه لن يكون من الحكمة أن تتردَّد على منزلي كثيرًا. ومن ثَمَّ كنت أعطي الرسائل لهذه الفتاة إذا لم أستطع أن أُرسلها بأي طريقة أخرى، واثقةً؛ لطبيعتها المتكتمة، وكذلك لعدم إلمامها بالقراءة، من أن هذه الخطابات الموجَّهة إلى السيدة إيمي بيلدن ستصل إلى العنوان المقصود من دون أي عقَبة. وأعتقد أن هذا ما كان يحدث دائمًا. على أي حال، لم أسمع عن أي صعوبة ظهرت من اللجوء إلى هذه الفتاة كوسيطٍ بيننا.

لكن كان ثَمة تغييرٌ وشيك. استدُعي السيد كلافرينج، الذي كان قد ترك أمًّا مريضةً في إنجلترا، فجأة للعودة إلى الوطن. تجهَّز للرحيل، لكن إذ كان غارقًا في الحب، ومشتتًا بالظنون، ويستحوذ عليه الخوفُ من أنه، حالما يبتعد من جوار امرأة كماري يخطب العالمُ بأسره ودَّها، ستكون فرصته ضئيلة في الحفاظ على مكانته في نظرها، كتب إليها، وأخبرها بمخاوفه وطلب منها الزواج به قبل أن يرحل.

كتب: «اقبلي الزواج بي، وسأُلبِّي رغباتكِ في كل شيء. إن الاطمئنان إلى أنكِ لي سيجعلُ رحيلي ممكنًا، ومن دون ذلك، لا يمكنني أن أرحل؛ لا يمكن، ولا حتى إن كانت أمي ستُفارق الحياة من دون أن تودِّع ابنها الوحيد.»

بالمصادفة كانت في منزلي عندما أحضرتُ هذا الخطاب من مكتب البريد، ولن أنسى أبدًا كيف فَزِعَتْ عندما قرأته. ولكن، من هيئتها التي بدَت عندها وكأنها قد تلقت إهانة، سرعان ما هدأت لتُفكر بتروٍّ في الموضوع، فكتبت وعهدت إليَّ بنَسخِ بِضعة سطور وَعَدَته فيها بالموافقة على طلبه، إذا وافق أن يترك لتقديرها حريةَ مسألة إشهار الزواج، وإذا قَبِل بأن يودِّعها عند باب الكنيسة أو أي مكان ستُعقَد فيه مراسم الزواج، وألا يظهر في حضورها مرة أخرى حتى إشهارِ الزواج. وبالطبع جاء الرد الأكيد على هذه الرسالة في غضون يومين: «سأفعل أي شيء، حتى تكوني لي.»

واستُحضر كلُّ ما كان لدى إيمي بيلدن من فطنةٍ وقدرة على التخطيط لتسخيره للمرة الثانية، للتخطيط لإمكانية الترتيب لهذه المسألة من دون أن يتعرض الطرفان لاحتمال كشفِ أمرهما. وجدت الأمر صعبًا جدًّا. في المقام الأول، كان من الضروري أن يُعقَد الزواج في غضون ثلاثة أيام؛ إذ كان السيد كلافرينج، عندما تسلَّم خطابها، قد جهَّز للرحيل على متن الباخرة التي أبحرَت يوم السبت التالي؛ وبعد ذلك، إذ كانت هيئته هو والآنسة ماري لافتةً للنظر للغاية بحيث لا يمكنهما على الإطلاق أن يتزوجا سرًّا في أي مكانٍ في نطاق المساحة التي يكثر فيها القيل والقال لهذا المكان. ومع ذلك كان من المستحسن ألا يكون مكانُ عقد الزواج بعيدًا للغاية، وإلا فإن الوقت المستغرَق في رحلة الذهاب والعودة قد يستلزم غياب الآنسة ماري ليفنوورث عن الفندق مدةً طويلة تكفي لإثارة شكوك إلينور؛ وهو أمرٌ شعرت ماري بأن من الحكمة أن تتجنَّبه. نسيت أن أقول إن عمَّها لم يكن هناك؛ إذ كان قد غادر مرة أخرى بعد مدة قصيرة من الإبعاد الظاهري للسيد كلافرينج. لذا كانت «ف...» هي البلدةَ الوحيدة التي خطرَت في ذهني وكانت تجمع بين مَيزتَي المسافة وسهولة الوصول إليها. وعلى الرغم من أنها على طريق السكة الحديدية، فإنها كانت في مكانٍ قليل الأهمية، وكان أفضل ما فيها أنه كان بها رجل مغمور جدًّا يعمل قسيسًا تابعًا للمكان، وأفضل شيء على الإطلاق أنه كان يعيش على مسافة لا تَزيد عن نحو خمسين مترًا من المحطة. هل يمكن أن يتقابلا هناك؟ استقصيت، فوجدت أنه يمكن تنفيذُ هذا، ومدركةً إدراكًا تامًّا لشاعرية المناسبة، بدأت التخطيطَ للتفاصيل.

والآن أصل إلى الأمر الذي ربما يكون قد تسبب في تدمير مخطَّطنا بأكمله: أشير بذلك إلى اكتشاف إلينور للمراسلات بين ماري والسيد كلافرينج. وقد حدث على النحو التالي.

كانت هانا، التي في زياراتها المتكررة إلى منزلي، كانت قد ازدادت ولعًا بعالمي، قد جاءت إليَّ ذاتَ ليلة لتجلس معي بعضَ الوقت. ومع ذلك، لم يكن قد مر على وجودها في المنزل أكثرُ من عشر دقائق، عندما سُمِع صوت طرق على الباب الأمامي؛ وعندما توجهتُ إلى الباب رأيت ماري، كما افترضت، من العباءة الطويلة التي كانت ترتديها، واقفةً أمامي. ظنًّا مني أنها قد أتت ومعها خطابٌ إلى السيد كلافرينج، أمسكتها من ذراعها وجذبتها إلى الردهة، قائلةً: «هل هو معكِ؟ لا بد أن أرسله الليلة، وإلا فلن يتسلمَه في الموعد.»

عندئذٍ توقَّفت، لأني عندما التفتَت نحوي المخلوقةُ اللاهثة التي كنتُ أمسكها من ذراعها، رأيت نفسي أقف في مواجهة شخصٍ غريب.

صاحت قائلةً: «لقد أخطأتِ.» وأضافت: «أنا إلينور ليفنوورث، وقد أتيتُ من أجل وصيفتي هانا. أهي هنا؟»

لم أستطع إلا أن أرفع يدي في فزع، وأشير إلى الفتاة الجالسة في ركن الغرفة أمامها. وعلى الفور استدارت الآنسة إلينور على عقبَيها.

قالت: «هانا، أريدكِ»، وكانت ستنصرف من المنزل من دون أن تنطقَ بكلمة أخرى، لولا أنني أمسكتها من ذراعها.

قلت: «أوه، آنسة ...» لكنها رمقَتني بنظرةٍ جعلتني أتخلى عن ذراعها.

صاحت بنبرة خافتة ومؤثرة: «ليس لديَّ ما أقوله لكِ!» وأردفَت: «لا تعطِّليني.» وبعدما ألقت نظرة أخرى لترى إن كانت هانا تتبعها، انصرفت.

لساعة جلستُ القُرفصاءَ على السلم حيثما كانت قد تركتني بالضبط. ثم أويتُ إلى السرير، ولكن لم يغمض لي جفن تلك الليلة. ولذلك لك أن تتخيل دهشتي عندما، مع أول ضوء لنور الصباح الباكر، جاءت ماري، التي كانت تبدو أكثرَ جمالًا عن أي وقت مضى، تركض صاعدةً درجاتِ السلم وتدخل الغرفة التي كنتُ بها، وفي يدها المرتجفةِ خطابٌ إلى السيد كلافرينج.

صحت في فرحٍ وارتياح: «يا إلهي! ألم تفهم حقيقة ما قلته إذن؟»

تحولت نظرةُ السرور على وجه ماري إلى استخفاف غير مبالٍ. وقالت: «إن كنتِ تقصدين إلينور، فبلى. أُطلِعَت على الأمر كما ينبغي، أيتها الأم هوبارد. إنها تعرف أنني أحب السيد كلافرينج وأكتب له. لم أستطع أن أُبقيَ الأمر سرًّا بعد الخطأ الذي وقَعْتِ فيه الليلة الماضية؛ لهذا فعلت أفضل ما يمكن فعله في هذا الموقف، وأخبرتها بالحقيقة.»

«ليس أنكِ ستتزوجين؟»

«بالطبع لا. لا أُومِن بإعطاء معلوماتٍ غير ضرورية.»

«ولم تَجِديها غاضبةً بقدر ما كنتِ تتوقعين؟»

تابعَتْ ماري، بفورة ندمٍ واحتقارٍ لنفسها: «لن أقول ذلك؛ كانت غاضبةً بما يكفي. ومع ذلك، لن أُسمي استياء إلينور المتعجرفَ غضبًا. كانت حزينة، أيتها الأم هوبارد، حزينة.» وبضحكة أعتقد أنها كانت نابعةً من ارتياح شخصي أكثرَ من كونها أيَّ رغبة في التفكير في ابنة عمها، ألقَت رأسها على جانبٍ واحد، ونظرَت إليَّ نظرةً بدَت أنها تقول: «هل أُثْقِل عليكِ كثيرًا، أيتها الأم هوبارد العزيزة العجوز؟»

لقد أثقلَتْ عليَّ بالفعل، ولم أستطع إخفاء ذلك. قلتُ بأنفاسٍ لاهثة: «ولن تُخبر عمَّها؟»

سرعان ما تغيَّر التعبير الساذَجُ الذي ارتسم على وجه ماري. فقالت: «لا.»

شعرت بيدٍ ثقيلة، ساخنة محمومة، تنزاح من فوق قلبي. وقلت: «وبإمكاننا أن نستمرَّ فيما نحن فيه، صحيح؟»

ردًّا على سؤالي مدَّت يدها لتُعطيَني الخطاب.

كانت الخطة المتفقُ عليها بيننا لتنفيذ مقاصدنا هي ما يلي. في الوقت المحدد، كان على ماري أن تستأذن من ابنة عمها بالانصراف بحجةِ أنها قد وعدَتْني بأن تأخذني لزيارة صديقةٍ في البلدةِ المجاورة. بعد ذلك كان عليها أن تستقلَّ عربةً طُلب إحضارها مسبقًا، لتأتيَ بها إلى هنا، حيث كان عليَّ أن أُرافقها. ثم نتجه على الفور إلى منزل القسيس في بلدة «ف...» حيث كان لدينا سببٌ يدعونا إلى الاعتقاد بأننا سنجد كلَّ شيءٍ مُعدًّا لنا. لكن كان في هذه الخطة، على بساطتها، شيءٌ واحد منسيٌّ، وهو طبيعة حب إلينور لابنة عمها. لم نشكَّ في أن شكوكها ستُثار؛ ولكن أن تتبع ماري فعليًّا وتطلبَ تفسيرًا لتصرُّفها، فهذا ما لم يكن متصوَّرًا على الإطلاق، لا من جانبها هي، التي كانت تعرفها تمام المعرفة، ولا من جانبي أنا، التي كنت أعرفها بقدرٍ محدود جدًّا. ومع ذلك كان هذا ما حدث بالضبط. لكن دعني أوضح. كانت ماري، التي كانت قد التزمَتْ بالخطة حتى نقطة ترك رسالة اعتذارٍ صغيرة على تسريحة إلينور، قد جاءت إلى منزلي، وكانت تخلعُ عباءتها الطويلة لتوها لتُريني ثوبها، عندما سمعنا صوتَ قرعٍ آمر على الباب الأمامي. تدثرَتْ سريعًا بعباءتها، وأسرعتُ أنا لأفتح الباب، ويمكنك أن تكون واثقًا من أنني كنتُ أنوي أن أصرف زائري بعد عبارات مجاملة قصيرة، عندما سمعتُ صوتًا من ورائي يقول: «يا إلهي، إنها إلينور!» فنظرت إلى الخلف، ورأيت ماري تنظر عبر ستارة النافذة على مدخل المنزل في الخارج.

صِحت، في فزعٍ طبيعي جدًّا: «ماذا سنفعل؟»

«نفعل؟ عجبًا، افتحي الباب واسمحي لها بالدخول؛ أنا لست خائفةً من إلينور.»

وعلى الفور فعلتُ ذلك، فسارت إلينور ليفنوورث شاحبةً جدًّا، لكن بملامح حازمة، إلى داخل المنزل ثم إلى هذه الغرفة، مواجهةً ماري تقريبًا في نفس الموضع الذي تجلس أنت فيه الآن. وهي ترفع وجهًا لم يسَعْني، حتى في تلك اللحظة المهيبة، سوى الإعجابِ بالتعبير البادي عليه الذي كان مزيجًا من الرقَّة والقوة، قالت: «لقد جئتُ لأسألكِ من دون أي مبرِّرٍ لطلبي، إن كنتِ تسمحين لي بمرافقتكِ في رحلتكِ هذا الصباح؟»

أعرضت ماري، التي كانت قد هيَّأت نفسها لتلقِّي عبارات اتهامٍ أو التماس، بلا مُبالاة مواجِهةً زجاج النافذة. وقالت: «أنا آسفة جدًّا، لكن العربة لا تتسع إلا لاثنين؛ ولهذا سأُضطرُّ أن أرفض طلبكِ.»

«سأطلب عربة كبيرة.»

«لكني لا أرغب في رفقتك، يا إلينور. سنخرج في رحلةٍ للترفيه، ونرغب أن نقضيَ وقتًا ممتعًا بمفردنا.»

«ولن تسمحي لي بأن أرافقكِ؟»

«لا يمكنني أن أمنعكِ من الذَّهاب في عربةٍ أخرى.»

أصبحَت ملامح وجه إلينور أكثرَ جدية. وقالت: «ماري، لقد نشأنا معًا. أنا أختُكِ بالحب والمودة إن لم يكن بصلة الدم، ولا يُمكنني أن أراكِ تنطلقين في هذه المغامرة من دون رفيقٍ آخر غير هذه المرأة. أخبريني إذن، هل أذهب معكِ، كأختٍ لكِ، أم أمضي في الطريق خلفَكِ بصفتي الوصيةَ القسرية على شرفكِ خلافًا لرغبتكِ؟»

«شرفي؟»

«أنتِ ذاهبةٌ لمقابلة السيد كلافرينج.»

«وماذا في ذلك؟»

«على بُعد عشرين ميلًا من البيت.»

«فماذا إذن؟»

«والآن هل من الحصافة أو الشرف أن تفعلي هذا؟»

اتخذت شفَتا ماري المتغطرستان انحناءةً منذِرةً بسوء. صاحت بمرارة: «اليد التي سهرت على تربيتكِ هي نفسُها التي ربَّتني.»

أجابت إلينور: «هذا ليس وقت الحديث عن ذلك.»

احمرَّ وجه ماري. وظهرت كل الضغينة التي كانت بداخلها. كانت تبدو تمامًا مثل كبيرة الآلهة جونو في غضبها وتهديدها المتهوِّر. وصاحت قائلةً: «إلينور، سأذهب إلى بلدة «ف...» لأتزوج من السيد كلافرينج! والآن هل ترغبين في مرافقتي؟»

«نعم.»

تبدَّل أسلوب ماري برمته. فاندفعت إلى الأمام، وأمسكت بذراع ابنة عمها وهزته. صاحت: «لأي سبب؟» وأضافت: «ما الذي تنوين فعله؟»

«أن أشهد على الزواج، إن كان زواجًا حقيقيًّا؛ ولأحولَ بينكِ وبين العار إن ظهر أيُّ بطلان من شأنه أن يؤثر على شرعيته.»

هوَت يدُ ماري من على ذراع ابنة عمِّها. وقالت: «لا أفهمكِ.» وأردفت: «ظننتُ أنكِ لم تُقرِّي أبدًا بما اعتبرتِه خطأً.»

«ولست أفعل ذلك. أي شخص يعرفني سيُدرك أنني لا أعطي موافقتي على هذا الزواج لمجرد أني أحضر مراسمه بصفتي شاهدًا غيرَ راضٍ عما يحدث.»

«ولمَ تذهبين إذن؟»

«لأني أُعلِي شرفكِ على راحة بالي. لأني أحبُّ راعيَنا المشترك، وأعرف أنه لن يسامحني أبدًا إن تركت أثيرته تتزوج، رغم أن زواجها قد يكون مخالفًا لرغباته، دون أن أدعمها بحضوري حتى أجعل هذا الإجراء لائقًا على الأقل.»

«لكن بفعلكِ ذلك، ستتورطين في عالمٍ من الخيانة؛ وهو ما تكرهينه.»

«أكثر مما أنا عليه الآن؟»

«لن يعود السيد كلافرينج معي، يا إلينور.»

«لا، افترضت أن ذلك لن يحدث.»

«سأتركه فورًا بعد مراسم الزواج.»

أحنت إلينور رأسها.

«سيُسافر إلى أوروبا.» وتوقَّفت عن الكلام.

ثم أضافت: «وسأعود إلى البيت.»

«حتى تنتظري ماذا، يا ماري؟»

استحال وجه ماري للون القرمزي، وأشاحت بجسدها في بطءٍ.

وقالت: «ما تفعله كل فتاة في ظروفٍ كهذه، على ما أظن. تنامي مشاعر أكثر عقلانية في قلب أبٍ متعنِّت.»

تنهَّدَت إلينور، وأعقب ذلك صمتٌ دام مدةً قصيرة، كسره نزولُ إلينور على ركبتَيْها، وإمساكها بيد ابنة عمها. انتحبَت، وقد اختفَت عجرفتها وسط سيلٍ من التوسُّل الشديد: «آه يا ماري، فكِّري فيما أنتِ فاعلة! فكري، قبل فوات الأوان، في العواقب التي لا بد أنها ستُعقِبُ فعلًا مثل هذا، قبل فوات الأوان. الزواج الذي يُبنى على خداعٍ لا يمكن أن ينتهيَ بسعادةٍ أبدًا. الحب ... لكنه ليس كذلك. الحب كان سيدفعكِ إمَّا إلى أن تُبعدي السيد كلافرينج، أو أن تتقبَّلي علنًا المصير الذي ستُلاقينه من زواجكِ منه. العاطفة الجامحة وحدها هي التي تنحدر بكِ إلى خدعةٍ مثل هذه. وأنتِ»، واصلت كلامها، وهي تنهض وتستدير نحوي في نوعٍ من الأمل اليائس الذي كان مؤثرًا أن أراه: «هل بوسعكِ أن تشاهدي هذه الفتاة التي لا أمَّ لها، مدفوعة بأهوائها، وغير معترفةٍ بأي رادعٍ أخلاقي، تدخل إلى الطريق الملتوي والمظلم الذي تُخططه لنفسها، دون أن تنطقي بكلمة تحذير ومناشدة واحدة؟ أخبريني، أيتها الأم لأطفالٍ ماتوا ودُفنوا، ما العذر الذي ستُقدمينه ليُبرر دوركِ في فعلة هذا اليوم، عندما تأتي إليكِ، ووجهها مُكتسٍ بالحسرة التي ستعقب هذه الخديعة ...»

قاطعها صوت ماري، بنبرةٍ فاترة ومتكلفة: «نفس العذر الذي ستُقدمينه، على الأرجح، عندما يسألُكِ عمي كيف سمحتِ بارتكاب هذا العصيان في غيبته: لأنها لم تستطع أن تمنع نفسها، وأن ماري اختارت طريقها، وعلى كل من حولها أن يتأقلَموا عليه.»

كان الموقف أشبهَ بتيار هواءٍ شديد البرودة تدفق على حين غِرةٍ داخل غرفة تصاعدت حرارة الغضب فيها إلى درجة الاحتدام. تصلَّبَت إلينور في الحال، ومتراجعةً، شاحبة ومتماسكة، توجهَت بالحديث إلى ابنة عمها:

«إذن لا شيء يمكن أن يَثنِيَكِ؟»

كان اعوجاجُ شفتي ماري هو الردَّ الوحيد على السؤال.

سيد ريموند، لا أريد أن أُثقل عليك بالمشاعر التي انتابَتْني، لكن المرة الأولى على الإطلاق التي شعرت فيها بأني فقدتُ الثقة في حِكمتي في دفع هذا الموضوع إلى هذا الحد كانت عند اعوجاجِ شفتَيْ ماري. على نحوٍ أكثر وضوحًا من كلمات إلينور، أوضح لي النزعة التي كانت تُقدِم بها على هذه المهمة المهلكة؛ وبعد أن أصابني ذعرٌ لحظي، تقدَّمتُ لأتحدَّث عندما أوقفَتْني ماري.

أضافَت بتأكيدٍ ينطوي على مرارة: «حسبكِ الآن، أيتها الأم هوبارد، لا تمضي وتعترفي بأنكِ خائفة، لأني لا أريد سماع هذا. لقد وعدتُ بأن أتزوج هنري كلافرينج اليوم، وسأفي بوعدي ... وإن لم أكن أحبه.» ثم ابتسمَت لي بطريقةٍ جعلَتْني أنسى كلَّ شيءٍ ما عدا حقيقة أنها ذاهبةٌ إلى عُرسها، وأعطَتْني وشاحها لأثبِّته. وبينما كنت أفعل هذا، بأصابع ترتجف بشدةٍ، قالت، وهي تنظر مباشرةً إلى إلينور:

«لقد أثبَتِّ أنكِ أكثرُ اهتمامًا بمصيري عمَّا كنت أتوقَّع لأي سبب. هل ستستمرين في إبدائكِ لهذا القلق طوال الطريق إلى بلدة «ف...» أو هل لي أن أتطلَّع لقضاء دقائق معدودةٍ من السلام أحلم فيها بالخطوة التي، حسب نظرتكِ، على وشك أن يَنهال عليَّ بسببها وابلٌ من العواقب الوخيمة؟»

ردَّت إلينور: «إذا ذهبت معكِ إلى «ف...» فسأذهب بصفتي شاهدةً، لا أكثر. واجبي الأخوي انتهى.»

قالَت ماري، وهي تغمز في بهجةٍ مفاجئة: «حسنًا، إذن، أظن أنَّ عليَّ تقبُّلَ الوضع. أيتها الأم هوبارد، أعتذر بشدةٍ عن تخييب أملكِ. لكن العربة لن تتسعَ لثلاث. إن طابت نفسكِ، فستكونين أول من يُهنئني عند عودتي إلى المنزل الليلة.» وتقريبًا قبل أن أستوعب ذلك، كانتا قد جلستا في العربة التي في انتظارهما عند الباب. وصاحت ماري، وهي تُلوح بيدها من الخلف: «وداعًا، تمنَّيْ لي الكثير من السعادة ... في رحلتي.»

حاولت أن أفعلَ ذلك، لكن لساني انعقد. لم يكن بوسعي إلا أن أُلوح بيدي ردًّا عليها، وهُرِعت منتحبةً إلى داخل المنزل.

أما عن ذلك اليوم، والساعات الطويلة التي قضيتها أتقلَّب بين الندم والقلق، فلا أظن أن لديَّ القدرةَ على الحديث عنه. دعني أتطرق مباشرةً إلى الوقت الذي كنت فيه جالسةً بمفردي في غرفتي المضاءة بنور المصباح، أنتظرُ وأراقب أي إشارة على عودتهما كما وعدتني ماري. فجاءَتني الإشارة بمجيء ماري نفسها، التي جاءَت متسللةً إلى داخل المنزل، متدثرةً في عباءتها الطويلة، وبوجهها الجميل الذي يشعُّ حمرةً، في نفس الوقت الذي كنت فيه بدأت أشعر باليأس.

دخلت معها موسيقى من نوعٍ صاخبٍ آتية من المدخل المسقوف للفندق، حيث كان النزلاء يرقصون، فأحدثَت وقعًا غريبًا على خيالي لدرجة أني لم أُفاجَأ مطلقًا عندما خلعت عنها عباءتها، وأرَتْني رداءَ عُرسها الأبيض ورأسها المتوج بإكليل ورود بيضاء كالثلج.

فصِحتُ، وأنا أجهش بالبكاء: «أوه، ماري! أنتِ إذن ...»

«السيدة كلافرينج، في خدمتكِ. أنا عروس، يا خالة.»

فتمتمتُ، وأنا أضمُّها إلى حضني بعاطفة قوية: «من دون عرسٍ.»

لم تُبالِ بمشاعري. ومستكينةً بالقرب مني، سمحَت لنفسها بأن تستسلم للحظة عاصفةٍ أجهشَت فيها بدموعٍ صادقة، قائلةً وسط نحيبها كلَّ ما هو شجي؛ وأخبرتني كم تحبني، وكيف أنني كنتُ الوحيدةَ في هذا العالم التي جَرُؤَت على أن تأتيَ إليها، في ليلة عرسها، لأهونَ عليها أو أهنئها، وكم كانت تشعر الآن بالخوف من أن كلَّ شيء قد انتهى، كما لو أنها قد تنازلت عن شيء ذي قيمة غالية باسمها.

سألتها، في جزع بالغ لعجزي عن أن أُسعِد هذين الحبيبين: «وألا يُعزي قلبكِ التفكير في أنكِ جعلتِ شخصًا ما أكثر الرجال زهوًا؟»

تنهدت قائلةً: «لا أعرف.» وأردفت: «أي سعادة يمكن أن ينالها مِن أن يشعرَ بأنه مرتبطٌ مدى الحياة بفتاةٍ جعلَتْه يرحل بهذه الطريقة، فتاةٍ سرعان ما ستفقد ثروتها المرتقبة؟»

قلت: «حدِّثيني عن ذلك.»

لكنها لم تكن في حالةٍ مزاجيةٍ تسمح بذلك في تلك اللحظة. فالإثارة التي كانت قد مرَّت بها في ذلك اليوم كانت تفوقُ احتمالها. بدا أن آلاف المخاوف تُحاصر عقلها. جالسةً القُرْفُصاء على الكرسي الصغير عند قدمَيَّ، عقدَت ذِراعيها وأعطى بريقٌ على وجهها جانبًا من لا واقعيةٍ غريبة على ثيابها الأنيقة. قالت: «كيف لي أن أُبقيَ الأمر سرًّا! الفكرة تُطاردني كل لحظة؛ كيف لي أن أبقي الأمر سرًّا!»

سألتها: «عجبًا، هل ثمة أي خطر من أن يُعرَف الأمر؟ هل رآكِ أو تبعكِ أحدٌ؟»

تمتَمَتْ: «لا، كل شيء سار على ما يُرام، ولكن ...»

«أين الخطر، إذن؟»

«ليس بوسعي أن أُخمِّن؛ لكن بعض الأفعال مثل الأشباح. لن تختبئ؛ إنها تُعاود الظهور؛ وتثرثر؛ تُظهِر نفسها شِئْنا أم أَبَينا. لم أُفكر في هذا من قبل. كنتُ مجنونة، متهورة، قولي ما تشائين. لكن منذ أن حلَّ الليل، شعرت بشيءٍ يكتسحني مثل سحابةٍ كثيفةٍ من الدخان تخنق الحياة والشباب والحبَّ في قلبي. بينما كان ضوء النهار باقيًا كان بوسعي أن أحتملها؛ لكن الآن ... آهٍ يا خالة، لقد فعلت شيئًا سيُبقيني في خوفٍ دائم. لقد تحالفتُ مع هلعٍ لا يفتر. لقد قضيتُ على سعادتي.»

كنت أشعر بذهولٍ عقد لساني.

«لمدة ساعتَين تصنَّعتُ السعادة. مرتديةً فستان العرس الأبيض، ومتوجةً بإكليلٍ من الزهور، كنتُ أُحيِّي أصدقائي كما لو كانوا ضيوفَ حفل الزفاف، وجعلت نفسي أصدق أن كل المجاملات التي أُتحِفتُ بها — وكانت كثيرة للغاية — كانت ببساطة عباراتِ تهنئةٍ كثيرةً بزواجي. لكن لم يكن ثمة جدوى من ذلك؛ إلينور كانت تُدرك أن لا جدوى من ذلك. فذهبت إلى غرفتها لتُصلي، أما أنا ... فقد أتيت إلى هنا؛ لأرتميَ عند قدَمَي شخصٍ ما وأبكي، للمرة الأولى، وربما الأخيرة ... فليرحَمْني الرب!»

نظرت إليها في انفعال خارج عن سيطرتي. قلت: «آه يا ماري، ألم أنجح، إذن، إلا في أن أجعلَكِ تعيسة؟»

لم تُجب؛ كانت منشغلة بالتقاط إكليل الزهور الذي سقط من شعرها على الأرض.

قالت أخيرًا: «لو لم أتعلم أن أحبَّ المال هكذا!» وتابعت: «لو أن بوسعي، مثل إلينور، أن أتطلع إلى مباهج الحياة التي كانت لنا منذ الطفولة على أنها لا تعدو أن تكون أمورًا ثانوية في الحياة، ومن السهل التخلي عنها أمام نداء الواجب أو المحبة! لو لم تكن المكانة الرفيعة والتملُّق والمقتنيات الأنيقة تعني لي الكثير؛ أو لو كان الحب، والصداقة، والسعادة في المنزل أمورًا أكثرَ قيمةً لديَّ! ليت كان بإمكاني أن أخطوَ خطوة واحدة من دون أن أجترَّ ورائي سلسلة من آلاف الرغبات المترفة. بوسع إلينور أن تفعل ذلك. مع ما بها من عجرفة كما هي غالبًا فيما يتصل بأنوثتها الفاتنة، ومن تكبر عندما تُمسُّ شخصيتها الرقيقة بوقاحة زائدة، عهدتها تجلس لساعات في عَلِيَّة صغيرة، باردة، سيئة الإضاءة، كريهة الرائحة، تُهدهِدُ طفلًا متسخًا على ركبتيها، وتُطعم بيدها عجوزًا نافدةَ الصبر لن يرضى أحدٌ آخر أن يلمسها. آهٍ، آهٍ! يتحدثون عن الندم وتغير الأحاسيس! ليت أحدًا أو شيئًا يُغيِّر أحاسيسي! لكن لا أمل في ذلك! لا أمل على الإطلاق في أن أكون أي شيء سوى ما أنا عليه: فتاة أنانية، عنيدة، ومادية.»

ولم تكن هذه الحالة المزاجية مجرد حالة عابرة. في تلك الليلة نفسها أفصحَت عن اكتشافٍ زاد من خوفها إلى حدِّ الهلع تقريبًا. لم يكن هذا سوى حقيقة أن إلينور كانت تُدون مذكرات يومية بما جرى في الأسابيع القليلة الماضية. صاحت، وهي تحكي لي هذه النقطة في اليوم التالي: «يا إلهي، أي أمانٍ يمكنني أن أشعر به ما دامت مذكراتها باقيةً أمام عيني كلما دخلت غرفتها؟ ولن توافق على التخلص منها، رغم أني بذلتُ قصارى جهدي حتى أُبين لها أنها خيانةٌ للأمانة التي أودعتها إياها. تقول إن هذا كلُّ ما لديها لتُظهره دفاعًا عن نفسها، إذا ما وجَّه لها عمُّها يومًا ما اتهامًا بخيانته وخيانةِ هَناءة

العيش التي وفرها لها. وعدتني بأن تحتفظ بها في مكانٍ مغلق؛ لكن ما النفع الذي سيعود من ذلك؟! قد تحدث آلافُ المصادفات، وأيٌّ منها كفيلٌ بأن تُلقي بها بين يدَي عمي. لن أنعمَ بالأمان للحظةٍ وهذه المذكرات موجودة.»

حاولتُ أن أُخفف عنها بقولي إنه إذا كانت إلينور لا تحمل ضغينةً في نفسها، فمثل هذا الخوف لا مبرر له. لكنها لم تطمئنَّ بالًا، وإذ رأيتُها في حالة من الاضطراب الشديد، اقترحت أن يُطلَب من إلينور أن تضع هذه المذكرات في عهدتي إلى أن يأتي الوقت الذي تشعر فيه بالحاجة إلى استخدامها. لاقت الفكرة استحسانًا لدى ماري. فصاحت: «أجل، وسأضع شهادة زواجي معها، وبهذا أتخلص من خوفي كله دفعة واحدة.» وقبل أن تنقضي فترة بعد الظهر، كانت قد قابلت إلينور وأبلغتها بطلبها.

قوبل الطلب بالموافقة لكنه كان مرهونًا بشرط، وهو أنه لم يكن مسموحًا لي أن أُتلفَ أو أُسلِّم كل الورق أو أيًّا منه إلا بِناءً على طلبٍ مشترك من الاثنتين. وعليه أُحضر صندوق قصديري صغير وضِعت بداخله جميع الأدلة المتوفرة التي كانت تُثبت زواج ماري حينها، أي: شهادة الزواج، وخطابات السيد كلافرينج، والأوراق من مذكرات إلينور على النحو المشار إليه في هذه المسألة. بعد ذلك سُلِّم إليَّ بِناءً على الشرط الذي سبق أن ذكرتُه، وخبَّأته في خِزانةٍ بالطابق العلوي، حيث كان متروكًا على حاله حتى الليلة الماضية.

وهنا توقفَت السيدة بيلدن، واحمرَّ وجهها بتألم، ورفعت عينَيها إلى عينيَّ بنظرةٍ امتزج فيها القلق والرجاء على نحوٍ يدعو إلى العجب.

قالت: «لا أدري ماذا ستقول، ولكن بدافعٍ من مخاوفي، أخرجتُ الصندوق من مخبئه الليلة الماضية وعلى الرغم من نصيحتك، أخذتُه من المنزل، وهو الآن ...»

فأنهيتُ الجملة في هدوءٍ: «في حوزتي.»

لا أظن أني رأيتُها أكثرَ ذهولًا منها الآن، ولا حتى عندما أخبرتُها بموت هانا. صرخت: «مستحيل!» ثم صاحت: «تركتُه الليلة الماضية في الحظيرة المهجورة التي احترقت. لم أقصد سوى أن أُخفيه في الوقت الحالي، ولم يخطر ببالي مكانٌ أفضل منها لما كنتُ في عجلة من أمري؛ لأنه يُقال إن الحظيرة مسكونة — شنق رجلٌ نفسه هناك ذات مرة — ولا يذهب أحدٌ إلى هناك مطلقًا. أنا ... أنا ... لا يمكن أن يكون بحوزتك! إلا إذا ...»

قلت: «إلا إذا وجدتُه وأخرجته قبل أن يلحق الدمارُ بالحظيرة.»

ازداد وجهها حُمرة. فقالت: «أكنتَ تتبعُني إذن؟»

قلت: «نعم». ثم، إذ شعرتُ أن وجهي قد احمرَّ، أسرعت بأن أضيف: «أنا وأنتِ، كنا نلعب أدوارًا غريبة وغيرَ مألوفةٍ لنا. في وقتٍ ما، عندما تصبح جميع هذه الأحداث المفزعةِ مجردَ حلمٍ من الماضي، سنطلب أن يعفوَ كلٌّ منَّا عن الآخر. لكن هذا لا يهمُّ الآن. الصندوق في أمان، وأنا متلهفٌ إلى أن أسمع بقية قصتكِ.»

بدا أن هذا هدَّأ من روعها، وبعد دقيقة واصلت حديثها:

ظهرت ماري على طبيعتها أكثر بعد ذلك. ومع أنني، بسبب عودة السيد ليفنوورث واستعداداتهم اللاحقة للمغادرة، لم أرَ إلا القليلَ من ذاتها، كان ما رأيته كافيًا لأن يجعلني أخشى من أنها، مع إخفاء الأدلة على زواجها، أخذت تُطلق العِنان لفكرة أن الزواج نفسَه قد أصبح باطلًا. لكن ربما أكون قد ظلمتها في هذه المسألة.

انتهت تقريبًا قصةُ تلك الأسابيع القليلة. عشية اليوم السابق لمغادرتها، جاءت ماري إلى منزلي لتودِّعني. كانت تحمل في يدها هدية لن أذكر قيمتها، لأني لم أقبلها، مع أنها أغرتني بأروعِ ما لديها من حِيَل. لكنها قالت شيئًا تلك الليلة لم أستطع أبدًا أن أنساه. كان ما يلي. كنت أتحدث عن أملي في أنه قبل أن يمضيَ شهران، ستجد نفسها في موقف يجعلها ترسل في طلب السيد كلافرينج، وأنه عندما يأتي ذلك اليوم فإني أرغبُ بأن أُبلَّغ به؛ وعندئذٍ قاطعَتني فجأة قائلةً:

«لن يقتنع عمي أبدًا، كما تصفين الأمر، ما دام على قيد الحياة. إذا ما كنتُ مقتنِعةً بهذا قبلئذٍ، فأنا متأكدةٌ منه الآن. لا شيء إلا موته سيجعلُ في الإمكان أن أرسل في طلب السيد كلافرينج.» ثم، إذ رأتني أبدو فزعةً من فترة الفراق الطويلة التي بدا أن هذا سيستغرقها، احمرَّ وجهها قليلًا وهمست قائلة: «المستقبل يبدو مُريبًا إلى حدٍّ ما، أليس كذلك؟ لكن إن كان السيد كلافرينج يُحبني، يمكن أن ينتظرني.»

قلت: «لكن عمك لم يتجاوز ربيعَ عمره إلا بقليلٍ ويبدو بصحةٍ قوية؛ سيستغرق الأمرُ سنواتٍ من الانتظار، يا ماري.»

تمتمَت: «لا أدري، لا أعتقد ذلك. عمي ليس قويًّا كما يبدو وكذلك ...» ولم تنطق بأكثرَ من ذلك، ربما خوفًا من المسار الذي كان ينعطف إليه الحديث. لكن كان ثَمة تعبيرٌ على وجهها جعلني أُفكر حينها، وجعلني لا أتوقفُ عن التفكير منذ ذلك الحين.

لا يعني ذلك أن أيَّ خوف حقيقي من وقوع حدثٍ ما كالذي أثاره ما وقع منذ ذلك الحين، أثقلَ عليَّ وحدتي أثناءَ الأشهر الطويلة التي مرَّت حتى الآن. كنت مثلما أنا الآن واقعةً بشدة تحت تأثير سحر جمالها لدرجةٍ منعَتني من أن أسمح لأي شيء يمكن أن

يؤثر على صورتها أن يظلَّ طويلًا في ذهني. لكن عندما، في وقتٍ ما في فصل الخريف، جاءني خطابٌ موجَّه إليَّ بصفةٍ شخصية من السيد كلافرينج، يفيض بتوسلٍ حارٍّ بأن أُخبره بأي خبرٍ عن المرأة التي، رغم وعودها، كتبت عليه أن يعيشَ في قلق قاسٍ، وعندما، في الليلة نفسها، حدثني صديق، كان قد عاد لتوه من نيويورك، عن لقائه بماري ليفنوورث في تجمعٍ ما، محاطةً بلفيفٍ من المعجبين، بدأت أدرك خطورة الموقف؛ ولهذا جلست، وكتبتُ لها خطابًا. لم يكن بالأسلوب الذي كنت قد اعتدتُ على أن أتحدث به إليها — فلم أستحضر أمامي عينيها المتوسلتَين ولا يديها المرتجفتين، مما كان يضلل رأيي ويبعده عن مساره الصحيح — وإنما أخبرتها، بصراحة وجدية، بما يشعر به السيد كلافرينج، وبالخطر الذي تعرض نفسها له بأن تمنع حبيبًا متلهفًا من حقوقه. وأذهلني الرد الذي أرسلته لي.

«لقد أقصيتُ السيد روبنز من حساباتي حاليًّا، وأنصحكِ بأن تفعلي الشيءَ نفسه. أما بشأن السيد المحترم نفسه، فقد أخبرتُه بأنني عندما أتمكن من استقباله، سأحرص على إخطاره بذلك. ذلك اليوم لم يأتِ بعد.»

ثم أضافت في الحاشية: «لكن لا تُحبطيه. عندما يحظى بسعادته، ستكون سعادةً تُرضيه.»

فكَّرت في نفسي قائلةً «عندما». آه، إن «عندما» هذه هي التي من المحتمل أن تُقوِّض كل شيء! لكن، عازمةً فحسبُ على النزول على رغبتها، جلست وكتبت خطابًا إلى السيد كلافرينج، ذكرت فيه ما قالته، ورجوته أن يصبر، مضيفةً أنني سأُطلعه بكلِّ تأكيد إن حدث أيُّ تغيير لدى ماري أو في ظروفها. وبعد أن أرسلته إلى عنوانه في لندن، انتظرت تطور الأحداث.

ولم يتأخر وقوعها. في غضون أسبوعين سمعت بالموت الفجائي للسيد ستيبنز، القسِّ الذي تولَّى عقد زواجهما؛ وبينما كنت أرزَحُ تحت وطأةِ الكرب الذي سبَّبتْه هذه الصدمة لي، أذهلني أيضًا أن أرى في صحيفة نيويوركية اسم السيد كلافرينج ضمن قائمة الوافدين إلى فندق هوفمان؛ وهو ما أظهر أن خطابي إليه قد فشل في إحداث الأثرِ المقصود، وأن الصبر الذي كانت ماري قد اعتمدَت عليه بلا بصيرة منها كان مُشْرِفًا على نهايته. ومن ثَمَّ لم أندهش مطلقًا عندما جاء، في غضون أسبوعين أو نحو ذلك، خطابٌ منه على عنواني، نتيجةً للحذف المستهتر للعلامة الخاصةِ على الظرف، ففتحته، وقرأت ما يكفي لأن أعرف أنه، مدفوعًا نحو اليأس بسببِ الإخفاقات المتوالية التي كان قد تعرَّض لها في جميع

محاولاتِه للوصولِ إليها في نطاقٍ عام أو خاص، وهي إخفاقات لم يخجل من أن يُرجع السببَ فيها إلى نفورها من رؤيته، كان قد قرَّر أن يُخاطر بكل شيء، حتى سخطها؛ وبالتقدم بالتماسٍ إلى عمها، يضعُ حدًّا، على نحوٍ قطعي وفي الحال، لهذا القلق الذي كان يرزحُ تحت وطأته. كتب يقول: «أُريدكِ سواءٌ بمهر أو بدونه، فهذا لا يُشكل فارقًا كبيرًا عندي. إن لم تأتِي طوعًا، فلا بد أن أحذوَ حذو الفرسان الشجعان، أجدادي؛ سأقتحم القلعة التي أنتِ محتجَزةٌ فيها، وسأحملك بالقوة بين ذراعيَّ.»

لا يمكنني القول إني تفاجأت كثيرًا، لمعرفتي بماري كما عهدتها، عندما أرسلت إليَّ، في غضون أيام قليلة من هذا، خطابًا لأنسخ لها هذا الرد: «إن كان السيد روبنز يتوقَّع أن يكون سعيدًا مع إيمي بيلدن، فعليه أن يُعيد النظر في نبرة الإصرار التي يتحدَّث بها. لأنه بهذا التصرف لن ينجحَ فحسب في تدمير سعادة من يقرُّ بحبه لها، بل سيُعرض نفسه لخطر أن يفسد فعليًّا الحبَّ الذي يجعل الرابطة بينهما قويَّة.»

لم يكن لهذا الخطاب تاريخٌ ولا توقيع. كان صرخةَ التحذير التي تُطلقها إنسانةٌ شجاعة، مستقلةٌ بذاتها عندما تصبح في موقف تُضطرُّ فيه إلى الدفاع عن نفسها. هذا الخطاب جعلني أنا نفسي أنكصُ فزعًا، رغم أنني كنت أعرف من البداية أن عنادها الجذابَ لم يكن سوى الزَّبَدِ الطافي فوق أعماقٍ لا حد لها من عزم قاسٍ وغاية مدروسة إلى أبعد حد.

لم يكن بوسعي سوى تخمينِ أثر ذلك فعليًّا عليه وعلى مصيرها. كل ما أعرفه هو أنه بعد أسبوعين عُثِر على السيد ليفنوورث مقتولًا في غرفته، وأتت هانا تشيستر، مباشرةً إلى بابي فرارًا من مشهد العنف، وتوسلَت إليَّ لأستقبلها وأُخفِيَها من الاستجواب العام، لأني كنت أحبُّ ماري ليفنوورث وأرغب أن أقدم معروفًا لها.

الفصل الثالث والثلاثون

شهادة غير متوقعة

بولونيوس: ماذا تقرأ، يا سيدي؟
هملت: كلمات، كلمات، كلمات.

مسرحية «هملت»

توقفت السيدة بيلدن عن الكلام، واستغرقت في الحزن الشديد الذي أثارَتْه هذه الكلمات، وساد الغرفةَ صمتٌ قصير. قطعه سؤالي عن بعض التفاصيل بشأن الواقعة التي كانَت قد أشارَت إليها لتوِّها؛ إذ كان غامضًا لي كيف استطاعت هانا أن تدخل منزلها دون علمِ الجيران.

فقالت: «حسنًا، كانت ليلةً باردة، وكنت قد أويتُ إلى فراشي في ساعةٍ مبكرةٍ (كنت أنام حينها في الغرفة البعيدة عن هذه الغرفة)، وتقريبًا في الساعة الواحدة إلا الربع — فآخر قطارٍ يمرُّ عبر بلدة «ر...» في الساعة ١٢:٥٠ — سمعت صوتَ دقٍّ خفيفٍ على زجاج النافذة التي عند رأس فراشي. ظننت أن أحدَ الجيران كان متوعكًا، فنهضتُ على عجلٍ وأنا أتكئ على مرفقي وسألتُ عمَّن بالخارج. جاء الرد بنبراتٍ خافتةٍ مكتومةٍ: «هانا، خادمة الآنسة ليفنوورث! من فضلكِ اسمحي لي بالدخول من باب المطبخ.» انتفضتُ لسماعي الصوتَ الذي كنت أعرفه جيدًا، وخائفةً لسببٍ لا أعرفه، أمسكتُ بمصباحٍ وهُرِعت نحو الباب. سألتُها: «أمعكِ أي أحد؟» أجابتني: «لا.» فقلت لها: «إذن ادخلي.» لكن ما إن دخلت حتى خارَت قُواي، وتعيَّن عليَّ أن أجلس؛ لأني أبصرتُ أنها بدَت شاحبةً وغريبة، ولم يكن معها حقائب، وكانت هيئتُها كلُّها كهيئة روحٍ هائمة. قلتُ بأنفاسٍ لاهثة: «هانا! ما الأمر؟ ماذا حدث؟ ما الذي أتى بكِ إلى هنا في هذه الحالة وفي هذه الساعة من الليل؟»

أجابت، بصوتٍ خافت وبوتيرةٍ رتيبةٍ كمن يُكرِّر درسًا غيبًا: «الآنسة ليفنوورث أرسلَتْني.» وأضافَتْ: «أخبرَتْني بأن آتيَ إلى هنا، وقالت إنكِ ستُؤْوينني. لا ينبغي أن أخرج من المنزل، ولا أن يعلمَ أحدٌ بوجودي هنا.» فسألتُها، وأنا أرتعد ألفَ مرة من خوفٍ مجهول: «لكن، لماذا؟ ماذا حدث؟» قالت بهمسٍ: «لا أجرُؤ على التوضيح؛ ليس مسموحًا لي؛ ليس عليَّ إلا أن أُقيمَ هنا، وألتزمَ الصمت.» فقلت، وأنا أساعدها أن تخلعَ عنها وشاحها؛ ذلك الوشاح الرثَّ الذي أُعلن عنه في الصحف: «لكن، لا بدَّ أن تُخبريني. فهي لن تمنعكِ بالتأكيد من أن تخبريني أنا؟» أجابَت، وهي تزداد شحوبًا مع إصرارها: «لكنها منعَتْني أن أخبركِ؛ أنتِ أو أي أحدٍ؛ وأنا لا أنقض وعدي أبدًا؛ حتى النار لا يُمكنها أن تنتزع الكلامَ مني.» كانت تبدو مصرَّةً إصرارًا شديدًا، على غيرِ طبيعتها تمامًا، إذ تذكرتُ وَداعتها وتواضعها في الأيام التي عرَفتُها فيها، لدرجة أنني عجزت أن أفعل أي شيءٍ سوى أن أحدقَ فيها. قالت: «ستُؤْوينني، ولن تصرفيني من هنا؟» فقلت: «لا، لن أصرفكِ من هنا.» فتابَعَتْ: «ولن تُخبري أحدًا؟» فكررتُ قولها: «ولن أخبر أحدًا.»

بدا أن ما قيل أراحها. وبعدما شكرَتْني، تبعَتْني في هدوءٍ إلى الطابق العلوي. أسكنتُها الغرفة التي وجدتَها فيها؛ لأنها كانت أكثرَ غرفةٍ متواريةٍ عن الأنظار في المنزل؛ وظلَّت مقيمةً فيها منذ ذلك الحين، في رضًا وسعادة، بقدر ما كان بوسعي أن أرى، حتى يومنا المريع هذا.»

سألتُها: «أهذا كلُّ ما في الأمر؟» وأردفتُ: «ألم تحصلي منها على أي تفسيرٍ لاحقًا؟ ألم تُعطكِ أي معلوماتٍ على الإطلاق بخصوص الوقائع التي أدَّتْ بها إلى الفرار؟»

«لا، يا سيدي. التزمَت الصمتَ بأقصى درجات الإصرار. وحينها وكذلك عندما، في اليوم التالي، واجهتُها بالصحف التي كانت في يدي، وبالسؤال المريع على شفتيَّ عمَّا إذا كان ما جعلها تهربُ هو واقعة القتل التي حدثَتْ في منزل السيد ليفنوورث، لم تزد عن أنها أقرَّت بأنها فرَّتْ هاربةً لهذا السبب. كان شخصٌ ما أو شيءٌ ما قد ألجم لسانها، وكما قالت: «النار والتعذيب لن يجعَلاها تتكلم أبدًا.»»

أعقبَ هذا توقفٌ قصير؛ ثم، وبينما كان عقلي لا يزال يحوم حول نقطةٍ واحدةٍ تستأثرُ باهتمامي بأشد ما يكون، قلت:

«هذه القصة، أي، هذه التفاصيل التي قد أوضحتِها لي للتو عن زواج ماري السري والمأزق الكبير الذي وضعَها فيه — مأزق لم يُخلِّصها منه سوى موتِ عمِّها — إلى جانب

هذا الإقرار من جانب هانا بأنها قد غادرت البيتَ ولجأَت إلى هنا بناءً على إلحاح ماري ليفنوورث؛ هي الأساس الذي بنَيتِ عليه الشكوكَ التي أشرتِ إليها؟»

«أجل، سيدي؛ عليها وعلى الدليل الذي يُثبت اهتمامها بالأمر والموضَّح في الخطاب الذي وصلني منها أمس، والذي قلتَ إنه بحوزتك الآن.»

يا إلهي، ذلك الخطاب!

تابعَت السيدة بيلدن حديثها، بصوتٍ منكسر: «أعرف أنه من الخطأ، في قضية خطيرة مثل هذه، أن نصلَ إلى استنتاجاتٍ متعجِّلة؛ لكن، آهٍ، يا سيدي، كيف يسَعُني أن أفعل، أن أعرف ما أفعل؟»

لم أُجبها؛ كنت أقلب في عقلي السؤال الذي ساورني قديمًا: هل من الممكن، أمام كلِّ هذه التطورات الأخيرة، أنني ما زلت أعتقد أن ماري بريئة من دمِ عمها؟

واصلت السيدة بيلدن حديثها قائلةً: «من المفزع أن أتوصلَ لمثل هذه الاستنتاجات، لكن لا شيء غير كلماتها المكتوبة بيدها كان يمكن أن يدفعني إلى ذلك، ولكن ...»

قاطعتها: «اعذريني، لكنكِ قلتِ في بداية حوارنا هذا إنكِ لا تظنِّين أن لماري يدًا مباشرةً في قتل عَمِّها. هل أنتِ على استعدادٍ لأن تُكرِّري هذا التأكيد؟»

«نعم، نعم، بالطبع. مهما كان ما أظنُّه بشأن تأثيرها في التحريض عليه، لا يمكنني مطلقًا أن أتخيَّل أنَّ لها أيَّ يدٍ في تنفيذه الفعلي. يا إلهي، مستحيل! يا إلهي، مستحيل! مهما كان ما حدث في تلك الليلة المريعة، فماري لم تضَع يدها أبدًا على مسدَّسٍ أو رصاصةٍ، أو كانت واقفة أثناء استخدامهما؛ ذلك أمر يمكنك أن تكون متأكدًا منه. لا أحد يمكن أن يكون قد امتلك الجُرأة على ارتكاب فعلة بهذه البشاعة سوى الرجل الذي أحبها، واشتاق إليها، وشعر باستحالة الوصول إليها بأيِّ وسيلة أخرى.»

«إذن فأنت تظنين ...»

«أن السيد كلافرينج هو القاتل؟ أجل، أظن ذلك: وآهٍ، يا سيدي، عندما تفكر في أنه زوجها، أليس هذا مفزعًا بما يكفي؟»

قلت، وأنا أنهض لأُخفيَ مدى تأثري باستنتاجها هذا: «إنه كذلك، بالفعل.»

بدا أن شيئًا في نبرة صوتي أو في هيئتي أفزعَها. صاحَت، وهي تنظر نحوي بنظرةٍ تنطوي على شيءٍ يُشبه شكًّا بدأ يتسلَّل إليها: «أتمنَّى وأثق في أنني لم أكن غيرَ متحفِّظة.» وأردفَت: «بوجود هذه الفتاة الميتة راقدةً في منزلي، عليَّ أن أكون حذرةً إلى أبعد حد، أعرف، ولكن ...»

أكَّدتُ لها بجدِّيةٍ وأنا أتجه صوبَ الباب توقًا إلى الهرب، ولو للحظةٍ واحدة، من هذا الجو الذي كان يخنقني: «لم تقولي شيئًا.» وأضفتُ: «لا يمكن لأحدٍ أن يلومكِ على أي شيءٍ قُلتِه أو فعَلتِه اليوم. ولكن ...»، وهنا توقفت ورجعت إليها مسرعًا ثم قلت لها: «أريد أن أسألَكِ سؤالًا آخر. هل لديكِ أيُّ سبب، غير الاشمئزاز التلقائي من الاعتقاد بأن امرأةً شابَّةً وجميلةً هي الجاني في جريمةٍ وحشية، لأن تقولي ما قُلتِه عن هنري كلافرينج، ذلك الرجل الذي كنتِ قد أشرتِ إليه في هذا الشأن؟»

قالت بصوتٍ هامس، يشوبه شيءٌ من اضطرابها السابق: «لا.»

شعرت أن السبب غيرُ كافٍ؛ ولهذا انصرفتُ وأنا أحمل بداخلي نفس الإحساس بالاختناق الذي أصابني لَمَّا سمعت بأن المفتاح المفقود عُثر عليه في حوزة إلينور. قلت: «عليكِ أن تعذريني؛ أريد أن أختليَ بنفسي دقيقةً، حتى أفكِّر بتروٍّ في الحقائق التي سمعتها لتوي؛ وسأعود سريعًا»؛ ودون المزيد من المجاملات، خرجتُ مسرعًا من الغرفة.

لدافعٍ يصعب تحديده، صعدتُ في الحال لأعلى، ووقفتُ عند النافذة الغربية للغرفة الكبيرة التي تقع مباشرةً فوق السيدة بيلدن. كانت الستائر مغلقة، وكانت الغرفة غارقةً في كآبةٍ جنائزية، لكن لوهلةٍ لم أشعر بكآبتها ورعبِها؛ كنتُ منهمكًا في جدالٍ مخيف مع نفسي. هل كانت ماري ليفنوورث الطرفَ الرئيسي في هذه الجريمة، أو مجردَ شريك فيها؟ هل يستبعد التحامل المصمِّم للسيد جرايس، والإدانات الموجهة لإلينور، وحتى الأدلة الظرفية لتلك الحقائق التي كنا قد توصَّلنا إليها، احتمال صحة استنتاجات السيدة بيلدن؟ لم أشكَّ في أن كل المحققين المهتمين بالقضية سيعتبرون أن المسألة قد حُسمت؛ ولكن هل من اللازم أن تكون قد حُسِمَت؟ هل من المستحيل تمامًا أن يُعثر على دليلٍ يُثبت أن هنري كلافرينج، رغم كل هذا، هو قاتل السيد ليفنوورث؟

امتلأ كِياني بتلك الفكرة، وأخذت أتطلَّع عبر الغرفة إلى الخزانة حيث ترقد جثةُ الفتاة التي، حسبَ كل الاحتمالات، كانت قد عرَفَت حقيقة الأمر، وسيطر عليَّ شعورٌ بحسرةٍ شديدة. آهٍ، لماذا لا يمكن لهذا الجسدِ الهامد أن يتكلَّم؟ لماذا ترقد هنا صامتةً هكذا، بلا نبض، وهامدةً، بينما كانت كلمةٌ منها كافيةً لأن تحسم هذا السؤال المريع؟ ألا توجد أي قوة تجبر هذه الشفاه الشاحبة على أن تتحرك؟

مدفوعًا بحرارة اللحظة، مضيتُ إلى جانبها. آهٍ، يا إلهي، كم هي هامدة! أي استهزاء هذا أن تُقابل شفتَاها وجفونها المطبقة نظرتي المتوسلة! ما كان يمكن لحجر أن يكون أقلَّ استجابة من ذلك.

وبشعورٍ كان أشبهَ بالغضب، وقفت هناك، وعندئذٍ ... ما الذي أراه بارزًا من تحت كتفَيها حيث كانتا هامدتَين على السرير؟ ظرف؟ خطاب؟ أجل.

شاعرًا بدُوار من أثر المفاجأة، غلبَتْني آمالٌ جامحةٌ أحياها بداخلي هذا الاكتشافُ، فانحنيتُ في اضطرابٍ شديدٍ وسحبت الخطاب. كان محكمَ الغَلْق لكنه لم يكن موجهًا إلى شخصٍ ما. أسرعتُ بفتحه، وألقيت نظرةً خاطفةً على محتواه. يا إلهي! كان مكتوبًا بيدِ الفتاة نفسها! ... كانت هيئته كفيلةً بأن تجعل ذلك واضحًا! شعرت وكأنَّ معجزة قد حدثت، فأسرعتُ به إلى الغرفة الأخرى، وجلست لأحلَّ شفرة هذا الخط الرديء.

هذا ما رأيته، كتابة بحروفٍ منفصلة وغير منمقة بقلم رصاص على ورق كتابة عادي:

> أنا فتاة شريرة. عرَفتُ أمورًا طوالَ الوقت كان عليَّ أن أعترف بها لكني لم أجرُؤْ على أن أتفوَّه بها؛ لأنه قال إنه سيقتلني إن فعلتُ ذلك، أقصد هذا الرجلَ الطويل المهيب ذا الشارب الأسود الذي وجدتُه يخرج من غرفة السيد ليفنوورث بمفتاحٍ في يده ليلةَ مقتل السيد ليفنوورث. كان خائفًا جدًّا فأعطاني مالًا وجعلني أهربُ وآتي إلى هنا، وأُبقي كلَّ شيءٍ سرًّا لكني لم أعُد أستطيع أن أفعلَ ذلك. يُخيَّل لي أني أرى الآنسة إلينور طوال الوقت تبكي وتسألني إن كنتُ أريد أن يُزَجَّ بها في السجن. الله يعلم أن الموت أهونُ عليَّ. وهذه هي الحقيقة وكلماتي الأخيرة وأرجو من الجميع أن يُسامحوني، وأتمنَّى ألَّا يلومَني أحدٌ وألَّا يتسبَّبوا في مضايقة الآنسة إلينور أكثرَ من ذلك، وإنما يذهبون ويبحثون عن الشاب الوسيم ذي الشارب الأسود.

الجزء الرابع

حل المعضلة

الفصل الرابع والثلاثون

السيد جرايس يستعيد سيطرته

وأن يَغلب هيرود.

مسرحية «هملت»

خدعة اختلقها العدو.

مسرحية «ريتشارد الثالث»

مرَّت نصف الساعة. وكان قد وصل القطار الذي كان لديَّ من الأسباب ما يجعلني أنتظر وصول السيد جرايس فيه، ووقفت في المدخل منتظرًا في اضطرابٍ يفوق الوصفَ الاقترابَ المتمهلَ والمتثاقل لمجموعةٍ تضم مزيجًا متنوعًا من الرجال والنساء الذين لاحظتهم يُغادرون المحطة مع مغادرة العربات. هل من الممكن أن يكون موجودًا بينهم؟ هل كانت طبيعة البرقية حاسمة بما يكفي لتجعل حضوره إلى هنا، وهو مريضٌ كما تركته، يقينًا قاطعًا؟ كان اعتراف هانا المكتوب يهتزُّ من أثر ضربات قلبي، القلب الذي كان ينتشي فرحًا الآن، بعد أن كان منذ نصف الساعة فحسب مفعمًا بالشكِّ والصراع، وبدا أنه أثار بداخلي رِيبة، وتصاعد أمامي احتمالُ أن أقضيَ نهارًا طويلًا في ضجرٍ، عندما انعطف جزءٌ من الحشد السائر إلى شارعٍ جانبي، ورأيت السيد جرايس يعرج، ليس على عكازَيه، وإنما متألِّمًا جدًّا على عكازٍ واحد، ويسير على مهل في الشارع.

كان وجهه، وهو يقترب، لافتًا للنظر.

صاح، لمَّا التقَينا عند البوابة: «حسنًا، حسنًا، حسنًا، هذه تحية لا بد أن أُلقيَها أشبهُ بالسؤال عن أخبارك. هانا ماتت، صحيح؟ وكل شيء انقلب رأسًا على عقب! همم، ما ظنُّك بماري ليفنوورث الآن؟»

لذلك قد يبدو طبيعيًّا، في الحوار الذي دار بيننا بعد دخوله المنزلَ وجلوسه في غرفة جلوس السيدة بيلدن، أن أبدأ حديثي بتقديم اعترافِ هانا؛ لكن هذا لم يحدث. سواءٌ لأنني كنتُ حريصًا على أن أجعله يمرُّ بنفس الأحاسيس المتقلبة بين الخوف والرجاء التي كان من نصيبي أن أشعر بها منذ أن جئت إلى «ر...»؛ أو ما إذا كان لا يزال، في الجانب الفاسد من الطبيعة البشرية، يقبعُ بداخلي استياءٌ كافٍ من التجاهل المستمر الذي كان يُقابل به دائمًا شكوكي في هنري كلافرينج ليجعلَني في لحظةٍ أكشفُ له ما لديَّ من معلومات في الوقت الذي يبدو أن إدانته وصلت إلى مرحلة اليقين التام، لكن لا يُمكنني أن أجزم. يكفي أنني لم أسمح لنفسي أن أُسلمه الخطابَ الذي قد أخذته من أسفلِ جثمان هانا قبل أن أعطيه تفاصيلَ كاملةً عن جميع الأمور الأخرى المتعلقة بإقامتي في هذا المنزل؛ وليس قبل أن أرى بريقَ عينيه، وارتجافَ شفتَيْه مع الإثارة الناجمة عن قراءة الخطاب المرسَل من ماري، الذي عُثِر عليه في جيب السيدة بيلدن؛ وفي الواقع، لم يحدث ذلك إلا بعد أن أصبحت متأكدًا نتيجةَ تعبيراتٍ على شاكلة «هائل! اللعبة الأخطر في هذا الموسم! لا شيء مثل هذا منذ قضية لافارج!» أنه سينطق بفرضيةٍ أو قناعةٍ لديه إن أعلنَ عنها ستقفُ إلى الأبد كحائلٍ بيننا.

لن أنسى أبدًا تعبير وجهه وهو يتسلَّم ذلك الخطاب؛ إذ صاح قائلًا: «يا إلهي! ما هذا؟»

«اعترافٌ من الفتاة هانا وهي على فِراش الموت. وجدته مُلقًى على فراشها عندما صعدت لأعلى، منذ نصف ساعة، لأُلقيَ نظرةً ثانية عليها.»

بعدما فتَحه، قرأه بإحساسٍ متشكك، لكنه سرعان ما تحول إلى ذهولٍ بالغ، وهو يُطالعه في عجالة، ثم وقف يُقلبه في يده مرة تلو الأخرى، وهو يتفحصه.

علَّقت، بإحساسٍ معيَّن بالانتصار: «دليلٌ مدهش؛ سيُغير مجرى الأمور تمامًا!»

أجاب بحدة: «أتظن ذلك؟» ثم، بينما كنتُ واقفًا أحدِّق فيه في ذهول؛ إذ كان أسلوبه مغايرًا تمامًا لما كنت أتوقعُه، رفع بصره لأعلى وقال: «قلتَ لي إنك عثرتَ عليه في فراشها. في أي مكانٍ في فراشها؟»

أجبتُه: «تحت جسد الفتاة نفسها.» وأردفت: «رأيتُ طرفًا منه بارزًا من أسفل كتفها، فسحبته وأخرجته.»

جاء ووقف أمامي. «أكان مطويًّا أم مفتوحًا، عندما رأيته لأول مرة؟»

«مطويًّا، بداخل هذا الظرف»، وأَرَيْته إياه.

فأخذه، ونظر إليه لبرهةٍ، ثم واصل طرح أسئلته.

«هذا الظرف مجعَّد جدًّا، وكذلك الخطاب نفسه. أكانا على تلك الهيئة لَمَّا عثرت عليهما؟»

«نعم، وليس هذا فحسب، بل كانا مَثنيَّين كما ترى.»

«مثنيَّان؟ هل أنت متأكد من ذلك؟ طُوي، ثم أُغلِق الظرف عليه، ثم ثُني كما لو أن جسدها تدحرج عليه وهي على قيد الحياة؟»

«أجل.»

«ألا توجد خدعةٌ في الأمر؟ ألا يبدو كما لو أنه دُس تحتها عند وفاتها؟»

«إطلاقًا. من الأحرى أن أقول إنَّ هيئتها كانت تدلُّ على أنها كانت تُمسك به في يدها حالما رقدت على السرير، لكن عندما انقلبَت، سقط منها ثم استقرَّ جسدُها عليه.»

تعكَّر صفوُ عينَي السيد جرايس، اللتَين كانتا تلمعان بشدة، بما يُنذر بالسوء؛ بدا جليًّا أن إجاباتي قد أحبطَته. بعدما وضع الخطاب، وقف مستغرقًا في التفكير، لكنه فجأةً رفعه مرةً ثانية، متفحصًا حواف الورقة التي كُتب عليها، ورمقني بنظرةٍ خاطفة، ثم اختفى بعدها في ظل ستارة النافذة. كان أسلوبه غريبًا جدًّا، فنهضتُ لا إراديًّا لأتبعه؛ لكنه أشار إليَّ بالرجوع، قائلًا:

«تسَلَّ بذلك الصندوق على الطاولة، الذي أبديتَ صخبًا كبيرًا بشأنه؛ وتفقَّدْ إن كان بداخله كلُّ ما يحقُّ لنا أن نتوقعه فيه. أريد أن أختليَ بنفسي للحظةٍ.»

مسيطرًا على ذهولي، شرَعتُ في تنفيذ طلبه، لكن لم أكد أرفع غِطاء الصندوق أمامي حتى عاد مسرعًا، ورمى الخطاب على الطاولة في انفعالٍ شديد، وصاح قائلًا:

«هل قلتُ إنه لم يكن ثمة أيُّ شيءٍ مثل هذا مطلقًا منذ قضية لافارج؟ أقول لك إنه لم يكن ثمة أي شيءٍ مثل هذا أبدًا في أي قضية. إنها أغربُ قضيةٍ في السجلات! يا سيد ريموند»، ثم فعليًّا التقَتْ عيناه، أثناء انفعاله، بعينيَّ لأولِ مرةٍ منذ عملي معه، وقال: «هيِّئ نفسك لخيبةِ أمل. اعتراف هانا المزعوم هذا ما هو إلا خدعة!»

«خدعة؟»

«نعم؛ خدعة، تزوير، سمِّه ما شئت؛ لم تكن الفتاة هي من كتبته مطلقًا.»

وثبتُ من الكرسي من الذهول، والغضبِ تقريبًا. وصحتُ: «كيف عرَفتَ ذلك؟»

مال إلى الأمام، ووضع الخطاب في يدي. وقال: «انظر إليه؛ ودقِّق فيه عن كثب. والآن أخبرني ما أولُ شيء لاحظتَه بشأنه؟»

«عجبًا، أول شيءٍ لفتَ نظري، أن الكلمات مكتوبةٌ بحروفٍ متفرقةٍ لا متشابكةٍ؛ وهو شيءٌ ربما يكون متوقعًا من هذه الفتاة، حسبَ جميع الروايات.»

«ثم ماذا؟»

«وأنَّ هذه الحروف مكتوبةٌ على صفحةٍ من ورق عادي ...»

«ورق عادي؟»

«نعم.»

«أي صفحة من دفتر تِجاري من جودةٍ عادية.»

«بالتأكيد.»

«لكن هل هو كذلك بالفعل؟»

«عجبًا، نعم؛ يمكنني أن أقول ذلك.»

«انظر إلى السطور.»

«ماذا فيها؟ آه، أرى أنها تصل إلى أعلى الصفحة؛ من الواضح أنه استُخدم مقص هنا.»

«باختصار، هذه صفحةٌ كبيرة، قُصَّت حتى تصبح بحجم الدفتر التِّجاري، صحيح؟»

«نعم.»

«وهل هذا كل ما تراه؟»

«هذا كل شيء ما عدا الكلمات.»

«ألا تدرك العنصر المفقود بقص هذه الورقة؟»

«لا، إلا إذا كنت تقصد ختم المصنع في الزاوية.» نظر السيد جرايس نظرةً ذات مغزًى. وأضفتُ: «لكني لا أرى سببًا يستدعي أن يكون غياب ذلك الختم أمرًا يمثِّل أي أهمية.»

«ألا ترى سببًا؟ ولا عندما تفكر في أنه بذلك يبدو أننا حُرِمنا من أي فرصة لتتبع مِن أي رزمة ورقٍ أُخِذَت هذه الورقة؟»

«نعم.»

«همم! إذن أنت هاوٍ أكثر مما كنتُ أحسبُك. ألَا ترى أنه، مع غياب أي دافعٍ كان يمكن أن يحمل هانا على إخفاء مصدر الورق الذي كتبَت عليه كلماتها الأخيرة، لا بد أن يكون شخصٌ آخر هو مَن أعدَّ هذه الورقة؟»

قلت: «نعم؛ لا يمكنني أن أقول إنني أرى كل ذلك.»

«لا يمكنك! حسنًا إذن، أجبني عن هذا السؤال. ما الذي يدعو هانا، وهي فتاةٌ على وشك الانتحار، إلى أن تهتمَّ بوجود أي دليل، في اعترافها، على المكتب، أو الدرج، أو رزمة الورق الفعلية التي أُخِذَت منها هذه الورقة، التي كتبت عليها اعترافها؟»

«ما كانت ستهتمُّ بذلك.»

«ومع ذلك بُذِل جهدٌ مُضنٍ للتخلُّص من ذلك الدليل.»

«لكن ...»

«ثم ثَمة شيء آخر. اقرأ الاعتراف نفسَه، يا سيد ريموند، وأخبرني بما تستخلصه منه.»

قلت، بعدما انصعتُ لطلبه: «عجبًا، أرى أن الفتاة، بعد أن أنهكَها فزعٌ لا ينتهي، استقر عقلها على أن تضع حدًّا لهذا، وأن هنري كلافرينج ...»

«هنري كلافرينج؟»

طُرح السؤال بمغزًى كبير، فرفعت ناظريَّ. وقلت: «نعم.»

فقال: «أه، لم أعلم أن اسم السيد كلافرينج كان مذكورًا في الخطاب؛ اعذرني.»

«اسمه ليس مذكورًا، ولكن أُعطي وصف ينطبق عليه بشكلٍ مدهش ...»

وهنا قاطعني السيد جرايس. وقال: «ألا يبدو هذا مفاجئًا لك قليلًا أن فتاةً مثل هانا توقفَت لتصفَ رجلًا تعرفه باسمه؟»

أجفلتُ مِن قوله؛ لم يكن هذا طبيعيًّا بالتأكيد.

«أنت تصدق رواية السيدة بيلدن، أليس كذلك؟»

«بلى.»

«أتظنها كانت دقيقةً في روايتها لِما حدث هنا منذ عام؟»

«أجل، أظن ذلك.»

«إذن لا بد أنك تصدِّق أن هانا، الوسيطة، كانت تعرف السيد كلافرينج واسمه؟»

«بلا شك.»

«إذن لماذا لم تستخدم اسمه؟ إن كانت نيتها، حسب اعترافها هنا، أن تُنقذ إلينور ليفنوورث من الاتهام الباطل الذي وجِّه إليها، فمن الطبيعي أن تلجأ لأكثر الطرق مباشرةً لفعل ذلك. إن هذا الوصف لرجلٍ كان بوسعها أن تُزيل الشكَّ عن هُويته بذكر اسمه في الحال ليس عملًا من صنيع فتاةٍ جاهلةٍ فقيرة، وإنما شخص ما، حاول أن يتقمَّص «دور» تلك الفتاة، ففشل فشلًا واضحًا. لكن المسألة لا تقف عند هذا الحد. أقرَّت السيدة بيلدن،

حسَب كلامك، أن هانا أخبرتها، عند دخولها المنزل، أن ماري هي مَن أرسلَتْها إلى هنا. لكن في هذه الوثيقة، تُقرُّ هانا بأن مَن أرسلها هو الرجل ذو الشارب الأسود.»

«أعرف؛ ولكن ألَا يمكن أن يكون الاثنان مشتركَين في الفعل؟»

قال: «بلى؛ ولكن الموقف يكون دومًا مريبًا، عندما يوجد تضاربٌ بين الإقرار المكتوب والمنطوق لأحد الأشخاص. لكن لماذا نقف هنا ونُضيع الوقتَ، بينما من المحتمل لكلماتٍ قليلةٍ من السيدة بيلدن، التي تتحدث عنها كثيرًا، أن تحسم الأمر برُمته؟!»

كرَّرت: «كلمات قليلة من السيدة بيلدن.» وأضفت: «لقد أخذتُ منها آلاف الكلمات اليوم، وأجد أن القضية ليسَت أقربَ إلى أن تُحسم مما كانت عليه في البداية.»

قال: ««أنت» مَن فعل، أما أنا فلم أفعل. اطلب منها الحضور إلى هنا، يا سيد ريموند.»

نهضتُ. وقلت: «ثمة أمر واحد قبل أن أذهب. ماذا لو كانت هانا قد عثرَت على هذه الورقة مقصوصةً، كما هي الآن، واستخدمَتها من دون أن تُفكر في أن ذلك قد يثير الشكوك؟!»

قال: «أها! هذا تحديدًا ما سنكتشفه.»

كانت السيدة بيلدن في حالة من نفاد الصبر عندما دخلتُ غرفة الجلوس. متى ظننت أن محقِّق الوفيَات سيأتي؟ وماذا كان تصوُّري عمَّا سيفعله هذا المحقق معنا؟ كان من المخيف أن تظلَّ وحدها هناك تنتظر شيئًا لا تعرف طبيعته.

هدَّأتُ من روعها قدرَ الإمكان، وأخبرتُها أن المحقق لم يُبلغني بعدُ بما يمكنه فعله؛ إذ كان لديه بعضُ الأسئلة التي يودُّ أن يطرحها عليها أولًا. سألتها إن كانت تسمح بأن تأتيَ لتقابله. فنهضَت في خفَّةٍ. فأي شيءٍ كان أفضل من الترقُّب في قلق.

استقبل السيد جرايس، الذي كان خلال مدة غيابي القصيرة قد عدَّل حالته المزاجية من الصرامة إلى الرحمة، السيدةَ بيلدن استقبالًا لطيفًا مهذبًا ربما يستهوي سيدةً مثلها تعتمد على حسن ظن الآخرين.

صاح، وهو ينهض جزئيًّا بأسلوبِه الحماسيِّ ليُرحب بها: «آه! ها هي السيدة التي حدَثَت في منزلها تلك الواقعةُ البشعة.» وسألها: «أيمكنني أن أطلبَ منكِ الجلوس؛ إن جاز لغريبٍ أن يسمح لنفسه بأن يدعوَ سيدةً إلى أن تجلس في منزلها؟»

قالت، لكن بنبرةٍ حزينة أكثرَ من كونها عدائية؛ إذ كان لكياسته وقعٌ كبير عليها: «لم يعُد يبدو كمنزلي.» وأضافت: «فأنا هنا أُعامل مثل السجينة؛ آتي وأذهب، أصمت وأتكلَّم،

حسبما يُطلَب مني؛ وكل هذا بسبب إنسانةٍ تعيسة، استقبلتُها لدوافع لا تمتُّ إلى الأنانية بِصلة، وتصادف أن تموت في منزلي!»

صاح السيد جرايس: «فعلًا! هذا ظلمٌ بَيِّن. لكن ربما يمكننا أن نُصحِّح الأمور. لديَّ من الأسباب ما يجعلني أُصدق أنه بإمكاننا أن نفعل ذلك. فموتها المفاجئ يجب أن يُفَسَّر سببه بسهولة. قلتِ إنه لا يوجد لديكِ أيُّ سمٍّ في المنزل؟»

«لا، يا سيدي.»

«وإن الفتاة لم تخرج من المنزل مطلقًا؟»

«مطلقًا، يا سيدي.»

«ولم يأتِ أي أحدٍ إلى هنا من قبل لمقابلتها؟»

«لا أحد، يا سيدي.»

«ومن ثَمَّ لم يكن بإمكانها أن تُحضر أيَّ شيءٍ مثل هذا إذا كانت تريد ذلك؟»

«لا، يا سيدي.»

فأضاف بلطفٍ: «إلا إذا كان معها عندما جاءت إلى هنا؟»

«لا يمكن أن يكون ذلك قد حدث، يا سيدي. فهي لم تأتِ بأي حقيبة؛ أما عن جيبها، فأعرف كل ما كان بداخله؛ لأني ألقيتُ نظرةً على ما فيه.»

«وماذا وجدتِ فيه؟»

«نقود ورقية، أكثر مما يمكنك أن تتوقع أن تحمله فتاةٌ مثلها، وبعض السنتات، ومنديل عادي.»

«حسنًا، إذن، ثبُت أن الفتاة لم تمُتْ بالسم؛ إذ إنه لم يكن يوجد أيٌّ منه في المنزل.» قال ذلك بنبرةٍ مقتنعةٍ جدًّا حتى إنها انخدعَت بها.

قالت وهي ترمقني بنظرة انتصار: «ذلك ما أخبرتُ به السيد ريموند.»

فتابع قائلًا: «لا بد أنها كانت تُعاني من علةٍ في القلب، أتقولين إنها كانت بصحة جيدة أمس؟»

«أجل، سيدي؛ أو كانت تبدو كذلك.»

«لكنها لم تكن سعيدة؟»

«لم أقل ذلك؛ كانت سعيدة للغاية، يا سيدي.»

قال: «ماذا، يا سيدتي، هذه الفتاة؟» وهو يرمقني بنظرةٍ. وتابع: «لا أفهم ذلك. أظن أن قلقها على مَن تركتهم في المدينة كان كفيلًا بأن يجعلها أبعدَ ما تكون عن السعادة.»

أجابت السيدة بيلدن: «أنت محق؛ لكنها لم تكن كذلك. على العكس، لم تبدُ قلقةً عليهم على الإطلاق.»

«ماذا! ولا على الآنسة إلينور، التي، بحسب الصحف، تقفُ في وضعٍ سافرٍ أمام العالم؟ لكن لعلها لم تكن تعرف أيَّ شيء عن ذلك ... أقصد عن وضع الآنسة إلينور؟»

«لا، كانت تعرف، لأني أخبرتها. كنت في غاية الذهول لدرجة أني عجزتُ أن أحتفظ بالأمر لنفسي. كما ترى، كنت دائمًا أنظر إلى إلينور على أنها أسمى من أن تُلام، وصُدِمتُ من أن أرى اسمها يُذْكَر فيما يخص القضية، فذهبتُ إلى هانا وتلوتُ عليها المقال، وراقبتُ وجهها لأرى كيف استقبلت الأمر.»

«وكيف استقبلته؟»

«لا يمكنني أن أجزم. نظرَت إليَّ وكأنها لم تفهم؛ وسألتني لِماذا أقرأُ عليها مثل هذه الأخبار، وأخبرتني أنها لا ترغب في سَماع المزيد؛ وأنني كنت قد وعدتها بألا أزعجها بأي شيء عن هذه الجريمة، وأني إذا تابعتُ في ذلك فلن تُنصت لي.»

«همم! وماذا أيضًا؟»

«لا شيء سوى ذلك. وضعت يديها على أذنيها وقطبت جبينها بأسلوبٍ متجهم، فغادرتُ الغرفة.»

«متى كان ذلك؟»

«منذ ثلاثة أسابيع تقريبًا.»

«ولكن هل أثارت الموضوعَ منذ ذلك الوقت؟»

«لا، يا سيدي؛ ولا مرة.»

«ماذا! ألم تسأل عما سيفعلونه مع سيدتها؟»

«نعم، يا سيدي.»

«هل أظهرَت، مع ذلك، أن شيئًا ما كان يُسيطر على عقلها ... خوف، أو وخز ضمير، أو قلق؟»

«لا، يا سيدي، على النقيض، كانت معظمَ الوقت تبدو وكأنها شخص يُخفي سعادته.»

صاح السيد جرايس، وهو يرمقني بنظرةٍ جانبية: «ولكن، ذلك كان غريبًا وغير طبيعي. لا أجد له مبررًا.»

«ولا أنا، يا سيدي. اعتدت أن أفسره بأن أظن أنَّ مشاعرها قد تبلدت، أو أنها كانت أغبى من أن تفهمَ خطورةَ ما حدث؛ لكن بعدما تمكنت من التعرف عليها بشكل أفضل،

غيرت رأيي شيئًا فشيئًا. كان ثمة قدرٌ كبير جدًّا من المنهجية في فرحها مما ينفي أن تكون كذلك. لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أرى أنه كان أمامها مستقبلٌ تستعدُّ له. لأنها، على سبيل المثال، سألتني ذات مرة إن كنتُ أظن أن بإمكانها أن تتعلمَ العزف على البيانو. وفي النهاية توصلتُ إلى استنتاج مفاده أنها كانت قد وُعِدَت بمبلغٍ من المال إن هي تكتمَت على السر الذي اؤتُمِنَت عليه، وكنت سعيدةً باحتمال أن تكون قد نسيت الماضي المروِّع، وكل ما كان له صلةٌ به. على كل حال، كان ذلك هو التفسير الوحيد الذي استطعتُ أن أتوصل إليه لمثابرتها بوجه عام ورغبتها في تحسين حالها، أو لابتسامات الرضا التي كنت ألمحها من حين لآخر تتسلَّل إلى وجهها عندما لم تكن تعرف أني كنت أنظر إليها.»

أجزم بأنه لا يوجد مثيلٌ للابتسامة التي تسللت إلى وجه السيد جرايس في تلك اللحظة.

واصلت السيدة بيلدن حديثها: «كان كلُّ هذا هو ما جعل موتها صدمة لي. لم أستطع أن أُصدق أن هذه الإنسانة المرحة والطيبة يمكن أن تموت هكذا، في ليلة واحدة فحسب، دون أن يدريَ أي أحد بأي شيء عما حدث. لكن ...»

قاطعها السيد جرايس: «انتظري لحظة. تحدثتِ عن محاولاتها أن تُحسن من نفسها. ماذا تقصدين بذلك؟»

«رغبتها في أن تتعلم أشياء لم تكن تعرفها؛ على سبيل المثال، أن تتعلم الكتابة والقراءة. لم يكن بإمكانها سوى أن تكتب حروفًا متفرقةً من دون إتقان لَمَّا جاءت إلى هنا.»

أظن أن السيد جرايس كان سينتزع قطعةً من ذراعي، عندما أمسك به بقوة.

«لَمَّا جاءت إلى هنا! هل تقصدين أن تقولي إنها تعلمت الكتابة عندما كانت معكِ؟»

«أجل، سيدي؛ اعتدت أن أُصحح ما تنسخه و...»

قاطعها السيد جرايس، مخفضًا صوته ليبدوَ أكثرَ مهنية: «أين هذه النسخ؟ وأين محاولاتها في الكتابة؟ أريد أن أرى بعضًا منها. ألا يمكنُكِ أن تُحضريها لي؟»

«لا أعرف، يا سيدي. كنت أتخلص منها دائمًا بمجرد أن ينتهي الغرضُ منها. لم أحبذ أن توجد مثل هذه الأشياء حولي. لكنني سأذهب لأرى.»

قال: «افعلي ذلك من فضلكِ؛ وسآتي معكِ. أريد أن ألقيَ نظرةً على الأشياء في الأعلى، على أي حال.» ودون مبالاة بقدمَيْه المصابتَين بالروماتيزم، نهض وتهيَّأ لمرافقتها.

قلتُ بصوتٍ هامس، وهو يمر بجانبي: «الأحداث تزداد إثارةً.»

كان من شأن الابتسامة التي منحها لي ردًّا على ما قلتُه أن تجنيَ له ثروة مثل ممثلٍ مسرحي يؤدي دور الشيطان.

لم أنطق بشيء طوالَ العشر الدقائق من القلق التي تحمَّلتُها في غيابهما. وفي نهاية تلك المدة عادا وأيديهما مليئة بصناديق ورق، ألقوها على الطاولة.

علَّق السيد جرايس قائلًا: «ورق الكتابة الموجود في المنزل؛ كل قصاصة وأنصاف الورق التي يمكن العثور عليها. لكن، قبل أن تُعاينَها، انظر إلى هذه الورقة.» ثم أخرج ورقة فولسكاب مائلة إلى الزرقة، مكتوبًا عليها عشراتُ العبارات التي كانت تُحاكي العبارة التي عفا عليها الزمن التي تقول: «كن صالحًا وستعيش سعيدًا»؛ وعبارتي «الجمال باطل» و«المعاشرات الرَّديَّة تُفسد الأخلاق الجيدة.»

«ما رأيك في هذا؟»

«مكتوبٌ بإتقانٍ ووضوح شديد.»

«هذا أحدثُ ما كتبته هانا. النماذج الوحيدة التي يمكن العثورُ عليها لكتابتها. لكنها لا تُشبه الخطَّ الرديء الذي رأيناه، صحيح؟»

«لا.»

«تقول السيدة بيلدن إن هذه الفتاة تعلمت الكتابة بهذا القدر من الإجادة منذ أكثرَ من أسبوع. كانت تفتخر جدًّا بذلك، وكانت تتحدث باستمرارٍ عن كم كانت ذكية.» مال ناحيتي، وهمس في أذني: «هذا الاعتراف الذي في يدَيْك لا بد أنه كُتب بغير إجادةٍ منذ مدة، إن كانت هي مَن كتبته.» ثم قال بصوتٍ عالٍ: «لكن لنُلقِ نظرةً على الورق الذي كانت تستخدمه لتكتب عليه.»

أسرع بفتح أغطيةِ الصناديق التي وُضعت على الطاولة، وأخذ الورق المتفرق الذي كان موضوعًا بالداخل، وبعثره أمامي. اتضح من النظرة الأولى أن الورق كلَّه كان ذا جودةٍ مغايرة تمامًا لما في الورق المستخدَم في كتابة الاعتراف. فقال: «هذا هو كل الورق الموجود في المنزل.»

سألتُ، ناظرًا إلى السيدة بيلدن، التي كانت تقف أمامنا في حيرةٍ نوعًا ما: «هل أنتِ متأكدةٌ من ذلك؟ ألم يكن هناك ورقةٌ واحدة موجودة في مكانٍ ما، فولسكاب أو شيء من هذا القبيل، ربما حَصَلَت عليه واستخدمَتْه من دون علمك؟»

«لا، يا سيدي؛ لا أظن ذلك. لم يكن لديَّ سوى هذه الأنواع؛ إضافةً إلى أن هانا كان لديها كومةٌ كاملة من ورقٍ مثل هذا في غرفتها، فلم تكن بحاجةٍ إلى أن تبحثَ هنا أو هناك عن أي أوراق متناثرة.»

قلت، وأنا أُريها الجزءَ الفارغ من ورقة الاعتراف: «لكنكِ لا تعلمين ما قد تفعله فتاةٌ مثل هذه. انظري إلى هذه الورقة. أمن الممكنِ أن تكون ورقةٌ كهذه قد جاءَت من مكانٍ ما في هذا المنزل؟ دقِّقي النظر فيها؛ فالأمر خطير.»

«لقد فعلتُ، وأؤكد، لا، لم يكن لديَّ مطلقًا مثلُ هذه الورقة في منزلي.»

تقدَّم السيد جرايس تجاهي وأخذ الاعترافَ من يدي. بينما كان يفعل ذلك، همس إليَّ: «ما رأيك الآن؟ أما زالت توجد احتمالاتٌ كثيرة أن تكون هانا هي من كتبت هذه الوثيقة المهمة؟»

هزَزتُ رأسي نفيًا، بعد أن اقتنعت أخيرًا؛ لكن بعد لحظة أخرى استدرتُ وهمست إليه قائلًا: «لكن، إن لم تكن هانا هي من كتبتها، فمن؟ وكيف وصلت إلى المكان الذي عُثر عليها فيه؟»

قال: «هذا تحديدًا ما تبقى لنا أن نكتشفه.» وبدأ من جديدٍ يُوجِّه سؤالًا تلو الآخَر بخصوص حياة الفتاة في المنزل، ولم تكن الإجابات التي تلقَّاها تنحو إلا إلى إظهار أنه لم يكن من الممكن أن تكون قد أحضرَت الاعترافَ معها، فضلًا عن أن تتسلَّمه من مبعوثٍ سري. ما لم نتشكَّك في كلام السيدة بيلدن، فإن اللغز بدا صعبَ الفهم، وكنت على شفا أن أيئسَ من النجاح في حله، عندما مال السيد جرايس ناحية السيدة بيلدن، موجهًا لي نظرةَ ارتياب، وقال:

«سمعتُ أنكِ تسلمتِ خطابًا من الآنسة ماري أمس.»

«أجل، يا سيدي.»

واصل كلامه، وهو يُريها إياه: «هذا الخطاب؟»

«نعم، يا سيدي.»

«والآن أريد أن أسألكِ سؤالًا. أكان الخطاب، كما ترينه، هو الشيءَ الوحيد في الظرف الذي جاء فيه؟ ألم يكن مرفقًا معه خطابٌ لهانا؟»

«لا، سيدي. لم يكن يوجد أي شيء يخصها في ظرفي؛ وإنما كان لديها ظرفٌ أمس. جاء مع نفس البريد الخاص بي.»

صِحنا معًا: «هانا تلقت خطابًا! وفي البريد؟»

«أجل؛ لكنه لم يكن موجهًا لها. بل كان …»، رمقَتْني بنظرةٍ تفيضُ باليأس وأضافت: «موجهًا لي. كان مميزًا بعلامةٍ محددةٍ في طرف الظرف فعرَفتُ أن …»

قاطعتُها: «يا إلهي! أين هذا الخطاب؟ ولماذا لم تتحدَّثي عنه من قبل؟ إلامَ ترمين بأن تتركينا نتخبَّط هنا في الظلام، بينما قد تضعنا نظرةٌ إلى هذا الخطاب على الطريق الصحيح في الحال؟»

«لم يخطر بذهني أيُّ شيءٍ عنه حتى هذه اللحظة. لم أكن أعلم أنه بهذه الأهمية. أنا …»

لكنني عجزتُ عن أن أسيطر على نفسي. فسألتها قائلًا: «سيدة بيلدن، أين هذا الخطاب؟» واستطردت أسأل: «هل هو معكِ.»

قالت: «لا، أعطيته للفتاة أمس؛ ولم أرَه منذ ذلك الحين.»

قلت: «لا بد أنه في الأعلى، إذن. لنلقِ نظرةً أخرى.» ثم أسرعت ناحية الباب.

قال السيد جرايس ممسكًا بمرفقي: «لن تعثر عليه. لقد بحثت. ولم يكن يوجد أيُّ شيء سوى كومة من الورق المحترق في ركن الغرفة.» وسأل السيدة بيلدن: «على أي حال، ماذا قد تكون فحوى هذا الخطاب؟»

«لا أعرف، يا سيدي. لم يكن لديها أيُّ شيء لتحرقه إلا إذا كان ذلك الشيء هو الخطاب.»

تمتمت، مسرعًا لأعلى ومحضرًا الطَّست وما فيه لأسفل: «سنرى ذلك. إن كان الخطاب هو ذاك الذي رأيته في يديكِ عند مكتب البريد، فكان في ظرفٍ أصفر.»

«أجل، سيدي.»

«تحترق المظاريف الصفراء بشكلٍ يختلف عن الورق الأبيض. لا بد أن أتمكنَ من تمييز الاحتراق الناشئ عن ظرفٍ أصفر عندما أراه. للأسف، لقد أُحرِق الخطاب؛ ها هنا قُصاصة من الظرف»، وأخرجت من وسط كومة من القصاصات المتفحمة وريقاتٍ صغيرةً أقلَّ احتراقًا عن باقي الورق، ورفعتها لأعلى.

قال السيد جرايس، وهو يضع الطست جانبًا: «لا فائدة من أن نبحثَ هنا على ما كان يحتوي عليه الخطاب. سنُضطرُّ إلى أن نسألك، يا سيدة بيلدن.»

«لكني لا أعرف. كان الخطاب موجهًا لي، وهذا أمرٌ مؤكَّد؛ لكن هانا أخبرتني، لمَّا طلبت مني أن أعلمها الكتابة، أنها تنتظر ذلك الخطاب، لهذا لم أفتحه عند وصوله، وإنما أعطيتُها إياه كما كان.»

«لكنك، بقيتِ بجانبها حتى تُشاهديها وهي تقرؤه، صحيح؟»

«لا، سيدي؛ كنت في اضطراب شديد. فالسيد ريموند كان قد وصل حينها ولم يكن لديَّ وقتٌ حتى أفكر فيها. كما أن خطابي كان يُزعجني.»

«لكنكِ بالطبع سألتِها بعض الأسئلة عنه قبل أن ينقضيَ اليوم؟»

«أجل، يا سيدي، لمَّا صعدت لأعلى بالشاي؛ لكن لم يكن لديها أيُّ شيء تقوله. عندما تشعر هانا بالسعادة، من الممكن أن تمتنعَ عن الكلام مثل أي شخص عرفته من قبل. لم تعترف حتى أنه كان من سيدتها.»

«آه، أتعتقدين أنه كان من الآنسة ليفنوورث؟»

أضافت متمعِّنةً في التفكير: «عجبًا، أجل يا سيدي؛ ماذا أيضًا كان بوسعي أن أُفكر فيه، وأنا أرى تلك العلامة في طرَفِ الظرف؟ رغم، أنني متأكدة، أنه ربما يكون مَن وضعها هو السيد كلافرينج.»

«قلتِ إنها كانت سعيدةً بالأمس؛ أكانت على الحالة نفسِها بعد أن تسلَّمت الخطاب؟»

«نعم، يا سيدي؛ حسبما تبيَّن لي. لم أمكث معها مدةً طويلة؛ إذ كنت أشعر بضرورة أن أفعل شيئًا في الصندوق الذي كان في عهدتي ... ولكن لعل السيد ريموند أخبرك بالفعل؟»

أومأ السيد جرايس برأسه.

«كانت أمسيةً منهِكة، وأخرجت أمر هانا من رأسي تمامًا، ولكن ...»

صاح السيد جرايس، وهو يشير لي إلى أحد الأركان، فهمس: «انتظر! هنا يأتي دور رواية «كيو». بينما كنتَ خارج المنزل، وقبل أن تعود السيدة بيلدن لترى هانا، لمح الفتاة تميل على شيء في ركن غرفتها من المرجح جدًّا أن يكون الطست الذي عُثر عليه هناك. وبعدها، رآها تبتلع، في مرحٍ شديد، جرعةً من شيء من قطعة ورق. أكان ثمة أيُّ شيء آخر؟»

قلتُ: «لا.»

صاح، عائدًا إلى توجيه حديثه إلى السيدة بيلدن: «عظيم، إذن. لكن ...»

«لكنني لما صعدت لآوي إلى السرير، خطرت الفتاةُ ببالي، فذهبت إلى بابها وفتحته. كان الضوء مطفأً، وبدَت نائمة؛ ولهذا أغلقت الباب مرة أخرى وخرجت.»

«من دون أن تتحدثي إليها؟»

«أجل، سيدي.»

«هل لاحظتِ كيف كانت راقدة؟»

«ليس تحديدًا. أظن أنها كانت نائمة على ظهرها.»

«في وضع شبيهٍ بالوضع الذي عُثِر عليها فيه صباح اليوم؟»

«أجل، يا سيدي.»

«أهذا كل ما يمكنكِ أن تُخبرينا به، سواءٌ عن خطابها أو عن وفاتها الغامضة؟»

«هذا كل شيء، يا سيدي.»

انتصب جسد السيد جرايس.

قال: «سيدة بيلدن، هل بإمكانكِ أن تتعرفي على خط السيد كلافرينج إذا رأيتِه؟»

«أجل.»

«وخط الآنسة ليفنوورث؟»

«أجل، يا سيدي.»

«والآن، أيُّ الخطَّين كان على ظرف الخطاب الذي أعطيتِه لهانا؟»

«ليس بوسعي أن أجزمَ بذلك. فالكتابة كانت مموهة وربما كانت بخط أيٍّ منهما؛ لكني أظن ...»

«ماذا؟»

«أنه كان يُشبه خطَّها أكثر من خطه، رغم أنه لم يكن يبدو كخطها أيضًا.»

بابتسامةٍ، طوى السيد جرايس الاعترافَ في يده ووضعه في الظرف الذي كان قد عُثِر عليه بداخله. وقال: «هل تتذكرين حجمَ الخطاب الذي أعطيتِها إياه؟»

«أه، كان كبيرًا، كبيرًا جدًّا، من أكبر الأحجام.»

«وسميكًا؟»

«بالضبط؛ سَميكًا بما يكفي ليتسع لخطابَين.»

«كبير بما يكفي وسميك بما يكفي ليحتويَ على هذا؟» واضعًا أمامها الاعترافَ مطويًّا وبداخل الظرف كما كان.

نظرَت إلى الخطاب في ذهول وفزع: «أجل، سيدي، كبير بما يكفي وسميكٌ بما يكفي ليحتويَ على ذلك.»

جالَت عينا السيد جرايس، اللتان كانتا تلمعان كالألماس، في الغرفة واستقرَّت أخيرًا على ذبابةٍ لحظةَ عبورها على كُم معطفي. فهمس إليَّ، بصوتٍ خافت: «هل تحتاج إلى أن تسأل الآن، أين وممَّن جاء هذا الاعتراف؟»

سمح لنفسه بأن يحظى بلحظة انتصار صامتة، ثم نهض، وبدأ يطوي الأوراقَ التي كانت على الطاولة ويضعها في جيبه.

سألته، وأنا أدنو منه مسرعًا: «ماذا ستفعل؟»

أخذني من ذراعي وقادني عبر الممر إلى غرفة الجلوس. قال: «سأعود إلى نيويورك، وسأتابع هذا الأمر. سأكتشفُ من أين جاء السمُّ الذي قَتل هذه الفتاة، ومَن صاحب اليد التي زوَّرت الاعترافَ بهذا الأسلوب الرديء.»

قلتُ، بعدما أفقدني كلُّ هذا توازني إلى حدٍّ ما: «لكن «كيو» ومحقق الوفيات سيحضران إلى هنا بعد قليل، ألن تنتظر حتى تُقابلهما؟»

«لا، خيوطٌ كتلك التي أُعطيت هنا لا بد من تتبعها والأثرُ واضح؛ لا أستطيع الانتظار.»

قلت، بينما كانت خطواتُ أقدامٍ في الخارج تعلن أن شخصًا ما يقف عند الباب: «إن لم أكن مخطئًا، فقد وصلا بالفعل.»

أقرَّ بذلك، مسرعًا ليسمح لهما بالدخول: «هذا صحيح.»

من منطلق الخبرة العامة، كان لدينا من الأسباب ما يجعلنا نتوجَّس من أن ثمة عقبةً مباشرة قد توضع أمام جميع الإجراءات التي سنتخذها من جانبنا، بمجرد دخول محقق الوفيات إلى المشهد. لكن من دواعي السرور لنا وللمصلحة التي على المحك، أنه ثبت أن د. فينك، محقق وفيَات «ر...» رجل حكيم. لم يحتجْ إلا إلى أن يسمع القصة الحقيقية للقضية ليتبيَّنَ له في الحال أهميتُها وضرورة اتخاذ أكثر الإجراءات حيطةً فيها. علاوة على ذلك، كنوعٍ من التعاطف مع السيد جرايس، على الرغم من أنه لم يكن قد قابله مطلقًا قبل ذلك، أعرب عن استعداده أن يُشاركنا خططنا، إذ لم يقترح فحسب أن يسمح لنا باستخدام مثل هذه الأوراق مؤقتًا كما شئنا، بل وعدنا باتخاذ ما يلزم من الإجراءات الرسمية لاستدعاء هيئة المحلَّفين، وإجراء تحقيق على النحو الذي يمنحُنا متَّسَعًا من الوقت للتحريات التي اعتزمنا إجراءها.

لذلك كانت مدة التأخير قصيرة. تمكن السيد جرايس من أن يستقلَّ قطار الساعة السادسة والنصف المتجه إلى نيويورك، وكان عليَّ أن ألحقَ به في قطار الساعة العاشرة مساءً، بعد انتهاء كل ما حدث في تلك المدة الفاصلة، من استدعاءٍ لهيئة المحلَّفين، وطلبِ تشريح الجثة، والإرجاء النهائي للتحقيق حتى الثلاثاء القادم.

الفصل الخامس والثلاثون

عمل دقيق

لا يفوتك ذكر جزئية أو حالة مما يعلق به الريب!
ولكن يا للغبن، يا جو، يا للخسارة!

مسرحية «عطيل» [ترجمة خليل مطران]

جملةٌ واحدة ألمَحَ بها السيد جرايس قبل أن يغادر «ر...» هيَّأتني لخطوته التالية.

كان قد قال: «إن مِفتاح حلِّ هذه الجريمة يقدمه الورق الذي كُتِب عليه الاعتراف. اكتشف من أي مكتبٍ أو حافظة اقتُطعت هذه الورقة تحديدًا، وستكتشف مرتكبَ جريمة القتل المزدوجة.»

بالتبعية، لم أشعر بالمفاجأة، عند زيارة منزله، في صباح اليوم التالي، عندما رأيته جالسًا أمام طاولة عليها منضدةُ كتابة خاصة بسيدةٍ وكومة ورق، حتى أخبرني أن هذه المنضدة كانت تخصُّ إلينور. عندئذٍ أبديت اندهاشي. قلتُ: «عجبًا، ألا تزال غيرَ مقتنع ببراءتها؟»

صاح، وهو يُصوب عينَيه تجاه ألسنةِ اللهب: «أوه، بلى؛ ولكن على الإنسان أن يتحلَّى بالدقة. فلا يوجد استنتاجٌ ذو ثقلٍ لم يسبقه تحرٍّ شامل ووافٍ. عجبًا، كنت أفتِّش في متعلقات السيد كلافرينج، مع أنَّ الاعتراف يحمل دليلًا على أنه لم يكن الشخصَ الذي كتبه. لا يكفي أن تبحث عن دليلٍ في المكان الذي تتوقَّع أن تجده فيه. لا بد أن تبحث عنه أحيانًا في مكانٍ لا تتوقَّعه. والآن»، قال، وهو يسحب منضدة الكتابة أمامه، «لا أتوقَّع أن أجدَ هنا أي شيءٍ ذا طابعٍ يدل على الجاني، ولكنَّ ثمة احتمالًا أن أجد شيئًا؛ وهذا أمرٌ كافٍ للمحقق.»

سألته، بينما كان يشرع في تنفيذ نيته بتفريغِ محتويات منضدة الكتابة على الطاولة: «هل رأيت الآنسة ليفنوورث صباح اليوم؟»

أجاب: «نعم؛ لم يكن بإمكاني أن أحصل على ما أريده من دون مقابلتها. وتصرَّفَتْ بمنتهى اللطف، وأعطَتْني منضدة الكتابة بيدَيها، ولم تُبدِ أي اعتراض. من المؤكد أنه كانت لديها فكرة بسيطة عما أبحث عنه؛ ربما ظنَّت أنني كنت أريد أن أتأكد من أنه لم يكن يحتوي على الخطاب الذي قيل عنه الكثير. لكن لم يكن سيُحدث إلا فارقًا طفيفًا، إن كانت قد عرَفَت الحقيقة. إن منضدة الكتابة هذه لا تحتوي على أي شيء نُريده.»

سألته، في قلقٍ تعذر عليَّ كبتُه: «هل كانت على ما يُرام؛ وهل علمت بموت هانا المفاجئ؟»

«أجل، وتأثرت به، كما يمكن أن تتوقَّع منها. لكن دعنا نرَ ما لدينا هنا.» قال هذا، وهو يدفع منضدة الكتابة جانبًا، ويسحب ناحيته كومة الورق التي سبق أن أشرتُ إليها. «وجدت هذه الكومة، كما تراها بالضبط، في درج منضدة المكتبة في منزل الآنسة ماري ليفنوورث في شارع فيفث أفنيو. إن لم أكن مخطئًا، سيمنحُنا مِفتاح اللغز الذي نريده.»

«لكن ...»

«لكن هذا الورق مربَّع، بينما الورق المكتوب عليه الاعترافُ كان له حجمُ وشكل الورق التِّجاري، أليس كذلك؟ أعرف ذلك؛ لكنك تتذكَّر أن الورقة المستخدمة في الاعتراف كانت مقصوصة. لنُقارن بين جودة الورق.»

أخرج الاعتراف من جيبه وورقةً من كومة الورق أمامه، وأخذ يُقارن بينهما في تأنٍّ، ثم أعطاني الورقتَين لأُعاينهما. وتبيَّن من نظرةٍ واحدة أنهما متشابهتان في اللون.

قال: «ارفعهما في الضوء.»

فعلت ذلك؛ فكان مظهرُهما متشابهًا تمامًا.

«والآن لنُقارِن السطور.» وبعدما وضعهما على الطاولة، طابق حافتَي الورقتَين معًا. كانت السطور في الورقة الأولى تنطبق على سطور الورقة الأخرى؛ وبذلك حُسِمَت تلك المسألة.

بات انتصاره مؤكدًا. وقال: «كنت مقتنعًا بذلك. من اللحظة التي فتحت فيها الدرج ورأيت هذا الكمَّ من الورق، عرَفت أن النهاية قد حانت.»

اعترضت، مدفوعًا بنزعتي القتالية القديمة: «لكن، ألا يوجد أيُّ مجالٍ للشك؟ هذه الورقة من أكثر الأنواع شيوعًا. كل عائلة في هذه المنطقة قد يكون لديها عيناتٌ من تلك الورقة في مكتبتها.»

قال: «الأمر ليس هكذا. الورقة بحجم ورَق الخطابات، وقد قُصت. السيد ليفنوورث كان يستخدمها في كتاباته، وإلا أشك أنه كان سيعثر عليها في مكتبته. لكن، إن كنت لا تزال متشككًا، لنرَ ما بإمكاننا أن نفعل»، ثم هبَّ واقفًا، وحمل الاعترافَ إلى النافذة، وأخذ ينظر إليه بهذه الطريقة وتلك، وفي النهاية بعدما اكتشف ما كان يُريده، عاد، ووضعه أمامي، وأشار إلى أحد السطور الذي كان يبدو جليًّا أن حبره كان أثقلَ من باقي السطور، وسطر آخر كان باهتًا للغاية لدرجة أنه كان يصعبُ تمييزه. قال: «عادةً ما يتكرَّر مثلُ هذه العيوب في عددٍ من الصفحات المتتالية. إن كان بإمكاننا أن نعثر على الرِّزمة التي تتكوَّن من ١٢ ورقة والتي أُخِذَت منها هذه الورقة، قد أُقدم لك دليلًا سيُبدِّد أيَّ شك»، وأخذ الرِّزمة التي كانت أعلى الورق، وأخذ يعدُّ صفحاتها سريعًا. فلم يجد فيها سِوى ثماني ورَقات. فقال: «ربما أُخذت من هذه الرزمة.» لكن، عندما أمعنَ النظرَ في السطور، وجد أنها متمايزةٌ بشكلٍ موحَّد. ثم صدر من بين شفتَيه: «همم! ذلك لن يُجدِيَ نفعًا.»

كان الورق المتبقِّي، ١٢ أو نحو ذلك من الرِّزَم، يبدو أنه لم يُمَس. نقر السيد جرايس بأصابعه على الطاولة وظهرَت تقطيبةٌ على وجهه. صاح معربًا عن رغبةٍ شديدة: «يا له من شيء جميل، إن أمكنَ فعله!» وفجأةً رفع إليه رِزمة الورق التالية. وقال، وهو يدفعها ناحيتي، ويرفع رِزمةً أخرى: «عُدَّ الورق.»

فعلتُ كما أُمِرت. وقلت: «اثنتا عشرة.»

أخذ يعدُّ ما معه من الورق ثم وضعه على الطاولة. فصاح: «استمِرَّ في عدِّ باقي الورق.»

عددتُ الورق في الرزمة التالية؛ فكان اثنتَي عشرة ورقة. وعَدَّ الورق في الرزمة التالية، ثم توقف. «إحدى عشرة!»

فاقترحت: «عُدَّ ثانيةً.»

عَدَّ ثانيةً، ثم وضعها جانبًا في هدوء. وقال: «أخطأت العد.»

لكن هِمَّته لم تفتر. فأخذ رزمةً أخرى، وأخذ يعدُّها بالطريقة نفسِها؛ لكن بلا جدوى. وبتنهيدةِ يأسٍ، طرح الورق على الطاولة ورفع بصرَه لأعلى. صاح قائلًا: «ماذا؟ ما الأمر؟»

قلت، وأنا أضعُ الورق في يده: «لا يوجد سوى إحدى عشرةَ ورقة في هذه الرزمة.»

انتقلَت الحماسةُ التي أبداها لتوه إليَّ. بالرغم من الإرهاق الذي كنتُ أشعر به، لم أستطع أن أقاوم حماسته. صاح قائلًا: «جميل! جميل! انظر! السطر الباهت في الداخل، والسطر الثقيل الحبر في الخارج، وكلاهما في ترتيبٍ متوافق بدقةٍ مع ترتيب السطور في ورقة هانا. ما رأيك الآن؟ أثَمة ضرورةٌ لأي دليل آخر؟»

أجبتُه: «إن أكثر الناس تشككًا لا بد أن يستسلمَ أمام هذا.»

في تصرفٍ يبدو مراعاةً لمشاعري، أشاح بجسده. وقال: «حقيقٌ عليَّ أن أُهنِّئ نفسي، بصرف النظر عن عظمة الاكتشاف الذي توصَّلت إليه. اكتشافٌ دقيق، دقيق إلى أبعدِ ما يكون، ومفحِم جدًّا. أقرُّ أنني أنا نفسي مذهول من دقَّتِه. لكن أي امرأة هذه!» صاح بهذا فجأة، بنبرةِ إعجاب شديد. «يا لعقلها! يا لدهائها! يا لبراعتها! أعترفُ أنه من المؤسف أن تُوقِع بامرأةٍ فعلت أمرًا بهذه البراعة ... اقتَطَعَت ورقةً من آخر صفحاتٍ في الكومة، وقصَّتها لتأخذ شكلًا مختلفًا، ثم؛ إذ تذكرَت أن الفتاة لا يُمكنها الكتابة، كتبَت ما تريد أن تقوله بخطٍّ رديء يصعب فهمه، كخطِّ هانا. ممتاز! وكان سيغدو كذلك، لو كانت هذه القضية في عُهدة أي رجل غيري.» وبكل الحيوية والبريق اللذَين فاضَت بهما حماسته، نظر إلى النجفة أعلاه كما لو كانت رمزًا مجسِّدًا لألمعيته.

تركتُه يواصل كلامه، وغرقت في حالةٍ من اليأس.

سأل حينها: «أكان بإمكانها أن تفعل أيَّ شيء أفضلَ من ذلك؟ وهي مُراقَبة ومقيَّدة، هل كان بإمكانها أن تفعل أي شيء أفضلَ من ذلك؟ لا أظن ذلك؛ فحقيقة أن هانا كانت تتعلَّم الكتابةَ بعدما غادرت كانت نقطةً حاسمة. لا، لم يكن بإمكانها أن تحتاطَ لذلك الحدث الطارئ.»

عندئذٍ قاطعتُه، فلم أعد أحتمل أكثرَ من ذلك: «سيد جرايس، هل قابلتَ الآنسة ماري ليفنوورث صباحَ اليوم؟»

«لا، لم يكن ضمن مخطَّطي الحاليِّ أن أفعل ذلك. وفي الواقع، أشك أنها كانت تعلم أنني كنتُ في منزلها. إن الخادمة التي لديها مَظلَمة تكون مُساعِدةٌ قيمة جدًّا لمحقِّق. وبوجود مولي إلى جانبي، لم أحتجْ إلى أن أُلقيَ التحية على سيدة المنزل.»

سألت، بعد لحظة صمتٍ أخرى من تهنئة الذات من جانبه، ومن ضبط النفس المستميتِ من جانبي: «سيد جرايس، ما الذي تنوي فعله الآن؟ لقد تتبعتَ مِفتاح اللغز حتى نهايته ورضيتَ بما وصلتَ إليه. ومعلومةٌ كهذه هي مقدمةٌ للعمل.»

أجاب، ذاهبًا إلى مكتبه الخاص، ومُحضِرًا صندوقَ الأوراق الذي لم تتوفَّر لنا الفرصةُ لنتفحَّصه ونحن في منتجع «ر...»: «همم! سنرى. لنفحصْ هذه الأوراقَ أولًا، ولنرَ إن لم تكن تحوي إشارةً ربما تُفيدنا.» وأخرج ١٢ أو أكثرَ من الأوراق المتفرقة التي قُطِعَت من دفتر مذكرات إلينور، وبدأ يُقلِّب فيها.

بينما كان يفعل ذلك، انتهزتُ الفرصة لأُعاين محتويات الصندوق. وجدتها مطابقةً تمامًا لما ساقَتْني السيدة بيلدن إلى توقُّعه ... شهادة زواجٍ بين ماري والسيد كلافرينج وستة خطابات أو أكثر. وبينما كنت أُلقي نظرةً على الورقة الأولى، صدر من السيد جرايس صيحة تعجبٍ قصيرةٌ جعلَتْني أنتفض رافعًا بصري.

صحت: «ما الأمر؟»

ألقى في يدي أوراقًا من مذكرات إلينور. قال: «اقرأ. أغلبها تَكرار لما سمعتُه بالفعل من السيدة بيلدن، لكنه يُروى من وجهة نظرٍ مختلفة؛ لكن ثَمة فقرة واحدة في هذه الأوراق، إن لم أكن مخطئًا، تفتح المجالَ لتفسيرٍ لواقعة القتل هذه بطريقة لم نُفكر فيها من قبل. اقرأ من البداية؛ فلن تجدها مملَّة.»

مملَّة! مشاعر إلينور وأفكارها أثناء ذلك الوقت العصيب، مملَّة!

مستجمعًا قوتي لأتمالكَ أعصابي، بسطتُ الأوراق بترتيبها وبدأت:

««ر...» ٦ يوليو ...»

أوضح السيد جرايس: «لاحظ أن ذلك بعد يومَين من وصولهم إلى هناك.»

«... اليوم عند الشرفة قُدِّم إلينا سيدٌ محترمٌ لا يمكنني أن أمنع نفسي من أن أحكيَ عنه؛ أولًا، لأنه أكثر مثالٍ نموذجي رأيته في حياتي على الجمال الذكوري؛ وثانيًا، لأن ماري، التي عادةً ما تكون كثيرةَ الكلام في النواحي الخاصة بالرجال، لم يكن لديها شيءٌ لتقولَه عندما سألتها، على انفرادٍ في غرفتنا، بخصوص تأثير هيئة ذلك الرجل وحديثه عليها. ربما تكون ثمة علاقة بين هذا وكون الرجل إنجليزيًّا؛ فكراهية عمي لأي شخصٍ من تلك الدولة كانت معروفةً لها كما هي معروفة لي. لكنني بطريقةٍ ما لا يمكنني أن أقتنع بهذا. فتجربتها مع تشارلي سامرفيل جعلَتْني متشكِّكة. ماذا لو أن القصة التي وقعت الصيفَ الماضيَ تكررت هنا، وبطلها هذه المرةَ رجلٌ إنجليزي! لكن لن أسمحَ لنفسي بأن أفكِّر في مثل هذا الاحتمال. سيعود عمي في غضون أيامٍ قليلة؛ ولهذا فإن أيَّ تواصلٍ مع شخصٍ، رغم محاولته أن يلقى قَبولًا، من عائلة أو نسبٍ يستحيل علينا الارتباط به، لا بدَّ حتمًا أن

يتوقف. أشك أني كنت سأُعيد التفكير في كل ذلك مرةً ثانيةً لو لم يُظهِر السيد كلافرينج، عند تقديمه إلى ماري، مثلَ هذا الإعجاب الشديد والعفوي.

٨ يوليو. القصة القديمة على وشك أن تتكرَّر. فماري لا تستسلم فحسب لملاطفاتِ السيد كلافرينج، بل تُشجِّعها. اليوم جَلَسَتْ ساعتَين على البيانو تُغني له أغانيَها المفضلة، والليلة ... لكنني لن أدوِّن كل حدثٍ تافهٍ تقع عيني عليه؛ فالأمر لا يليق بي. لكن، كيف لي أن أغضَّ الطرْف عندما تصبح سعادة كثيرين ممن أحبهم على المحك؟!

١١ يوليو. إن لم يكن السيد كلافرينج وقع تمامًا في حب ماري، فإنه أوشك على ذلك. فهو رجلٌ وسيم، ووَقور ولا يصحُّ التلاعب به بهذا الأسلوب المستهتر.

١٣ يوليو. جمال ماري ينضر كالوردة. كانت متألقةً تألقًا باهرًا الليلة في اللونَين القرمزي والفِضِّي. أظن أن ابتسامتها كانت أعذبَ ابتسامة رأيتها على الإطلاق، وأثق أن السيد كلافرينج يتفق معي في هذا قلبًا وقالبًا؛ فلم يُبعد ناظرَيْه عنها الليلة مطلقًا. لكن ليس من السهل أبدًا أن أطَّلع على ما في قلبها. ما أنا متأكدة منه، هو أنها لم تبدُ على الإطلاق غيرَ مباليةٍ بوسامته، وإحساسه القوي، وحبه المتفاني. لكن ألم تخدعنا وتجعلنا نظن أنها كانت تحب تشارلي سامرفيل؟ أخشى أنَّ، في حالتها، تورد الوجه والابتسام قليلُ الأهمية. أليس من الحكمة أن أقول في مثل هذه الظروف، إنني أرجو ذلك؟

١٧ يوليو. يا لَقلبي! جاءت ماري إلى غرفتي مساء اليوم، وأفزعَتْني تمامًا لَمَّا هوَتْ إلى جانبي وخبَّأت وجهها في حجري. تمتمت: «إلينور، إلينور!» وهي ترتجف بما تراءى لي أنه بكاءُ فرحٍ شديد. لكن عندما حاولت جاهدةً أن أرفع رأسها إلى صدري، تفلتَت من ذراعيَّ، وسحبت نفسها لأعلى لتستمسكَ بموقفها القديم من الكبرياء المتحفظ، ورفعتْ يدَيْها كما لو أنها تأمرني بالصمت، ثم انصرفت بعجرفةٍ من الغرفة. لا يوجد سوى تفسيرٍ واحد لهذا. أن السيد كلافرينج قد عبَّر عن مشاعره؛ ولهذا يغمرها شعورٌ ببهجةٍ طائشة، حالما تظهر لأول مرةٍ تجعل المرء غيرَ عابئٍ بوجود حواجز كان يراها حتى تلك اللحظة لا تُخترق. متى سيأتي عمي؟

١٨ يوليو. لم أكن أظنُّ وقتما كتبتُ ما سبق أن عمي كان في المنزل بالفعل. جاء على غير المتوقَّع في القطار الأخير، ودخل غرفتي وأنا أضع مذكراتي جانبًا. كان يبدو عليه الحزن قليلًا، فضمَّني بين ذراعَيْه ثم سألني عن ماري. فأحنيت رأسي، ولم أستطع أن أمنعَ نفسي من التلعثم وأنا أُجيب بأنها في غرفتها. وفي الحال دق حبه ناقوس الخطر، فتركني، وأسرع إلى غرفتها، وعلِمتُ فيما بعدُ أنه دخل عليها فوجدها تجلس شاردةَ

الذهن أمام تسريحتها وفي إصبعها خاتمُ عائلة السيد كلافرينج. لا أعرف ما حدث بعد ذلك. أخشى أنه مشهدٌ تعيس؛ إذ إن ماري متوعكةٌ صباح اليوم، وعمي في كآبةٍ وعبوسٍ بالغَين.

عصر ذلك اليوم. صرنا أسرةً تعيسة! لم يكتفِ عمي برفض التفكير ولو للحظةٍ واحدة في طلب ارتباط ماري بالسيد كلافرينج، وإنما تمادى ليطلبَ منها أن يخرج من حياتها فورًا ومن دون شروط. جاءني هذا الخبر بأكثرِ الطرق إيلامًا للنفس. كنتُ أدرك الوضع الذي عليه الأمور، لكني كنت ثائرةً سرًّا في داخلي على تحاملٍ بدا أنه كُتِب أن يفرق بين شخصَين مناسبَين لبعضهما البعض، فسعيتُ لمقابلة عمي هذا الصباحَ بعد الإفطار، وحاولت أن أُؤازر قضيتهما. لكن كاد أن يُوقفني في الحال بتعليقه: «أنتِ يا إلينور آخِرُ مَن يجبُ أن يسعى لدعم هذه الزِّيجة.» ارتجفتُ خوفًا، وسألته عن السبب. فقال: «لأنه بإقدامكِ على ذلك، فإنكِ تعملين كُليًّا لمصلحتك.» ازداد ارتباكي، فتوسلت إليه أن يوضحَ ما قاله. فقال: «أقصد أنه إذا عصَتْني ماري بزواجها من هذا الإنجليزي، فسأحرمها من الإرث، وسأضع اسمكِ بدلًا منها في وصيتي وكذلك في نصيبها من حبِّي.»

لوهلةٍ كان كل شيءٍ يتمايل أمام عينيَّ. رجوته: «لن تجعلني أشقى أبدًا هكذا!» فقال: «سأجعلكِ وريثتي الشرعيةَ، إن أصرَّت ماري إصرارها الحالي»، ودون كلمةٍ أخرى انصرف من الغرفة غاضبًا. ماذا بيدي أن أفعلَ سوى أن أخرَّ على ركبتي وأصلي! من بين كل ما في هذا المنزل البائس، أنا الأكثر بؤسًا. أحلُّ محلَّها! لكن لن أُضطرَّ إلى فعل ذلك؛ وستبتعد ماري عن السيد كلافرينج.»

صاح السيد جرايس: «هاك! ما رأيك في ذلك؟ ألم يُصبح واضحًا بما يكفي دافعُ ماري لارتكاب جريمة القتل هذه؟ لكن أكمل؛ لنسمعْ ما حدث بعد ذلك.»

أكملت، وقلبي مكروبٌ. جاء الإدخال التالي مؤرخًا في ١٩ يوليو، وورد فيه ما يلي:

«كنت مُحقَّة. بعد مجاهَدةٍ دامت طويلًا مع إرادة عمي التي لا تُغلَب، وافقت ماري على أن تُخرِج السيد كلافرينج من حياتها. كنتُ في الغرفة عندما أعلنت عن قرارها، ولن أنسى نظرة الفخر المفعَمة بالرضا التي نظر بها عمُّنا وهو يضمُّها إلى ذراعَيْه ويُناديها بأنها هي قلبه الحقيقي. كان معتادًا كثيرًا وبوضوحٍ على هذا الأمر، ولم أملك إلا أن أشعرَ بارتياحٍ شديدٍ لانقضاء هذا الأمر بصورةٍ مُرْضية. لكن ماري؟ ما ذلك الشيء في أسلوبها الذي يَبث في نفسي إحباطًا مبهمًا؟ ليس بوسعي أن أجزم. كل ما أعرفه هو أنني شعرت

بانقباضٍ شديدٍ يتملَّكني عندما أدارت وجهها إليَّ وسألَتْني إن كنتُ سعيدةً الآن. لكنني تغلَّبت على مشاعري وبسطت لها يدي. لكنها لم تُصافحها.

٢٦ يوليو. يا لطول الأيام! ما زالت ظلال محنتنا الأخيرة مخيِّمة على نفسي؛ لا يمكنني أن أتخلص منها. يبدو أنني أرى وجهَ السيد كلافرينج اليائس أينما ذهبت. كيف تُحافظ ماري على بهجتها؟ إذا لم تكن تُحبه، أظن أن الاحترام الذي لا بد أن تُكِنَّه مراعاةً لخيبة أمله سيمنعها عن الهزل على أقلِّ تقدير.

غادر عمي مرةً أخرى. لم يكن أي شيءٍ يمكن أن أقوله كافيًا لإبقائه.

٢٨ يوليو. انكشف الأمر كله. انفصلَت ماري شكليًّا فقط عن السيد كلافرينج؛ لكنها لا تزال متعلقةً بفكرة أنها يومًا ما سيجمعها الزواج بالسيد كلافرينج. انكشفت الحقيقة لي بطريقةٍ غريبةٍ لا داعيَ لذكرها هنا؛ وأكدتها ماري بنفسها. أقرَّت: «أحبُّ هذا الرجل، ولا أنوي أن أبتعد عنه.» فسألتها: «ولماذا لم تُخبري عمكِ بهذا؟» فاقتصرَتْ إجابتها على ابتسامةٍ قاسيةٍ وردٍّ مقتضب: «أترك ذلك لكِ.»

٣٠ يوليو. منتصف الليل. كنت منهَكةً تمامًا، لكن قبل أن يبرد الدمُ في عروقي سأكتب. ماري أصبحَت زوجة. عُدت لتوي من المشهد الذي رأيتها فيه تمنح يدَها إلى هنري كلافرينج. من الغريب أنني أقوى على الكتابة دون أن أرتجف بينما تفيض روحي امتعاضًا واشمئزازًا. لكن سأسرد الحقائق. بعد أن تركتُ غرفتي دقائقَ معدودةً صباحَ اليوم، رجعت لأجد على تسريحتي رسالةً قصيرةً من ماري تُخبرني فيها بأنها ستذهب لتأخذَ السيدة بيلدن في نزهةٍ ولن تعودَ إلا بعد ساعات. كنت مقتنعةً أنها كانت في طريقها لمقابلة السيد كلافرينج؛ لأن لديَّ من الأسباب ما يدعوني لذلك، فلم أتوقَّف إلا لأرتديَ قبعتي ...»

توقفَت المذكرات عند هذا الحد.

أوضح السيد جرايس: «من المحتمل أن ماري قاطعَتْها عند هذه النقطة. وصلنا إلى الشيء الوحيد الذي كنا نريد أن نعرفه. هدَّد السيد ليفنوورث بأن يستبدل بماري إلينور إن أصرَّتْ على الزواج خلافًا لرغبته. وقد فعلتها وتزوجَت، وحتى تتجنبَ توابعَ فعلتها ...»

أجبتُ، وأنا مقتنع أخيرًا: «لا تقل المزيد. الأمر واضحٌ وضوح الشمس.»

نهض السيد جرايس.

تابعت، محاولًا أن أتشبَّث بالعزاء الوحيد الذي بقي لي: «لكن كاتبة هذه الكلمات نجَت. لن يجرُؤَ أيُّ شخصٍ يقرأ هذه المذكرات على أن يُلمِّح بأنها قادرةٌ على ارتكاب جريمة.»

«بالتأكيد لا؛ فالمذكرات تحسم تلك المسألةَ على نحوٍ قاطع.»

حاولت أن أكون رجلًا مخلصًا بما يكفي لأن أُفكر في ذلك ولا شيء سواه. وأن أفرح بنجاتها، وأدع أي تفكير آخرَ يمضي؛ لكنني لم أُفلح في هذا. تمتمتُ: «لكن ماري، ابنة عمها، وأختها تقريبًا، قد ضاعت.»

دسَّ السيد جرايس يدَيه في جيوبه، ولأول مرة، أظهر دليلًا على اضطرابٍ خفيٍّ بداخله. قال: «نعم، أخشى أن حياتها ضاعَت؛ أخشى حقًّا من ذلك.» ثم بعد تَوَقف، شعرت أثناءه بتشوُّقٍ معينٍ إلى أملٍ غامض، تمتم قائلًا: «يا لها من إنسانةٍ فاتنةٍ أيضًا! هذا أمرٌ مؤسف، أمر مؤسف بكلِّ تأكيد! أُقر، بعدما اتضح الأمر، أنني بدأتُ أشعر بالأسف أننا نجحنا في ذلك بجدارة. أمر غريب لكنَّه حقيقي. لو أن ثمة مهربًا ولو صغيرًا من هذا. ولكن لا يوجد مهرب. فالأمر واضحٌ وضوح الشمس.» نهض فجأةً، وبدأ يذرع الغرفةَ جَيئةً وذَهابًا مستغرقًا في تفكيرٍ عميق، ومسددًا نظراته هنا، وهناك، وفي كل مكان، باستثنائي، مع أني مقتنعٌ الآن، مثلما كنت حينها، أن وجهي كان الشيءَ الوحيد الذي رآه.

سأل، بعد أن توقَّف أمام حوضٍ بداخله سمَكتان أو ثلاث سمكات تعيسات يسبحْنَ في بطءٍ بداخله. «هل سيُؤسفك بشدة، يا سيد ريموند، إذا أُلقيَ القبض على الآنسة ماري ليفنوورث بتهمة القتل؟»

قلت: «نعم، سيؤسفني ذلك؛ سيحزنني ذلك بشدة.»

قال، في ظل غيابٍ مريبٍ لنبرة الحسم المعتادة منه: «لكن لا بدَّ من فعل ذلك. بصفتي مسئولًا أمينًا، أُودِعَت فيَّ ثقةٌ أن أُقدم إلى السلطات المختصة قاتل السيد ليفنوورث، ولا مفر من أن أفعل ذلك.»

من جديدٍ أثار أسلوبه المميزُ هذا ذلك الشوقَ الغريب إلى الأمل الكامن في قلبي.

«ثم سُمعتي كمحقِّق! لا بد حتمًا أن أضع ذلك في الاعتبار. لست ثريًّا ولا مشهورًا جدًّا حتى يكون بوسعي التغاضي عن كل ما يجلبه لي نجاحٌ مثل هذا. لا، مع كونها جذَّابة، لا بد أن أدفع سير الأمور إلى الأمام.» لكن حتى بينما كان يقول هذا، أصبح أكثرَ إمعانًا في التفكير، وظل يُحدِّق إلى أسفل في الأعماق الحالكة لهذا الحوض البائس أمامه بإصرار توقعتُ معه أن ترتفع هذه السمكات المذهلة من الماء وتُبادله النظر. ماذا كان يدور في ذهنه؟

استدار بعد مدةٍ قصيرة، وقد ذهبَت عنه الحيرة تمامًا. قال: «سيد ريموند، تعالَ إلى هنا مرةً أخرى في الساعة الثالثة. سيُصبح تقريري جاهزًا حينها لعرضه على رئيس الشرطة. أريد أن أعرضه عليك أولًا، فلا تخذلني.»

ثَمة شيءٌ كان مكبوتًا في أسلوبه، فلم أستطع أن أمنعَ نفسي من المجازفة بسؤالٍ واحد. فسألته: «هل حسمت أمرك؟»

أجاب، لكن بنبرةٍ غريبة، وبإيماءةٍ غريبة: «نعم.»

«وهل ستُقدِم على عملية إلقاء القبض التي تحدثتَ عنها؟»

«تعالَ في الساعة الثالثة!»

الفصل السادس والثلاثون

تجميع الخيوط

هذه هي كل الحكاية وما فيها.

مسرحية «زوجات وندسور المرحات»

في تمام الساعة المذكورة، حضرت عند باب السيد جرايس. ووجدته ينتظرني على عتبة الباب.

قال بجدية: «لقد قابلتك لأطلب منك أن تمتنعَ عن الحديث أثناء المقابلة اللاحقة. أنا الذي سأتكلم؛ وأنت ستستمع. لا تُفاجَأ من أي شيء قد أفعله أو أقوله. أنا في حالةٍ مِزاجية تدعوني للفكاهة والمزاح»، لكنه لم يبدُ هكذا، «وربما يخطر ببالي أن أوجه الحديث إليك باسم آخر غيرِ اسمك. إن فعلتُ ذلك، فلا تُبالِ. الأهم من كل ذلك، لا تتكلم: تذكَّر ذلك.» ومن دون أن ينتظر أن يواجه نظرتي المذهولةَ المرتابة، اقتادني برفقٍ لأعلى.

كانت الغرفة التي كنت معتادًا أن ألتقيَ به فيها أولَ غرفةٍ عند قمة الدَّرج الأول، لكنه أخذني مرورًا بذلك إلى ما بدا أنها غرفة السطح، وبعد إشارات تحذيرية كثيرة، أشار إليَّ بدخول غرفةٍ ذات غرابة استثنائية ومظهرٍ لا يُبشر بخير. أولًا، كانت غرفةً مظلمة، يُضيئها ببساطة ضوءٌ آتٍ من فتحة سقف معتمة جدًّا وقذرة. ثانيًا، كانت خاويةً على نحوٍ يُثير الخوف؛ كانت الأغراض الوحيدة في الغرفة هي منضدة من خشب الصَّنوبر وكرسيَّين بمسند ظهر، متواجهَين عند كل طرف من طرفيها. وأخيرًا، كانت محاطة بعدة أبواب مغلقة ذات فتحات تهوية ملطَّخة ومخيفة في أعلاها، ولأنها كانت دائريةَ الشكل، كانت تبدو كعيونٍ جوفاء لصفٍّ من مومياوات مُحملقة. إجمالًا كان مكانًا كئيبًا، والحالة الذهنية التي كنت عليها حينذاك جعلَتْني أشعر وكأنَّ شيئًا خارقًا ومخيفًا يقبع جاثمًا في الأجواء. فلم يكن بإمكاني، وأنا جالسٌ هناك شاعر بالبرد والكآبة، أن أتخيَّل أن أشعة

الشمس كانت ساطعةً في الخارج، ولا أن مظاهرَ الحياة، والجمال، والسعادة ماثلةٌ في الشوارع في الأسفل.

ربما كان لهيئة السيد جرايس، وهو يجلس على مقعدٍ ويشير إليَّ لأفعل الشيء نفسه، صلةٌ بهذا الإحساس الغريب، الذي كان متوقعًا بشكلٍ غامضٍ وكئيب.

قال، بنبرةٍ مكتومةٍ لدرجة أني لم أكَد أسمعه: «لا تهتمَّ بالغرفة. فالمكان موحشٌ ومخيف، أعرف ذلك؛ لكن الأشخاص الذين تَشغلهم أمورٌ كتلك التي تشغلنا ليس من المفترض أن يُدقِّقوا في الأماكن التي يعقدون فيها مشاوراتهم، إذا كانوا لا يريدون أن يعرف العالم بأسرِه كثيرًا عما يفعلونه. سميث»، وهزَّ إصبعه في إشارةٍ تحذيرية، بينما اتخذ صوتُه نبرةً أكثرَ اختلافًا، «لقد أنجزتُ المهمة؛ والمكافأة لي؛ لقد عُثر على قاتل السيد ليفنوورث، وفي غضون ساعتَين سيُصبح قيد الاحتجاز. هل تريد أن تعرف مَن هو؟» مال إلى الأمام وكل شيء في صوته وهيئته يشعُّ حماسةً.

حدقت فيه في ذهول شديد. هل ظهر أي جديدٍ للنور؟ هل حدث أيُّ تغييرٍ كبيرٍ في استنتاجاته؟ فكلُّ هذا التمهيد لا يمكن أن يكون الغرضُ منه أن يُعلِمني بما أعرفه بالفعل، لكن …

قاطع الافتراضات الدائرة برأسي بضحكةٍ خافتة، ومعبرة. «كانت مطاردة طويلة، أؤكد لك»، ثم أضاف رافعًا صوته: «حادثة معقَّدة؛ شاركت فيها امرأة أيضًا، لكن نساء العالم كلهن يعجزن أن يُغمضوا عينَي إبينيزر جرايس وهو على الدرب؛ واكتُشِف قاتل السيد ليفنوورث و…»، هنا أصبح صوته يُجلجل من الحماسة، «وقاتل هانا تشيستر.»

تابع قائلًا: «صمتًا!» مع أنه لم يكن قد صدَر مني كلمة أو حركة؛ «لم تكن تعرف أن هانا قُتلت. حسنًا، ليس بالمعنى الحرفيِّ للكلمة، ولكن بطريقة أخرى أُودي بحياتها، بنفس اليد التي قتلَت الرجلَ المسن. كيف أعرف هذا؟ انظر هنا! عُثِر على هذه القُصاصة من الورق على أرضية غرفتها؛ كان ملتصقًا بها جزيئاتٌ من مسحوقٍ أبيض؛ فُحصت تلك الجزيئات الليلةَ الماضية وتبيَّن أنها سم. لكنك تقول إن الفتاة تناولَته بنفسها، وإن هذا كان انتحارًا. أنت محق، هي مَن تناولته بنفسها، وكان ذلك انتحارًا؛ لكن مَن الذي أرهبها حتى وصل بها الأمر إلى قتل نفسها؟ عجبًا، هو الشخص الذي لديه كل الأسباب التي تدعوه إلى أن يخشى شهادتها، بالطبع. لكنك تقول: أين الدليل؟ حسنًا، يا سيدي، هذه الفتاة تركت اعترافًا وراءها، تُلقي فيه مسئولية الجريمة بأكملها على طرف بعينه يُعتقَد أنه بريء؛ هذا الاعتراف كان مزوَّرًا، وهذا معروف من ثلاث حقائق؛ أولًا: كان

يستعصي على الفتاة في المكان الذي كانت فيه أن تحصلَ على الورقة التي كان الاعتراف مكتوبًا عليها؛ ثانيًا: أن الكلمات فيها كانت مكتوبةً بخطٍّ رديء وغير مقروء، بينما كانت هانا قد تعلَّمت الكتابةَ بإجادة، بفضل ما علَّمَته لها السيدة التي ظلت تحت رعايتها منذ وقوع الجريمة؛ ثالثًا: أن القصة التي وردَت في الاعتراف لا تتفق مع القصة التي روتها الفتاة نفسُها. والآن حقيقة أنه عُثر على اعتراف مزور يُلقي التهمة على طرف بريء في عُهدة هذه الفتاة الجاهلة، التي قُتلت بجرعة سم، إلى جانب حقيقةٍ ذُكرت هُنا، وهي أنه في صبيحة اليوم الذي قتلَت فيه نفسها تلقَّت الفتاة — من شخصٍ ما على دراية واضحةٍ بأعراف عائلة ليفنوورث — خطابًا بحجمٍ كبير في ظرفٍ سميكٍ بما يكفي ليحتويَ على الاعتراف مطويًّا، كما كان عندما عُثر عليه، وهو ما يؤكد لعقلي أن قاتل السيد ليفنوورث أرسل هذا المسحوق وذلك الاعترافَ المزعوم إلى الفتاة، قاصدًا من ذلك أن تستخدمه الفتاة كما فعلَت بالضبط؛ وذلك بغرض إبعاد الشك عن المسار الصحيح، وبغرضِ إهلاك نفسها في الوقت نفسِه؛ وذلك لأنه، كما تعرف، الموتى لا يُدْلون بشهاداتهم.»

توقفَ ونظر إلى فتحة السقف القذرة أعلانا. لماذا بدا أن الهواء يزداد ثقلًا أكثر فأكثر؟ لماذا ارتعدت في ذعر غيرِ مفهوم؟ عرَفت كل هذا من قبل؛ فلماذا صدمني، إذن، وكأنه خبرٌ جديد؟

«لكن مَن هو؟ إنك تسأل. آه، ذلك هو السر؛ تلك هي المعلومة التي ستهَبني الشهرة والثروة. لكن، سواءٌ أكان سرًّا أم لم يكن، لا أمانع أن أخبرك به»؛ قال هذا مخفضًا صوته ثم سرعان ما رفعه مرة أخرى. «الحقيقة أنني لا أستطيع أن أحتفظ به لنفسي؛ يُثيرني كدولار جديد في جيبي. سميث، يا صغيري، إن قاتل السيد ليفنوورث ... لكن انتظر، مَن ذا الذي يقول العالم إنه الفاعل؟ إلى مَن تشير الصحف ويهزُّ الناس رءوسَهم عليه؟ امرأة! امرأة شابة، جميلة، ساحرة! ها، ها، ها! الصحف محقَّة؛ إن الفاعل امرأة؛ شابة، وجميلة، وساحرة أيضًا. لكن أيهما؟ أها، هذا هو السؤال. ثَمة أكثرُ من سيدة في هذه القضية. منذ موت هانا سمعت من يطرح علانية أنها هي الطرف الجاني في هذه الجريمة: هُراء! يهتف آخرون أنها ابنة الأخ التي لم يُعاملها عمُّها بإنصافٍ في وصيته: هراء! مرة ثانية. لكن الناس لا يقولون ذلك من دون مبررٍ. كانت إلينور ليفنوورث تعرف عن هذه القضية أكثرَ مما بدا. والأسوأ من ذلك، أن إلينور واقفةٌ في مواجهةِ خطرٍ مؤكد اليوم. إذا كنت لا تظن، فاسمح لي أن أعرض لك ما لدى المحققين ضدها.

أولًا: ثمة حقيقة أن منديلًا، عليه اسمها، عُثر عليه في مسرح الجريمة متسخًا بشحم المسدس؛ وهو مكانٌ أنكرَت إنكارًا قاطعًا أنها دخلته خلال الأربع والعشرين ساعة التي سبقت اكتشافَ الجثة.

ثانيًا: حقيقة أنها لم تكتفِ بإظهار فزعها عند مواجهتها بهذا الجزء من الأدلة الظرفية، بل أبدت إرادةً قاطعةً، في هذا الوقت وفي أوقات أخرى، لتُضلِّل مسار الاستجواب، وتتهربَ من إجابة مباشرةٍ عن بعض الأسئلة وتمتنعَ تمامًا عن الرد على جميع الأسئلة الأخرى.

ثالثًا: أنها حاولت التخلصَ من خطابٍ بعينه له علاقةٌ واضحة بهذه الجريمة.

رابعًا: أن مِفتاح باب المكتبة شوهد معها.

كل هذا، مع حقيقة أن بقايا الخطاب الذي حاولَت السيدةُ نفسُها أن تتخلَّص منه في غضون ساعةٍ بعد الاستجواب، ووُجد أنه يحتوي على اتهامٍ لاذع لإحدى ابنتَي أخوَي السيد ليفنوورث، وجَّهه رجلٌ سنُطلق عليه «إكس»، أو بعبارةٍ أخرى، شخص مجهول، يجعل القضية غامضةً أمامك، لا سيما بعد أن كشفَت التحرياتُ عن حقيقةِ أنَّ ثمة سرًّا يُخفيه تاريخُ عائلة ليفنوورث. وهذا السر يتمثَّل في أن مراسم زواجٍ، يجهله العالمُ بصفة عامة، والسيد ليفنوورث بصفةٍ خاصة، قد عُقدت منذ عامٍ في بلدةٍ صغيرةٍ يُطلق عليها «ف...» كان طرفاها الآنسة ماري ليفنوورث وهذا الرجل «إكس» نفسه. بعبارةٍ أخرى، إن الرجل المجهول الذي اشتكى، في الخطاب الذي تخلَّصَت الآنسة إلينور منه جزئيًّا، إلى السيد ليفنوورث من المعاملة التي تلقَّاها من إحدى ابنتَيْ أخَوَيه؛ كان في الحقيقة هو الزوجَ السريَّ لابنة الأخ تلك. وعلاوة على ذلك، فإن ذلك الرجل نفسَه، تحت اسمٍ منتحَل، جاء في زيارةٍ إلى منزل السيد ليفنوورث ليلةَ وقوع الجريمة وطلب مقابلةَ الآنسة إلينور.

والآن بإمكانك أن ترى، مع كل هذه الدلائل ضدها، أن إلينور ليفنوورث هالكةٌ إذا تعذَّر إثبات، أولًا أن تلك الأدوات التي تشهد ضدها، أي: المنديل، والخطاب، والمفتاح، تناقلَتْها أيادٍ أخرى بعد وقوع الجريمة، قبل وصولها ليدَيْها؛ وثانيًا، أن شخصًا آخرَ كان لديه مبررٌ أقوى منها للرغبة في موت السيد ليفنوورث في ذلك الحين.

سميث، يا صغيري، أنا مَن وضعتُ كِلتا هاتَين الفرضيَّتَين. بعد التقليب في بعض الأسرار القديمة، وتتبُّعِ خيوطٍ لا تدعو للتفاؤل، توصَّلتُ أخيرًا إلى استنتاج أن المجرم الحقيقي ليس هو إلينور ليفنوورث، الغامضة كالقرائن ضدها، وإنما امرأة أخرى، جميلة

مثلها، ومثيرةٌ للاهتمام بقدرها تمامًا. خلاصة القول أن ابنة عمها، ماري الجذابة، هي التي قتلَت السيد ليفنوورث، بمساعدة هانا تشيستر أيضًا.»

نطق هذا الكلامَ بقوةٍ كبيرة، وبمظهر انتصارٍ وهيئةٍ مهَّد بهما لهذا، لدرجة أنني للحظةٍ كنت مدهوشًا، وفزعتُ وكأني لم أكن أعرف ما كان سيقوله. ويبدو أن الحركة التي صدرَتْ مني أحدثَت صدًى. كان في الأجواء حولي شيءٌ أشبهُ بصيحةٍ مكبوتة. بدَت الغرفة كلها وكأنها تتنفَّس ذعرًا وخوفًا. وعندما التفتُّ، في هوجة هذا الخيال، بنصف جسدي لأنظر حولي، لم أجد شيئًا سوى العيون الجوفاء لفتحات التهوية الكئيبة تحدق فيَّ.

أكمل السيد جرايس حديثه: «أنت مندهش! لا أستغرب ذلك. انشغل الجميع بمراقبةِ تحرُّكات إلينور ليفنوورث؛ وأنا وحدي أعرف أين أجد المجرم الحقيقي. تهزُّ رأسك!» (هذا خيال آخر.) «لا تُصدِّقُني! تظن أنني خُدِعت. ها، ها! إبينيزر جرايس خُدِع بعد شهرٍ من العمل الشاق! أنت بنفس سوء الآنسة ليفنوورث، التي كانت لم تكن تثق إلا قليلًا في ذكائي حتى إنها عرَضَت عليَّ، من دون كل الرجال، مكافأةً مجزية إذا عثرتُ من أجلها على قاتل عمها! لكنه لم يكن هنا أو هناك؛ لديك شكوكُك، وتنتظر مني أن أفنِّدها. حسنًا، لا شيء أسهل من ذلك. اعلم أولًا أنني في صباح يوم التحقيق توصلتُ إلى اكتشافٍ أو اكتشافَين لن يُعثَر عليهما في السجلَّات، أي: إن المنديل الذي التُقِط، كما سبق أن قلتُ، في مكتبة السيد ليفنوورث، كان عليه بغضِّ النظر عن بقع الشحم من المسدس، رائحةُ عطرٍ واضحةٌ عالقة فيه. فذهبت إلى تسريحة السيدتين، وبحثتُ عن ذلك العطر، ووجدته في غرفة ماري، وليس في غرفة إلينور. هذا دفعني إلى التفتيش في جيوب الثوبين اللذين كانت السيدتان ترتديهما في الليلة السابقة. في جيب ثوب إلينور وجدت منديلًا، يُفترض أنه الذي كانت تحمله في ذلك الوقت. لكن في جيب ماري، لم يكن يوجد أي شيء، ولم أرَ شيئًا في غرفتها وكأنه سقط عند نومها. الاستنتاج الذي توصَّلت إليه من هذا كان، أنها هي، وليست إلينور، قد أخذت المنديل إلى غرفة عمها، وهو استنتاجٌ أكدَته حقيقة أبلَغَتها لي سرًّا واحدةٌ من الخادمات، أن ماري كانت في غرفة إلينور عندما أحضرَت سلة الملابس النظيفة وكان عالِيَها هذا المنديل.

لكن علمًا مني بالمسئولية التي تقع علينا إن أخطأنا في أمورٍ كهذه، أجريتُ عمليةَ بحثٍ أخرى في المكتبة، وصادفت شيئًا يبعث على فضولٍ شديد. كان على المنضدة سكينٌ

جيبٍ صغير، ومتناثر على الأرض أسفل منها، عند نقطةٍ أقرب ما تكون إلى الكرسي، جزآن أو ثلاثة أجزاء متناهيةِ الصِّغر من الخشب اجتُزَّت منذ وقتٍ قريب من رِجل المنضدة؛ كل ذلك كان يوحي أن شخصًا ما في حالةٍ عصبيةٍ كان يجلس هناك، والذي كانت يده في لحظةٍ من نسيان الذات قد أمسكَت بالسكين وأخذَت تبري المنضدةَ من دون وعي. أراك تقول أمرٌ بسيط؛ لكن عندما يكون السؤال هو أيُّ السيدتَين، اللتَينِ كانت إحداهما في حالةٍ هادئة ومتماسكة، والأخرى مضطربة ومنفعلة في تصرفاتها، كانت في بقعة معينة وفي وقت معين، فإن تلك الأمورَ البسيطة تصبح شبهَ مميتة في أهميتها. لا يمكن لأحدٍ كان مع السيدتَين ساعةً أن يتردَّد فيما يخصُّ أي يدٍ ناعمة صنعَت تلك الحفر في منضدة السيد ليفنوورث.

لكننا لم ننتهِ. سمعتُ إلينور بطريقةٍ غيرِ مباشرة وبوضوحٍ تتهمُ ابنة عمِّها بارتكاب هذه الفعلة. والآن ثبُت أن سيدةً مثل إلينور ليفنوورث يستحيلُ عليها أن تتهمَ قريبةً لها بجريمةٍ من دون أن يكون لديها مبرراتٌ قاطعةٌ ووجيهةٌ إلى أقصى حد. أولًا: لا بد أنها كانَت واثقةً من أن ابنة عمها كانَت في مأزقٍ شديدٍ حتى أن لا شيء غير موت عمِّها كان يمكن أن يُخلِّصها منه؛ ثانيًا: أن ابنة عمِّها كان من طبيعتها أنها لن تتردَّد في أن تُريح نفسها من مأزقٍ ميئوسٍ منه بأكثر الوسائل استماتةً؛ وأخيرًا: أن يكون في حيازتها دليلٌ ظرفيٌّ ضد ابنة عمها؛ فهذا يُثبت شكوكها بدرجة قاطعة. سميث، كلُّ ذلك كان حقيقيًّا عن إلينور ليفنوورث. أما عن شخصية ابنة عمِّها، فكان لديها أدلةٌ وافرةٌ على تطلُّعها، وحبِّها للمال، وتقلُّبها وخداعها؛ إذ كانت ماري ليفنوورث، وليس إلينور، كما افترضنا في البداية، هي مَن وقَّعت على عقد الزواج السري الذي سبق أن أُشير إليه. كانت تعلم أيضًا الموقف الحرج الذي كانت فيه، لنتذكَّر التهديدَ الذي أطلقه السيد ليفنوورث بأن يستبدل باسمها اسم ابنة عمِّها في وصيته في حالة أنها تزوجَت بهذا الرجل «إكس»، وكذلك الإصرار الذي تعلَّقَت به ماري بآمالها في ثروتها المستقبلية؛ بينما فيما يتعلَّق بالشهادة التي تُثبت التهمة عليها والتي يُفترض أن إلينور أدْلَت بها، تذكَّر أنه قبل العثور على المفتاح في حيازة إلينور، كانت قد أمضَتْ بعضَ الوقت في غرفة ابنة عمها؛ وأن مِدفأة غرفة ماري هي التي عُثر فيها على بقايا الخطاب الذي كان قد احترق نصفه، وهكذا يكون لديك الخطوط الرئيسية للتقرير الذي في غضون ساعةٍ من الآن سيؤدِّي إلى إلقاء القبض على ماري ليفنوورث بصفتها قاتلةَ عمِّها ووليِّ نعمتها.»

أعقب ذلك صمتٌ، أشبهُ بالظلام الذي خيَّم على مصر أيامَ فرعون، كان بالإمكان أن يُستَشْعَر؛ ثم دوَّت في الغرفة صيحةٌ عظيمةٌ ومريعة، واندفع رجلٌ من حيث لا أدري، فدفعتُه وسقط عند قدمَي السيد جرايس صارخًا:

«هذا افتراء! افتراء! ماري ليفنوورث بريئةٌ براءةَ الجنين في بطن أمه. أنا قاتل السيد ليفنوورث. أنا! أنا! أنا!»

كان هذا هو ترومان هارويل.

الفصل السابع والثلاثون

ذروة الأحداث

الذهب الذي فيه الغواية للقديسين.

مسرحية «روميو وجوليت»

عندما لا تجعل منا أفعالنا خونة، فإن مخاوفنا تجعلنا كذلك.

مسرحية «مكبث» [ترجمة جبرا إبراهيم جبرا]

لم أرَ مطلقًا نظرةَ انتصارٍ مخيفةً على وجه رجلٍ كالتي سرَت على وجه المحقق.

قال: «حسنًا، هذا غير متوقَّع، لكنه ليس غيرَ مرغوب فيه كُليةً. أنا في غاية السرور أن الآنسة ماري بريئة؛ لكن لا بد أن أستمع إلى تفاصيلَ أكثرَ قبل أن أقتنع. قف، يا سيد هارويل، ووضِّح كلامك. إن كنتَ أنت مَن قتل السيد ليفنوورث، كيف تبدو الأمور كلها سوداويةً في حالة الجميع فيما عداك؟»

لكن في تلك العينَين المتقدتَين المضطربتَين للجسد الذي كان يتلوَّى عند قدمَيْه، كان ثمة توترٌ وألمٌ يصلان إلى حدِّ الجنون، وقليل من التوضيح. ما إن رأيته يبذل محاولاتٍ غيرَ مجديةٍ ليتحدث، حتى اقتربت منه.

قلتُ، وأنا أرفعه لينهض على قدميه: «استنِدْ إليَّ.»

استدار وجهه، الذي تخلَّص من قناع الكبت إلى الأبد، ناحيتي بنظرةِ روحٍ آيسة. قال بأنفاس لاهثة: «أنقذ! أنقذ! أنقذها ... ماري ... سيرسلون التقرير ... امنع ذلك!»

قاطعه صوتٌ آخر: «نعم، إن كان يوجد هنا رجلٌ يؤمن بالرب ويوقِّر شرفَ النساء، فليُوقِف إرسال ذلك التقرير.» وتقدَّم هنري كلافرينج، وقورًا كحاله دومًا، ولكن في اضطرابٍ عارم، مندفعًا بيننا من بابٍ مفتوحٍ على يميننا.

لكن عند مرأى وجهه، ارتعد الرجل الذي بين أذرعنا خوفًا، وصرخ، وقفز قفزةً كانت ستقلب السيد كلافرينج، بجسده العملاق، على ظهره، لولا تدخلُ السيد جرايس.

صاح: «انتظر!»؛ ومُوقفًا السكرتير بيدٍ واحدة — أين هي قدماه المصابتان بالروماتيزم الآن؟! — وضع اليد الأخرى في جيبه وأخرج حينها مستندًا رفعَه أمام السيد كلافرينج. وقال: «التقرير لم يُرسل بَعدُ، هَوِّن عليك. وأنت»، تابعَ كلامَه، مستديرًا ناحية ترومان هارويل، «اصمت، وإلا ...»

قوطعت جملته من قِبَل الرجل الذي انفلت من قبضته. وصرخ بشدة: «اتركني! اتركني أثأر من هذا الذي، مقابل كل ما فعلته من أجل ماري ليفنوورث، يتجرَّأُ على أن يدعوَها زوجته! اتركني ...» ولكن عند هذه اللحظة توقَّف، وتيبَّس جسده المرتجف متحجرًا، وتراجعَت يداه المقبوضتان والممتدتان إلى حلق خَصمه. قال، وهو يُحدِّق خلف السيد كلافرينج: «أنصتوا! إنها هي! أسمعها! أشعر بها! تصعد السلم! تقف عند الباب! إنها ...» ثم أنهت تنهيدةٌ خافتةٌ ومرتجفةٌ، تعكس حُرقةً ويأسًا، جملتَه، وانفتح الباب، ووقفَت ماري ليفنوورث أمامنا!

كانت لحظةً يَشيب لها الولدان. أن ترى وجهها، شاحبًا، هزيلًا، ثائرًا في ذعرٍ ثابت، يستدير ناحيةَ هنري كلافرينج، بتجاهلٍ تامٍّ للبطل الحقيقي في هذا المشهد المروع! لم يستطع ترومان أن يحتمل ذلك.

صاح قائلًا: «أها، أها، انظر إليها! إنها باردة، باردة؛ لم تنظر نحوي نظرةً واحدة، مع أني حلَلتُ حبل المشنقة من على رقبتها لأربطه حول رقبتي أنا!»

ومتحرِّرًا من قبضة الرجل الذي كان سيكبح جِماحَه في فورة غضبه الغيور، سقط على ركبتَيْه أمام ماري، متشبثًا بثوبها بيدَين مضطربتَين. صاح: «سوف تنظرين إليَّ، سوف تسمعينني! لن أخسر نفسي وروحي من دون مقابل. ماري، قالوا إنكِ في خطر! لم أستطع أن أتحمَّل تلك الفكرة؛ ولهذا نطقتُ بالحقيقة ... نعم، رغم أني أعرف العواقب ... وكل ما أريده الآن أن تقولي إنكِ تُصدِّقينني، عندما أقسم أنني لم أقصد سوى أن أضمنَ لكِ الثروة التي طالما كنتِ توَّاقةً إليها؛ ولم أتخيل قطُّ أن الأمور ستصل إلى هذا؛ وأن ذلك كان لأنني أحببتُكِ، وتمنَّيْتُ أن أفوز بحبكِ في مقابل أن ...»

لكن لم يبدُ أنها تراه، ولم يبدُ أنها تسمعه. كانت عيناها مثبتتَين على هنري كلافرينج وفي أغوارهما استفهامٌ مروع، ولم يستطع أحدٌ أن يؤثِّر فيها سواه.

صرخ البائس المسكين: «لا تسمعينني! لا إحساس لديكِ، ولن تلتفتي برأسكِ ولو ناديتُكِ من أعماق الجحيم!»

لكن حتى هذه الصرخة لم تلقَ أيَّ مبالاة. دافعةً يديها إلى أسفل على كتفيه وكأنها تزيل عقبةً من طريقها، حاولت أن تتقدم. صاحَت، وهي تشير إلى زوجها بيدٍ مرتجفة: «لماذا هذا الرجل هنا؟ ما الذي فعله حتى يؤتى به إلى هنا ليُواجهني في هذا الوقت الشنيع؟»

همس السيد جرايس في أذني: «أخبرتها أن تأتيَ إلى هنا لتُقابل قاتل عمها.»

لكن قبل أن أتمكن من الرد عليها، وقبل أن يتمكن السيد كلافرينج نفسُه من أن يُغمغم بكلمة واحدة، كان البائس المجرم أمامها قد هبَّ واقفًا على قدميه.

«ألا تعرفين؟ سأخبركِ أنا إذن. لأن هذَين السيدَين، النبيلَين والمحترمَين كما يظنان بنفسيهما، يعتقدان أنكِ أنتِ، صاحبةَ الجمال والإحساس، ارتكبتِ بيدك البيضاء جريمةَ القتل التي وهبَتْكِ الحرية والثروة. نعم، نعم، هذا الرجل»، ملتفتًا ومشيرًا إليَّ، «الصديق مثلما تظاهر، اللطيف والمحترم كما ظننتِ بلا شك، لكنه هو الذي في كل نظرة أسبغها عليكِ، ومع كل كلمة نطق بها على سمعكِ أثناء هذه الأربعة الأسابيع المريعة، كان يلفُّ حبلًا حول رقبتكِ؛ ظنًّا منه أنكِ التي قتلتِ عمك، ويجهل أن هناك رجلًا كان يقف بجانبكِ وكان على استعدادٍ لأن يمحوَ نصف العالم من طريقكِ إذا ارتفعت تلك اليدُ البيضاء نفسُها لتأمرَه. لدرجة أنني ...»

«أنت؟» أخيرًا! بإمكانها الآن أن تراه، بإمكانها الآن أن تسمعه!

قال، وهو يتشبث بثوبها مرة أخرى بينما تراجعت بسرعة إلى الوراء: «نعم، ألم تعرفي ذلك؟ في تلك الساعة المفزعة عندما طردَكِ عمُّكِ، كنتِ تصرخين عاليًا مستنجدةً بأي أحد، ألم تعرفي ...»

صرختْ، وهي تندفع لتبتعد عنه بنظرة فزعٍ تفوق الوصف: «لا تفعل!» وقالت بأنفاس لاهثة: «لا تقل ذلك! يا إلهي! أتعني صرخة غضب من سيدة منكوبة تطلب فيها المساعدة والتعاطف أن تستغيث بقاتل؟» ثم ابتعدَت في فزع، وتأوهت: «أي شخص سينظر إليَّ الآن سينسى أن رجلًا — مثل هذا الرجل! ... تجرَّأ ورأى، نظرًا لأنني كنتُ في حيرة قاتلة، أنني كنت سأقبل بأن يُقتَل أفضل صديق لي حتى أستريح مما كنت فيه!» كان ذعرها بلا حدود. تمتمت: «يا إلهي، يا لها من معاقبة على الحماقة! يا له من عقاب على حب المال الذي كان دائمًا لَعْنتي!»

لم يعُد بإمكان هنري كلافرينج أن يمنع نفسه أكثرَ من ذلك، فهَبَّ إلى جانبها، ومال إليها. «ألم يكن الأمر سوى حماقة، يا ماري؟ هل أنت بريئة من أي إثم أعظمَ من ذلك؟ ألا يربط بينكما الاشتراكُ في الجريمة؟ ألم يكن في نفسكِ أي شيء سوى رغبةٍ جامحة في الحفاظ على مكانكِ في وصية عمكِ، حتى على حساب أن تكسري قلبي وأن تظلمي ابنةَ عمكِ الشريفة؟ هل أنت بريئة في هذه المسألة؟ أخبريني!» قال ذلك واضعًا يده على رأسها، ودفعها في بطءٍ إلى الوراء وحدق في عينيها؛ ثم دون أن ينبس بكلمة، ضمها إلى صدره ونظر في هدوءٍ حوله.

قال: «إنها بريئة!»

انجلَت حينئذٍ سحابةٌ كثيفة خانقة. شعر جميع من بالغرفة، باستثناء ذلك المجرم البائس الذي كان يرتعد أمامنا، بدفعة أمل مفاجئة. حتى ملامح ماري تألَّقت. همستْ، وهي تنسحب من بين ذراعيه لتنظر على نحوٍ أفضل إلى وجهه: «يا إلهي! أهذا هو الرجل الذي تلاعبتُ به، وجرحتُه، وعذبتُه، حتى أصبح اسم ماري ليفنوورث يَبث فيه رعدة؟ أهو هذا الرجل الذي تزوجت منه في نزوةٍ، فقط لأتخلى عنه وأنكره؟ هنري، هل تُعلن أنني بريئة مع كل ما رأيتَه وسمعتَه؛ ومع كل أنين، وثرثرةِ ذلك البائس الواقف أمامنا، وجسدي الذي يرتعش خوفًا ويبدو عليه الفزع؛ ومع أنك تتذكر الخطابَ الذي عَلِق في قلبك وعقلك والذي كتبتُه لك في الصباح بعد جريمة القتل، ورجوتك فيه أن تبتعد عني؛ لأني في خطرٍ مُهلِك حتى إن أبسط تلميح أُعْطِيَ للعالم بأن لديَّ سرًّا أخفيه كان سيُودي بي إلى الهلاك؟ هل تعلن أنني بريئة وبإمكانك أن تفعل ذلك وستُعلن ذلك أمام الرب والعالم؟»

قال: «أُعلنه.»

ظهرَت ببطءٍ على وجهها استنارةٌ لم يسبق أن ظهرت عليه من قبل. قالت، وهو يفتح شفتَيه: «إذن فليسامحني الرب على إساءتي لهذا القلب النبيل؛ لأني لا أستطيع أن أسامحَ نفسي أبدًا! انتظر! قبل أن أقبل أي أمارة أخرى على ثقتك الكريمة، اسمح لي أن أُريَك حقيقتي. ستعرف الجانب الأسوأ من المرأة التي اختارها قلبك.» ثم صاحت، مستديرةً ناحيتي للمرة الأولى: «سيد ريموند، في تلك الأيام، عندما، بأشدِّ ما يكون الولع بثروتي (كما ترى أنا لا أصدق تلميحاتِ هذا الرجل)، حاولتَ أن تحثني على أن أتحدث وأخبرَك بكل ما أعرفه بخصوص هذه الفعلة المشينة، لم أفعل بسبب مخاوفي الأنانية. عرَفت أن القضية لم تكن في صالحي. إلينور قد أخبرتني بذلك. إلينور نفسها صدقَت أني الجانية، وكانت تلك أقوى ضربة كان عليَّ أن أتحملها. كان لديها أسبابها. عرَفت أولًا، من الظرف المرسل

الذي كانت قد عثرت عليه أسفلَ جثة عمي الهامدة على منضدة المكتبة، أنه كان منخرطًا لحظةَ وفاته في استدعاء محاميه ليُجريَ تغييرًا في وصيته كان من شأنه أن ينقل حقوقي لها؛ ثانيًا: أنه على الرغم من إنكاري للأمر، كنت قد نزلتُ بالفعل إلى غرفته الليلة السابقة؛ إذ كانت قد سمعَت باب غرفتي يُفتح وثوبي يُصدر حفيفًا يُخشخش أثناء مروري. لكن ذلك لم يكن كل شيء؛ المفتاح الذي شعر الجميع أنه دليلُ إدانة قاطعٌ بصرف النظر عن المكان الذي عُثِر عليه فيه، كانت قد أخذَتْه من أرضية غرفتي؛ والخطاب الذي كتبه السيد كلافرينج إلى عمي عُثِر عليه في مدفأتي؛ والمنديل الذي كانَتْ قد رأَتْني آخذه من سلة الملابس النظيفة، قُدِّم في التحقيق متسخًا بشحم المسدس. لم يكن بإمكاني أن أُفسِّر كل هذه الأدلة. بدا وكأنَّ شبكةً قد تعقَّدت خيوطُها حول قدمَيَّ. فلم يكن بإمكاني أن أتحرك من دون أن أتعثر في شبكةٍ جديدة. كنت أعرف أني بريئة؛ لكن إذا كنت قد فشلت في أن أقنع ابنة عمي بهذا، فكيف لي أن أتطلَّع إلى إقناع عامة الناس، إذا طُلب مني ذات مرة أن أفعل ذلك. لكن الأسوأ من ذلك، أنه إذا كانت إلينور، التي كان لديها كلُّ الدوافع الواضحة التي تجعلها تتمنَّى طول العمر لعمنا، قد وُضِعت في موضع شبهة بسبب بضعة أدلةٍ ظرفية ضدها، فما الذي سيضمن لي ألَّا أخاف من أن تنقلب تلك الأدلةُ ضدي أنا، الوريثة الشرعية؟! لقد أظهرت نبرة المحلف وأسلوبُه في الاستجواب، حين سأل عن المستفيد الأكبر من وصية عمي، الأمرَ بوضوحٍ تام. ولذلك، حينما أطبقَت إلينور، التي تتبع فطرتها الكريمة، شفتَيْها وامتنعَت عن الحديث في الوقت الذي كان من شأن حديثها أن يجلبَ لي الخراب، تركتُها تفعل ذلك، مبررةً ذلك لنفسي بفكرة أنها قد اعتبرَتني قادرةً على ارتكاب الجريمة؛ ولهذا لا بد أن تتحمل العواقب. ولم أتراجع عندما رأيتُ أنه من المرجح أن يتبرهنَ أن هذه الأدلة الظرفية ستكون ذاتَ أثر مروع. الخوف من الفضيحة، والقلق، والخطر الذي من شأن الاعتراف أن يستتبعه جعلني أُطبِق شفتيَّ. لم أتردَّد إلا مرة واحدة. كان ذلك عندما، في آخر مقابلةٍ بيننا، رأيتُ أنك كنت مؤمنًا ببراءة إلينور رغم القرائن ضدها، وخطر ببالي أنه ربما يمكن حملك على التصديق ببراءتي إذا ألقيتُ بنفسي تحت رحمتك. لكن عندئذٍ جاء السيد كلافرينج؛ وفي لمح البصر يبدو أنني أدركت كيف ستكون حياتي في المستقبل موصومةً بالشك، وبدلًا من الخضوع لرغبتي، مضيتُ بعيدًا في الاتجاه المعاكس وهدَّدت السيد كلافرينج بإنكار زواجنا إن اقترب مني مرةً أخرى حتى يزول الخطر تمامًا.

نعم، سيخبرك أن هذا كان ترحيبي به عندما جاء، بقلبٍ وعقل منهَكَين من القلق لمدةٍ طويلة، إلى بابي من أجل كلمة طمأنةٍ واحدة بأن الخطر الذي كنت فيه لم يكن من

صنيعي. كانت تلك هي التحية التي منحتها إياه بعد عامٍ من الصمت كانت كلُّ لحظةٍ فيه بمثابة عذابٍ له. لكنه سامحني؛ أرى ذلك في عينَيْه؛ وأسمعه في نبرة صوته؛ وأنت ... أوه، إن كان بإمكانك في السنوات الطويلة القادمة أن تنسى ما جعلتُ إلينور تُقاسيه جراء مخاوفي الأنانية؛ إذا كان بوسعك، في ظل إساءتي لها الماثلة أمامك، وبفضل بعض الأمل الجميل أن تفكر فيَّ بطريقةٍ أقلَّ قسوة قليلًا، فافعل. أما فيما يتعلق بهذا الرجل ... فالتعذيب لا يمكن أن يكون أسوأَ عندي من وقوفي هذا معه في الغرفة نفسها ... فليتقدَّم ويعلنْ إن كنتُ بنظرةٍ أو كلمةٍ أعطيته سببًا ليعتقد أني فطنت إلى شغَفه بي، فضلًا عن مبادلته إياه.»

قال بأنفاسٍ لاهثة: «ولِمَ تسألين! ألا ترَين أن لامبالاتكِ هي التي دفعَتني إلى الجنون؟ أن أقف أمامكِ، أن أتألَّم من أجلكِ، أن أتتبَّعَكِ بأفكاري في كل خطوةٍ خطوتِها؛ أن أعرف أن روحي قد التحمَت بكِ بروابط من حديدٍ لا نار تصهرها؛ ولا قوة تحطمها، ولا أزمة تقطعها؛ أن ننام تحت السقف نفسِه، ونجلس على المائدة نفسها، ولا أجد منكِ ولا حتى نظرة واحدة تُظْهِر لي أنكِ تفهمين! كان هذا ما جعل حياتي جحيمًا. كنتُ مُصرًّا على أنكِ يجب أن تفهمي. إذا كنت سأقفز في حفرةٍ من نار، يجب أن تعرفي كيف كان حالي، ومقدار الحب الذي كنتُ أحمله لكِ. وأنتِ فهمتِ ذلك. أنتِ تدركين الأمر كلَّه الآن. ابتعدي كما تشائين عن حياتي، اهربي كما تشائين إلى الرجل الضعيف الذي تُسمينه زوجَكِ، لا يمكنكِ أبدًا أن تنسَي حب ترومان هارويل؛ لن تنسي أبدًا أن الحب، الحب، الحب كان القوة التي دفعَتْني لأنزل إلى غرفة عمِّك تلك الليلة، ومنحتني إرادة أن أسحب الزناد الذي فاض عليكِ بكل تلك الثروة التي بين يديكِ اليوم.» وتابع حديثه، وهو ينهض عاليًا في يأسه الفائق حتى بدا هنري كلافرينج نفسه بجسده المهيب قزمًا بجانبه: «نعم، كل دولار يرنُّ في حقيبتكِ سيحكي عني. كل بريق يلمع على هذا الرأس المتعجرف، المتغطرس الذي تكبَّر على أن ينحنيَ لي، سيصرخ باسمي في أذنيكِ. الملابس، البذخ، الترف؛ ستحصلين على كل ذلك؛ ولكن حتى يفقد الذهبُ بريقه وتخبوَ جاذبيتُه، لن تنسَي أبدًا اليدَ التي منحَتْك تلك الأشياء!»

بنظرة انتصارٍ شيطانيةٍ أعجز عن وصفها، تأبَّط ذراعَ المحقق المنتظر، وفي اللحظة التالية كان سيُقتاد خارج الغرفة؛ عندما رفعَت ماري رأسها، وهي تكظم سيل المشاعر الذي كان يتأجَّجُ في صدرها، وقالت:

«لا، يا ترومان هارويل، ليس بإمكاني حتى أن أمنحَك تلك الفكرة ليستريح ضميرك. الثروة الفاحشة لا تجلب إلا العذاب. وليس بوسعي أن أقبل العذاب؛ ولهذا لا بد أن أتحررَ من الثروة. من هذا اليوم، لن تملك ماري كلافرينج شيئًا سوى ما يأتيها من الزوج الذي

ظلمَتْه طويلًا بكل وضاعة.» ثم رافعةً يدَيْها إلى أذنَيْها، انتزعَت الألماس الذي كان متدليًّا منهما، وطرحته عند قدمَي الرجل البائس.

كانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير. بصرخةٍ لم أكن أتخيَّل مطلقًا أن أسمعها تدوِّي من بين شفتَيْ رجلٍ، رفع ذراعَيْه لأعلى، بينما كان شرر الجنون الصارخ يتأجَّج في وجهه. وقال في أنين: «وأنا قد زجَجتُ بنفسي إلى الجحيم لمجرد خيال! لمجرد خيال!»

«حسنًا، هذا أفضل يوم عمل في حياتي! لنسمع تهانيك، يا سيد ريموند، على نجاح أكثر لعبة جريئة شهدها مكتبُ محقِّق.»

نَظَرتُ في ذهولٍ إلى وجه السيد جرايس المبتهج بالنصر. صِحتُ قائلًا: «ماذا تقصد؟ هل خطَّطت لكل هذا؟»

كرَّر ما قلتُه: «هل خططت؟ وهل يُعقل أن أقف هنا، وأرى الأمورَ تصير إلى ما صارَت إليه، إن لم أكن خططتُ لها؟ يا سيد ريموند، دعنا نُرِح أنفسَنا. أنت رجل محترم، لكن بإمكاننا أن نتصافحَ مباركةً لهذا النجاح. لم أعرف قطُّ على مدار حياتي المهنية نهايةً مُرضِيةً لمهمة عملٍ صعبةٍ مثل هذه النهاية.»

تصافحنا بالفعل، طويلًا وبحماس، ثم طلبت منه أن يوضِّح.

قال: «حسنًا، كان ثَمة أمرٌ واحد يزعجني طوال الوقت، حتى في اللحظة التي بلَغَت فيها شكوكي في هذه السيدة أوْجَها، وكان هذا الأمر، هو مسألة تنظيف المسدس. لم أستطع أن أربط بين هذا العمل وما كنتُ أعرفه عن طبيعة النساء. استعصى عليَّ أن أتخيَّل أن هذا العمل من صنيع امرأة. هل عرَفتَ من قبل امرأةً نظَّفت مسدسًا؟ لا. بإمكانهن أن يطلقْنَ النار منه، ويفعلْنَ ذلك بالفعل؛ لكن بعد استخدامه في إطلاق النار، لا يحرصْنَ على تنظيفه. والآن ثمة قاعدةٌ يعرفها جميع المحققين، وهي أنه إذا كان من بين مائة حدَثٍ رئيسي مرتبطٍ بالجريمة، تسعةٌ وتسعون حدثًا تشير إلى الطرف المشتبه فيه بيقينٍ بالغ الدقة، لكنَّ الحدثَ رقم مائة الذي لا يقل أهميةً هو حدثٌ لا يمكن أن ينفِّذَه ذلك الشخص، فإن بِنْيَةَ الشك كلَّها تنهار. عملًا بهذا المبدأ، إذن، كما أوضحت، ترددتُ عندما وصل الأمرُ إلى نقطة إلقاء القبض عليها. فالسلسلة كانت مكتملة؛ والحلقات كانت متصلةً ببعضها البعض، لكن حلقة واحدة كانت ذات حجمٍ ونوعية مختلفَين عن باقي الحلقات؛ وهذا ما أيَّد وجودَ ثغرة في السلسلة. توصلتُ إلى أن أمنحها فرصةً أخيرة. فاستدعيتُ

السيد كلافرينج والسيد هارويل، وهما شخصان ليس لدي أيُّ سببٍ يدعوني لأن أشك فيهما، لكنهما كانا الشخصَين الوحيدين بالإضافة إليها اللذَين كان بإمكانهما ارتكابُ هذه الجريمة، ولكونهما الشخصيْنِ الوحيدَين النابهَين اللذَين كانا في المنزل أو يُعتقد ذلك، وقتَ وقوع الجريمة، أخبرتُ كلًّا منهما على حدةٍ أنه لم يُعثَر فحسب على قاتل السيد ليفنوورث، وإنما أوشك أن أقبض عليه في منزلي، وأنهما إن كانا يرغبان في سماع الاعتراف الذي من المؤكد أنه سيعقبه، فقد تكون لديهما الفرصة أن يفعلا ذلك إذا أتيا إلى هنا في تلك الساعة. أبدى الاثنان اهتمامًا بالغًا، رغم الاختلاف الشاسع في الأسباب، لدرجةٍ استعصى عليهما معها أن يُمانعا في الحضور؛ ونجحتُ في أن أحثَّهما على الاختباء في الغرفتَين اللتَين رأيتهما يخرجان منهما، مدركًا أنه إن كان أي منهما هو مَن ارتكب هذه الجريمة، فقد ارتكبها حبًّا في ماري ليفنوورث؛ ومن ثَمَّ لن يحتمل أن يسمعها تُتَّهم بهذه الجريمة، وتُهَدَّد بإلقاء القبض عليها، دون أن يكشف عن نفسِه. لم أُعلِّق أملًا كبيرًا على هذه التجرِبة؛ فضلًا عن أن أتوقَّع أن يثبت أن السيد هارويل هو الجاني؛ لكن من يعِشْ يتعلم، يا سيد ريموند، مَن يَعشْ يتعلم.»

الفصل الثامن والثلاثون

اعتراف كامل

إن فترة ما بين الشروع في عمل مرهوب، وبين أول دافعٍ نفساني إليه وباعث وجداني عليه، لأشبه شيء بالحلم المفزع المزعج؛ وإذ ذاك تظل القُوى الفكرية والجسمانية في مؤامرة ومشاورة، ويروح الإنسان، وكأنه دولة مصغرة تكابد من حالة تلك الثورة والفتنة.

مسرحية «يوليوس قيصر» [ترجمة محمد السباعي]

لست إنسانًا شريرًا؛ لست إلا إنسانًا عاطفيًّا. فالطموح، والحب، والغيرة، والكراهية، والانتقام ... والمشاعر العابرة تجاه شخصٍ ما، هي مشاعر لها أصداء استثنائية معي. هي، بطبيعة الحال، مشاعرُ ساكنة ودفينة، أفَاعٍ ملتفةٌ لا تتحرك حتى تُثيرها؛ لكن حين تثيرها، يصبح انقضاضها مهلكًا وتصرفها قاسيًا. مَن يعرفونني جيدًا لم يعرفوا ذلك عني. أمي نفسها كانت تجهل ذلك. سمعتُها مرارًا تقول: «ليت ترومان مرهف الإحساس! ليت ترومان لم يكن غيرَ مبالٍ بكل شيء! خلاصة القول، ليت ترومان كان يمتلك قوةً أكبر بداخله!»

كان الأمر مماثلًا في المدرسة. لم يفهمني أحد. ظنوا أني شخصٌ وديع؛ فكانوا يُنادونني بصاحب الوجه العجيني. وطيلة ثلاث سنوات ظلُّوا ينادونني بهذا الاسم، حتى انقلبتُ عليهم وهاجمتهم. توجهت إلى زعيمهم، وطرحتُه أرضًا، فأوقعتُه على ظهره، ودستُ عليه بقدمي. كان وسيمًا قبل أن تَهوِيَ قدمي عليه؛ وبعدها ... حسنًا، يكفي أنه لم يعد يناديني بصاحب الوجه العجيني. في المتجر الذي عملت به بعد ذلك بمدة قصيرة، لقيت حتى معاملة أقلَّ تقديرًا. ولأني كنت منتظمًا في عملي ودقيقًا في أدائي فيه، ظنوا أني

مجرد آلة عمل جيدة لا أكثر من ذلك. أي قلبٍ ونَفْس وشعور يمكن أن يمتلكه رجلٌ لم يسبق له مطلقًا أن مارس رياضة، أو دخَّن، أو ضحك؟ كان بإمكاني أن أحسب الأرقام بطريقة صحيحة، لكن قلما كنتُ بحاجة إلى أن أستحضر قلبي أو عقلي لأُنجز ذلك. بل كان بإمكاني أن أكتب يومًا وراء يوم وشهرًا وراء شهر دون أن أقع في خطأٍ واحد في كتابتي؛ لكن ذلك لم يكن إلا ليؤكد أني لم أكن أكثرَ مما أشاروا إليه، رجل آلي منضبط. تركتهم يظنون ذلك، واثقًا أنهم يومًا ما سيُغيرون رأيهم كما فعل الآخرون. والحقيقة كانت، أنني لم أُحبَّ أحدًا الحبَّ الكافيَ، ولا حتى نفسي، حتى أهتم برأي أي إنسان آخر. كانت حياتي خاوية تقريبًا؛ سهل مستوٍ مجدب كان لا بد من اجتيازه شئت أم أبيت. وكان يمكن لتلك النظرة أن تستمر إلى يومنا هذا لو لم ألتقِ بماري ليفنوورث أبدًا. لكن عندما تركت، منذ ما يقرب من تسعة أشهُر، وظيفتي في مكتب الحسابات لأشغل وظيفتي في مكتبة السيد ليفنوورث، سُلِّط على روحي مصباحٌ وهاجٌ كان بريقه لا يخفت أبدًا، ولن يخفت أبدًا، حتى ينقضيَ أجلي.

كانت في غاية الجمال! عندما تبعتُ، في تلك الليلة الأولى، صاحبَ عملي الجديد إلى غرفة الجلوس، ورأيت هذه المرأةَ تقف أمامي بجمالها المغوي والمفزع بالقدرِ نفسِه، عرَفتُ، في لحظة كومضة برقٍ، كيف سيكون مستقبلي إن بقيت في ذلك المنزل. كانت في حالةٍ من حالاتها المتعجرفة، فأسبغَت عليَّ نظرةً تزيد قليلًا عن كونها نظرةً عابرة. لكن كان للامبالاتها وقعٌ طفيف على نفسي حينها. كان يكفيني أنه كان مسموحًا لي أن أقفَ في حضرتها وأتطلَّع إلى حُسنها من دون تأنيب. من المؤكد أن الأمر كان يبدو وكأنك تُحملق في فوهة بركانٍ ثائر تحيط بها الزهور. الخوف والانبهار كانا يُلازمانني في كل لحظة بقيتُ فيها هناك؛ لكن الخوف والانبهار جعَلا تلك اللحظةَ تبدو كما كانت عليها، ولم يكن بيدي أن أنسحب إن أردتُ ذلك.

وبقي الوضع على هذا الحال دومًا. كنت أنظر إليها بمشاعرَ يمتزج فيها ألمٌ وسعادةٌ يفوقان الوصف. لكن مع كل ذلك لم أتوقف عن تفحصِها ساعةً بساعة ويومًا بيوم؛ ابتساماتها، حركتها، طريقتها وهي تُدير رأسها أو ترفع جفونها. كان لدي غرض من هذا. تمنَّيت لو أحيك جمالَها ببراعة وإحكام في ثنايا نفسي لدرجة تُعجِز أي شيء عن انتزاعها. وذلك لأنه تكشَّف لي حينها بوضوح كما هو الآن أنها، مع دلالها، لن تتدنَّى أبدًا إلى منزلتي. بل العكس، قد أرقد عند قدميها وأسمحُ لها بأن تطأَ بقدمها عليَّ؛ ولن تلتفت حتى لترى ما ذلك الذي وطئته. قد أُمضي أيامًا، وشهورًا، وسنينَ لأتعرف على تفاصيل

رغباتها؛ ولم تكن لتشكرني على العناء الذي كلَّفتُ به نفسي أو حتى لترفع رموشها حتى تنظر إليَّ وأنا أمرُّ. كنت لا شيء بالنسبة إليها، ولم يكن من الممكن أن أُمثل أيَّ شيء لها إلا إذا — وهذه الخاطرة تسللت إليَّ — استطعت بطريقةٍ ما أن أصبح سيدها.

في الوقت نفسِه، كنت أكتب ما يُمليه عليَّ السيد ليفنوورث وكان يُسعده أدائي. فكانت طريقتي المنظمة وفقًا لهواه تمامًا. أما فيما يتعلق بعضوة العائلة الأخرى، الآنسة إلينور ليفنوورث، فكانت تُعاملني بالمعاملة التي تتوقعها من شخص بطبيعتها المترفِّعة والمتعاطفة. فلم تكن معاملةً من دون كُلفة، لكنها فيها عطف؛ ليس كالأصدقاء، ولكن بصفتي فردًا من أفراد المنزل تُقابله يوميًّا على مائدة الطعام، وكشخص لم يكن سعيدًا أو متفائلًا بدرجة كبيرة، كما كان بإمكانها أن تلاحظ هي أو أيُّ فردٍ آخر.

مرَّت ستة أشهر. وكنت قد أدركتُ أمرين؛ أولهما: أن ماري ليفنوورث كانت مولعةً بمكانتها بصفتها وريثةً شرعية مستقبلية لثروة ضخمة أكثر من أي شيء آخرَ على وجه الأرض. وثانيهما: أنها كانت تُخفي سرًّا يُهدد تلك المكانة. لم يكن لديَّ أيُّ وسيلة لمعرفة ماهيته. لكن عندما أصبحتُ واثقًا بعد ذلك من أن له صلةً بعلاقة حبٍّ، ازددتُ تفاؤلًا، رغم غرابة ذلك. والسبب في ذلك أني كنتُ قد علمت في ذلك الوقت مزاج السيد ليفنوورث على نحوٍ تام تقريبًا مثلما علمت مزاجَ ابنة أخيه، وعرَفت أنه في مسألة من هذا النوع قد يتشبَّث السيد ليفنوورث برأيه؛ وأن على إثر التضارب بين هاتين الإرادتين قد يحدث شيءٌ يجعلني أسيطر عليها. كان الشيء الوحيد الذي أزعجني هو أني لم أكن أعرفُ اسمَ الرجل الذي كانت شغوفةً به. لكن سرعان ما أنعم عليَّ الحظ في هذه النقطة. في أحد الأيام، منذ شهرٍ من الآن، جلست لأفتح بريد السيد ليفنوورث كالمعتاد. وورَد في خطاب — هل لي أن أنساه؟ — ما يلي:

فندق هوفمان،

١ مارس ١٨٧٦.

إلى السيد هوراشيو ليفنوورث،

السيد المحترم، لديك ابنة أخٍ تحبها وتثق فيها، وتبدو أيضًا إنسانة جديرةً بكل مشاعر الحب والثقة التي يمكن أن تمنحها إياها أنت أو أي رجل آخر؛ فوجهها، وهيئتها، وأسلوبها، وحديثها آيةٌ في الجمال، والجاذبية، والرقة. لكن، يا سيدي العزيز، لكل وردةٍ شوكتها، وهذه الوردة ليست استثناء من هذه القاعدة. فمع ما هي عليه من جمال، وسحر، ورقة، هي قادرة ليس فقط على أن تطأ على من

أودع ثقته فيها، وإنما أيضًا أن تحطم قلب إنسانٍ تَدين له بكلِّ الولاء والشرف والاحترام وتكسر روحه.

إن كنتَ لا تُصدقني، فاسأل وجهها الجميل القاسي مَن هو خادمها وخادمُك المطيع.

هنري ريتشي كلافرينج

لو أنَّ قنبلةً كانت قد انفجرَت عند قدمَيَّ، أو أن الشيطان نفسَه ظهر ما إن استحضرتُه، لَمَا صُعقت أكثرَ مما كنت. لم يكن الاسمُ الموقَّع على تلك الكلمات المميزة مجهولًا لي فحسبُ، وإنما الرسالة نفسها كانت من شخصٍ شعر في نفسه أنه سيدها: وهي مكانة، كما تعرف، كنت أطمحُ أن أحتلَّها. ولدقائق معدودة، وقعتُ فريسةً لمشاعرِ غضب ويأس لا يوجد ما هو أشد مرارةً منها؛ ثم ازددتُ هدوءًا، لمَّا أدركت أن بحصولي على هذا الخطاب أصبحتُ حَكمًا فعليًّا على مصيرها. ربما سعى بعضُ الرجال إليها من حينٍ لآخر، وبتهديدها بأن أضعَ هذا الخطاب بين يدَي عمها، كان يمكن أن أفوز بنظرةِ توسلٍ منها، إن لم يكن أكثر من ذلك؛ لكنني ... حسنًا، أخذَت خُططي منحنًى أعمقَ من ذلك. كنت أعرف أنها كانت لا بد أن تصل إلى حافة الهاوية قبل أن يكون بوسعي أن آمُل أن أفوز بها. لا بد أن تشعر بأنها تنزلق من شَفا جُرفٍ قبل أن تتشبث بأول شيءٍ يُقدم لها يدَ العون. فقررتُ أن أدعَ الخطاب يمرُّ بين يدَي ربِّ عملي. لكنه كان قد فُتِح! كيف يُمكنني أن أعطيَه له في هذه الحالة دون أن أُثير شكوكه؟ لم أعرف سوى طريقةٍ واحدة؛ أن أدعَه يراني أفتحه حتى يظن أنه يُفتح للمرة الأولى. ولهذا، انتظرت حتى دخل الغرفة، واقتربت منه بالخطاب، وقطعت طرَف الظرف وأنا أتَّجه إليه. بعدما فتحته، ألقيت نظرة خاطفة على محتوياته ووضعته على المنضدة أمامه.

قلتُ: «يبدو أنه ذو طابَع خاص؛ مع أنه لا توجد أي علامة على ذلك على الظرف.»

التقطَه وأنا واقفٌ هناك. انتفض عند الكلمة الأولى، ونظر إليَّ، وبدا راضيًا من تعبير وجهي الذي كان يدل على أنني لم أستزد في قراءة الخطاب حتى يتبينَ لي طبيعة محتواه، ثم، استدار على مهلٍ في مقعده، وقرأ بنهمٍ باقيَ الخطاب ملتزمًا الصمت. انتظرتُ برهةً، ثم انسحبت إلى مكتبي. مرَّت دقيقة واحدة ثم دقيقتان في صمت؛ كان واضحًا أنه يُعيد قراءة الخطاب؛ ثم نهض بتعجُّل وغادر الغرفة. بينما كان يمرُّ أمامي لمحتُ وجهه في المرآة. لم يكن التعبير الذي رأيته هناك ينحو إلى تقليل الأمل الذي كان يزداد في صدري.

عندما تتبعتُه على الفور تقريبًا إلى الأعلى تأكدتُ من أنه اتجه مباشرةً إلى غرفة ماري، وعندما اجتمعَت الأسرة كلها بعد بِضع ساعات حول مائدة الطعام، أدركت، تقريبًا دون أن أكادَ أرفعُ بصري، أنَّ حاجزًا منيعًا مهيبًا قد أُقيم بينه وبين ابنة أخيه المفضلة.

مر يومان؛ يومان شعرت بأنهما كانا طويلَين ولا يخلوانِ من قلقٍ مرهِق. هل رد السيد ليفنوورث على ذلك الخطاب؟ هل سينتهي كلُّ شيءٍ كما بدأ، دون ظهور السيد كلافرينج الغامض في المشهد؟ لم يكن بإمكاني أن أُخمِّن.

في تلك الأثناء استمرَّ عملي الروتيني، ساحقًا قلبي تحت تروسه القاسية. كنتُ أكتب، وأكتب، وأكتب، حتى بات الأمر وكأنَّ دمي ينزف مع كل قطرة حبرٍ أستخدمها. كنت يقظًا طوالَ الوقت ومرهفَ السمع، لكني لم أجرُؤ على أن أرفعَ رأسي أو ألتفتَ بعيني لأي صوتٍ غير مألوف؛ خشيةَ أن أبدو مراقبًا للأحداث. في الليلة الثالثة رأيتُ حُلمًا؛ رويتُه بالفعل للسيد ريموند؛ ولذلك لن أُكرِّره ثانيةً هنا. ومع ذلك، ثَمة تصحيحٌ أرغب في إضافته في هذا الشأن. في إفادتي إليه أوضحت أن وجه الرجل الذي رأيتُه تمتدُّ يده إلى السيد ليفنوورث كان وجهَ السيد كلافرينج. وقد كذبت لمَّا قلت ذلك. فالوجه الذي رأيته في الحلم كان وجهي. كانت تلك الحقيقة هي ما أفزعني. رأيت نفسي في الجسد الرابض الذي كان يتسلَّل بحذرٍ لأسفل وكأني أنظر إلى مِرآة. بخلاف هذه النقطة كانت روايتي صحيحة.

كان وقعُ هذه الرؤيا عظيمًا على نفسي. أكان ذلك هاجسًا؟ أكان ذلك إنذارًا بالسبيل الذي عليَّ أن أتخذَه حتى أفوز بهذه الإنسانة التي اشتهيتُها لنفسي؟ أكان موتُ عمها هو الجسر الذي قد يربط بين الهوَّة التي تفصلُ بيننا؟ بدأتُ أظن أنه ربما يكون كذلك؛ وبدأت أُفكر في الاحتمالات التي سيُفضي إليها هذا السبيلُ الوحيد إلى النعيم؛ بل تجاوز الأمرُ ذلك حتى تخيَّلت وجهَها البهيَّ وهو يميلُ في امتنانٍ ناحيتي على أثرِ إنقاذها فجأةً من المأزق الذي كانَت فيه. شيءٌ واحد كان مؤكدًا؛ وهو إن كان ذلك هو السبيلَ الذي لا بد أن أسلكه، كان لا بد أن أعرف على أقلِّ تقديرٍ كيف أخطو فيه؛ وطوال ذلك اليوم المرهِق والمشوش الذي أعقبه، رأيت، بينما كنت جالسًا لأنجز عملي، خيالاتٍ متكررةً لذلك الوجه المتسلِّل، والعاقد العزم، يتسلَّل نزولًا على درجات السلم ويدخل شاهرًا مسدسه في وجود ربِّ عملي. بل إنني وجدتُ نفسي عشرات المرات أُدير عينيَّ ناحيةَ الباب الذي كان سيدخل منه، متسائلًا كم سأنتظر من الوقت قبل أن يتوقَّف جسدي عند ذلك المكان. ولم أتصوَّر أن تلك اللحظة باتَت مُتاحة. حتى عندما تركته تلك الليلةَ بعد أن شربت معه كأس

الشيري الذي أشرتُ إليه في الاستجواب، لم يكن لديَّ أيُّ فكرةٍ عن أن ساعة التنفيذ كانت قريبةً إلى هذا الحد. لكن، عندما سمعت، بعد أقلَّ من ثلاث دقائق من صعودي إلى الطابق العلوي، صوتَ ثوب سيدةٍ يُصدِر صوتًا عبر الردهة، أنصَتُّ، وسمعتُ ماري ليفنوورث تمر ببابي في طريقها إلى المكتبة، أدركتُ أن الساعة المحتومة قد حانت؛ وأن شيئًا سيُقال أو سيحدث في تلك الغرفة قد يجعل هذه الفعلة ضرورية. ماذا فعلتُ؟ قررتُ أن أتحقَّق من الأمر. بحثت في عقلي عن حيلةٍ لأفعل هذا، وتذكرت أن مجرى التهوية يمتدُّ بطول المنزل بحيث تبدأ فتحته أولًا في الممر الواصل بين غرفة نوم السيد ليفنوورث والمكتبة، ثم ثانيًا، في الخِزانة في الغرفة الإضافية الكبيرة الملاصقة لغرفتي. أسرعتُ بفتح الباب الموصل بين الغرفتَين، وأخذت موضعي في الخزانة. وفي الحال سمعت الأصوات تصل إلى أذنيَّ؛ كل شيء كان مسموعًا في الأسفل، وبوقوفي هناك، كنت مُصغيًا لما كان يدور بين ماري وعمِّها وكأني أقف في المكتبة نفسِها. ماذا سمعت؟ سمعت ما يكفي ليؤكِّد لي صحة شكوكي، وأنها كانت لحظةً ذات أهميةٍ فاصلةٍ لها؛ وأن السيد ليفنوورث، عملًا بتهديدٍ أنذرَ به منذ مدةٍ بما لا يدعُ مجالًا للشك، كان مُقبلًا على أخذ خطواتٍ لتغيير وصيته، وأنها قد جاءَتْ إليه لتطلب منه أن يُسامحها على ذنبها وتستعيدَ استحسانه. لكن لم أعرف أي ذنبٍ هذا. لم يُذكر السيد كلافرينج بصفته زوجَها. لم أسمع سوى إقرارها بأن ما فعلَتْه كان نتيجةَ نزوة، أكثر من كونه بدافع الحب؛ وأنها ندمت على ما فعلته، ولا ترغب في شيءٍ غير أن تتحررَ من جميع القيود التي تربطها بشخصٍ سيُسعدها أن تنساه، وأن تعود إلى عمها كما كانت قبل أن ترى هذا الرجل. حسبتُ، بحماقتي، أن ما كانت تشير إليه كان مجردَ ارتباط، وتعلقت من تلك الكلمات بأملٍ بالغِ الحمق؛ وعندما سمعت، بعد لحظةٍ، ردَّ عمها، بنبرته الصارمة إلى أقصى حدٍّ، أنها قد خسرَت حقَّها في أن تنال احترامه واستحسانه دون رجعة، لم أحتجْ إلى صرختها القصيرة والمتعضة لتُعلن بها عن شعورها بالخزيِ وخيبة الأمل، أو أنينها الخافت لتستنجدَ بأحد، كان يكفيني أن صوت ناقوس موته قد دقَّ في قلبي. زحفتُ عائدًا إلى غرفتي، وانتظرت حتى سمعتها تصعد مرةً أخرى، ثم تسلَّلتُ خارجًا. هادئًا كما لم أكن من قبلُ في حياتي، نزلت السلَّم تمامًا مثلما كنت قد رأيتُ نفسي أفعل في الحلم، وطرَقتُ بنقرةٍ خفيفةٍ على باب المكتبة، ثم دخلت. كان السيد ليفنوورث جالسًا في المكان الذي اعتادَ أن يكتب فيه.

قلتُ بينما كان يرفع بصره لأعلى: «معذرةً، أضَعتُ مفكرتي، وأظن أن من الممكن أنها وقعَت مني في الممر عندما ذهبت لأُحضر النبيذ.» أومأ برأسه، وأسرعتُ مارًّا به إلى

الخِزانة. بمجرد أن وصلتُ إلى هناك، مضيت سريعًا إلى الغرفة في آخر الممر، وأحضرت المسدس، ورجعت، وقبل أن أُدرك تقريبًا ما كنتُ أفعله، كنت قد اتخذت موضعي وراءه، وصوَّبت المسدس، وأطلقتُ النار. كانت النتيجة ما تعرفها. من دون أنينٍ، سقط رأسُه إلى الأمام على يدَيه، وكانت ماري ليفنوورث هي المالكَ الفعليَّ لآلاف الدولارات التي اشتهَتْها نفسُها.

أول خاطرةٍ بدرَت في ذهني هي أن أُحضر الخطاب الذي كان يكتبه. فدنَوتُ من المنضدة، وسحبت الخطاب أسفل يدَيه، ونظرتُ فيه، فرأيت أنه، كما توقَّعت، كان استدعاءً لمحاميه، فدسَستُه في جيبي، مع خطاب السيد كلافرينج، الذي رأيته ملطخًا بالدم على المنضدة أمامي. لم أُفكِّر في نفسي، ولا تذكرتُ الصَّدى، الذي لا بد أن الدوي القصير الحاد قد أحدثَه في المنزل، إلا بعد أن أتممت هذا. أسقطت المسدس بجانب القتيل، ووقفتُ متأهبًا لأصرخ في وجه أي أحدٍ يدخل بأن السيد ليفنوورث قد قتل نفسَه. لكني نجوتُ من تنفيذ مثلِ هذا الفعل الأحمق. لم يُسمع دويُّ إطلاق النار، أو إن كان مسموعًا، فمن الواضح أنه لم ينجح في لفتِ انتباه أحدٍ. لم يأتِ أحد، وتُركتُ لأتأملَ فعلتي دون إزعاج من أحد وأُقرر أفضلَ إجراء يمكن اتخاذُه للحيلولة دون اكتشاف أمري. لحظةٌ من تفحُّص الجُرح الذي أحدثَته الرصاصة في رأسه أقنعَتْني بأنه من المستحيل أن تمرَّ الواقعة على أنها حادثة انتحار، أو أن مَن ارتكبها لصٌّ. سيتبيَّن بوضوحٍ لأي شخصٍ ضليع في تلك الأمور أن ما حدث هو حادثُ قتل، بل ومتعمَّد. كان أملي الوحيد، حينها، يكمن في أن أجعله حادثًا غامضًا بقدرِ ما كان متعمَّدًا، وذلك بإفساد جميعِ الأدلة على الدافع مِن هذه الجريمة وطريقة وقوعها. أمسكت بالمسدس، وحمَلتُه إلى الغرفة الأخرى بدافع تنظيفه، لكن إذ لم أجد شيئًا هناك لأُنظفه به، رجعتُ لأبحث عن المنديل الذي رأيته مُلقًى على الأرض عند قدمَي السيد ليفنوورث. كان منديلَ الآنسة إلينور، لكني لم أعرف إلا بعدَ أن استخدمتُه لتنظيف ماسورة المسدس؛ عندئذٍ صُدمت من رؤية الأحرف الأولى من اسمها على أحد أطراف المنديل، لدرجة أنني نسيتُ أن أنظِّف الأسطوانة، وكان شاغلي الوحيدُ حينها هو كيفيةَ التخلص من هذا الدليل المتمثِّل في منديلها بعد استخدامه في غرضٍ مثير للرِّيبة. لم أجرؤ على الخروج به من الغرفة، فبحثت عن وسيلةٍ للتخلص منه؛ لكني لم أجد شيئًا، فتوصلتُ إلى حلٍّ وسطٍ بدسِّه عميقًا وراء وسادة أحد المقاعد، على أملِ أن أتمكن من استعادته وحرقه في اليوم التالي. بعد أن أتممتُ هذا، أعدتُ حشو المسدس، وأغلقتُ عليه، وتهيَّأت لمغادرة الغرفة. لكن عندئذٍ أصابني الفزعُ الذي عادةً ما يعقب جريمةً

كهذه، نزل عليَّ كالصاعقة وجعلني لأول مرة غيرَ متيقِّن من تصرفي. أوصدتُ الباب عند خروجي، وهو شيء لم يكن ينبغي مطلقًا أن أفعلَه. لم أُدرك حماقتي إلا عندما وصلتُ إلى أعلى السلم؛ وكان هذا متأخرًا للغاية؛ إذ هناك أمامي كانت تقف هانا، إحدى الخدم، تنظر نحوي، ممسكةً بشمعة في يدها، والدهشة مرتسمةٌ على ملامح وجهها بالكامل.

صاحت، لكن من الغريب القولُ إنها صاحت بصوتٍ خافت: «يا إلهي، سيدي، أين كنت؟ تبدو وكأنك رأيتَ شبحًا.» فالتفتَت عينُها في رِيبةٍ إلى المفتاح الذي كنتُ أحمله في يدي.

شعرتُ كأنَّ شخصًا قد أطبقَ بيديه حول حلقي. دسستُ المفتاح في جيبي، وخطوتُ خطوةً ناحيتها. هَمَستُ: «سأُخبرِكِ بما رأيته إذا نزلتِ معي لأسفل؛ ستنزعج السيدتان إن تحدَّثنا هنا»، أرخيتُ حاجبيَّ قدر المستطاع، ومدَدتُ يدي وجذبتُها ناحيتي. لم أعرف ما غرضي من ذلك؛ ربما كان التصرفُ عفويًّا؛ لكن لمَّا رأيت النظرة التي ظهرَت على وجهها عندما لمستُها، والحماس الذي استعدَّت به أن تتبعَني، تشجَّعتُ، متذكرًا الإشارةَ أو الإشارتَين السابقتَين على القابلية غير المنطقية لدى هذه الفتاة لتأثيري عليها؛ وهي قابليةٌ شعرتُ حينها أنه يمكن استغلالها وتسخيرها لتحقيق غرضي.

أخذتُها لأسفل إلى طابَقِ غرفة الجلوس، وسحَبتُها إلى أعماق غرفة الاستقبال المهيبة، وهناك أخبرتها بأقل طريقةٍ مقلقةٍ ممكنةٍ ما حدث مع السيد ليفنوورث. كانت بالطبع مضطربةً بشدة، لكنها لم تصرخ ... كان واضحًا أن حداثة موقفها كانت تذهلها ... ثم، هدأَتْ كثيرًا، فواصلتُ حديثي بأنني لا أعرف مَن ارتكب هذه الفعلة، لكن قد يُقرُّ الناس بأني أنا مَن فعلتها إذا علموا بأنكِ قد رأيتِني على السلَّم ومفتاح المكتبة في يدي. قالت بهمسٍ، وهي ترتجفُ بشدة في فزعٍ ولهفةٍ: «لكني لن أخبر أحدًا. سأحتفظُ بذلك لنفسي. سأقول إنني لم أرَ أي أحد.» لكني سرعان ما أقنعتُها بأنه لن يكون بوُسعها مطلقًا أن تُبقي الأمرَ سرًّا بمجرد أن تبدأ الشرطة في استجوابها، ومستتبعًا حجتي بقليلٍ من المداهَنة، نجحتُ بعد مدةٍ طويلة أن أظفرَ بموافقتها على الانصراف من المنزل حتى تهدأَ العاصفة. لكن بعد أن حصلتُ على مُوافَقتها، استغرق الأمرُ وقتًا قليلًا قبل أن أتمكنَ من إفهامها أنها لا بد أن تُغادر في الحال من دون أن تعود من أجل متعلَّقاتها. ولم تبدأ في إدراك الموقف، وتُظهِرْ أيَّ أمارةٍ على الفِطنة الطبيعية الحقيقية التي كان من الواضح أنها تمتلكُها، إلا بعد أن حسَّنْتُ مِزاجها بوعدٍ بالزواج منها يومًا ما؛ فقط إذا أطاعتْني الآن. قالت: «ستستقبلني السيدة بيلدن إن تمكنتُ من الذَّهاب إلى بلدة «ر...»؛ فهي تستقبل

أيَّ شخصٍ يطلب ذلك؛ وقد تُبقيني، أيضًا، إذا أخبرتُها أن الآنسة ماري أرسلتني. لكني لا أستطيع الذَّهاب إلى هناك الليلة.»

في الحال شرَعتُ في محاولة إقناعها أنَّ بإمكانها ذلك. فقطارُ منتصف الليل لم يكن سيُغادر المدينةَ إلا بعد نصف الساعة، والمسافة إلى محطة القطار يمكن بسهولة أن تقطعَها سيرًا على الأقدام في خمسَ عشْرةَ دقيقة. لكن لم يكن معها نقود! فأعطيتها بكلِّ أريحية. وكانت خائفةً من ألَّا تتمكَّن من معرفة الطريق إلى هناك! فبدأت أوضحُ لها الاتجاهات بأدق التفاصيل. كانت لا تزال متردِّدة، لكنها أخيرًا وافقَت على أن تُغادر، وبفهمٍ أعمقَ للطريقة التي كان عليَّ أن أستخدمَها في التعامل معها، مضَينا إلى الطابق السفلي. وهناك وجدنا قبَّعةَ الطاهية ووشاحها فألبستُها إياهما، وبعد لحظةٍ كُنا في ساحة انتظار العرَبات. همَستُ لها وأنا أوصيها وصيةَ الرحيل وهي تنصرفُ لتتركني: «تذكري، لا تقولي شيئًا عما حدث، مهما حدث.» فتمتمَت ردًّا على ذلك، وهي تُعانق رقبتي بذِراعَيها: «تذكر، ستأتي وتتزوجُني يومًا ما.» كانت الحركة مفاجئة، وكانت تلك على الأرجح هي اللحظةَ التي أوقعَت فيها الشمعة التي كانت تتشبَّث بها لا شعوريًّا حتى تلك اللحظة. وعدتُها، ثم تسللَت خارجةً من البوابة.

من هول الفزع الذي أعقب اختفاءَ هذه الفتاة لا يمكنني أن أُعطيَ صورة أفضل من قولي إنني لم أرتكب خطأً إضافيًّا بإيصادِ باب المنزل لدى دخولي مرة أخرى فحسبُ، بل سهوت عن التخلص من المفتاح الذي كان في جيبي بإلقائه في الشارع أو بإسقاطه في الممرِّ بين الغرف أثناء صعودي لأعلى. الحقيقة أنني كنت مستغرقًا في التفكير في الخطر الذي واجهتُه بسبب هذه الفتاة، ونسيتُ كل ما عداه. لم يُفارق مخيلتي طوالَ الوقت وجهُ هانا الشاحب، ونظرةُ هانا الفزعة، وهي تستدير من جانبي وتفرُّ مسرعةً إلى الشارع. لم أستطع الإفلات منهما؛ كانت هيئة الجثمان الراقدِ في الأسفل أقلَّ وضوحًا. كان الأمر وكأنني كنت مقيدًا في خيالاتي بهذه المرأة الصاحبةِ الوجه الأبيض التي تفر مسرعةً في الشوارع في منتصف الليل. وكان أشبهَ بكابوس ينتابُني أنها ستُخفق في شيء ... ستعود أو سيُحضرونها إلى هنا ... أنني سأجدها تقف شاحبةً ومذعورةً على الدرجات الأمامية عند نزولي في الصباح. بدأتُ في التفكير في أنه لا توجد نتيجة أخرى ممكنة؛ وأنها أبدًا لن تصل أو تتمكن من الوصول إلى ذلك البيت الصغير في قريةٍ بعيدة دون عقَبات؛ وأنني لم أفعل شيئًا سوى أنني أرسلتُ إلى العالم رايةَ خطر يمكن اقتفاؤها مع هذه الفتاة البائسة ... خطر سيعود إليَّ مع أول انفلاجٍ لنور الصباح!

ولكن حتى تلك الأفكار تلاشَت بعد مدةٍ قبل أن أدرك الخطرَ الذي كنت فيه ما دام المفتاحُ والخطابان في حوزتي. كيف لي أن أتخلصَ منها؟! لم أجرؤ على أن أغادر غرفتي مرة أخرى، أو أن أفتحَ نافذتي. فربما يراني أحدٌ أو يتذكَّر ذلك. كنت أشعر بالخوف حقًّا من الحركة في غرفتي. فربما يسمعني السيد ليفنوورث. نعم، رهبتي المميتة كانت قد وصلَت إلى ذلك الحد ... كنتُ خائفًا من شخصٍ كنت قد أغلقتُ أذنَيه إلى الأبد، فتخيَّلتُه راقدًا في فراشه في الأسفل وواعيًا لأقل صوت.

لكنَّ ضرورة فعلِ شيء في تلك الأدلة على الجُرم تغلبَت أخيرًا على هذا القلق المميت، وأخرجتُ الخطابَين من جيبي — لم أكن قد خلعت ملابسي بعد — واخترتُ أخطرَهما، الذي كتبه السيد ليفنوورث نفسُه، ثم، مضَغتُه حتى صار مجردَ عجينة، وألقيتُه في أحد أركان الغرفة، لكن الخطاب الآخر كان ملطَّخًا بالدماء، فلا شيء، ولا حتى الرجاء في النجاة، كان يمكن أن يستحثَّني على أن أضعه بين شفتَي. كنت مضطرًّا إلى أن أستلقيَ وأنا قابضٌ عليه في يدي، وصورة هانا أثناء الهرب أمام عينَي، إلى أن تنفَّس الصباح رويدًا. كنت قد سمعتُ أنه يُقال إن سنةً في الجنة بيومٍ مما نعدُّ؛ يمكنني أن أُصدق هذا بسهولة. أعرف أنَّ ساعةً في الجحيم تبدو حياةً أبديةً لا نهاية لها!

لكن مع ضوء النهار جاء الأمل. ليس بوُسعي أن أُقرر إن كان ذلك لأن ضوء الشمس الذي كان يلمع على الحائط هو ما جعلَني أُفكر في ماري وفي كل ما كنتُ مستعدًّا أن أفعله من أجلها، أو لمجرد استعادة وقاري الفِطري في ظل وجود حاجةٍ ماسة إليه. كل ما أعرفه هو أنني نهَضتُ هادئًا ومتحكِّمًا في نفسي. أيضًا كانت مشكلةُ الخطاب والمفتاح قد حُلَّت من تلقاء نفسها. هل أُخفيهما؟ لن أُحاول أن أفعلَ ذلك! بدلًا من ذلك سأضعُهما في مكانٍ ظاهرٍ للعيان، متكلًا في ذلك على حقيقة أنهما لن يُلاحَظا. بعدما حوَّلتُ الخطاب إلى شرائح طولية، حملتُها إلى غرفة مَبيت الضيوف ووضعتها في مزهرية. ثم، آخِذًا المِفتاحَ في يدي، نزلتُ إلى الطابق السفلي، عاقدًا العزمَ على إدخاله في قفل باب المكتبة عند مروري بها. لكن نزول الآنسة إلينور في اللحظة نفسِها تقريبًا ورائي جعلَ هذا مستحيلًا. مع ذلك، نجحتُ في أن أُلقيه، دون علمها، بين الزخارف المفرَّغة لموصِّل الغاز في الردهة الثانية؛ ومن ثَم شعرت براحةٍ، ونزلت إلى غرفة الإفطار كرجلٍ متزنٍ يجتاز عتَبة الغرفة كالمعتاد. كانت ماري هناك، تبدو شاحبةً ومنكسرةً للغاية، وعندما التقت عيني بعينها، التي من

العجيب أنها التفتَت لي بينما كنت أدخل الغرفة، كِدتُ أن أضحك، مفكرًا في طوق النجاة الذي مُنِحَت إياه، وفي الوقت الذي سأعلن فيه عن نفسي بصفتي الرجلَ الذي أنجز ذلك.

أما عن حالة الاستنفار التي أعقبَت ذلك سريعًا، وتصرفي في ذلك الوقت وبعدَه، فلا أحتاج إلى التكلم بتفصيلٍ عنها. تصرفتُ تمامًا كما كنت سأتصرفُ لو لم يكن لي يدٌ في جريمة القتل. حتى إنني امتنعتُ عن أن ألمس المفتاح أو أن أذهبَ إلى غرفة مَبيت الضيوف، أو أتحرك أيَّ حركةٍ لم أكن راغبًا في أن يراها كلُّ العالم. لأنه كما كان الوضع، لم يكن يوجد أيُّ أثرٍ على دليلٍ يؤخَذ ضدي في المنزل؛ ولا حتى كنتُ أنا، بصفتي سكرتيرًا مخلصًا لعمله وغيرَ متذمِّر، لم يكن شغَفُه بإحدى ابنتَي أخوَي صاحب العمل مشكوكًا في أمره من السيدة نفسها، شخصًا يُرتاب في ارتكابه الجريمة مما يجعله في موقفٍ مُرضٍ. لذلك، أدَّيت كل الواجبات التي يُمليها عليَّ موقعي، فاستدعيتُ الشرطة، وذهبتُ إلى السيد فيلي، تمامًا كما كنتُ سأفعل لو كانت تلك الساعات الفاصلة بين تَركي للسيد ليفنوورث في المرة الأولى ونزولي لتناول الإفطار في الصباح قد مُحيَت من وعيي.

وكان هذا هو الأساس الذي اعتمدتُ عليه في تصرفي أثناءَ التحقيق. مستبعِدًا نصفَ الساعةِ تلك وما وقع فيها من أحداث، عزَمتُ على الإجابة عن تلك الأسئلة الموجَّهة لي بصدق ما استطعتُ ذلك؛ فالخطأ الفادح الذي يقع فيه الرجالُ في مثل موقفي هو أنهم يُبالغون في الكذبِ عادةً؛ ومن ثَم يُلزِمون أنفسهم بأمورٍ غيرِ جوهرية. لكن للأسف، في تخطيطي للنجاة بنفسي، أغفلتُ شيئًا واحدًا، وهو الموقف الخطير الذي يفترض أني وضعتُ ماري ليفنوورث فيه بصفتها المنتفعةَ من وقوع الجريمة. ولم أُدرك المنفذَ الذي كنتُ قد فتحته للشكِّ فيها بإقراري أنني كنت قد سمعتُ صوتَ خشخشةٍ على السلم بعد دقائقَ معدودةٍ من صعودي، إلا بعد أن خَلَص أحدُ أعضاء هيئة المحلَّفين إلى استنتاجه، مستندًا إلى كمية النبيذ التي عُثر عليها في كأس السيد ليفنوورث في الصباح، مستدلًّا بذلك على أنه قد تُوفِّي بعد مدةٍ قصيرة من تركي له. لم يكن اقتناعُ جميع الحاضرين بأنَّ مرتكبة الجريمة هي إلينور أمرًا أثلجَ صدري. فلم يكن لها أيُّ صلةٍ نهائيًّا بالجريمة ولم أستطع أن أتخيَّل لحظةً أنه يمكن أن يَرْقى إليها الشك. لكن ماري ... لو أنَّ سِتارًا نزل أمامي، عليه مشاهدُ المستقبل كما تجلَّت منذئذٍ، ما كنتُ أرى بوضوحٍ أكبرَ الحالَ الذي سيكون عليه موقفُها، إذا وُجِّه الانتباه ناحيتها. ولهذا، في محاولة فاشلة للتغطية على خطئي الفادح، بدأتُ أكذب. مضطرًّا إلى الاعتراف أنه كان ثَمة خلافٌ اتضح مؤخرًا بين السيد ليفنوورث وإحدى ابنتَي أخوَيه، ألقيتُ عِبئه على كاهل إلينور؛ لأنها أفضلُ من

بمقدورها تحمُّلُه. كانت العواقب أخطرَ مما توقعت. صار الاتجاه يسير ناحيةَ الاشتباه وبدا أن كلَّ دليلٍ إضافي كان يظهر حينها كان يُوطِّد هذا الاشتباهَ على نحوٍ كارثيٍّ غريب. فلم تقتصر المسألةُ على ثبوت أن مسدس السيد ليفنوورث الشخصيَّ كان قد استُخدم في الاغتيال، وإنما أيضًا بواسطة شخصٍ كان حينئذٍ في المنزل، لكني دُفِعت إلى الإقرار بأن إلينور كانت قد تعلمَت مني، قبل ذلك بوقتٍ قصير، كيف تحشو هذا المسدسَ تحديدًا، وتُصوبه، وتُطلق النارَ منه … وهي مصادَفة مؤذية بما يكفي لأن ترقى إلى أن تكونَ من تدبير الشيطان نفسِه.

بعدما رأيتُ كل هذا، تعاظمَ كثيرًا خوفي من أن تعترف السيدتان عند استجوابهما. بفرضِ إقرارهما ببراءةٍ أنه، عند صعودي، كانت ماري قد ذهبَت إلى غرفة عمِّها بغرض أن تُقنعه ألَّا يُنفِّذ الإجراءَ الذي عقدَ العزمَ عليه، والعواقب التي قد تتبعه! كنتُ في حالةٍ من الذعر. لكن الأحداث التي لم أكن في ذلك الوقت على علمٍ بها كانت قد أثَّرت عليهما. فإلينور، ببعض المنطق الظاهر، كما يبدو، لم تشتبهْ في ارتكاب ابنةِ عمها للجريمة فحسب، بل كانت قد اتهمتها صراحة، وإذ طغى الخوفُ على ماري عندما اكتشفَت أنه كان يوجد دليلٌ ظرفي بشكلٍ أو بآخرَ يدعم هذا الاشتباهَ، قرَّرَت أن تُنكر أي شيء يُقال ضدها، واثقةً في كرم أخلاق إلينور في ألا تُعارضها. ولم تكن ثقتُها في غير محلِّها. رغم ذلك، وبالطريق الذي لجأت إليه، اضطُرَّت إلينور أن تُعمِّق الإحساسَ بالتحامل الذي كان بالفعل سائدًا ضدها؛ إذ لم تمتنع عن أن تُناقض شهادةَ ابنة عمها فحسب، وإنما عندما كان الإدلاء بإجابةٍ صادقة قد يَضيرها، كانت في الواقع تمتنعُ عن الإجابة عن أيٍّ من تلك الأسئلة، كون الكذب شيئًا يستحيلُ عليها أن تنطق به، حتى ولو لإنقاذ شخص عزيزٍ عليها.

كان لَمَسْلكها هذا تأثيرٌ واحد على نفسي. لقد أثار إعجابي ومنحَني شعورًا بأنَّ ثمة امرأةً تستحقُّ أن أُساعدها إذا أمكنَ تقديمُ المساعدة من دون أن أُعرِّض نفسي للخطر. ومع ذلك أشكُّ أن تعاطفي كان سيدفعني إلى فعل أيِّ شيء، لو لم أُدرك، بسبب التركيز على بعض الأمور المعروفة، أنه كان ثمة خطرٌ حقيقي يحوم حولنا جميعًا ما دام الخطابُ والمفتاح في المنزل. حتى قبل إخراج المنديل، كان عقلي قد استقرَّ على أن أُحاول التخلصَ منه؛ لكن عندما عُثر على المنديل وقُدِّم، أصابني قلقٌ شديد، فنهضتُ في الحال، وسلكت طريقي إلى الطابق العلوي بحُجةٍ أو بأخرى، وأخرجتُ المفتاح من موصِّل الغاز، وشرائح الورق من المزهرية، وأسرعتُ بها عبر الردهة إلى غرفةِ ماري ليفنوورث، ودخلت متوقعًا

أن أجد نارًا هناك أتخلصُ فيها مما معي. لكن، لخيبةِ أملي الشديدة لم يكن يوجد سوى بعضِ الرماد الذي كان يحترقُ في بطءٍ داخل موقد المدفأة، وبعد أن أُحبِطَت خُطتي، وقفتُ مترددًا بشأن ما ينبغي فعله، عندما سمعت شخصًا قادمًا إلى أعلى. مدركًا عواقبَ العثور عليَّ في تلك الغرفة وفي ذلك التوقيت، ألقيتُ شرائح الورق في شبكة المدفأة، واتجهت ناحيةَ الباب. لكن أثناء حركتي المسرِعة، سقط المفتاح من يدي وانزلق أسفلَ أحد الكراسي. مذعورًا من سوء حظِّي، توقفت، لكن صوت الخطوات القادمة بات في ازدياد، ففقدتُ كل سيطرةٍ على نفسي وفررتُ هاربًا من الغرفة. لم يكن لديَّ أيُّ وقتٍ حقًّا لأُضيعه. كنتُ بالكاد قد وصلتُ إلى باب غرفتي عندما ظهرَت إلينور ليفنوورث، تتبعُها خادمتان، عند مقدمة السلم ثم اتجهوا ناحية الغرفة التي كنت قد غادرتُها توًّا. بثَّ هذا المشهدُ الطمأنينةَ في نفسي؛ فستُلاحظ هي المفتاح، وتتصرَّف لتتخلصَ منه؛ وبالفعل كنتُ أفترض طَوال الوقت أنها قد فعلَت ذلك؛ لأنه لم يبلغ مسامعي أيُّ كلمة أخرى عن المفتاح أو الخطاب. ربما يُفسر هذا السببَ في أن موضع الشكِّ الذي سرعان ما وجدَت إلينور نفسَها فيه لم يُثِر في نفسي قلقًا أكبر. ظننت أن شكوك الشرطة لم تستند إلى أي شيء أوضحَ من غرابة أسلوبها أثناء الاستجواب واكتشافِ مِنديلها في مسرح الجريمة. لم أكن أعرف أنه كان لديهم ما يُمكن أن يُطْلَق عليه دليلٌ حاسم على صِلتها بالجريمة. لكن لو كنت عرَفت، فأشكُّ أن مساري كان سيختلف. كان الخطر الذي قد يحوم بماري هو الشيءَ الوحيد الذي لديه القدرةُ على التأثير فيَّ، ولم يبدُ أنها في خطر. بل على النقيض، بدا أن الجميع، بإجماعٍ عام، تجاهَلوا جميع القرائن التي تُثبت الجُرم عليها. لو أن السيد جرايس، الذي سرعان ما أصبحتُ أخشاه، كان قد أعطى علامةً واحدةً على الاشتباه فيها، أو السيد ريموند، الذي سرعان ما عدَدتُه أكثرَ أعدائي إصرارًا رغم كونه عديمَ الشعور، قد أظهر أدنى شكٍّ فيها، كنتُ أخذت حذري. لكنهما لم يفعَلا، وأعطيا بأسلوبهما إحساسًا كاذبًا بالأمان، وتركتُ الأيام تمرُّ دون أن أُقاسي أيَّ مخاوف بشأنها. ولكن ليس مِن دون أن أُعانيَ من الكثير من القلق على نفسي. فوُجود هانا حرَمني شخصيًّا من أي إحساسٍ بالأمان. ولَمَّا علمتُ إصرارَ الشرطة على العثور عليها، كنتُ باستمرار على شَفا قلقٍ مرعب.

في الوقت نفسِه، كانت ثَمة حقيقةٌ مؤسفة تفرض نفسَها عليَّ بأني قد فقدتُ زِمام ماري ليفنوورث، بدلًا من أن أفوزَ به. فهي لم تكتفِ بإظهار أقصى درجات الذعر من الفعلة التي جعلَتها المتحكِّمةَ في ثروة عمها، لكن، بسبب تأثير السيد ريموند، حسبما اعتقدتُ، ما لبثَت أن قدمَت دليلًا على أنها كانت تفقد، بدرجةٍ ما، السِّماتِ المميزةَ لعقلها

وقلبها التي كانت قد جعلَتني متعلقًا بأملِ الفوز بها بارتكابي لجريمة القتل هذه. هذه المفاجأة غيرُ المتوقعة كادت تدفعني دفعًا إلى الجنون. تحت الضغط المرهِق الذي فُرض عليَّ، سِرتُ في جولتي المنهِكة للبدَن في حالةٍ ذهنية تقتربُ من الجنون. توقفتُ أثناء عملي مرارًا وتَكرارًا، فكنتُ أُجفِّف قلمي وأضعُه وفي داخلي هاجسٌ أني لا أستطيع أن أكبحَ جِماح نفسي لحظةً أخرى، لكني كنتُ دائمًا أُمسك بقلمي مرةً أخرى وأُعاود العمل على مهمَّتي. أظهر السيد ريموند تعجُّبَه أحيانًا من جلوسي على كرسيِّ ربِّ عملي المتوفَّى. يا إلهي! كان ذلك هو طوقَ النجاة الوحيدَ لي. بإبقاء حادثِ القتل ماثلًا في ذهني دومًا، كان بإمكاني أن أمنعَ نفسي من أي فعلٍ طائش.

أخيرًا حان الوقتُ الذي لم يَعُد ممكنًا لآلامي فيه أن تُكبَت أكثرَ من ذلك. نزلتُ ذات ليلةٍ لأسفل مع السيد ريموند، ورأيتُ رجلًا غريبًا يقف في غرفة الاستقبال، ناظرًا إلى ماري ليفنوورث بطريقةٍ كانت ستجعل الدمَ يغلي في عروقي، حتى لو لم أكن قد سمعتُه يهمس بهذه الكلمات: «لكنَّكِ زوجتي، وأنتِ تعلمين ذلك، مهما تقولين أو تفعلين!»

كانت هذه هي أكبرَ صاعقةٍ في حياتي. بعد ما فعلتُه حتى أجعلَها لي، كان أن أسمع رجلًا آخرَ يدَّعي أنها بالفعل له، أمرًا صاعقًا، ومثيرًا للغضب! أجبرَني هذا على أن يظهر عليَّ تغيُّر مفاجئ. كان عليَّ إما أن أصرخ في فورةِ غضبي وإما أن أُسدد ضربةً قاضية لذلك الرجل في الأسفل تنفيسًا عن كراهيتي له. لم أجرُؤ على الصراخ؛ ومِن ثَمَّ سدَّدتُ ضربةً له. طلبتُ أن أعرف اسمه من السيد ريموند، ولمَّا نبأني بأنه كان، كما توقعت، كلافرينج، ضربتُ بالحيطة، والعقل، والمنطق عُرضَ الحائط، وفي لحظةِ غضبٍ، أدَنتُه بأنه قاتل السيد ليفنوورث.

في اللحظة التالية كنتُ مستعدًّا لفعل أي شيءٍ كي أسحب كلماتي. فلم أكن قد فعلتُ شيئًا غيرَ أني جذبتُ الانتباه إلى نفسي باتهامي لرجلٍ لا يمكن إثباتُ أيِّ شيءٍ عليه بكل تأكيد! لكن كان مستحيلًا أن أتذكر ذلك حينها. لهذا، بعد أن قضيتُ ليلةً في التفكير، اتخذتُ أفضل خطوةٍ ممكنةٍ بعد ما حدث: أعطيتُ سببًا خرافيًّا ليُبرِّر تصرُّفي، وبهذا استعدتُ وضعي السابقَ من دونِ أن أمحوَ من عقل السيد ريموند ذلك الشكَّ المبهَم في الرجل الذي كانَت تتوقَّفُ عليه سلامتي الشخصية. لكن لم أحمل أيَّ نية في أن أخطوَ خطواتٍ أخرى، ولا كنت لأفعلَ ذلك لو لم ألاحظْ أن السيد ريموند لسببٍ ما كان مستعدًّا للشكِّ في السيد كلافرينج. لكن حالما لاحظتُ ذلك، تملَّكتني الرغبة في الانتقام، وسألتُ

نفسي إن كان عبءُ هذه الجريمة يمكن أن يُلقى على كاهل هذا الرجل. ما زلتُ لا أُصدِّق أن أيَّ نتائج مؤثرة كانت ستأتي بعد سؤالي لنفسي لو لم أسمع بطريقةٍ غيرِ مباشرةٍ حوارًا هامسًا بين اثنين من الخدم، عرَفت منه أن السيد كلافرينج قد شُوهد دخوله المنزل في ليلة وقوع القتل، ولكنه لم يُلحَظ انصرافه من المنزل. هذا جعَلني مُصرًّا. باستخدام هذه الحقيقة كنقطة بداية، ما الذي لا أطمحُ في الوصول إليه؟ كانت هانا وحدها هي مَن تقف في طريقي. وما دامت باقيةً على قيد الحياة فلا أرى أيَّ شيءٍ أمامي سِوى الهلاك. فقرَّرت أن أتخلصَ منها وأُشبع كراهيتي للسيد كلافرينج بضربةٍ واحدة. ولكن كيف؟ بأي وسيلةٍ يُمكنني أن أصلَ إليها من دون أن أترك عملي، أو أن أتخلصَ منها من دون إثارة شكوكٍ جديدة؟ كانت المشكلة تبدو كأنها بلا حلٍّ؛ لكن ترومان هارويل لم يلعب دورَ الآلة طويلًا جدًّا دون نتيجة. قبل أن يمرَّ يومٌ كاملٌ على دراستي للمسألة، التمعَت فكرةٌ في ذهني، ورأيتُ أن السبيل الوحيد لتنفيذ مخططاتي أن أستدرجها لتُزهِق روحها بنفسها.

ما إن نضجَت الفكرة في عقلي حتى سارعت بتنفيذها. مدركًا الخطرَ الجسيم الذي كنت بصدده، اتخذتُ كلَّ احتياطٍ ممكن. أغلقتُ الغرفة على نفسي، وكتبتُ خطابًا بحروفٍ متفرقةٍ — فقد أخبرَتْني صراحةً أنها لا تستطيع القراءةَ والكتابة — اعتمدتُ فيه على جهلها، وولَعِها الأخرق، ومعتقَداتها الأيرلندية في الخرافات، بإخبارِها أنني كنتُ أحلم بها كلَّ ليلةٍ وتعجبتُ أنها لم تحلم بي؛ ولخشيتي من أنها لم تحلم بي، أرفقتُ لها تميمةً صغيرة، إذا استخدمَتْها حسبَ التعليمات، فستمنحها القدرةَ على رؤية أحلامٍ لم ترَ أجملَ منها. وكانت تلك التعليمات هي أولًا: أن تتخلَّص من خطابي بإحراقه، وثانيًا أن تأخذ في يدها الطردَ الذي حرَصتُ على إرفاقه، وثالثًا: أن تبتلعَ المسحوق الذي بداخله، ثم تذهبَ إلى السرير. كان المسحوق جرعةً مميتةً من سمٍّ وكان الطرد، كما تعرف، اعترافًا مزوَّرًا يُدين زورًا هنري كلافرينج. وضعتُ كل هذه الأشياء في ظرفٍ ميَّزت أحدَ أطرافه بعلامة صليب، ثم كتبتُ أن المرسَل إليه، حسب الاتفاق، هو السيدة بيلدن، وأرسلتُه.

أعقبَ ذلك أعظمُ مدةِ قلق تحمَّلتُها حتى الآن. مع أنني كنتُ قد امتنعتُ قصدًا عن أن أضعَ اسمي على الخطاب، شعرتُ بأن احتمالاتِ اكتشاف أمر الخطاب كانت كبيرةً للغاية. إذا خالفَت أقلَّ تفصيلة وانحرفَت عن المسار الذي كنتُ قد رسمتُه لها، فلا بد أن يستتبع ذلك نتائجُ مدمِّرة. إذا فتحت الطرد المرفق، أو شكَّت في المسحوق، أو عهدَت إلى السيدة بيلدن بسرِّها، أو حتى فشلت في إحراقِ خطابي، فسيذهب كلُّ شيء سُدًى. لم

يكن بإمكاني أن أكون متيقنًا منها أو أعرفَ نتيجة مخطَّطي إلا من خلالِ الصحف. هل تظن أنني ظللتُ أُراقب الوجوهَ حولي؟ أو أقرأ الأخبارَ التلغرافية بنهَم، أو أنتفض ذُعرًا عندما يدقُّ الجرس؟ وعندما قرأت، بعد بضعةِ أيام، تلك الفِقرةَ القصيرة في الصحيفة التي طمأنتْني إلى أن جهودي كانت قد تسبَّبت على الأقلِّ في موت المرأة التي كنتُ أخشاها، فهل تعتقد أني كنتُ أنعمُ بأي إحساسٍ بالراحة؟

لكن ما داعي الحديث عن ذلك؟ في غضون ستِّ ساعات كان قد جاء الاستدعاءُ من السيد جرايس و... سأدعُ جدران هذا السجن، وهذا الاعتراف نفسَه، يروي البقية. لم أعُد أقوى على الكلام أو الفعل.

الفصل التاسع والثلاثون

عاقبة جريمة مروعة

دع لله عقابَها، وللأَشْوَاكِ التي تنمو في صدرها، يألُوهَا وَخْزًا، وإيلامًا.

مسرحية «هملت» [ترجمة خليل مطران]

لأنها حصيفةٌ متبصرة، على ما أستخلص؛ ولأنها جميلة، على ما أرى؛ ولأنها مخلصة، على ما تبيَّنت؛ فبالنظر إلى كونها عاقلةً حسناءَ طاهرة، قد أقررت منزلتها في قلبي مدى العمر.

مسرحية «تاجر البندقية» [ترجمة خليل مطران]

صِحتُ، بينما كنتُ أتَّجه إليها: «إلينور! هل أنتِ مستعدَّة لسماع أخبارٍ سارَّةٍ جدًّا؟ أخبار ستُضفي بهجةً على تلك الوجنتَين الشاحبتَين وستُعيد إلى تلك العينَين بريقَهما، وستجعل حياتكِ مُفعَمةً بالبهجة والأمل مرةً أخرى؟ أخبريني»، ألححتُ، وأنا أميل نحوها حيث كانت تجلس؛ إذ كانت على وشك أن تفقدَ وعيها.

قالت بتلعثُم: «لا أعرف، أخشى أن يختلفَ تصوُّرك عن الخبر السارِّ عن تصوُّري له. لا يوجد خبرٌ سار إلا ...»

سألتُ، آخذًا يدَيها بين يدَي بابتسامةٍ لا بد أنها قد بعثَت في نفسها طُمأنينةً؛ إذ كانت ابتسامةً تعكس سعادةً غامرة: «ماذا؟ أخبريني؛ لا تخافي.»

لكنها كانت خائفةً بالفعل. فحِملها المريع كان قد أثقلَها طويلًا حتى أصبح جزءًا من كِيانها. كيف لها أن تُدرك أن الأمر بُني على خطأ، وأنه لم يَعُد ثَمة سببٌ يدعوها إلى أن تخشى الماضيَ، أو الحاضر، أو المستقبل؟

لكن لَمَّا عرَفت بالحقيقة؛ ولَمَّا أوضحت لها، بكل ما أوتيتُ من الحماس والكِياسة، أن شُكوكها لم يكن لها أيُّ أساسٍ من الصحة، وأن ترومان هارويل، وليس ماري، كان هو المسئولَ عن أدلة الجريمة التي كانت قد دفعَتها إلى أن تنسب إلى ابنة عمِّها جُرمَ مقتلِ عمها، كانت كلماتها الأولى توسلًا أن تؤخَذ إلى مَن كانت قد ظلمتها كثيرًا. «خُذني إليها! يا إلهي! خذني إليها! لا يمكنني أن ألتقطَ أنفاسي أو أُفكر حتى أجثوَ على ركبتي وأسألَها أن تعفوَ عني. يا إلهي، كم كان اتهامي ظالمًا! كان اتهامي ظالمًا!»

وإذ رأيتُ الحالة التي كانت عليها، ارتأيتُ أن من الحكمة أن أُجاريَها. ولهذا، أحضرتُ عربةً، وتوجهت معها إلى منزل ابنة عمها.

صاحت، بينما كنَّا نمضي في الطريق: «ماري لن تتقبَّلني؛ لن تنظر إليَّ حتى؛ وستكون مُحقةً في ذلك! إهانة مثل هذه لا يمكن أن تُغتفر أبدًا. لكن الرب يعلم أنني ظننتُ أني مُحقة في شكوكي. لو كنتَ تعرف …»

قاطعتُها: «أعرف ذلك قطعًا. لكن ماري تُقر بأن الأدلة الظرفية ضدها كانت دامغةً جدًّا، كانت هي نفسها مذهولة، تتساءل إن كان يمكن أن تكون بريئةً مع تلك الأدلة ضدَّها. لكن …»

«انتظر، يا إلهي، انتظر؛ هل قالت ماري ذلك؟»

«أجل.»

«اليوم؟»

«أجل.»

«لا بد أن ماري تغيَّرت.»

لم أُجِبْ؛ أردتُها أن ترى بنفسها مدى ذلك التغيير. لكن عندما توقفَت العربة، بعد بِضع دقائق، وأسرعتُ معها إلى داخل المنزل الذي كان شاهدًا على الكثير من البؤس، كنت مهيَّأً بصعوبةٍ لأرى الاختلافَ في ملامح وجهها الذي كشفَته إضاءةُ الردهة. كانت عيناها لامعتَين، ووجنتاها متألقتين، وحاجباها مرفوعين وقد زال عنهما الحزن؛ وسرعان ما ذاب جليدُ اليأس في إشراق شمس الأمل.

كان توماس، الذي كان قد فتح البابَ، سعيدًا سعادةً غامرة لرؤية سيدتِه مجددًا. قال: «الآنسة ليفنوورث في غرفة الجلوس.»

أومأتُ برأسي، ثم ملاحظًا أن إلينور لم تستطع أن تتحركَ خطوةً بسبب الاضطراب، سألتُها عما إذا كان بوُسعها أن تدخل على الفور، أو تنتظر حتى تُصبح أكثر هدوءًا وتماسكًا.

«سأدخل على الفور؛ لا أطيق الانتظار.» ثم انسلَّت من قبضة يدي، واجتازت الممرَّ ووضعت يدها على ستارة غرفة الجلوس، وعندئذٍ أُزيحت فجأةً من الداخل وخرجت ماري.

«ماري!»

«إلينور!»

كان رنين صوتَيهما يحكي كل شيء. ولم أحتج إلى أن أُلقيَ نظرةً عليهما حتى أعرف أن إلينور كانت جاثيةً عند قدم ابنةِ عمها، وأن ابنة عمها قد رفعَتها في شيءٍ من الفزع. لم أحتج إلى أن أسمع: «إن الذنب الذي اقترفتُه بحقكِ كان عظيمًا جدًّا، لا يمكنكِ أن تسامحيني!» تبعه بصوتٍ خفيض: «إن إحساسي بالخزي كفيلٌ أن يحملني على أن أغفرَ أي شيء!» حتى أعرف أن ظلال الفُرقة الأبديَّة بينهما قد تَبَدَّدت كغيمةٍ، وأن المستقبل كان يحمل لهما أيامًا مشرقةً مفعَمة بالمودة والثقة المتبادَلة.

ومع ذلك عندما سمعت، بعد نصف الساعة أو أكثر، بابَ غرفة الاستقبال، التي كنتُ قد انزويتُ فيها، يُفتَح بنعومة، ورافعًا ناظِرَيَّ لأعلى، رأيتُ ماري واقفةً عند عتبة الباب، ونورُ تواضعٍ صادق يشع على وجهها، أعترف أنني فوجئتُ من اللين الذي طرأ على جمالها المتغطرِس. فغمغمتُ في داخلي: «نِعم الخزيُ الذي يُزكِّي النفس»، ومتوجهًا إليها، بسَطتُ يدي باحترامٍ وتعاطف لم أحسب مطلقًا أني سأشعر بهما ناحيتها مرةً أخرى.

بدا أن هذا التصرف قد أثَّر فيها. فتورد وجهُها بشدة، وأقبلَت ووقفت بجانبي. وقالت: «أشكرك. أشعر بامتنانٍ شديد؛ لم أُدرك أبدًا مدى هذا الامتنانِ حتى الليلة؛ ولكن أعجزُ عن التعبير عنه الآن. ما أرغب فيه هو أن تدخل وتُساعدني في إقناع إلينور أن تقبل هذه الثروةَ مني. فهي لها، كما تعرف؛ أُوصِيَت بأن تكون لها، أو كانت ستُصبح لها لو ...»

قلتُ، في خوفٍ أثاره هذا الطلبُ مني بشأن تلك المسألة: «انتظري. هل تدبَّرتِ هذا الأمر جيدًا؟ هل غرضكِ المحدد أن تنقلي ثروتكِ إلى ابنة عمكِ؟»

كانت نظرتها كافيةً من دون أن تهمس بالسؤال الذي قالته بعدها: «أه، كيف تسألني بعد كل هذا؟»

كان السيد كلافرينج جالسًا بجانب إلينور عندما دخلنا غرفةَ الجلوس. وقف في الحال، وانتحى بي جانبًا، وقال بجِدٍّ:

«قبل أن تنقضيَ روح الاحترام التي تسود بيننا في تلك الساعة، اسمح لي، يا سيد ريموند، أن أقدم إليك اعتذاري. بين يدَيك وثيقةٌ لم يكن من المفترض أن تُفرض عليك أبدًا. كان تصرُّفي، المبني على خطأ، تصرفًا مهينًا أندم عليه أشد الندم. إن كان بإمكانك أن تُسامحَني، مراعاةً منك للعذاب النفسيِّ الذي كنتُ أقاسيه في ذلك الوقت، فسأشعر أنني مَدينٌ لك إلى الأبد؛ وإن لم ...»

«سيد كلافرينج، حَسبُك هذا. إن ما جرى في ذلك اليوم هو أمرٌ يعود إلى الماضي الذي، لسببٍ ما، قرَّرتُ أن أنساه في أسرع وقتٍ ممكن. المستقبل يُبشر بخيرٍ كثيرٍ لنا فلا حاجة إلى أن نُطيل الحديث عما سلف من أيام الشقاء.»

وبنظرة تعكس فهمًا وصداقةً متبادلَين أسرعنا لننضمَّ إلى السيدتين.

أما عن الحديث الذي دار بعد ذلك، فلا داعيَ إلا أن أذكر نتيجته. إذ ظلَّت إلينور متشبثةً برفضها للثروة الموصومة بجُرمٍ، اتُّفِق في النهاية على أن تُكَرَّس لإنشاء ودعم مؤسسةٍ خيرية ذات حجمٍ يكفي لتعودَ بنفعٍ ملموسٍ على المدينة وفُقرائها البائسين. وبعد أن استقرَّا على ذلك، اتجه تفكيرنا إلى أصدقائنا، لا سيما إلى السيد فيلي.

قالت ماري: «يجب أن يعرف. لقد حزن علينا كأبٍ لنا.» وبإحساسها بالندم، كانت ستتولَّى هذه المهمة غيرَ السعيدة المتمثلةَ في إخباره بالحقيقة.

لكن إلينور، بكرمها المعتاد، لم تُصْغ لذلك. وقالت: «لا، يا ماري، لقد عانيتِ بما يكفي. أنا والسيد ريموند سنذهب إليه.»

وتركناهما هناك، وعلى وجهيهما ضوءٌ يعكس أملًا وثقةً متزايدَين، وخرجنا مرةً أخرى إلى الليل، وكذلك إلى حُلمٍ لم أُفِق منه أبدًا، مع أن بريق عينَيها العزيزتين كان منارةَ حياتي شهورًا كثيرةً سعيدة ومبهجة.


هنداوي